

المساجد

مؤنس ، حسين
المساجد / حسين مؤنس . - ط 1 . -
القاهرة : دار الرشاد للنشر والتوزيع ، 2018
496 ص ؛ 17 × 24 سم .
تدمك : 3-157-364-977-978
1 - المساجد
أ - العنوان

215

الناشر : دار الرشاد
العنوان : 14 ش جواد حسنى - عابدين - القاهرة
تليفاكس : 01282919332 / 02 - 23934605
الايمل : Dar_alrashad@hotmail.com
المكتبة : اول عبدالله العربى - الحى السابع - مدينة نصر - القاهرة
الهاتف : 23789075
رقم الايداع : 2018 / 13154
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الاولى : 1440 هـ - 2019 م
الغلاف للفنان : عباده الزهيرى
مراجعة وفهارس : محمد دياب

الدكتور/حسين مؤنس

المساجد



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مدخل

المساجد والتطور المعماري والفكري في الدين



كان أول ما أنشأه رسول الله ﷺ هو مسجد قباء أو هو المسجد الذى أُسسَ على التقوى من أول يوم (التوبة / الآية ١٠٨) وهو فى قباء ، فلما انتقل الرسول ﷺ إلى وسط المدينة ونزل فى بيت أبى أيوب الأنصارى كان أول ما فكر فيه وأنشأه هو المسجد النبوى فى المدينة ، ولم يكن مسجد المدينة قطعة فنية ، ولكنه كان قطعة إسلامية ، فإن الإسلام دين الشعب ، دين الإنسان البسيط الذى يريد أن يخلو بنفسه إلى الله فى صلاته وحياته .

ولهذا فإن رسول الله ﷺ لم يجعل المسجد منشأة مثل الكنيسة فيها غرف للقساوسة وسجلات لحياة الناس ، لأن الإسلام لا يعرف رجال الدين ، لأنهم يسعون إلى السلطة ويقبضون عليها ، ويسودون العقيدة فى كل دين يقومون فيه ، وهم الذين يصلُّون بالناس ، ويقومون بعمليات تسجيل المواليد وبلوغ الناس سنَّ الإيمان الذى يحددونه بأربع سنوات أو خمس ، فيسجلون الإنسان فى الدين ويشرفون بعد ذلك على كل حياة الإنسان ، فهم الذين يزوّجون ويسجّلون أولاده ويطلقونه إذا احتاج لذلك ، أما الإسلام فليس فيه رجال دين ولكن فيه علماء بالدين .

ومن هنا فإن كل مسلم لابد أن يُعدَّ عالماً بالدين ، لأن علمه مهما كان قليلاً فهو علم . وكان مسجد الرسول منشأة فخمة هى فى الواقع سور طول ضلعيه ٢٠ متراً و ٣٠ متراً ولم يكن مُسقفاً منه إلا بلاطتان فى الشمال ، فى هاتين البلاطتين كانت تقوم القبلة التى يقف فيها الإمام ويصلى بالناس وبلاطة أخرى جنوب بلاطة القبلة والمنبر يصلى فيها بعض الناس . وكانت فى جنوب المسجد بلاطتان عند المدخل الجنوبي وكان يسكنهما أهل الصفة ، وهم ناس رصدوا أنفسهم لحماية الرسول ﷺ ولم يكن أهل الصفة فقراء ولا شحاذين وإنما كانوا ناساً مؤمنين أحبوا الرسول ﷺ فوهبوا حياتهم له ، وعاشوا فى الصفة إلى جوار غرف الرسول ﷺ ليكونوا حرسه ، وكان ناس كثيرون يرسلون طعاماً للرسول ، والرسول ﷺ كان قليل الطعام ؛ فكان يحتفظ من هذا الطعام بما يكفيه هو وأهله ويعطى الباقي لأهل الصفة .

أما بقية المسجد فكانت مكشوفة في الهواء ، يصلى الناس فيها في الهواء والشمس ، وكانت إلى يمينهم ويسارهم بلاطتان تمتدان من الشمال إلى الجنوب ، وتطلان على قلب المسجد بعقود مستديرة الرؤوس أى : أن قلب المسجد كله كان محاطاً بالعقود ، فكان منظره لذلك جميلاً جداً ، وأكثر ما يشبه مسجد الرسول ﷺ الأول في المدينة مسجد أحمد بن طولون في القاهرة ، فيما عدا الميضأة في قلب مسجد أحمد بن طولون وهي ليست جزءاً منه ، ولم تكن موجودة في أيام أحمد بن طولون .

وقد عني الخلفاء بمسجد الرسول ﷺ ففى كل مرة جددوا مسجد مكة ، أو أضافوا إليه شيئاً جديداً؛ اهتموا بمسجد الرسول ﷺ ، فوسّعوه ، وكبروه ، وزينوه ، وفى يومنا هذا يقوم خادم الحرمين الملك فهد بن عبد العزيز عاهل المملكة العربية السعودية بتوسيع مسجد الرسول ﷺ ، ويجمّله ، وقد زرته وأعجبت بالجمال الفنى فيه وستصير مساحته نصف مساحة المدينة المنورة .

ولم تكن فى المسجد أول الأمر إلا القبلة ، وهذه الهيئة البسيطة لمسجد الرسول ومسجد الكعبة كانت أساس التطور الواسع الذى سارت فيه المساجد ، ففى كل مسجد دخل الفن المحلى ونشأت مساجد جميلة محلية فهناك مساجد عربية فى الجزيرة ودول الخليج واليمن ومساجد حبشية ومساجد مصرية ومساجد مغربية ومساجد أندلسية ، ومساجد آسيوية فهناك مساجد هندية وأخرى باكستانية وبنجلاديشية ومساجد وسط آسيا التى كانت قد احتلتها روسيا وأرادت القضاء عليها ، ولكن الشيوعية زالت وبقي الإسلام ، وهذه هى مساجد وسط آسيا تتجدد الآن وتزداد جمالاً ، وهناك مساجد اتحاد ماليزيا وجمهورية إندونيسيا وغيرها كثير ، وهنا نجد أن المساجد هى قلب الجمال الفنى فى كل بلد من هذه البلاد ، لأن المساجد ببساطتها أصبحت ميدان التطور الفنى فى كل بلد فإن القبلة قطعة فنية تأخذ طابع الجمال الفنى فى كل بلد ؛ ولو أننا عملنا «أطلس» لأشكال المساجد لحصلنا على كتاب عظيم فى الفن الإسلامى ، بل العالمى .

وهذا هو الذى اجتهدت فى عرضه فى هذا الكتاب عن المساجد وقد بينت أنها أصل تطور الفن الإسلامى ، وهى أيضاً أصل تطور الثقافة الإسلامية لأن المساجد فى كل بلد هى مركز التعليم والثقافة ، وفى كل مسجد هيئة من العلماء ، ومن هنا أصبح المسجد الإسلامى أساساً من أسس التطور الفنى والثقافى فى معظم بلاد العالم بما فى

ذلك أوروبا وأمريكا .. وفى يومنا هذا توجد مساجد فرنسية ومساجد انجليزية ومساجد أمريكية ومساجد ألمانية ، وسبحان الله فإن المساجد ولدت فى غاية البساطة فكانت هذه البساطة هى أساس التطور ، لأن الإسلام فى صميمه دين تطور ونهوض ، والحمد لله سبحانه أن خلقنا على دينه العظيم ، وهو الإسلام .

- أبريل ١٩٩٢م .

د . حسين مؤنس



مقدمة

رحلة فى عالم الإيمان والجمال



هذا الكتاب يحقق أمنية قامت فى خاطرى من سنوات طويلة ، فقد كانت صور المساجد تستوقف انتباهى منذ أيام الصبا الباكرة ، ونما فى نفسى مع مرور السنين حب المساجد والالتفات إلى أشكالها ، فكنت أتحرى أن أصلى الجمعة فى المساجد الأثرية الجميلة ، وكنت أقصد هذه المساجد فى غير أوقات الصلوات ، أى : فى أوقات خلائها من الناس ؛ حتى أتأملها فى صمت وسكون ، وأستجلى محاسنها دون أن يعكر صفوى أحد ، ومعظم مساجد القاهرة الأثرية زرتها فى الفجر ، وترىث بعد الصلاة حتى ينصرف الناس ويفيض النور ، هنا تبدأ زيارتى للمسجد فتأمل عقودة وسقفه ومحرابه ومنبره ، وأملأ نفسى من جماله وصفائه ، وأصور ما شئت من جوانبه وتفصيله .

وقد لاحظت أثناء هذه الزيارات أن الناس من حولى قليلاً ما يلتفتون إلى جمال المساجد ، أو تستوقفهم إشارة من شارات الحسن فى بنائها ، بل هم لا يحسون بجلالها أو قدسيها ، فهم لا يلمون بالمسجد إلا ريثما « يخطفون » الركعات خطفاً - كأنه « نقر الديك » كما يقول الفقهاء - ثم يهرولون خارجين ، فإذا أطل بعضهم القعود فى المسجد قبل الصلاة - قليلاً - فللاستماع لقارئ مشهور ، وهم لا يستمعون فى صمت وهدوء ، ولا هم يسكنون حتى تنساب أى القرآن فى نفوسهم انسياً هادئاً وثيداً فتملأ القلب نوراً والنفس أمناً والرأس علماً ، بل هم - بدلاً من ذلك - يصيحون بعد كل آية ، ويشوبون الصمت بأصواتهم فى كل وقفة فيفسدون بذلك جلال السماع ، وهم غافلون عن أن سماع القرآن فى بيت الله مشهد جليل يقتضى من المؤمن سكوناً وخشوعاً وصلاة بالروح دون الجوارح ، كما يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى .

وقد رددت هذا إلى فقر التربية الروحية والفنية والعاطفية عند أولئك الناس ، فهم لا يرون جمال الجامع لأن عيونهم عاجزة عن رؤية الجمال ؛ وهم لا يخشعون فى المساجد لأن قلوبهم جافية لم يصقلها تهذيب حتى تحس بحلاوة الإيمان ؛ وإنما هم يلمون بالمساجد ليؤدوا فرضاً واجباً كأنهم يؤدون ديناً ثقيلاً يحمدون الله على الفراغ منه ، ولو أن أحداً أيقظ قلوبهم من غفلتها وأفهمهم أن الصلاة ليست ديناً يقضى على أية

صورة وإنما هى وقفة مناجاة وصفاء ، يفتح المخلوق فيها قلبه للخالق ويسبح له بوجدانه قبل أن ينطق بالتسبيح لسانه ، وأن المسجد ليس مجرد موضع يؤدى فيه الدين كأنه شباك مَصْرَف ، بل هو بيت الله سبحانه ومجمع المؤمنين ورمز الإيمان .

لو أن أحداً فتح عيونهم على هذه الحقائق لرأوا جمال المساجد وأحسوا قدسية القرآن ، ولعلموا أننا نزور المسجد للنجوى والهدوء والتأمل والتوبة ، وكلها ضروب من الجمال النفسى يناسبها الجمال المعمارى ، وما أجمل الاعتكاف فى مسجد بديع الصنعة جميل التقاسيم صاغ الإيمان عُمْدَه وعُقُوده وسقفه ومحرابه ومنبره ، فالإحساس بلامح الجمال فيه تسبيح وتكبير ، والله سبحانه - جَلَّ وَعَلَا - جميل يحب الجمال .

وذكرت - إلى جانب ذلك - عناية أهل الغرب بكنائسهم ، وما أسبغوا عليها من آلاء الجمال والفن وما أنفقوا فى ذلك من مال وصنعة ؛ وفى تاريخ الفن فى الغرب رجال قضوا أيامهم معلّقين فى سقوف الكنائس يرسمون لوحات هى من روائع الفن ، أو يغطون فراغ جدار بمشهد من مشاهد الكتاب المقدس ، ومهما كان رأينا فى ذلك ، فالذى يعيننا منه هنا هو الإيمان الذى دفع إليه ، والحب الذى جعل أولئك الناس يتفانون فى عملهم ، ولقد أحاط برافائيل تلاميذه بعد أن رسم لوحة « الصعود » على جدار كنيسة وقالوا : الآن اشرح لنا كيف صنعت ذلك حتى نفهمه ، فكان رده : يا أولادى ؛ أنا ما صنعته ولا أدرى كيف تم ، وإنما صنعه قلبى فاسألوه .

هذا الإيمان الصانع الخلاق ، وذلك الإحساس الدينى العميق ، وذلك الحب لله والإحساس بجمال صنعه ؛ هذه كلها عناصر التربية الفنية والعاطفية التى درج عليها أولئك الناس ، فالكنيسة عندهم بيت الصلاة وبيت الفن أيضاً ، وهى لهذا نظيفة أنيقة ما تزورها مرة إلا وجدتها مشرقة رائقة كأنها بُنيت بالأس .

من هنا أحسست أن الواجب نحو الإسلام وأهله يفرض على أن أسهم - ولو بجهد متواضع - فى التربية الفنية والعاطفية لأبناء أمة الإسلام ، وذلك الجهد المتواضع هو هذا الكتاب .

إنه محاولة لتعريف الناس بالجانب الجمالى من مساجدنا ، وما أكثر ما فيها من دُرِّ الفن وآيات الجمال .

إنه محاولة تكشف للناس حقيقة معروفة لغيرنا من أبناء الأمم ، وهى أن العواطف النبيلة والإحساس الجمالى تُعلِّم للناس كما تُعلِّم لهم القراءة والكتابة ، فكما أن الأُمى لا يستطيع أن يقرأ سطرًا إذا نظر إليه ، فكذلك الإنسان الذى لم يظفر بتربية عاطفية أو جمالية ينظر إلى الشيء الجميل فلا يرى جماله ، ويعيش فى هذا الكون الحافل بمتع العين والأذن والقلب دون أن يرى فيه جمالاً أو يتنبه إلى حُسْن فيه ، فهو كسائر فى روض جميل لا يكاد يرى فيه زهرة .

والمسألة هنا لا تقتصر على تنمية الإحساس الجمالى عند الناس بل هى تمتد إلى بقية نواحي تكوينهم النفسى والإنسانى ، لأن الإحساس بالجمال ترتبط به مجموعة من الخلال الفاضلة ، مثل النظافة وسمو النفس والترفع عن الدنايا وعلو الهمة ، ومن المعروف أن الخلال النبيلة تتربط فيما بينها كما تتربط الخلال الوضيعة ، فالرجل الكريم نجده - فى العادة - شجاعاً عفيف القلب حسَّاساً بالجمال عزيز النفس عالى الهمة ، وبالعكس من ذلك نجد الرجل البخيل ضئيلاً بماله صغيراً فى تصرفه جباناً عند اللقاء .

والشعوب التى اشتهرت بالحسَّ الجمالى هى الشعوب الكبيرة التى صنعت تاريخ البشر ، واذكر - إذا شئت - أجدادنا أهل الأجيال الأولى من العرب ، وكيف كانت تتجمع فى أفرادهم الخصال الحميدة ، من إيمان وشجاعة وكرم وعزة نفس وإحساس بالجمال ، كأن واحدة منها لا تصح بغير الأخرى ..

ويتجلى ذلك الإحساس الجمالى عندهم بميلهم إلى الشعر الجميل وحبهم للجميل منه ، وشيوع الحب العذرى بينهم ، فلما فتحوا البلاد اتجهوا إلى إنشاء المساجد والعمائر الجميلة ، لأن القلوب الباسلة قلوب نبيلة ، والقلوب النبيلة لا يصدر عنها إلا ما هو جميل .

وهذا هو ما حفزنى إلى الاجتهاد فى تأليف هذا الكتاب ، فهو فى ظاهره كتاب عن المساجد وعمارتها ، ولكنه فى حقيقته كتاب تربية نفسية وخلقية وعاطفية ، أردت من ورائه أن ألفتَ النظر إلى مشهد شائع عندنا من مشاهد الجمال وهو المسجد ، فالمساجد فى مواقع البصر فى كل مكان فى عالمنا العربى ، وكل مسجد - أياً كان مستواه من الفخامة - صورة جمالية ، والكثير منها يعتبر من آيات الفن ؛ وبدلاً من أن أشق على

الناس بنصحهم بزيارة المتاحف والتماس أعمال الفن ، رأيت أن تكون المساجد هي سبيل إلى هذه التربية .

وغاية ما أصبو إليه من هذه الصفحات هو أن أعود العين الانتباه إلى الشيء الجميل لأن العين إذا تنبّهت إلى ما تقع عليه من لمحات الجمال في المساجد تفتّح فيها الإحساس بالجمال جملةً ، وهذا باب من التربية النفسية عظيم .

ثم إن المتأمل في هيئات المساجد وأشكالها وبيوت صلاتها وعمدتها وعقودها ومآذنها ، لا يملك إلا أن يشعر بقدسيّتها وما تُوقّعه في النفس من شعور ديني عميق ، أي: أن هذا الكتاب سبيل إلى تعميق الشعور الديني عند قارئه ، فكما أن المؤمن يزداد إيمانه عمقاً إذا تنبّه إلى ما في آي القرآن من جمال ساحر ، فكذلك المصلّي إذا أحس بجمال المسجد الذي يصلّي فيه كان ذلك أدعى إلى استغراقه في العبادة وحب المساجد والميل إلى زيارتها^(١) .

وقد تجمعت لي مادة هذا الكتاب على مرّ السنين ، فما من بلد زرتة إلا كانت مساجده من أولى مطالبي ، فقضيت الساعات الطوال في زيارتها والطواف بأرجائها وفي يدى مصباح كهربائي صغير أتأمل في ضوءه تفاصيل زخارف المنابر وجمال المحاريب وما إليها من تفاصيل جمال المساجد .

وقد وسّعتُ أفق الكتاب فجعلته يشمل عالم المساجد في الزمان والمكان من المساجد الأولى إلى مساجد اليوم والغد ، وطوّفت بالقارئ في عالم الإسلام من الفلبين إلى مساجد أمريكا اللاتينية ، واعتمدت أن أزاوج بين الكلام والصورة ، وأن أجعل هذا الكتاب رحلة في عالم الفن ، وتأملاً في عالم الإيمان .

وكذلك لم أدخر وسعاً في أن يكون الكتاب ملتزماً بمنهج العلم الدقيق في كل سطر فيه .

(١) وهذا لا يتعارض مع ما كان عليه السلف الصالح من القول بأن زخرفة المساجد مخالفة للسنة ، وأن ما في المساجد من نقوش تشغل المصلّي عن صلاته وعبادته وخشوعه ، لأن المقصود هنا ليس الإسراف في الزخرفة والزينة فإن ذلك يتنافى مع ما ينبغى للمساجد من وقار ، وإنما المقصود هو الفخامة والجلال والرواء دون إسراف في زينة ، فإن فخامة المساجد واتساع مساحاتها واستعمال المواد الرفيعة كالرخام والمرمر والأبنوس والفاشاني في بنائها يعلى من هيبتها ويزيد من شعور المصلّي بجلال المسجد وحرمة .

وهذه الصفحات - التي تقرأها - تقدم لك سنوات من القراءة والبحث والنظر والاطلاع والأسفار نرجو أن يجعل الله فيها من الفائدة ما يعوض بعض الجهد الذي أنفق فيها .

رحلة في عالم الإيمان والفن والعلم ، في دنيا تبدو من حجر وخشب وطوب ، وهي - في الواقع - ذُوبُ النفوس وقُوتُ القلوب .

وسلام من الله رب المساجد ، وتحية إلى كل ساجدٍ وعابد ، من عبد الله الشاكر الحامد .

حسين مؤنس



الفصل الأول

المسجد فى القرآن الكريم



ورد ذكر المسجد والمساجد والمسجد الحرام فى القرآن الكريم - بلفظها - ثمانياً وعشرين مرة ، ووردت الإشارة إليه باسم مقام إبراهيم ومُصَلَّى مرة واحدة ، ووردت الإشارة إلى المساجد بلفظ البيوت مرة واحدة ، ولكل مرة مناسبتها ، وفيما يلى بيان بعض المناسبات :

المساجد عامة :

(أ) مسجد قبل الإسلام :

﴿ وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۖ ﴾ (٢١)

[الكهف : ٢١]

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۖ ﴾ (٧)

[الإسراء : ٧]

الكلام مُوجَّهٌ إلى بنى إسرائيل .

(ب) مَنْ الَّذِينَ لَا يَجُوزُ لَهُمْ بِنَاءُ الْمَسْجِدِ وَمَنْ الَّذِينَ يَجُوزُ لَهُمْ ؟:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۖ ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۖ ﴾ (١٨)

[التوبة : ١٧ ، ١٨]

(ج) - أعداء المساجد :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾

[البقرة: ١١٤، ١١٥]

(د) مسجد الضرار ومسجد التقوى :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُجَّةً لِّأُولِي الضُّلُمِ وَلِلَّهِ الْمَشَارِقُ وَالْمَغَارِبُ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) ﴾

[التوبة: ١٠٧-١٠٩]

(هـ) بعض أحكام المساجد :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾

[الأعراف: ٢٩]

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾

[الأعراف: ٣١]

﴿ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَّامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرِبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ .

[البقرة : ١٨٧]

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) ﴾ .

[الجن : ١٨]

(و) من حكمة القرآن :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ .

[الحج : ٤٠]

(ز) المسجد الحرام :

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾ .

[البقرة : ١٤٤]

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

[البقرة : ١٥٠]

﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُم وَالْفَتْةَ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ

كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ.

[البقرة: ١٩١]

﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

[البقرة: ١٩٦]

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

[البقرة: ٢١٧]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

[المائدة: ٢]

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)﴾.

[الأنفال: ٣٤، ٣٥]

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

[التوبة: ٧]

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) ﴿

[الإسراء : ١]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُّوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) ﴿

[الحج : ٢٥ - ٣٣]

(ح) وورد ذكر المسجد الحرام بلفظ البيت في الآيات التالية :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتَّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

(١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

[البقرة : ١٢٥ - ١٢٨]

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٥٨) .

[البقرة : ١٥٨]

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٩٧) .

[آل عمران : ٩٦ ، ٩٧]

﴿ وَلَا آمِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ .

انظر ما سبق [الآية ٢ من سورة المائدة]

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقِلَابَ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٩٧) .

[المائدة : ٩٧]

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٣٥) .

انظر [الآية ٣٥ من سورة الأنفال] وقد أوردناها آنفاً.

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا .

انظر [الآيات : ٢٥ - ٣٣ من سورة الحج] وقد أثبتنا بها آنفاً.

﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلْعَائِثِينَ ﴾ .

انظر [الآيات : ٢٥ - ٣٣ من سورة الحج] وقد أتينا بها آنفاً .

﴿ وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (٢٩) .

انظر [الآيات : ٢٥ - ٣٣ من سورة الحج] وقد أتينا بها آنفاً .

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ .

انظر [الآيات : ٢٥ - ٣٣ من سورة الحج] وقد أتينا بها آنفاً .

﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍ (٢) فِي رَقٍّ مُّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) ﴾ .

[الطور : ١ - ٥]

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِبْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ .

[قريش : ١ - ٤]

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ .

[إبراهيم : ٣٧]

ووردت المساجد باسم «البيوت» في سورة النور :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾ .

[سورة النور : ٣٦ - ٣٨]



الفصل الثانى

المسجد فى الحديث الشريف



روى أهل الأثر عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة جداً في المساجد وفضلها وأحكامها ؛ ولا يتيسر لنا إيرادها كلها هنا ، وقد أورد الزركشى معظمها في كتاب «إعلام الساجد» نجدها عند مراجعة الفهرس الأبعدى للأحاديث النبوية في آخر كتابه (ص ٤٢٠ - ٤٢٧) ونأتى منها هنا بما يتصل بموضوع كتابنا هذا :

- « وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً » .
- « أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا » .
- « إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تُصَلِّيَ فِي الْبَيْتِ فَصَلِّ فِي الْحِجْرِ » .
- « إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلَا يَجْلِسُ حَتَّى يَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ » .
- « إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ » .
- « أَعْطُوا الْمَسَاجِدَ حَقَّهَا » .
- « أَعْلِنُوا النِّكَاحَ فِي الْمَسْجِدِ » .
- « أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُتَّخَذَ الْمَسَاجِدُ فِي الدُّوْرِ وَأَنْ تُطَهَّرَ وَتُطَيَّبَ » .
- « أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ » .
- « إِنَّ اللَّهَ ضَمَّنَ لِمَنْ كَانَتْ الْمَسَاجِدُ بَيْنَهُ الْأَمْنُ » .
- « إِنَّ الْجَنَّةَ تَحْنُ شَوْقاً إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ » .
- « إِنَّ صَلَاةً فِي مَسْجِدِكُمْ هَذَا (مسجد المدينة) تَعْدِلُ أَلْفَ صَلَاةٍ » .
- « مَنْ بَنَى مَسْجِداً يَبْتَغِي بِهِ وَجَهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ » .
- « وَضَعَ مِنْبَرِي (منبر الرسول ﷺ) عَلَى تَرَعَةٍ مِنْ تَرَعَاتِ الْجَنَّةِ ، وَمَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، وَمَا بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ قَوَّامْتُ مِنْبَرِي هَذَا رَوَاتِبُ (ثوابت) فِي الْجَنَّةِ » .

- « إِنَّمَا أُمِرْتُم بِالطَّوَافِ وَلَمْ تُؤْمَرُوا بِدُخُولِهِ (البيت ، الكعبة) » .
- « إِنَّمَا مَثَلُ مَنْى كَالرَّحِمِ ، إِذَا حَمَلَتْ وَسَعَهَا اللَّهُ » .
- « إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ تَنْفِي خَبْنَهَا » .
- « تَذْهَبُ الْأَرْضُونَ كُلُّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا الْمَسَاجِدُ » .
- « تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيُسْتَجَابُ الدُّعَاءُ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاطِنَ : عِنْدَ التَّقَاءِ الصُّفُوفِ وَنَزُولِ الْغَيْثِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَرُؤْيَةِ الْكَعْبَةِ » .
- « جَنَّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صَبِيَانَكُمْ وَمَجَانِيَكُمْ » .
- « حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا بَيْنَ لَابَتِي الْمَدِينَةِ » .
- « حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَدِينَةِ بَرِيداً مِنْ نَوَاحِيهَا » .
- « حَمَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلَّ نَاحِيَةٍ فِي الْمَدِينَةِ » .
- « خَيْرُ مَسَاجِدِ النِّسَاءِ قَعْرُ بُيُوتِهِنَّ » .
- وفي صحيح ابن حبان ، من حديث أبي ذر ، قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو في المسجد ، فقال :
« يَا أَبَا ذَرٍّ ، صَلَّيْتُ ؟ . قُلْتُ : لَا . قَالَ : فَقُمْ ، فَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ » .
- « إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ - يَوْمَ الْجُمُعَةِ - وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ ؛ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ ، وَلْيَتَجَوَّزْ فِيهِمَا » .
- إن النبي ﷺ خرج على ناس من أصحابه وهم رُقُود في المسجد ، فقال :
« فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ لِلْمَرْءِ بِمَرْقَدٍ ^(١) » .

(١) وعن موضوع النوم والمبيت في المساجد قال ابن عباس : « لا تتخذ المساجد مرقداً » ، وعنه أنه قال : « إن كنت تنام فيه للصلاة فلا بأس » ، وإن مالكا قال : « أما الغرباء الذين يأتون فيمن يريد الصلاة فإني أراه واسعاً ، وأما رجل حاضر فلا أرى له ذلك » . وإن أحمد (ابن حنبل) قال : « إذا كان رجل على سفر أو ما أشبهه فلا بأس ، فأما أن تتخذ بيتاً أو مقبلاً فلا » .

- « إن النبي ﷺ نَهَى أَنْ يَضَعَ الرَّجُلُ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ (فِي الْمَسْجِدِ) » .

- « مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا - وَلَوْ كَمَفْخَصِ قِطَاعٍ - بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ » .

- عن عبد الله بن سعد قبال : سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة في بيتي والصلاة في المسجد ، فقال :

« قَدْ تَرَى مَا أَقْرَبَ بَيْتِي مِنَ الْمَسْجِدِ ؟ فَلَأَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّيَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَكْتُوبَةُ » .

- « لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِي هَذَا ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى » .

- روى ابن ماجه عن نافع ، عن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« خِصَالٌ لَا تَنْبَغِي فِي الْمَسْجِدِ :

لَا يُتَّخَذُ طَرِيقًا ، وَلَا يُشْهَرُ فِيهِ بِسِلَاحٍ ، وَلَا يُنْبَضُ فِيهِ بِقَوْسٍ ، وَلَا يُنْتَرَفُ فِيهِ نَبْلٌ ، وَلَا يَمْرُ فِيهِ بِلَحْمٍ نَيِّئٍ ، وَلَا يُضْرَبُ فِيهِ حَدٌّ ، وَلَا يُقْتَصُّ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ ، وَلَا يُتَّخَذُ سَوْقًا » .

- « دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكَعْبَةَ ، مَا خَلْفَ بَصَرِهِ مَوْضِعَ سُجُودِهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْهَا » .

- عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت :

« طَيِّبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِحِلِّهِ حِينَ يَرِيدُ أَنْ يَزُورَ الْبَيْتَ ^(١) » .

- عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت :

« أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّورِ ، وَأَنْ تُنْظَفَ وَتُطَيَّبَ » .

(١) المراد : يجوز الطيب لزائر البيت الحرام إذا لم يكن مُحْرَمًا .

- وفى (المصنّف) عن يعقوب بن زيد أن رسول الله ﷺ كان يتبعُ غبارَ المسجدِ بجريدة^(١)

- « كُنَّ الْمُعْتَكِفَاتُ - إِذَا حِضْنَ - أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِخْرَاجِهِنَّ مِنَ الْمَسْجِدِ ».

- « لَأَنْ تُصَلَّى الْمَرْأَةُ فِي مَخْدَعِهَا أَعْظَمُ لِأَجْرِهَا » .

- « لَا أَحَلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلَا لَجُنُبٍ » .

- « لَا تَتَّخِذُوا قُبْرِى مَسْجِدًا » .

- « لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ ، وَيُؤْتِهِنَّ خَيْرٌ لَّهُنَّ » .

- « لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ » .

- عن ابن عباس رضيه قال : « مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ الْمَسَاجِدِ » .

وقال ابن عباس رضيه : « لَتُزْخَرْفَنَّهَا كَمَا زُخِرَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى » .

- عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ » .

- روى البخارى فى صحيحه أن عمر رضي الله عنه أمر ببناء مسجد، وقال :

« أَكُنَّ النَّاسَ مِنَ الْمَطَرِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحْمَرَ أَوْ تُصَفَّرَ فَنُفِّتَنَ النَّاسَ » .

- عن ابن عباس رضي الله عنه قال : « الْمَسَاجِدُ بُيُوتُ اللَّهِ تُضِيءُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا

تُضِيءُ النُّجُومُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ » .

- « سَبْعَةٌ يُظْلَهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ - يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ - : الْإِمَامُ الْعَادِلُ ،

وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا

فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ

فَقَالَ : إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ

مَا تَنْفَقُ شِمَالُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ » .

(١) تأمل عناية الرسول ﷺ بنظافة المسجد حتى أنه كان يكنس الغبار بجريدة فى يده الشريفة ! ونحن ، ما حال مساجدنا ! . والمصنف المذكور هنا ربما كان « مصنف » أبى بكر عبد الله بن أبى شيبة المتوفى سنة

- عن ثوبان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يُنْشِدُ شَعْرًا فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا لَهُ : قُضِيَ اللَّهُ فَكَ (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) ، وَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ يُنْشِدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا لَهُ : لَا وَجَدْتُهَا (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) ، وَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا لَهُ : لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ » .

كذلك قال لنا رسول الله ﷺ . [رواه الطبراني (١)]

- « مَنْ أَحْدَثَ فِي مَسْجِدِنَا حَدَثًا ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (٢) .

- قال أبو الدرداء لابنه : يا بُنَيَّ ، ليكن المسجد بيتك فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول :

« الْمَسَاجِدُ بُيُوتُ الْمُتَّقِينَ ، فَمَنْ يَكُنِ الْمَسْجِدَ بَيْتَهُ يَضْمَنْ اللَّهُ لَهُ الرُّوحَ وَالرَّحْمَةَ وَالْجَوَّازَ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَى الْجَنَّةِ » .

- « مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نَزْلًا إِذَا غَدَا أَوْ رَاحَ » .

* * *

(١) وقد فسر رجال الحديث النهي عن إنشاد الشعر في المساجد على أنه نهى عن إنشاد بعض الأشعار (مثل الذم والمدح) لا عن إنشاد الأشعار عامة في المساجد .

(٢) المراد هنا: من أدخل في المساجد بدعة تتنافى مع روح المساجد وهى البساطة أو أدخل على المسجد شيئاً يشغل الناس عن الصلاة .



الفصل الثالث

دور المساجد في بناء الجماعة الإسلامية



المساجد ركائز الجماعات الإسلامية :

المساجد أجمل ما تقع عليه عين الإنسان في عالم الإسلام ، فسواء أكنت في قرية صغيرة خافية في بطن الريف أو مستكنة خلف كثبان الرمال في الصحراء أو راقدة في لحف جبل ، أو كنت في عاصمة كبيرة مترامية الأرجاء متدفقة الحركة عامرة بالعمائر السامقة ، فإن المساجد بمآذنها الدقيقة المنسرحة الذاهبة في الجو مشيرة إلى السماء وقبابها الأنيقة ، تضيف إلى المنظر عنصراً من الجلال والجمال الروحي لا يتأتى له بدونها ، فهي تزيل الوحشة عن تواضع مباني القرية وصغرها وتنفي الجمود عن غرور مباني العواصم ، وتضفي على مقطع الأفق في القرية والمدينة توازناً يروع النفس ولمسة من جمالٍ روحيٍّ هاديٍّ رقيق .

ويتجلى لك ذلك في أصفى صورة ساعة المغيب ، عندما يختفي حاجب الشمس وراء الأفق مخلقاً في السماء وهجاً أحمر برتقالياً يشوبه شيء من بنفسج ، وبينما تتحول صور المباني إلى كتل سوداء متراصّة كأنها أشباح ، تبدو لك المساجد بمآذنها وقبابها ظلالاً جميلة تضفي على الشفق الدامي من ورائها جمالاً يحس به قلبك أكثر مما تراه عينك ، وفي لحظة ، وقبل أن يهبط رداء الليل ، يخيل إليك أن كل ما كان يتراءى عند مقطع الأفق قد تلاشى ولم تبقَ إلا المساجد ؛ ولأمر ما تحس أنها يَقْطِى ، بينما كل ما حولها قد رقد بين أحضان الليل ، كأنها ملائكة حارسة لا تبرح مكانها ، رمزاً للأمل في رحمة الله للمهالكين من أهل الأرض .

وبالفعل فإن المساجد حارسة عالم الإسلام ، فقلّ من مدتنا ما كان لها أسوار عالية كما ترى في غير عالم الإسلام ؛ هناك تجد الأسوار المنيعّة التي تصل إلى ضخامة سور الصين وطوله ، وتجد الأبراج العالية كما ترى في معظم بلاد أوروبا ، أما في عالم الإسلام فما أقلّ الحصون والأسوار في بلاده ، لأن المساجد كانت حصونه في كل مكان ، فهي مراكز الإيمان ورموزه ، والإيمان قوة عالم الإسلام الكبرى ، فقد نجت أمم الإسلام من

المحن الطاحنة فى العصور الماضية بفضل الإسلام وحده ، وإنك لتستطيع أن تقول إن المسيحية عاشت بفضل المسيحيين أما فى عالمنا الإسلامى فقد عاشت أمم الإسلام بفضل الإسلام ، ولقد غزا الصليبيون أرض المسلمين وغلبوهم ولكنهم لم يغلبوا الإسلام ، وحول راية الإسلام الرفيعة تجمع الناس وساروا فى ظلها مستسلمين عزتها وتمكنوا من تحرير بلادهم .

وهاجم المغول عالم الإسلام من الشرق وخربوا البلاد وأهلكوا العباد ، ولكنهم لم ينتصروا على الإسلام ، بل هزمهم الإسلام وغزا قلوبهم ، وفى نفس المساجد التى خربها المغول فى طريقهم من سمرقند إلى حلب وجعلوا معظمها أطلالاً رقع المغولى المغلوب على أمره وسجد للواحد القهار تحت سقوف المساجد ، وقام أحفاد هولاء كوا بإعادة بناء المساجد فيها صلوا وتحولوا إلى بشر مسلمين ، ولم يلبثوا أن خرجوا هم أنفسهم مجاهدين فى سبيل الإسلام حاملين رايته مدافعين أعداءه وسائرين باسمه فى معارج الرقى والعمران .

ومع ذلك فالمساجد - فى جملتها - منشآت صغيرة الحجم بسيطة العمارة ، ونادراً ما تكون سامقة الارتفاع ؛ ولو أخذنا واحداً من أضخم مساجد الدنيا مثل مسجد قرطبة الجامع أو مسجد الكتبية فى مراكش ، أو جامع ابن طولون أو السلطان حسن فى القاهرة أو مسجدى شاه فى أصفهان أو السليمانية فى الآستانة أو القطب فى دلهى فإن أضخمها لا يقاس بكنيسة كانتربرى فى لندن ، أو النوتردام فى باريس ، أو القديس بطرس فى روما ، أو الدوم فى كولونيا ، أو سماركو فى البندقية ، فهذه كلها جبال إذا قيست إلى المساجد ، ولو أخذت الصخر الذى بنيت به نوتردام مثلاً لوجدته يعدل فى الحجم والوزن أربعة أو خمسة من مساجد الإسلام الكبرى ، فإذا ذكرت إلى جانب ذلك أن معظم مساحات مساجد الإسلام صحنون خالية غير مسقوفة ، وأن معظمها كان يضم فى نفس الوقت مدرسة ومستشفى وضريحاً وسبيل ماء (كما ترى فى مساجد القاهرة المملوكية) تبين أن مباني أعظم المساجد ليست بشيء بجانب صغار الكنائس والبُيع ومعابد الهندوكيين والبوذيين .

بل إنك لتجد فى المسجد - أحياناً - من الرقة والخفة ما يجعلك تتصور أنها أبنية

هشة يتضعضع بناؤها بأقل حادث ، وبعض المساجد الكبرى بالفعل هشة البناء قامت على أعمدة دقيقة كأنها أقلام رصاص ؛ فإن أعمدة مسجد قرطبة الجامع - مثلاً - لا يزيد سمك الواحد منها عن (٣٠ سنتيمتراً) ، ومعظم أبدان المآذن - بعد شرفة الأذان - مكون من جدران سمك الواحد منها آجرتان ، فتدهش من أنها ترتفع رغم ذلك في الجو نحو ثلاثين متراً ، وماذن روائع المساجد العثمانية لا يزيد قطر معظمها على ثلاثة أمتار مع أن ارتفاعها يجاوز ثلاثين متراً ، فهي على ذلك رقيقة بالفعل ، ولكن ما أمتنها ! وما زالت قبة الصخرة والجامع الأموي في دمشق ومسجد عقبة في القيروان والجزء الأول من جامع قرطبة - على رقتها - قائمة رغم أنها كلها قطعت من العمر ما بين الاثنى عشر والأربعة عشر قرناً .

وطبيعة المساجد نفسها تتنافى مع الضخامة والإسراف في الزينة ، لأننا نعرف أن المسجد ينبغي أن تتناسب هيئته مع بساطة الإسلام وصفائه ، فالإسلام سهل يسر واضح ، وعبادته كلها بسيطة واضحة لا غموض فيها ، والسبب في ذلك أن المساجد أقيمت للصلاة ، وهي مواضع مظهر مَصُونَة عن الطريق يقف فيها العبد بين يدي خالقه ليؤدي صلاته ؛ والصلاة في صميمها طلب الرحمة من الله ، ولابد لها من صفاء النفس وإخلاص النية وطهارة القلب والاتجاه نحو الخالق بالروح قبل الجسد ، والمحراب الحقيقي لصلاة المسلم هو قلبه ، فإذا كان قلبه سليماً صافياً صحَّت صلاته وتقبلها الله سبحانه ، وإذا كان القلب كدراً مثقلاً بمطامع الدنيا لم تصح الصلاة ولا كانت مقبولة ، ويستوى في هذه الحالة أن يصلي الإنسان على حصير نظيف جاف في الهواء الطلق ، وعلى طنفسة غالية الثمن تحت سقف جامع سامق الجدران ؛ ومن هنا كره الصالحون المساجد الضخمة المثقلة بالزينة لأن المظهر الفخم لا يخلو من غرور وتكلف ، ولأن الزينة تشغل المصلي عن الانصراف بقلبه نحو الخالق .

وهذه البساطة هي أجمل ما في معظم المساجد ، وإنه لمن مفاخر المعمارين المسلمين أنهم تمكنوا من إنشاء مساجد هي الغاية في الفخامة والروعة مع المحافظة على روح الإسلام التي تتجلى في البساطة الوقور .

والمسجد هو مركز ترابط الجماعة الإسلامية وهيكلها المادى الملموس فلا تكتمل

الجماعة إلا بمسجد يربط بين أفرادها بعضهم ببعض ، يتلاقون فيه للصلاة وتبادل الرأي ، ويقصدونه للوقوف على أخبار جماعتهم ، ويلتقون فيه مع رؤسائهم ، أو يتجهون إليه لمجرد الاستمتاع بالقعود فى ركن من أركانه كما يفعل الناس عندما يزورون حديقة ليرَوْحوا عن أنفسهم ؛ فالمسجد - على هذا - ضرورة دينية وضرورة سياسية وضرورة اجتماعية أيضاً بالنسبة لكل مسلم على حدة وبالنسبة لجماعة المسلمين جملةً .

المساجد ملك للجماعات الإسلامية :

ذلك أن المسجد هو بيت الله ، وهو أيضاً بيت الجماعة ، وبيت كل واحد منها على حدة ، وهو الشيء الوحيد الذى كانت تملكه الجماعة مشتركةً ، وإن كان الذى بناه هو السلطان أو الخليفة أو الدولة ، ولهذا فقد استخدمته الجماعات الإسلامية فى تسيير شئونها العامة ، مستقلةً بذلك عن سلطان الدولة ، وأظهر مثل لذلك هو استخدام المسلمين لمساجدهم دُوراً للقضاء ، لا لأن الدول كانت عاجزة عن إنشاء دُور للقضاء ، بل لأن القضاة وأهل الورع أرادوا أن يسير القضاء فى طريقه بعيداً عن تأثير الدولة ورجالها فجلسوا فى المساجد - وهى ملك الجماعة - واتخذوها مقراً للقضاة ومكاناً للتقاضى .

ومن المعروف أن القضاة أنفسهم هم الذين قرروا مبدأ إجراء القضاء فى المساجد ، وقضائنا الأوّل فى المدينة المنورة وعواصم الإسلام الأولى لم يطلبوا من الخلفاء أن ينشئوا لهم دُوراً للقضاء ، بل اتخذوا مجالسهم فى المساجد قصداً ، وعقدوا مجالسهم فيها علناً ، وأصدروا أحكامهم ولم يتركوا للدولة إلا موضوع تنفيذ الأحكام عن طريق أعوان يقفون خارج المسجد تحت تصرف القاضى .

وتحت سقف المسجد وبين أفراد الجماعة الإسلامية أحسنَ القضاة أنهم أحرار ، وأنهم يخدمون الجماعة بتطبيق شرع الله أحراراً من كل قيد . وبلغ من تمسكهم بهذا المبدأ أن الكثيرين منهم كانوا يتعففون عن تناول أجر عن القضاء ، وذلك حتى يكونوا أحراراً تماماً فى إصدار أحكامهم ، وعندما تقرّر مبدأ الرواتب للقضاة لم تعد ثقة الجماعة فى قضائهم كما كانت قبلاً .

ولنفس السبب استخدمت الجماعة مساجدها معاهد للتعليم ، لأن العلم كان دائماً من اختصاص الجماعة ، فلم تكن دول الخلافة أو دول السلاطين مسئولة عن التعليم حتى فى عصر الراشدين ، وإنما كان التعليم من اختصاص الأفراد والجماعة ، فكانت الجماعة تتكفل بمعاش المعلمين سواء أكانوا معلّمين صغاراً يعلّمون الصبيان القراءة والكتابة ويحفظونهم القرآن ، أو شيوخاً أجلاء يقرءون علمهم على طلابهم فى المسجد فى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب ، فلم نسمع أن الدولة قرّرت راتباً لمعلم أو شيخ إلا ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى عندما قامت المدارس فى المشرق ، ولا ندرى - على وجه التدقيق - كيف كان يعيش أجلاء العلماء على طول تاريخنا الماضى ، ولكن الواقع أنهم عاشوا فى مستوى طيب ، مما يدل على أنهم كانوا يعيشون على دخول وافية بحاجاتهم .

ومن الثابت أن أهل العلم فى القرون الأولى لم يتقاضوا رواتب من الحكومات فيما عدا ما نسمع عنه من الجوائز والصّلات بين الحين والحين وهذه ليست رواتب ، وقد اعتمد العلماء على أنفسهم وعلى الجماعة فى شئون معاشهم ، ولا شك فى أن الجماعة تكفّلت بمعاش المعلّمين .

وإذا كان معظمهم على ما نعلم من أسر متواضعة اقتصادياً ، فعلام كان عمادهم فى حياتهم إذن ؟ على الجماعة بطبيعة الحال ؛ الجماعة قدمت لهم المسجد وهو بيتها الذى تملكه ، وأوقف الناس على العلم وأهله العقارات ، ثم إن الطلاب كانوا يؤدون عن السماع ما تيسر لهم أداؤه ، وهكذا أعدّت الجماعة رجال العلم فيها دون أن يكون للدول عليهم كبير فضل ، فيما خلا عطايا وهبات متفرقة وغير ثابتة لهذا العالم أو ذاك كما قلنا .

ومن المؤكد على أى حال أن أصحاب السلطان وهبوا الشعراء الذين مدحوهم (بما ليس فيهم فى الغالب) أضعاف ما قدموا لأهل العلم من الأموال ؛ وخيراً فعلوا ، فقد كان هذا ضماناً للعلم وأهله ، وإلى ذلك يرجع الفضل فى ظهور تلك الأجيال المجيدة من أهل العلم على طول تاريخنا ؛ فإن اعتماد العالم على الجماعة تطلّب ممن أراد

الاستمرار فى جملة العلماء أن يكون عالماً حقاً ، فما كانت هناك دولة تمنح شهادات ، وما كانت إجازات الشيوخ لطلابهم بمقبولة عند الجمهور إلا إذا ثبت بالفعل أن الرجل عالِمٌ حقاً وذلك عن طريق دروسه التى تُلَقَّى فى المسجد ويسمعه من أراد ، فكان العالم فى امتحان دائم ، وكان عليه أن يثبت يوماً بعد يوم أنه لا يزال فى مستواه الرفيع ، وكم من عالِمٍ فقد مركزه نتيجة لأخطاء وقع فيها فى علمه أو فى الإجابة عن أسئلة الطلاب ، وما كان أقسى الطلاب على الشيخ إذا وقع فى خطأ أو شبه خطأ .

المساجد مراكز للعلم ومعاهد للدراسة :

وذلك كله راجع إلى أن المساجد اتخذت معاهد للعلم ، فقد ضمن ذلك كفاءة العلماء من ناحية ، وحرية أهل العلم من ناحية أخرى ، فقد أصبحوا - بهذا - فى امتحان أو محنة يوماً بعد يوم ، ومن المؤكد أنه لو كانت الأمة تركت العلم لرجال الدول لما ظل العلم فى بلاد الإسلام دائماً فى ذلك المستوى الرفيع ، فقد كان على العلماء أن يواصلوا الدرس ليحافظوا على مكانتهم أمام الناس الذين يستمعون إلى دروسهم ، ولو تبنت الدولة العلم لفرضت على الناس - إذا شاءت - الأدعياء والدخلاء وأفسدت العلم بذلك ، ولو قعد العلماء للتدريس فى دورٍ بنتها لهم الدول وتقاضوا أرزاقهم منها لأصبحوا فى عداد خدمها وحواشيها .

ونحن فى تاريخنا لا نفخر بنظم الوزارة والكتابة والحجابه وما إليها من النظم التى كانت بأيدي رجال الدول ؛ ولكننا نفخر بالقضاء ، ونفخر بالعلم ، ونفخر بأهل المعمار ، ونفخر بأعلام قراء القرآن ، ونفخر بالحسبة والمحاسبين ، ونفخر بالشعر والشعراء ، والأحرار من النافرين الذين لم يُسَخَّرُوا مَلَكَاتِهِمَ للمكاتبات السلطانية ، ونفخر كذلك بالصالحين من شيوخ التصوف ، فهؤلاء جميعاً كانوا يمثلون مؤسسات إسلامية عامة احتفظت بهالة الإسلام فى يدها .

ونرجو ألا تبدو كلمة « مؤسسات » هنا فى غير موضعها فالحق أن القضاء كان مؤسسة ، والتعليم كان مؤسسة ، وهكذا .

حقاً لم تكن للقضاء مثلاً هيئة عليا تشرف عليه وتمثل ما سميناه بمؤسسة القضاء ،

ولكن الجماعة الإسلامية كلها كانت تشرف على القضاء وتحافظ على تقاليده ، وكانت ترعى العلم والعلماء وتحرص على أن تظل مؤسسة العلم - أو نظام العلم وأهله - فى مستواها الرفيع من الجدِّ والرقار والتصاون وحُسْنِ السَّمْتِ والإخلاص للعلم . وكما أسقطت الجماعة من احترامها مَنْ شَكَّتْ فى نزاهتهم من القضاة فلم يلبثوا أن تلاشوا ، فكَذلك نَزَعَتْ ثَقَتَهَا مِنَ الْعَالَمِ إِذَا خَرَجَ عَنِ الطَّرِيقِ السَّوَّى أَوْ تَخَلَّى عَنْ سَمْتِ أَهْلِ الْعِلْمِ .

ولدينا مثل جماعى لهذه الحقيقة لا يقبل الشك ، هو أن نفرأ من أهل القضاء والعلم فى إفريقية (تونس) انضموا إلى الفاطميين عندما قامت دولتهم هناك أواخر القرن الهجرى الثالث ، فاعتبرتْهم الجماعة خارجين عليها وعلى نظامها ؛ فأسقطتهم من اعتبارها ، بل عَدَّتْ بعضهم كفاراً فعلاً ، ولم ينفعهم بعد ذلك تأييد خلفاء الفاطميين فى شىء فقد سقطوا من أعين الجماعة سقوطاً نهائياً .

وكان أكبر ما أعان الجماعة على المحافظة على سلامة مؤسساتها - كالقضاء والعلم - أنها كانت تملك المساجد فوضعتها تحت تصرف القضاة وأهل العلم ، وهذه ناحية من نواحي الحضارة الإسلامية لم تُدرس بما هى أهله من العناية والبحث رغم أهميتها ، ولو دُرست لكشفت عن ناحية جليلة من نواحي حضارتنا ، ولأظهرت جانباً مهماً من جوانب الدور الذى أدته المساجد لجماعة الإسلام .

ولكى يزداد وضوح الدور الاجتماعى للمساجد فى عالم الإسلام ؛ نلفت النظر إلى أننا عندما نقرأ كتب كبار الرُّحالة المسلمين - مثل : أحمد بن محمد المقدسى البشارى وابن جبیر والعبدرى وابن رشيد وابن بطوطة - نلاحظ أن أولئك الرجال كانوا إذا نزلوا بلداً لا يعرفون فيه أحداً اتجهوا إلى المساجد ، وهناك يلقون الغرباء من أمثالهم فيسألونهم عن الفنادق والأسعار وسبل المعيشة للغريب الطارىء ، وفى معظم الأحيان كانوا يتعرفون هناك ببعض أهل البلد ويعرفونهم بأنفسهم ، فما يكاد هؤلاء يعرفون أنهم أمام عالم مسلم غريب حتى يفتحوا له الأبواب ؛ يستضيفه بعضهم أو يدلُّونه على رجل من أهل الخير والفضل فيقوم بالواجب نحوه ، وسرعان ما يقدمونه لكبير البلد سواء أكان القاضى أو العامل أو تاجراً كبيراً أو واحداً من علية القوم ، وهنا تنحلُّ

مشكلة إقامته وطعامه فى البلد ، وفى أحيان كثيرة كانوا يعرضون عليه عملاً يناسب مكانه وعلمه ، ويصل الأمر أحياناً إلى المصاهرة فيتخذ الرجل له أهلاً فى ذلك البلد الغرب .

ويحكى العبدرى - وكان شيخاً شديداً الحياء مرهف الحس - أنه ما نزل بلداً إلا قصد إلى الجامع رأساً ، وهناك يتعرف على الشيوخ وطلبة العلم فيجد فيهم صاحب والأهل ، وكان إكرام الناس له يصل إلى حد أن بعضهم كان يترك عمله ومصالحه ليعين هذا العالم الغرب ويرافقه طيلة إقامته فى البلد .

ويحكى أبو بكر بن العربى (٤٦٨ - ٥٤٢ هـ / ١٠٧٦ - ١١٤٨ م) فى رحلته أن المركب الذى كان ينقله مع أبيه من الأندلس إلى الإسكندرية عصفت به الريح وغرق قرب شاطئ طرابلس ، ولكن الله يسرَّ لهما النجاة إلى الشاطئ وهما فى أسوأ حالة ، فأخذهما الناس إلى الجامع ، وكان الموضع منزلاً لبعض بطون قبيلة كعب بن سليم ، وفى الجامع أسرع الناس إليهما بشىء من الكسوة ، ثم اتجهوا بهما إلى شيخ القبيلة فلقيا من إكرامه شيئاً كثيراً ، أى : أن الجامع كان أيضاً ملجأ للغريب الذى نزلت به محنة .

وفى «الفتوحات المكية» يقول محبى الدين بن عربى إنه ما كان يقصد فى أى بلد إلا إلى الجامع ليلقى أمثاله من الغرباء والسواحين ويأتنس بهم ، ويقول : إنهم كانوا إذا خرجوا من صلاة العشاء وجدوا رجالاً كثيرين يحملون قصاعاً من الطعام يرسلها أهل الخير للغرباء ، ويقول : إن هذه القصاع كانت كثيرة ولم تقتصر على الثريد وكسر الخبز وبقايا الموائد ، وإنما كان فيها الجيد الرفيع الذى يصنعه أهل الخير لغرباء المسلمين خاصة ، وكان الكثيرون من أهل الزهد يتعففون عن هذا الطعام لأنهم لا يعرفون إن كان من مال حلال أو حرام .. أما ابن عربى فيقول : « وكنت إذا هجم الليل - وأنا خالى الوفاض - أصيب من تلك القصاع ما يعيننى على قيام الليل ، والأعمال بالنيات ؛ وما نزلت بلداً إلا وجدت فيه هذه الخصلة اللطيفة من خصال أهل القبلة وما وجدتها عند غيرهم وهذا من فضل الله عليهم وما كرهت فيها إلا أن بعض الأرذال جعلوا دأبهم الاعتماد عليها فى عيشهم كله » .

ويحكى أحمد بابا التمبكتي أن بلاد المسلمين التي مرَّ بها في أقاليم السودان تميزت بوفرة طعام أهلها فلا تجد فيها جوعاً ولا مسغبة لأن الناس يعمدون إلى ما بقى من طعامهم فيجعلونه على حصر نظيفة عند الجامع ، فيصيب منها الجائع والمحتاج حاجته ، ومن غريب أمرهم أن الغرباء كانوا لا يصيبون إلا قدر ما يكفيهم ولا يأخذون منه شيئاً معهم وهذا عندهم عيب كبير ، ومثله كذلك أن يكون الرجل قادراً على الكسب ثم يصاب من هذا الطعام .

وفى سيرة أحمد بن إبراهيم الجزار - وهو من أعظم أطباء المسلمين وكان قيرانياً - أنه كان يخرج بعد صلاة العشاء ويقف على باب الجامع ليداوى المرضى من الفقراء ، وكان يصطحب عبداً يحمل أصناف الأدوية فيعطيهم منها ما يرى ، وكان يعمل ذلك حباً في الله وبراً بأمة محمد ﷺ ، وعلى هذا كان الكثيرون من صلحاء أهل الطب .

وعندما وصل ابن فاطمة الرحالة إلى آخر بلاد غانة نظر إلى ما وراءها وسأل عنها فقالوا له : هذه بلاد الكفر . فقال لمن معه : هلَّا بنينا مسجداً في هذا الموضع ؟ قالوا : يحرقه الكفار . فقال : لا والله ما يحرق المساجد إلا الجبار العنيد ، وهؤلاء قوم على الفطرة لا يعرفون الشر ، « فما انتهى اليوم حتى كنا قد أقمنا مسجداً صغيراً من طين وسقفناه بالسعف واختار شيخ كبير من الرفقة أن يقيم عند المسجد فيخدمه ، وتركناه ومضيئنا ، وعندما عدت بعد شهور قليلة وجدنا الموضع قد صار بلد إسلام ، وامتدت المساجد فيما قالوا إنه بلد الكفر أميلاً كثيرة ، وأصبح الشيخ إماماً في نعمة كبيرة ببركة هذا المسجد المحروس » .

وهذا الذي ذكره «ابن فاطمة» ليس فريداً في بابهِ ، فقد كان أهل الطرق الصوفية الذين يخرجون بالتاجر فيما يلي الهند غرباً وفيما يلي بلاد المغرب الأقصى جنوباً ، يعمدون إلى بناء الزوايا في كل موضع يصلون إليه ، فلا يلبث الموضع أن يصير بلداً إسلامياً ، وأمامك « تاريخ السودان » للناصرى السعدى الرحالة تجد فيه عشرات الأمثلة على ذلك فيما يتصل بإفريقية المدارية والاستوائية .

وقد حكى فنسان مونتاي V. Montueil أن هذه أيضاً كانت طريقة تجار المسلمين فيما يلي بلاد الهند شرقاً ، فقد كانت جماعات تجار المسلمين إذا تكرر نزولهم في

موضع ابتنوا مسجداً ليكون مكان تجمع لهم ، فلا يلبث أهل الموضع أن يُقبلوا على الجامع ويدخلوا في الإسلام ، وطرق التجارة كانت طرق إسلام في آسيا كما كانت في إفريقيا ؛ وكانت تلك الزوايا المتواضعة طلائع الزحف الإسلامي ، وإذا أردنا أن نتعرف طرق التجارة في هذه النواحي فعلياً أن نتبع خطوط الزوايا .

ولقد روى هذا العالم الفرنسي عن أبيه - وكان عالماً جليلاً مثله - أنه قال إن بعض هذه الزوايا المتواضعة كان لها من الأثر في نشر الإسلام ما يفوق ما كان للكاتدرائيات الضخمة في نشر المسيحية ؛ ولقد بدءوا - ذات مرة - في إنشاء كنيسة في قرية في السنغال ، وبينما كانوا في البناء نزل « مُريدٌ » وأخذ يدعو للإسلام ، وفي بحر ستين وقبل أن يوضع سقف الكنيسة كان هذا المريد قد حَوَّلَ أهل القرية كلها إلى الإسلام ، وامتألت البلد بالزوايا ؛ فكفوا عن إكمال بناء الكنيسة وصرفوا النظر عن أمرها .

وتجد العشرات من الأمثلة على صدق ما نقول في تاريخ حركة صوفية معاصرة هي السنوسية ، فإن زوايا السنوسية امتدت من واحة الكفرة وفزان في خطوط طويلة وصلت إلى بحيرة تشاد ، ثم وادي النيجر الأعلى ، واخترقت طرق الصحراء المخوفة فأصبحت طرقاً آمنة عامرة بالناس ، وحملت الإسلام إلى أقصى بلاد جمهوريات تشاد والنيجر والفولتا .

وكانت نقطة البداية في كل موضع هي الزاوية، أي : المسجد الصغير يلد الجماعة الإسلامية ، وهذه الجماعة الإسلامية تنشئ مسجداً صغيراً فيما يليها ، وهذا المسجد الصغير الجديد يلد جماعة إسلامية جديدة، وهكذا ...

وإليك شهادة من التاريخ تؤيد ذلك الذي نقوله : في سنة (٣١ هـ / ٦٠١ م) غزا عبد الله بن سعد بن أبي سرح (عامل مصر) بلاد النوبة والتقى معهم في معركة « دنقلة » التي تكتب في النصوص « دمقلة » ، وهزمهم وكتب مع رئيس الناحية أو عظيم النوبة عهداً وعقد معه حلفاً يسمى « البَقْط » ، يصبح أهل النوبة بمقتضاه حلفاء المسلمين ، وابتنى سعد بعد ذلك مسجداً هو أقدم مساجد السودان . لقد بناه عبد الله بن سعد ليكون طليعة للإسلام ، يلد الجماعة الإسلامية في السودان ، وجاء في نص عقد الحلف : «وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بقاء مدينتكم ولا تمنعوا منه مُصلِّياً وعليكم كَنَسُهُ وإسراجهُ وتكرمه » .

لقد عرف عبد الله بن سعد ومن معه من المسلمين أهمية ذلك المسجد والدور الذى سيقوم به ؛ ولهذا اشترط على أهل النوبة كنسه وإسراجه وتكرمه ، أى : العناية به واحترامه .

وسبحان الله الذى أوحى إلى رسوله ﷺ أول ما وطئت قدمه «قباء» أن يُنشئ مسجداً ، فقد كان ذلك مولداً لجماعة الإسلام فى المدينة ، وعندما استقر الرسول ﷺ فى منازل بنى عدى بن النجار فى وسط المدينة لم يقدم شيئاً على بناء مسجده ، وعندما قام هذا المسجد ظهرت الجماعة الإسلامية الأولى إلى الوجود .

ونخرج من ذلك بالحقائق التالية :

١ - إن المساجد كانت مراكز اتصال بين أفراد الجماعة الإسلامية الكبرى ؛ فى المساجد كان الغرباء من أبناء الجماعة الإسلامية الكبرى يتلاقون ، وهناك كانوا يتجمعون ويتعرف بعضهم إلى بعض ، وهناك كانوا يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة هى أمة الإسلام ، وبفضل المساجد لم يكن المسلم يشعر بأنه غريب فى بلد إسلامى .

٢ - إن المساجد - فى أحيان كثيرة جداً - كانت « النواة » التى نشأت حولها جماعة إسلامية جديدة ؛ بعض التجار أو المهاجرين المسلمين إلى بلد غير إسلامى ينشئون «زاوية» تجتذب أهل البلد إلى الإسلام فتنشأ جماعة إسلامية حول هذه الزاوية ، ثم يقوم أهل هذه الجماعة الجديدة بإنشاء زاوية فيما يليهم من الأرض فتنشأ فيها جماعة إسلامية جديدة ، وهكذا تزحف المساجد والجماعة الإسلامية وراءها .

بهذه الصورة انتشر الإسلام فى نواح كثيرة جداً من إفريقية المدارية والاستوائية وفيما يلى الهند شرقاً من بلاد آسيا .

٣ - إن المساجد فى ذاتها مراكز للدعوة الإسلامية ؛ ومن ثم فلا بد أن يعمل المسلمون على إنشاء المساجد فى البلاد التى يريدون تثبيت دعائم الإسلام فيها وتوسيع نطاقه ؛ زاوية صغيرة يقوم فيها إمام مخلص نشيط أبلغ أثراً من مركز ضخم فيه عدد كبير من الموظفين أو الدعاة كما يسمون ، لأن ذلك المركز يثير المنافسة للإسلام والجهد

المضاد ، وفى الغالب يكون ذلك الجهد أكبر مما يقوم به المركز نفسه ؛ أما الزاوية المتواضعة فتؤدى عملها الإسلامى فى هدوء .

لابد من الإكثار من المساجد فى بلاد الأطراف :

ونخرج من هذه الملاحظة الثالثة بأن أهم ما ينبغى أن نحصر عليه هو إنشاء المساجد فى أطراف بلاد الإسلام ؛ فإذا كان عند أحدنا أو بعض دولنا مال تريد أن تنفقه على إنشاء مسجد أو مساجد فلتنشئها فى بلاد الأطراف أو على طرق امتداد الإسلام ، فذلك هو المهم اليوم ، وهو لهذا أجدر بالتقديم ، لأن الإسلام اليوم يخوض بالرغم منه معركة ، والمساجد من أهم حصوننا فيها ، والمعارك تدور على الحدود لا فى الداخل ، وإذن : فمن الضروري أن نركّز الجهد الآن على تلك البلاد ؛ لابد من تحويل أكبر جانب من الجهد والمال الذى يتفق فى بناء المساجد إلى بلاد الأطراف حيث توجد أقليات إسلامية فى حاجة إلى مراكز تُثبّت إيمان الناس وتعمل على تجميعهم وإشعارهم بأنهم أعضاء فى جماعة ضخمة تحمى بهم وتقف معهم .

لابد من ذلك فى النطاق الجنوبى للإسلام الإفريقى : إريتريا وكينيا وأوغندا وزائير وتشاد وجمهورية إفريقيا الوسطى والكاميرون والكونغو برازافيل ونيجيريا وجمهورية النيجر وداهومى والفولتا وساحل العاج وليبيريا وسيراليون وغانة وغينيا ثم تنزانيا وزامبيا ومدغشقر .

وينطبق هذا أيضاً على جنوب آسيا مما يلى الهند شرقاً : بورما وتايلاند ولاوس وفيتنام ، وما لم يتم نشر الإسلام فيه من جزر إندونيسيا : بورنيو وبالي وإيربان الغربية ثم جنوب الفلبين .

فى هذه النواحي كلها يقوم التهديد والخطر وتدور المعركة الدفاعية بين الإسلام وخصومه ، وعلينا أن نخوضها بالبسالة التى خاض بها الإسلام معاركه دائماً ، وعُدَّتْنا فى هذه المعركة هى المساجد ؛ المساجد أولاً .

* * *

المساجد ومظهر المسلمين :

يقول الله سبحانه وتعالى فى [الآية ٣١ من سورة الأعراف] : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ، وفى أحاديث كثيرة أمر رسول الله ﷺ المسلمين بأن يتخذوا أحسن ما لديهم من الثياب عند ذهابهم للصلوات الجامعة يوم الجمعة والأعياد ، وقد فهم المسلمون هذه الآية وتلك الأحاديث ووعوها فكان لها أثر بعيد جداً فى مظهرهم وملابسهم وهيئاتهم .

فقد حرص المسلمون فى شهودهم الصلوات الجامعة على أن يكونوا فى أحسن ملابسهم ، وقد نوه ابن بطوطة بهذه الناحية فذكر فى مواضع كثيرة من كتابه كيف كان الرجال يتخذون أحسن ملابسهم ويتطيّبون عند ذهابهم إلى المساجد لصلاة الجمعة ، وفى كلامه عن المسلمين فى جزيرة ملديف قال إنهم يعتقدون هناك أنه لا جمعة لمن لم يتخذ أغلى ما لديه من الثياب فى ذلك اليوم .

وحكى ابن جبير الرحالة أن الناس فى بعض قرى العراق يمنعون ذا الثياب الخلقّة أو الرثّة من شهود الجمعة .

أما المسعودى فقد أطل الوصف عند حديثه عن أزياء الناس وحسن مظهرهم عند شهود الجمعة فى بلاد إيران . ويذهب لسان الدين بن الخطيب فى هذا المجال إلى حد تفصيل أنواع الثياب التى كان أهل غرناطة يرتدونها أيام الجمع : « ولباسهم الغالب على طرائقهم الفاشى بينهم الملف المصبوغ شتاء ، وتفاضل البرّة بتفاضل الجدة والمقدار (أى: حسب اختلاف الثروة والمكانة الاجتماعية) والكتان والحرير والقطن والمرعز الإفريقية والمقاطع التونسية والمآزر المشفوعة صيفاً ، فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة فى البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة » .

وإذن : فقد امتد التأثير الاجتماعى للمساجد حتى شمل ملابس الناس وأزياءهم ، فحسّن منها وزاد من عناية الناس بها ورفع مستواها ، ودفع الناس إلى أن يكون عند كل منهم ثوب أو أكثر نظيف لصلاة الجمعة وما يجرى مجراها من المناسبات الكبيرة .

وفى حكاية معروف الإسكافى من «ألف ليلة وليلة» ينظر معروف إلى نفسه - بعد

أن بدّلوا ثيابه وهو نائم، وألبسوه ملابس أمير - فيقول : « ماذا فعلتم بي حتى ألبستموني لبست درج^(١) الجمعة يوم الثلاثاء؟! » .

بدأنا هذا الحديث بالكلام عن الأثر الجمالى البعيد للمساجد من ناحية المعمار ، ونختمه هنا بهذه الإشارة إلى أثر المساجد فى ملابس الناس وهيئاتهم فى عالم الإسلام ، وقد مررنا - فيما بين البداية والنهاية - بأهم ما استطعنا أن نذكره عن دور المساجد فى حياة الجماعة الإسلامية ، وما ذكرناه جملة عاجلة تحتاج إلى دراسة مطولة ، فإن المساجد كانت - ولا تزال - روح الجماعات الإسلامية وقطبها وحصنها ومركزها الدينى والسياسى والاجتماعى ، بحيث تستطيع أن تقول : لا جماعة إسلامية بلا مسجد ، أو بتعبير أدق : لا بقاء لجماعة إسلامية بلا مسجد .. ولهذا نبهنا إلى ضرورة إنشاء المساجد على أطراف العالم الإسلامى وفى خطوط امتداد الإسلام خارجه .

* * *

(١) أى : أحسن ثياب عنده .



الفصل الرابع

ميلاد المساجد



بعد هذه الفصول القصار عن المساجد في القرآن والسنة ودورها الديني والسياسي والاجتماعي في تاريخ الجماعات الإسلامية نخصص هذا الفصل وما يليه لدراسة تاريخ المساجد وتطورها وطرزها ، وما امتازت به من الخصائص الفنية والجمالية ، وسنجهتهد في أن يكون ذلك على وجه من الإيجاز شديد ، فلا ندخل في المناقشات الخاصة بالأصول الفنية لهذه الناحية المعمارية أو تلك ، فقد درس هذه النواحي أساتذة أجلاء متخصصون^(١) أوفوا على الغاية منها ، وسندع جانباً كذلك المسائل الهندسية الصرفة ، ولكننا سنحرص دائماً على أن نلتزم منهج العلم الدقيق من صحة وأصالة وتحقيق ، ونستعمل المصطلح العلمي أو الفني الجاري في موضعه ، ونبسّط للقارئ كل الحقائق التي سنمرّ بها بسطاً واضحاً لا تكلف فيه ولا إسراف .

وسنستعين بالرسوم والصور في التعريف بدقائق الأشكال الهندسية المعمارية ، ومن هنا فقد تخيرنا الرسوم والصور على نحو تكون معه مكملّة للنصّ وجزءاً أصيلاً من مادة الكتاب لا مجرد زينة وحلية .

وسنرى من خلال هذه الدراسة الموجزة كيف أن تاريخ المساجد يضم فصولاً كثيرة من التاريخ الحضاري والاجتماعي للجماعة الإسلامية ، ويضم كذلك فصولاً أخرى من تاريخ دول المسلمين . وقد كان يقال إن الشعر ديوان العرب ، وهي حقيقة تؤيدها الأدلة ، ونضيف إليها حقيقة أخرى - لا تقل عنها صدقاً - وهي أن المساجد ديوان أمم

(١) انظر مثلاً كتاب د. أحمد فكري : مساجد مصر ومدارسها ، المدخل (مجلد صدر في القاهرة سنة ١٩٦٦م) فقد ناقش فيه نظريات المستشرقين حول أصول العمارة الإسلامية مناقشة جامعة تدل على علم واسع وتحقيق دقيق ، وكذلك كتاب د. فريد شافعي : العمارة العربية في مصر الإسلامية (القاهرة ١٩٧٠م) وهو من أوفى وأشمل ما قرأنا من الكتب في العمارة الإسلامية ، وقد أضاف د. شافعي فصولاً بديعة حقاً عن أصول العمارة بصورة عامة والإسلامية بصورة خاصة وتعمّق في موضوع الأصول الفنية بصورة تدعو إلى الإعجاب . وكتاب د. سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ج١ القاهرة ١٩٧٢م ، وقد استوفت فيه الكلام عن مساجد مصر وتاريخها وأصولها الفنية على نحو يضارع ما قام به أحمد فكري وفريد شافعي .

الإسلام ، فمساجد الأمة تعرض جوانب كبيرة من تاريخها ، فقد كان قيام مسجد الرسول ﷺ من معالم قيام أمة الإسلام فى المدينة ، ثم تطورت الجماعة ونمت واتسعت وتطور الجامع معها دائماً واتسع ، وما من دولة إسلامية قامت فى الحجاز أو كان لها عليه سلطان إلا أضافت إلى المسجد شيئاً أو أعادت بناءه إلى يومنا هذا ، ومن هنا فإن تاريخ مسجد الرسول ﷺ إنما هو سجل لفصول حافلة من تاريخ معظم دول الإسلام الكبرى فى الشرق العربى .

وكذلك يقال عن معظم المساجد الجامعة فى عواصم الإسلام الكبرى ، فجامع عمرو فى مصر سجل لتاريخ دول مصر ، وجامع عقبة فى القيروان يقص علينا فصولاً كاملة من تاريخ إفريقية والمغرب عامة ، ويصل الأمر أحياناً إلى أن نجد أن المسجد يقص تاريخ دولة من الدول من ميلادها إلى نهايتها ، ومثال ذلك : مسجد قرطبة الجامع الذى يؤرخ لأمرأ البيت الأموى الأندلسى واحداً واحداً ، فما منهم أمير أو خليفة إلا حرص على أن يضيف إليه ويَشْرُفَ بتسجيل اسمه على جدرانته ، حتى المستبد بالأمر هناك - وهو المنصور بن أبى عامر - أضاف إلى المسجد إضافة تحمل طابع استبداده وغروره ورغبته فى إضفاء الشرعية على حكمه .

ويصدق ذلك أيضاً على الأزهر الذى صاحب تاريخ مصر مرحلةً مرحلةً منذ إنشائه سنة (٩٦٩م) إلى يومنا هذا ، فكما أنك تقرأ تاريخ مصر فى حوليات ؛ كتلك التى كتبها أبو المحاسن بن تغرى بردى فى كتابه « النجوم الزاهرة » ؛ فإنك تستطيع استعراض هذا التاريخ وأنت تجول فى أرجاء هذا المسجد الجليل .

وسنرى أمثلة كثيرة لذلك خلال ما يلى من الصفحات ..

إلى حين قريب كان عمادنا فى دراسة المساجد والعمارة الإسلامية عامة على أعمال الأثرين الأوروبيين ، لأن علم الآثار المعروف باسم «الأركيولوجيا» علم مستحدث لم نعرفه فى ماضينا ، وقد أخذناه فيما أخذنا من علوم الغرب ؛ ويستوقف النظر أن علماء المسلمين فى العصور الماضية كتبوا فى كل موضوع وأرخوا لكل شئ فى عالمهم إلا المساجد ، فلم يؤلف فى عمارتها وأوصافها أحد منهم على الرغم من أن الكثير من مؤلفاتهم فى التاريخ والجغرافية والرحلات تحفل بمادة ثمينة عن المساجد وغيرها من العمائر .

ولقد عثرت مرة على مخطوط فى المكتبة الأهلية فى مدريد عنوانه « البيان فى أحكام البنيان » فحسبت أننى عثرت على ضالة منشودة ، فلما اطلعت عليه وجدت أنه لا يشير إلى العمارة بكلمة ، وأن مادته تدور على الأحكام الشرعية الخاصة بالمباني ، وشبهه بذلك كتاب « إعلام الساجد بأحكام المساجد » لمحمد بن عبد الله الزركشى (٧٤١ - ٧٩٤ هـ / ١٣٤٤ - ١٣٩٧ م) فإنه يورد كل ما يتصل بالمساجد من الناحية الفقهية دون أن يشير - ولو إشارة عابرة - إلى عمارتها .

ولكن عمائرنا الإسلامية التى لم تستوقف انتباه مؤلفينا فى الماضى أثارت إعجاب أهل الغرب عندما اتصلوا بنا ، وكانت عمارة المساجد والقلاع والبيوت من أهم ما استوقف أنظار رجال الحملة الفرنسية عندما نزلوا مصر ، ولهذا فقد خصصوا لها فصولاً طويلة من كتابهم الفريد « وصف مصر » ففى هذا الكتاب الحافل نجد عشرات التصاوير التى صنعها رجال الحملة للمساجد وغيرها من العمائر التى وجدوها فى مصر .

وكانت - تلك فيما أعتقد - هى نقطة البداية بالنسبة لدراسة الآثار والعمارة الإسلامية فى العالم العربى دراسة علمية ، ولقد سبق الإنجليز إلى دراسة العمارة الإسلامية فى الهند عند دخولهم إياها خلال القرن السابع عشر ، ولكن دراساتهم لم تصل إلينا إلا منذ عهد قريب .

وحرص الفرنسيون منذ دخولهم المغرب على دراسة العمارة الإسلامية فى نواحيه ، ويعتبر الفرنسيون - بصورة عامة - من أشد الأمم اهتماماً بالعمارة والتأريخ لها ، ونتيجة لذلك ظهرت فى فرنسا مدرسة جلييلة من الأثريين الفرنسيين المتخصصين فى العمارة الإسلامية من أمثال جورج مارسيه وبول ريكار وهنرى تيراس .

ثم دخل ميدان العمارة الإسلامية فى العالم العربى نفر من علماء الفرنسيين والإنجليز من أمثال دوسو وجاستون فييت Gaston Wiet وإيلى لامبير وچان سوفاجيه والكابتن كريسويل وتالبوت رايس Talbot Rice واشتهر من الألمان إرنست كونل Ernst Kuhnel وهـ . ديتس Herman Diez ، وتنبه العرب إلى أهمية الدراسات

المعمارية لآثارهم فظهر رجال مثل حسن عبد الوهاب فى مصر ، وهو عميد الأثرين العرب بما أَلَّفَ عن مساجد القاهرة .

وعلى أيدى أساتذة من أهل الغرب نشأت الأجيال المعاصرة من الأثرين من أبناء العروبة ، وأنشئ معهد الآثار الإسلامية فى القاهرة ؛ وتخرجت فيه أجيال من الأثرين الذين يحملون اليوم أمانة آثارنا الإسلامية فى عالمنا العربى كله ، وبفضل هؤلاء جميعاً أصبحت الآثار الإسلامية علماً أصيلاً يدرس فى الكثير من جامعاتنا ، وزادت العناية بدور الآثار الإسلامية فى بلادنا كلها .

وقد اشتهر عندنا أمر الكابتن كريسويل الإنجليزى Creswell ومؤلفاته فى العمارة الإسلامية الأولى ثم فى مساجد مصر ، واعتبره الناس الحجة التى لا يُعلى عليها فى المعرفة بعمارة الإسلام حتى تصدى له نفر من علمائنا وناقشوه فى الكثير من آرائه التى جانب فيها الصواب كما نرى عند أحمد فكرى وفريد شافعى وعبد العزيز سالم وسعاد ماهر وغيرهم ، وترجع شهرة الكابتن كريسويل إلى أنه كان من أقدم الغربيين الذين انصرفوا لدراسة العمارة الإسلامية وتخصص فيها بقية عمره فقد بدأت دراسته لها سنة (١٩١٠م) عقب تخرجه فى مدرسة وستمنستر فى إنجلترا ، وبدأت دراسته العملية للآثار الإسلامية سنة (١٩١٦م) عندما وصل إلى مصر عضواً فى بعثة الطيران البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى ثم عين فى سنة (١٩١٨م) عضواً فى لجنة ألفها الإنجليز لإحصاء الآثار فى البلاد التى كانوا يحتلونها إذ ذاك ، ومن ذلك الحين استمر كريسويل يدرس الآثار الإسلامية ويؤرخ لها ويؤلف فيها حتى وفاته فى منتصف الستينات .

ورغم ذلك العمر الطويل الذى أنفقه كريسويل فى دراسة الآثار الإسلامية ، وآلاف الصفحات التى كتبها فيها لم يوفق إلى الإحساس بنواحى الجمال المعمارى والروحى التى تمتاز بها ؛ ولا تشعر وأنت تقرأ كلامه الطويل عن العمارة الإسلامية أنه أدرك شيئاً من الجمال الرقيق ، أو أحس بقلبه شيئاً من الجلال الروحى للمساجد التى قضى العمر فى قياس أطوالها وعروضها والبحث عن المواد التى صنع منها كل جزء من أجزائها ، وظل هذا الرجل طول عمره يتمسك بآراء سطحية وجامدة تكونت فى ذهنه أثناء سنوات دراساته الأولى للآثار الإسلامية ، أيام كان ضابطاً بريطانياً يدرس معالم حضارة

يعتقد أنها ماتت وذهب أوانها ، وأنه يحمل إلى أهلها حضارة أرفع وأسمى ؛ وتلك واحدة من العُقد التي شابت عمل كريسويل وحجبت عن عينيه حقائق الفن الإسلامى الذى رآه ولم يحس به ، وعاش فيه دون أن يفتح له قلبه .

ومن الآراء الجامدة الصماء التى يتعجب الإنسان من تمسك كريسويل بها قوله : إن النبى - ﷺ - لم يبن مسجده فى المدينة ليكون مصلى للجماعة الإسلامية ، ومركزاً سياسياً واجتماعياً لها وإنما ابنتى - على زعمه - داراً لنفسه ليسكنها ، وألحق بها رحبة واسعة مسورة ليؤدى فيها المسلمون صلواتهم ، وإن الإنسان ليتعجب - ويتأسف فى الوقت نفسه - من تشبث هذا الرجل بذلك الرأى العقيم الذى قاله سنة (١٩٣١م) عندما نشر المجلد الأول من كتابه الضخم عن « العمارة الإسلامية الأولى » ، ثم كرره بنصه سنة (١٩٥٨م) فى الموجز الذى عمله لهذا الكتاب ، ونشر ضمن مجموعة كتب بليكان فى لندن فى تلك السنة (١).

وأخشى أن يتصور القارئ أن كريسويل وقف من المسجد الإسلامى الأول - ومن بقية المساجد الإسلامية التى درسها - هذا الموقف الجامد لأنه أوربى غير مسلم ، أو مستشرق ، لأن الحقيقة أنه لا دخل لأوربية هذا الرجل أو عدم إسلامه فى ذلك الموقف ، وإنما هو يرجع إلى طبيعته نفسها ، فقد كان بريطانياً فيكتورى العقل ، عاش فى ضباب الغلواء الاستعمارى ؛ فلم ير فى الشرق إلا ميداناً للسلطان البريطانى ؛ ولم يحس فيه بشىء إلا من خلال ستر ذلك الضباب .

ولكن هناك مستشرقون آخرون درسوا آثار الإسلام ومساجده بقلب سليم ونظر سديد ، فرأوا من حقائق الفن الإسلامى وأحسوا من نواحي جماله الشىء الكثير ؛ خذ مثلاً هذه السطور التى كتبها الأثرى الفرنسى چاستون فييت Gaston Wiet الذى عاش عمره كله يدرس آثار الإسلام وفنونه حتى توفى عن سن عالية (سنة ١٩٦٩م) .. قال فى كتابه عن مساجد القاهرة :

« لقد قيل إن الفن الدينى لا تكون له قيمة تاريخية إلا إذا صدر عن إخلاص ، وعن

(1) K.A.C., Creswell, A Short Account of Early Muslim Architecture; Pelican Books, 1958 .

طريق الإخلاص يخاطب ضمير المؤمن ... إن ديناً جديداً - هو الإسلام - قد أخذ ينمو في مصر .. ولا بد أن تتبع ذلك حضارة كاملة ، وينشأ عن ذلك ظهور فن جديد مبتكر تماماً » .

« إن العمل الأساسى فى ذلك الفن الجديد هو المسجد ، وهو فى العادة بناء لا تتساوى أضلاعه .. فإن اتساعه أكبر من عمقه ، والمؤمنون الذين يصلون فيه يقفون صفوفاً جنباً إلى جنب ؛ والبناء محاط بسور تختلف ارتفاعات أجزائه بعضها عن بعض ، وقد تكون له نوافذ وقد لا تكون ، فإذا وجدت نوافذ كانت وظيفتها زخرفية خالصة ، لأن إضاءة المسجد تتأتى عن طريق صحن مكشوف تحيط به بوائك تقوم على أعمدة أو دعائم ؛ والبوائك التى تتجه أروقتها صوب مكة أعمق دائماً من بوائك النواحي الثلاث الأخرى » .

« إن الخطة العامة للمساجد تتماشى تماماً مع وضوح العقيدة الإسلامية وبساطة أركانها وخلوها تماماً من الأسرار ومن أى نوع من التعقيد فى طقوس العبادات ؛ ويبدو هذا مثيراً للدهشة بصورة أوضح إذا ذكرنا أن قدس الأقداس فى معابد مصر القديمة كان يقوم فى خدر مظلم لا يدخله إلا الملك وعدد قليل من رجال الدين المختارين ليتأملوا إلههم فى جلاله .

وكما أن بعض التكوينات الشبيهة بالأقواس فى بعض غاباتنا تذكر الإنسان بأروقة الكاتدرائيات الضخمة فكذلك نجد علاقة ما بين الجو الذى يشيع داخل مسجد ذى عمد وغابات النخيل ذات الهيئة الشديدة التناسق فى أحيان كثيرة ، ذلك أن غابة النخيل - شأنها فى ذلك شأن المسجد - إنما هى غابة بدون أسرار ، والأعمدة ذات القامات المنسرحة المتماثلة تماثلاً شديداً تخترق الجو المحيط بها دون أن تنشر فيه الظلام ، وهناك فارق آخر بين الكنيسة والمسجد جدير بأن يشار إليه : وهو أن الكنيسة تضرب فى العلو صاعدة نحو السماء بجدرانها العالية وأبراجها ومواضع أجراسها (حتى لقد قال ميشليه Michelet إن الدعائم الخارجية لجدران الكنائس تشد أزرها فى صعودها نحو السماء) ، أما المسجد فعلى العكس من ذلك يقوم منبسطاً على الأرض رمزاً للوقار والإخلاص والشجاعة الهادئة ، فخطة بناء المسجد ذات شخصية تدعو إلى الدهشة ،

وإذا كانت درجة الأصالة فى أى طراز معمارى تقاس بالنسبة للأهمية التى تعطى للمساحة التى يشغلها ؛ فإننا ينبغى أن نسلّم بأننا نجد فى المسجد استعمالاً إسلامياً للمساحة» (١) .

وهذه أفكار يقول بها أثرى جليل قضى عمره كله فى دراسة المنشآت المعمارية الأثرية فى فرنسا أولاً ثم فى بلاد الإسلام بعد ذلك ، وهى - كما هو واضح - آراء تتميز بالعمق والأصالة وصدق الإحساس وسلامة النظرة ، وكلما قرأناها تبيناً مقدار السطحية فى آراء كريسيول وعجزه عن الإحساس بأى حقيقة من حقائق الإسلام .

وجدير بالذكر أن الكثيرين جداً من مؤرخينا وكتابنا القدامى عجزوا عن إدراك نواحي الجمال والأصالة فى المساجد التى كانوا يترددون عليها صباح مساء ، ولقد بحثت عند رجال - كالمسعودى والمقدسى وابن خلدون - عن سطور تعبر عن إحساس حقيقى بالجمال الفنى والشخصية القوية التى تتمتع بها مساجدنا الإسلامية فلم أجد ، فإن قلوبهم لا تتحرك للمسجد إلا إذا كان ضخماً رفيع البنيان غالى التكاليف ، أما الإحساس بالأصالة والجلال اللذين يتميز بهما كل مسجد من المساجد - مهما كان صغيراً - فلا نكاد نجد له أثراً إلا عند القليلين من هؤلاء الكتاب .

* * *

أصالة المسجد :

وعندما نتأمل الخطة الأساسية التى يقوم عليها بناء المساجد نتبين أنها تمتاز عن غيرها من أنماط دور العبادة بأصالة لا نظير لها ، فدور العبادة فى الدنيا كلها منشآت ضخمة ذات جدران عالية وقاعات داخلية تضاء بالشموع والقناديل ، وتحيط بها أجواء من الغموض ، بل السحر ، تُوقع فى النفوس أثراً عميقاً ولكنه مصنوع متكلف ، ويقوم على خدمتها وقيادة طقوس العبادة فيها كهّان ورجال دين لهم هيئات خاصة وملابس مصممة على نحو يراد منه أن يوقع فى النفس أبلغ الأثر ، وهم يستعينون فى الصلوات بالبخور والأضواء الخافتة والأناشيد والموسيقى والكلام الغريب المبهم وكل ما يضغط

(1) Gaston Wiet, The Mosques of Cairo, Paris, 1966, P. 10-12 .

قلب المصلى ويعصره ويجعله خاضعاً للكهان ورجال الدين ، تستوى فى ذلك كنائس المسيحية على اختلاف مذاهبها ، وبيع اليهودية ، ومعابد البوذية بشتى فروعها ، ومعابد الديانات القديمة جميعاً عند المصريين والإغريق والرومان ، ومعابد الإنكا والأزتيك فى العالم الجديد قبل الكشف الكولومبى .

أما مساجد الإسلام فليس فيها من ذلك شىء ، إنما هى مساحات من الأرض صغيرة أو كبيرة ، تُنظف وتُسوى وتُطهر ويُعين فيها اتجاه القبلة وتُخصَّص للصلاة ، وقد تُسور هذه المساحات أو لا تُسور ، وقد تُفرش بالحصى النظيف أو الحصر الرخيصة أو البسط الغالية ، وقد تقام فوقها مبان ضخمة ذات جدران وسقوف وقباب ومآذن ، وقد لا يقام من ذلك شىء ، فلا يغير ذلك من الأمر شيئاً ، ويظل المسجد البسيط العادى مكاناً مقدساً واضح الشخصية لا يقل فى هيئته عن أضخم المساجد ، لأن المسجد - قبل كل شىء - فكرة وروح ، فأما الفكرة فهى التى وضعها رسول الله ﷺ عندما بنى مسجده الأول ، وأما الروح فهى روح الإسلام .

ولقد أنشأ رسول الله ﷺ مسجده فى المدينة بوحي من الإسلام وحده ، لم ينظر قبل إنشائه إلى عمارة كنيسة أو بيعة ، وجاء مسجده - على بساطته المتناهية - وافياً تماماً بكل ما تطلبت الجماعة منه ، وهذه هى الأصالة بذاتها .

* * *

مسجد الرسول فى المدينة (أبو المساجد) :

شرع الرسول ﷺ فى إنشاء مسجده فى المدينة لبضعة شهور من هجرته إليها ولم يستغرق إنشاؤه وقتاً طويلاً ، فتم فى نحو شهرين فى (العام الأول للهجرة / ٦٢٢ م) ، ولم يكن هذا أول مسجد بناه الرسول ، فقد سبقه إلى الوجود مسجد قباء الذى أنشأه سعد بن خيثمة بناء على رأى الرسول وترسيمه ، وقد تم إنشاء مسجد قباء واستعمل للصلاة فعلاً بعيد انتقال الرسول ﷺ من قباء إلى منازل بنى عدي بن النجار فى وسط المدينة وقد افتتحه الرسول وصلى فيه مع صحبته ، وقد ورد ذكر هذا المسجد فى القرآن الكريم فى سورة التوبة ، حيث قال الله سبحانه وتعالى :

﴿لَمَسْجِدُ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ .

[التوبة : ١٠٨]

وليست لدينا أية فكرة عن تخطيط مسجد قباء الأول ، ولكن لدينا فكرة واضحة جداً عن مسجد الرسول في المدينة ، فقد تحدث عنه مؤرخو السيرة حديثاً شافياً ، وناقش تفاصيله الأثريون المحدثون ما بين مسلمين وغير مسلمين ، وتتبع المؤرخون ما أدخل عليه من أعمال التحسين والزيادة ، وإعادة البناء على مر العصور ، مما يمكننا من تصويره تصوراً تاماً في كل مرحلة من مراحل بنائه منذ إنشائه إلى يومنا هذا .

وعندما نتأمل خطة المسجد كما وضعها ونفذها الرسول ﷺ ، لا يسعنا إلا أن نَعْجَب بما تمتاز به من وضوح وأصالة وتطابق تام مع روح الإسلام . ولا شك في أن الرسول ﷺ كانت لديه فكرة عن أشكال كنائس النصارى وبيع اليهود تكونت عنده على الأقل خلال رحلته الثانية إلى الشام عندما خرج إليه بمال السيدة خديجة ، وهو في الرابعة والعشرين من عمره في صحبة مولاها ميسرة ، ولكنه عندما فكر في بناء مسجده لم يتأثر بشيء من ذلك ، وإنما استوحى الهيئة والخطة من روح الإسلام وحده ، فالإسلام دين سهل واضح ، وهو طريق بين العبد وخالقه .

والمسجد - على هذا - مجرد مكان ظاهر يلتقى فيه العبد بالخالق ، فهو مساحة نظيفة مستوية مطهرة يحيط بها سور وظيفته تعيين حدود ذلك المكان المطهر المخصص للصلاة؛ ولم تكن هناك حاجة إلى تغطية هذه المساحة بسقف ؛ فاكفى بتسقيف جزء منها - في مقدمتها - على نحو بسيط جداً : جذوع نخل نصبت صفين بموازية الجدار الشمالي ، ثم غطى ما فوقها بعريش من خشب وسعف وغصون شجر ، وفي الجهة المقابلة أقيم عريش مماثل . ولكن مساحة المسجد لم تكن صغيرة فكانت في أول الأمر [٧٠ × ٦٣ ذراعاً] ، وكانت جذوع النخل في كل من العريشين صفين ، في كل صف ستة جذوع ، ثلاثة على اليمين وثلاثة على اليسار ، ثم وسَّع المسجد أيام الرسول ﷺ ، فأضيف إليه (١٠ أذرع في العرض) و (٢٠ ذراعاً في الطول) ، وزيدت جذوع النخل أو الأساطين اثنين في العرض وأضيف صف ثالث منها في كل من الشمال والجنوب عند العريشين ..

أى : أن المساحة الكلية للمسجد كانت فى السنوات الأخيرة من حياة الرسول (٦٥٧٠ ذراعاً مربعاً ، أى : ٦٠ , ٣٨١٠ متراً تقريباً) على اعتبار أن ذراع المدينة أيام الرسول يساوى (٥٨ ستيماً فى المتوسط) .

وهذه مساحة معقولة جداً لمسجد جامع خاصة إذا ذكرنا أنه بنيت فى المدينة - فى ذلك الوقت - مساجد أخرى كثيرة ، ولقد عَدَّ السهوى نحو عشرين منها فى نواحي البلد وفى منازل القبائل ، أى : أن مسجد الرسول ﷺ كان المسجد الجامع بالنسبة للجماعات الإسلامية الناشئة ، فيه تؤدى الصلوات الجامعة ، وفيه يجتمع الرسول بصحابه ، وفيه يَلْقَى عليه الصلاة والسلام من يشاء من أهل الجماعة ، ومن على منبره يبلغ الرسول جماعته ما يريد إما بشخصه أو عن طريق أحد أصحابه ، أى : أنه كان المركز الروحى والفكرى والسياسى للجماعة ورمز وحدتها .

والحقيقة أن المسجد عندما تم بناؤه أخذت الجماعة صورتها المادية ، فقد أصبح لها مكان اجتماع ولقاء ، وكان ذلك متمماً لصورتها القانونية الدستورية عندما تم تحرير القطعة الأولى من « الصحيفة » التى كتبها الرسول ﷺ بين « المهاجرين والأنصار ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم من اليهود » . والمادة الأولى من ذلك الدستور تعين الميلاد القانونى الدستورى لأمة الإسلام ، وتتضمن بقية المواد العناصر الأساسية لحقوق المواطنين وواجباتهم .

وفى الركن الجنوبى الشرقى لصحن المسجد ابنتى الرسول ﷺ حجراته التى عاش فيها مع أزواجه من ذلك الحين ، وقد ذهب بعض الأثرين إلى أن هذه الغرف بنيت خارج الجامع ملاصقة لجداره ، وهذا مستبعد ، لأنه من الثابت أن أبواب حجرات الرسول كانت داخل المسجد إلى يسار الداخل من باب أبى بكر ، ثم إن الغرف لم تكن لها أبواب ، وإنما أسدلت عليها سترٌ تحجب داخلها عن الخارج ، وهذا لا يكون إلا إذا كانت الغرف داخل سور المسجد .

وبالإضافة إلى ذلك فنحن نعرف أن الرسول كان يجتمع بأصحابه خارج الحجرات فى صحن الجامع ، ومن المعروف أن سور الجامع كانت له أبواب قليلة ، منها واحد - باب أبى بكر - كان مجاوراً لحجرات الرسول فكان يفضى إليها كما قلنا ، وغير بعيد من

هذه الحجرات ، عاش أهل الصفة تحت العريش الجنوبي ، ولم يكن أهل الصفة مجرد فقراء أووا إلى ذلك المكان ابتغاء العيش من حسنات المؤمنين ، فإننا نجد بينهم أسماء نفر ممن نستبعد فقرهم البالغ ، ولم يكن من أصحاب الرسول على أى حال من كان يقبل أن يعيش من إحسان إخوانه ، وما كان الرسول ليرضى لأى واحد من صحابته أن يعيش عائلة على غيره .

واليك قصة بناء هذا المسجد المشرف كما رواها محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، وهو ثالث المؤلفين فى المغازى ، فلم يسبقه إلى ذلك إلا أبان بن عثمان بن عفان (توفى بين ٩٥ و ١٠٥ هـ / ٧١٣ - ٧٢٣ م) وعروة بن الزبير (توفى ٩٤ هـ / ٧١٢ م) ، أما الزهرى فقد توفى سنة (١٢٤ هـ / ٧٤١ م) وكانت المغازى تُطلق إذ ذاك على السيرة كلها ، أى : حياة الرسول ﷺ وأعماله جميعاً ، وأخباره تروى عن صحابته ممن شهدوا المسجد وهو يبنى ، وصلّوا فيه كما بناه الرسول أول مرة ، ولهذا فروايته تحت بالنسبة لنا المكانة الأولى فيما يتصل بالمسجد وتاريخه إلى أيامه ، وسأقسم روايته إلى فقرات حتى تتبين أهمية ما تضمه من معلومات ، قال :

١ - بركت ناقة رسول الله ﷺ عند موضع مسجده ، وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين ، وكان مربداً^(١) لسهل وسهيل ، غلامين يتيمين من الأنصار ، وكانا فى حجر أسعد بن زرارة^(٢) .

(١) المريد واليدير والجرين : الموضع الذى يجعل فيه الزرع والتمر للتيسير .

(٢) قال السهيلي فى شرحه لسيرة ابن هشام المعروفة باسم « الروض الأنف » (٢ / ١٣) : « شهد سهيل بدرأ والمشاهد كلها ومات فى خلافة عمر ، ولم يشهد سهل بدرأ ، وشهد غيرها ومات قبل سهيل » ، ومعنى ذلك أن سهيلاً كان شاباً بالغاً فى وقت بدر لأن الرسول لم يسمح لمن لم يبلغ سن الرشد بالاشتراك فى بدر ، وهو على هذا لا يمكن أن يكون غلاماً فى حجر أسعد بن زرارة عند بناء المسجد (قبل بدر بشهور) ولا بد أن أخاه كان فى مثل سنه لأنه شهد أحدًا وما بعدها ، ولم يقطن لذلك السهيلي وغيره ، وهو قول ضعيف ، ويرجع ضعفه إلى عدم التدقيق فى الرواية ، فهم يروون ما يسمعون فى الغالب ، ونشك لذلك فى بروك الناقة فى مسجد الرسول ، لأنها بركت أمام بيت أبى أيوب خالد الأنصارى بإجماع الرواة ، وبيت أبى أيوب كان بعيداً عن موضع المسجد . والأصح أن أرض المسجد كانت أرضاً بوراً قريبة من دار أسعد بن زرارة أو كان هو وأصحابه يصلون فيها قبل الهجرة . وكان أهل المدينة قد اتفقوا مع الرسول على أن له الحق فى أن يستعمل فى مصالح المسلمين أى أرض بور غير مملوكة لأحد ، فأخذ هذه الأرض للمسجد . أما القصة فقد نشأت بعد ذلك حتى لا يزعم أحد أن له حقاً فى أرض المسجد .

٢ - ثَامَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ، فَقَالَا : بَلْ نَهَبَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا بِعَشْرَةِ دَنَانِيرَ .

٣ - وَكَانَ جِدَاراً لَيْسَ لَهُ سَقْفٌ وَقَبْلَتُهُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ ؛ وَبِهَذَا احْتَجَّ الْحَنْفِيَّةُ عَلَى صَحَّةِ التَّصَرُّفِ مِنْ غَيْرِ الْبَالِغِ .

٤ - وَكَانَ يَصَلِّي فِيهِ وَيَجْمَعُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ فِيهِ شَجَرٌ غُرُقْدٌ وَنَخْلٌ وَقُبُورُ الْمُشْرِكِينَ .. فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْقُبُورِ فَنُبِشَتْ وَبِالنَّخِيلِ وَالشَّجَرِ فَقُطِعَتْ ، وَصُفِّتْ فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ .

٥ - وَجَعَلَ طَوْلُهُ مِمَّا يَلِي الْقِبْلَةَ إِلَى مُؤَخَّرِهِ مِائَةَ ذِرَاعٍ ، وَفِي الْجَانِبَيْنِ مِثْلُ ذَلِكَ أَوْ دُونَهُ ، وَجَعَلَ أَسَاسَهُ قَرِيباً مِنْ ثَلَاثَةِ أَذْرَعٍ . ثُمَّ بَنَاهُ بِاللَّبَنِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبْنِي مَعَهُمْ ، وَيَنْقُلُ اللَّبَنَ وَالْحِجَارَةَ بِنَفْسِهِ وَيَقُولُ :

« اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ .. فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ » .

٦ - وَجَعَلَ قَبْلَتَهُ مِنَ اللَّبَنِ ، وَقِيلَ : مِنَ الْحِجَارَةِ ، وَجَعَلَهَا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ ، وَقَالَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ : هَذِهِ الْقِبْلَةُ كَانَتْ فِي شِمَالِ الْمَسْجِدِ ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَلَّى سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْراً إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ ، فَلَمَّا حَوَلَتِ الْقِبْلَةُ بَقِيَ حَائِطُ الْقِبْلَةِ الْأُولَى مَكَانَ أَهْلِ الصُّفَّةِ .

٧ - وَجَعَلَ لَهُ ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ : بَابٌ فِي مُؤَخَّرِهِ ، وَبَابٌ يُقَالُ لَهُ « بَابُ الرَّحْمَةِ » ، وَالبَابُ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

٨ - وَجَعَلَ عَمْدَهُ الْجَذُوعَ ، وَسَقَفَهُ بِالْجَرِيدِ ، وَبَنَى بِيوتاً إِلَى جَانِبِهِ .

٩ - وَلَمَّا فَرِغَ مِنْ بَنَائِهِ بَنَى بَعَائِشَةَ فِي الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهَا لَهَا شَرْقَ الْمَسْجِدِ ، وَهُوَ مَكَانُ حَجَرَتِهِ الْيَوْمَ .

١٠ - وَقَالَ الْحَافِظُ شَمْسُ الدِّينِ الذَّهَبِيُّ فِي « بَلْبِلِ الرُّوْضِ » : لَمْ يَلْبِغْنَا أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنَى لَهُ تِسْعَةَ أَبْيَاتٍ حِينَ بَنَى الْمَسْجِدَ ، وَلَا أَحْسَبُ بَعْدَ ذَلِكَ . إِنَّمَا كَانَ يَرِيدُ بَيْتاً وَاحِداً حِينَئِذٍ لِسُودَةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ لَمْ يَجْنَحْ إِلَى بَيْتٍ آخَرَ حَتَّى بَنَى بَعَائِشَةَ فِي شَوَالِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ . وَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنَاهَا فِي أَزْمَانٍ مُخْتَلِفَةٍ .

١١ - وَقَالَ السَّهَيْلِيُّ : وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : كُنْتُ أَدْخُلُ بِيوتَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا غُلَامٌ مَرَاهِقٌ وَأَنَا السَّقْفَ بِيَدِي .

١٢ - وكان لكل بيت حجرة ، وكانت الحجرة من أكسية من شعر مربوطة فى خشب عرعر .

١٣ - وورد أن بابها كان يقرع بالأظافر ، أى : لا حلق له .

١٤ - فلما توفيت أزواجه خلطت البيوت والحجرات بالمسجد فى زمن عبد الملك ابن مروان .

١٥ - وفى صحيح البخارى ، عن ابن عمر قال :

كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر .

١٦ - وزاد فيه عمر رضي الله عنه ، وبناء على بناء رسول الله ﷺ باللبن والجريد ، وأعاد عمدته خشباً .

١٧ - ثم غيرّه عثمان رضي الله عنه ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة^(١) ، وجعل عمدته من حجارة منقوشة وسقفه بالساج^(٢) .

١٨ - وقال خارجه بن زيد : بنى رسول الله ﷺ مسجده سبعين ذراعاً فى ستين ذراعاً أو يزيد .

١٩ - قال أهل السير : جعل عثمان طول المسجد مائة وستين ذراعاً وعرضه مائة وخمسين ، وجعل أبوابه ستة كما كانت زمن عمر .

٢٠ - ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك فجعل طوله مائتى ذراع ، وعرضه فى مقدمه مائتين ، وفى مؤخره مائة وثمانين .

٢١ - ثم زاد فيه المهدي مائة ذراع من جهة الشام فقط دون الجهات الثلاث .

(١) الحجارة المنقوشة هى المنحوتة وتسمى أيضاً المنضدة أى : منحوتة على هيئة مكعبات . والقصة بفتح القاف هى الحص يكسر الجيم ، وهو ما يعرف الآن بالجبس الذى توضع طبقة منه على المبانى لتغطى الطوب النئى (اللبن) أو المحروق (الآجر) أو الحجارة .

(٢) الساج هو البلاط أو السنديان الهندى وهو بالإنجليزية Teak .

٢٢ - قال النووي : فينبغي الاعتناء بما كان في عهده عليه السلام فإن الحديث الوارد في فضل الصلاة في مسجده ، إنما يتناول ما كان في زمنه ^(١) .

وقد أضافت سُكْنَى الرسول في الجامع أهمية خاصة إليه ، فقد أصبح المركز السياسى للجماعة ، وأغلب الظن أن الرسول قصد إلى هذا المعنى عندما قرر ابتناء حجراته هناك ، فما كان بعسير عليه أن يبتنى لنفسه مسكناً آخر قريباً من المسجد ، ولكنه أراد أولاً أن يكون مقامه داخل المسجد نفسه ليصبح المسجد المركز السياسى للجماعة ، وأراد ثانياً أن يرى المسلمون بأعينهم كيف يعيش رغم ما كان يتمتع به من سلطان واسع ؛ ليكون ذلك نموذجاً يحتذيه غيره ممن يخدمون الجماعة إلى جانبه أو بعده ، فقد أراد أن يعلمهم أن الخدمة العامة في جماعة الإسلام ليست رياسة أو سيادة ، وليست ممارسة سلطان على الناس ، وإنما هي خدمة عامة تؤدي للجماعة خالصة لوجه الله لا يقصد منها إلى ثراء أو جاه أو ترف أو مظهر ، إنما هي واجب يؤدي حباً في الإسلام وجماعته وابتغاء لثواب الله وحده .

وقبل أن نختم هذا الفصل عن نشأة المساجد وتكوينها ووصف مسجد الرسول عليه السلام - وهو أبوها جميعاً - نوجز ما مرَّ عليه من إصلاح وإعادة بناء إلى أيام الخليفة العباسى المهدي ، أى : إلى الوقت الذى أخذ فيه الجامع المكرم صورته التقليدية التى لم تتغير حتى الحرب العالمية الأولى إلا في التفاصيل ، رغم أعمال الترميم وإعادة البناء التى دخلت عليه ، ومعمدنا في ذلك على الدراسة الوافية التى أوردها أحمد فكرى في جزء المدخل من كتابه القيم عن « مساجد القاهرة ومدارسها » . ولا يتناول هذا الموجز تجديد هذا الجامع الجليل على يد آل سعود في أيامنا هذه ، وهو تجديد ستحدث عنه في حينه ، وقد أخذ به المسجد صورة من الجلال والرواء لم يشهدها من قبل .

(١) انظر محمد بن عبد الله الزركشى : « إعلام الساجد بأحكام المساجد » ، القاهرة ١٩٦٤م (ص ٢٢٣ - ٢٢٥) . وهذا تشدد لا محل له من النووى ، فإن أمة الإسلام قد زادت وهى في زيادة والحمد لله ، والمصلون في مسجد رسول الله عليه السلام يتزايدون مع الزمن ، ولا يمكن الاقتصار على الصلاة في المساجد التى كان الناس يصلون فيها في زمنه عليه السلام ، والثواب يستحقه كل من صلى في الحرم النبوى مهما اتسع وزاد حجمه .

١ - بنى المسجد فى العام الأول للهجرة (٦٢٢ م) :

مقاييسه الأولى [٧٠ ذراعاً طولاً^(١) فى ٦٣ ذراعاً عرضاً] .

عريش القبلة - وهو بيت الصلاة - صفان من النخيل موازيان لجدار القبلة ، فى كل صف (٦ جذوع نخل) تقوم مقام الأساطين (٣ منها على اليمين و ٣ على اليسار) .
عريش الجدار المقابل للقبلة (مقام أهل الصفّة) مساوٍ لعريش القبلة فى الهيئة والمقاييس .

٢ - الزيادة فى عهد الرسول ﷺ :

زيد المسجد (١٠ أذرع فى الشرق و ٢٠ ذراعاً فى الغرب) .

وزيدت جذوع نخله - أى : أساطينه - واحداً فى الشرق واثنين فى الغرب .

٣ - جددّه أبو بكر على نفس الهيئة :

واستبدل بجذوع النخل القديمة جذوعاً جديدة سنة (١٢ هـ / ٦٣٣ م) .

٤ - جددّه عمر بن الخطاب سنة (١٧ هـ) :

واستبدل بجذوع النخل أساطين من لبن ، وسَقَفَ العريشين بجريد ثم بخشب .
وأوصى البناء بالآل يحمرّ أو يصفرّ ، حتّى لا يفتن الناس ، وزاد المسجد فى الطول ، فقدم جدار القبلة (١٠ أذرع) ، وكذلك مدّه من الناحية المقابلة ، فأصبح طول المسجد (١٣٠ ذراعاً) . ووسّعه فى العرض فأصبح (١٢٠ ذراعاً) .

٥ - جدد بناءه عثمان بن عفان تجديداً كاملاً سنة (٢٩ هـ / ٦٤٩ م) :

وزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة أى : المنحوتة ، وطلّى الجدران بالقصّة ، أى : الجبس ، وجعل عمده من الحجارة بدل اللبن .

صارت مقاييسه [١٦٠ × ١٣٠ ذراعاً] . وزاد فى ارتفاع جدران المسجد ، وفتح نوافذ فى أعلى الجدار قرب السقف على اليمين والشمال فى بيت الصلاة . وأشرف على عمل هذه الزيادة زيد بن ثابت .

(١) ذراع المدينة فى عصر الرسول ﷺ يساوى ٥٨ ستيماً تقريباً .

٦ - أعاد بناءه الوليد بن عبد الملك فيما بين سنتي (٨٨ و ٩١ هـ / ٧٠٦ و ٧٠٩ م) :

وتم ذلك على يد واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز ، وأشرف على الهدم والبناء صالح بن كيسان^(١) .

أعيد البناء على نفس هيئة المسجد التي كان عليها أيام عثمان بن عفان ، ولم يزد المسجد إلا في العرض ، فأصبح (١٦٥ ذراعاً) ، ولكن البناء زاد جمالاً ومثانة .

٧ - أعاد بناءه وزاد فيه المهدي ثالث الخلفاء العباسيين سنة (١٦٠ هـ / ٧٧٨ م) :

فزاد المسجد من ناحية الشمال نحو (٦٥ ذراعاً) ، وزخرفت المجنبة الخلفية (المقابلة لبيت الصلاة) بالفسيفساء .

وقد بقي المسجد على هذه الصورة فوق أربعة قرون ، ولدينا وصف ابن جبير له ، وقد زاره سنة (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م) فقال : إن مقاييسه - على وجه التقريب - كانت [٢٢٥ × ١٦٥ ذراعاً] ، وإنه كان يتكون من صحن واسع يحيط به بيت صلاة من ناحية القبلة ومجنبة خلفية في الجهة المقابلة ومجتبتان شرقية وغربية .

بيت الصلاة عمقه (٥ أساكيب)^(٢) وعرضه (١٨ بلاطة) تقوم على (١٧ صفاً) من الأعمدة .

(١) جاء في كتاب الكامل لابن الأثير عن هذه العمارة ما يلي :

« وفي هذه السنة - (٨٨ هـ) - كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز - والي المدينة - يأمره بإدخال حُجَر أزواج النبي في مسجد رسول الله ﷺ ، وأن يشتري ما في نواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع ويقول له : قدّم القبلة إن قدرت ، وأنت تقدر لمكان أحوالك وأنهم لا يخالفونك ، فمن أبى منهم فقوموا ملكه قيمة عدل ، واهدم عليهم ، وادفع الأثمان إليهم ، فإن لك في عمر وعثمان أسوة . فأحضرهم عمر وأقرأهم الكتاب فأجابوه إلى الثمن ، فأعطاهم إياه ، وأخذوا في هدم بيوت أزواج رسول الله وبنى المسجد وقدم عليهم الفعلة من الشام أرسلهم الوليد ، وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه قد هدم مسجد النبي ليعمره فبعث إليه ملك الروم مائة ألف مثقال ذهب ومائة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين جمالاً فبعث الوليد بذلك إلى عمر بن عبد العزيز ، وحضر عمر ومعه الناس فوضعوا أساسه وابتدءوا بعمارته » .

(٢) سيأتي تعريف الأسكوب فيما بعد .

المجنبّة الشرقية تتكون من (٣ أروقة) .

والمجنبّة الغربية تتكون من (٤ أروقة) .

عدد أعمدة المسجد كلها (٢٩٠ عموداً) .

٨ - وقد احترق هذا المسجد في سنة (٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) فأعاد السلطان الظاهر بيبرس بناءه على نفس هيئته السابقة.

وقد تم العمل على أيدي معماريين وعرفاء وبنائين مصريين أرسلوا لهذا الغرض .

٩ - وقد رُمّم المسجد المكرم وأعيد بناؤه أكثر من مرة خلال العصرين المملوكي والعثماني .

١٠ - ثم أعيد بناء مسجد رسول الله ﷺ للمرة الأخيرة ، وأخذ صورته الجميلة الحالية في أيامنا هذه .

وهذا البناء الجديد - الذي جعل مسجد الرسول ﷺ آية من آيات فن العمارة العالمية في القرن العشرين - جدير منا بوقفة قصيرة .

فقد صدر قرار التوسعة الجديدة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود في (شعبان سنة ١٣٦٨هـ الموافق يونيو ١٩٤٩م) ، وبدأ في تنفيذ المشروع الذي استقر عليه الاختيار في (شوال ١٣٧٠هـ / يوليو ١٩٥١م) في عهد الملك عبد العزيز آل سعود أيضاً .. وقد اشترك في البناء والأعمال الفنية: مائتا صانع من مصر وسوريا وباكستان واليمن وحضرموت .

ووضع حجر الأساس في (ربيع الأول ١٣٧٣هـ / نوفمبر ١٩٥٣م) .

وتم البناء في (الخامس من ربيع الأول ١٣٧٥هـ / ٢٣ أكتوبر ١٩٥٥م) في عصر الملك سعود بن عبد العزيز .

أصبحت مساحة المسجد (١٦٣٢٦ متراً مربعاً) .

وارتفاع المئذنتين في الجو (٧٠ متراً) .

وتكلّف البناء فوق خمسين مليوناً من الريالات السعودية .

وقد استخدمت في البناء أرفع المواد وأغلاها من المرمر والرخام الملون وغير الملون والأخشاب النفيسة والمعادن الغالية.

المساجد الجامعة الأولى :

وبعد هذا الكلام عن أبي المساجد ، مسجد الرسول في المدينة ، نذكر المساجد الجامعة الأولى ونبذة عن كل منها ، وهي أربعة :

- مسجد البصرة :

اختطه عتبة بن غزوان سنة (١٤هـ / ٦٣٥ م) ، وكان مجرد مساحة مسقفة بالقصب يقوم سقفها على عمد من جذوع نخل وخشب ، ولم يكن له جدار بل أحاط به خندق .

- مسجد الكوفة :

اختطه سعد بن أبي وقاص سنة (١٥هـ / ٦٣٦ م) أو (١٧هـ / ٦٣٨ م) . وكان في أول أمره أيضاً مسجداً من قصب ، وقد أحاط به سور من قصب أيضاً . أعاد بناءه باللبن زياد بن أبيه سنة (٥١هـ / ٦٧٠ م) .

- مسجد الفسطاط :

اختطه عمرو بن العاص سنة (٢١هـ / ٦٤٢ م) ، وكانت مقاييسه الأولى [٥٠ × ٣٠ ذراعاً] .

وقد قام سقف بيت صلاته على عمد من جذوع نخل مسقفة بالخشب ، ولم يكن له صحن متسع .

وقد وسّع هذا المسجد وأعيد بناؤه (١٦ مرة) أحصاها أحمد فكري في كتابه الآنف الذكر ، أولها كانت في سنة (٥٣هـ / ٦٧٢ م) على يد مسلمة بن مخلد الأنصاري والي معاوية بن أبي سفيان على مصر ، وآخرها كانت سنة (١٢١١هـ / ١٧٩٦م) على يد مراد بك آخر بكوات المماليك ، وقد حكم مصر (مشتركاً مع إبراهيم) تحت سيادة العثمانيين .

والمبنى الحالي للمسجد حديث ، بنى في أوائل العشرينات من هذا القرن (سنة ١٩٢٢م) والصلة قليلة بين هندسته الحالية وهندسته كما نجد وصفها عند مؤرخينا . ويقال : إن مسلمة بن مخلد بنى للجامع في تجديده أربع مآذن ، فإذا صدق هذا الخبر كان هذا أول ذكر للمآذن في المساجد .

والمعروف على أى حال أن أقدم المآذن هى مثذنة جامع عقبة بن نافع فى القيروان ،
وقد بنيت سنة (٥٠ - ٥٥ هجرية) .

- مسجد عقبة بن نافع فى القيروان :

وهو أبو مساجد الجناح الغربى لمملكة الإسلام .. بناه عقبة بن نافع عندما اختط
القيروان بين سنتى (٥٠ و ٥٥ هـ / ٦٧٠ و ٦٧٥ م) .

ولم يكن هذا المسجد أول الأمر إلا مساحة مسورة بسور سميك من اللبن على هيئة
حصن ، وليست لدينا فكرة عن بيت صلاته ، ولكن حسان بن النعمان والى المغرب
لعبد الملك بن مروان عندما جدد بناءه سنة (٨٠ هـ / ٦٩٤ م) جعل له أبراجاً على
أركان سوره ، أى : أن المسجد أخذ هيئة الحصن فعلاً ، وقد احتفظت كل مساجد
المغرب بهذه الظاهرة بعد ذلك .

وقد جدد بناء هذا المسجد خمس مرات ، حتى وصل إلى صورته الثابتة التى سنشير
إليها كثيراً فى هذا المبحث ، فقد جدد حسان بن النعمان سنة (٨٠ هـ / ٦٩٤ م) .

ثم بشر بن صفوان (عامل هشام بن عبد الملك) سنة (١٠٥ هـ / ٧٢٣ م) .

ثم يزيد بن حاتم سنة (١٥٥ هـ / ٧٧٢ م) .

ثم أعاد بناءه زيادة الله بن الأغلب سنة (٢٢١ هـ / ٨٣٦ م) .

أما الذى أعاد بناء المسجد وأعطاه صورته النهائية فكان إبراهيم بن أحمد ، ثامن
أمراء بنى الأغلب سنة (٢٦١ هـ / ٨٧٥ م) .

هذه هى مساجد الإسلام الجامعة الأولى الأربعة ، وقد ذكرناها وأوجزنا ما مرَّ بها
من أعمال التجديد لأن ذلك يعطينا فكرة عن نشأة المساجد وتطورها إلى نهاية القرن
الهجرى الثانى على وجه التقريب ، ولم ندخل فيها المسجد الأقصى أو قبة الصخرة أو
المسجد الأموى فى دمشق لأننا سنختص كل واحد منها بفقرة فى هذا الكتاب ، نظراً لما
تمتاز به من مكانة فى تاريخ العمارة الإسلامية بصورة عامة .



الفصل الخامس

العناصر الرئيسية في عمارة المساجد



وإذا تأملنا التصميم المعماري لمسجد الرسول في المدينة كما أنشأه ﷺ أول مرة ،
تبيّن أنه يضم العناصر الرئيسية التي لا يمكن أن يخلو منها مسجد ، وهي بيت الصلاة
والصحن والقبلة والمحراب والمنبر .

بيت الصلاة :

فأما بيت الصلاة فهو الجزء المسقوف من المسجد ناحية القبلة ، وقد لا يزيد عمق
بيت الصلاة (ويسمى جوفه) على صفين من الأعمدة ، وقد يمتد فيشمل أكثر من
نصف مساحة المسجد ، وسرى في دراستنا لتطور عمارة المساجد أن نسبة مساحة بيت
الصلاة إلى الصحن ستختلف من مسجد إلى مسجد ومن عصر إلى عصر ، فهناك
مساجد كلها بيوت صلاة بلا صحن - وسندرس أشكال بيوت الصلاة وطرزها فيما
بعد .

الصحن :

والصحن هو الجزء غير المسقوف .

وفى أول الأمر كان صحن المسجد معتبراً امتداداً لبيت الصلاة يستعمل في مناسبات
الصلوات الجامعة ولا يعتبر فيما عدا ذلك جزءاً من المصلّى نفسه ، لهذا كانوا يترخّصون
في استعمال صحن المساجد فكانوا يتخذونها ممرات من طريق إلى طريق ، وربما
جلسوا فيها للسمر أو البيع والشراء أو النوم ، وكانوا لا يراعون في نظافتها مثل ما
يراعون في بيوت الصلاة ، ثم أخذ الفقهاء يحددون استعمال صحن المساجد ويحرّمون
القيام بأى عمل لا يتصل بالصلاة فيها ، ثم اعتبرت أجزاء أساسية من المساجد ، وقد بين
ذلك الزركشى في الأحكام التي أوردها خاصة بسائر المساجد .

وقد خلط البعض بين صحن الجامع وحرم الجامع ، ولكن الفقهاء فرّقوا بينهما ،
فصحن المسجد ما يوجد بداخل جدرانه من فناء غير مسقوف ، وأما حرم المسجد
فالمنطقة المحيطة به من مبان ملاصقة لجدرانه أو رحبات خارجها ، وقد اشترطوا فيها
النظافة وحرّموا الاتّجار فيها لأن ذلك يشوب نظافة المسجد وجلاله ، وذلك لأن الصلاة
قد تمتد إليها في أيام الجمع والأعياد إذا ازدحم الجامع .

وقد سنَّ العثمانيون سنةً حميدةً حبذا لو اتبعت في مساجد الإسلام جميعها ، وهى إحاطة المسجد بحديقة يدور عليها سور ، فهذا من شأنه أن يصون المسجد وحرمة ، ومن شأنه أيضاً أن يضفى عليهما جمالاً ، وجدير بالذكر أن لكل مساجدنا القديمة مساحات كبيرة من الأرض حولها .

ولو رجعنا لحجج أوقاف مساجد القاهرة التاريخية لوجدنا أن كل ما يحيط بها من أرض داخل فى زمام وقفها ، وإنما عدا عليها الناس وبنوا فيها وأدَّعوا ملكيتها ، مما أضاع جانباً كبيراً من بهاء المساجد .

القبلة :

القبلة هى صدر المسجد ، وهى جداره المتجه نحو مكة ، فإذا صَلَّى الناس تجاهها كانت وجوههم ناضرة إلى بيت الله فى ذلك البلد الحرام . وكانت قبلة مسجد الرسول الأولى ناحية بيت المقدس ، ثم حوَّلها الله سبحانه وتعالى تجاه الكعبة ، فتحولت فى مسجد الرسول من الشمال إلى الجنوب . وقد صَلَّى المسلمون فى صدر يوم صَرَفَ القبلة إلى بيت المقدس ، ثم نزلت آيات صرفها ، فصَلَّى الناس نحو مكة فى آخره .

ويبالغ نفر من المؤرخين فى تصوير صَرَفَ القبلة ، فيقولون إن الناس صَلَّوْا إلى القبلتين فى نفس الصلاة ؛ صَلَّوْا ركعتين ، ثم نزلت الآية فصلَّوْا الركعتين الآخرين إلى القبلة الأخرى^(١) .

وهذا تكلف لا معنى له ، فإن الوحي ما كان ليقطع الصلاة على الرسول وهو يؤمُّ الناس ليلبَّغه صَرَفَ القبلة .

ومن هذا القبيل ما يقال عن مسجد بنى سلمة ، وهو الذى صَلَّى الرسول فيه الظهر يوم نزلت آية صَرَفَ الصلاة ، والذى يُسمَّى - لهذا - مسجد القبلتين ؛ لأن المسلمين صَلَّوْا فيه أول النهار نحو بيت المقدس ، ثم صَلَّوْا فيه الظهر إلى قبلة الكعبة .

والحقيقة أن كل مساجد المدينة التى بُنيت وصَلَّى الناس فيها قبل (الخامس عشر من رجب سنة ٢ هـ / ١٢ يناير سنة ٦٢٤ م) - وهو التاريخ الذى يحدده معظم المؤرخين

(١) التويرى ، نهاية الأرب ، ج ١٦ ص ٣٩٧ .

لصرف القبلة - يمكن أن يطلق عليها ذلك الوصف ، وفي مقدمتها مسجد الرسول ، وهو أولى المساجد بأن يسمى مسجد القبلتين .

وقد تعود المسلمون أن يمشوا بموضوع القبلة دون أن يلاحظوا أنها ظاهرة عبادة ينفردها الإسلام دون غيره من الأديان ؛ فلا تعرف اليهودية أو النصرانية أو البوذية أو الهندوكية وما إليها شيئاً يشبه القبلة ، إنما يصلى أهل هذه الديانات فى أى اتجاه وبينون معابدهم بحسب معارفهم من الهندسة وما تتطلب .

وقد حاول نفر من المستشرقين أن يقولوا إن الإسلام أخذ القبلة عن اليهودية أو النصرانية الأولى ، فأما اليهود فيقولون : إن القبلة معروفة عندهم وهى الخزانة التى توضع فيها السجلات والكتب الدينية ، ومكانها فى أحسن موضع فى البيعة اليهودية ، وذهب بعضهم إلى أن تلك «الخزانة» هى التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم بلفظ ﴿التَّابُوتُ﴾ فى [الآية (٢٤٨) من سورة البقرة] .

وهذه كلها مزاعم باطلة قال بها أمثال أبراهام جايجر Abraham Geiger وداود هيرشفلد Edward Hirschfeld وهوروفيتز Horowitz ومن إليهم من مستشرقى اليهود لمحض الرغبة فى التقليل من شأن الإسلام بإرجاع أصوله وعبادته إلى أصول يهودية أو مسيحية ، فهم يعلمون أكثر من غيرهم أن خزانة البيعة لا تُعَيَّن اتجاهها ، وأن الناس لا يصلُّون نحوها ، فما هى إلا خزانة أو صندوق توضع فيه كتبهم المقدسة ، وما يرون أنه ذخيرة للبيعة من آثار الصالحين عندهم ، وما يعتزُّون به من نسخ كتب الصلوات أو كتابات الصالحين ، وما يُهدى للبيعة من مال ، وهى توضع فى صدر البيعة أياً كان اتجاه ذلك الصدر ، ثم إن « التابوت » الوارد ذكره فى سورة البقرة لا يقابل خزانة الكتب الدينية والذخائر الأولى لليهودية ، وإنما هو شىء آخر خاص بموسى وأيامه لا يتفق المفسِّرون على المراد به ، ونستطيع أن نقطع بأنه ليس ما يريد أولئك المستشرقون من اليهود .

وأما المسيحيون من الباحثين فى أصول الإسلام فيريدون أن يقولوا إن كنائس المسيحية الأولى - أو كنائس بعض جماعاتها على الأقل - كانت تُوجَّه نحو الشرق ، وإن

هذا التوجيه هو أصل مفهوم القبلة الإسلامية .. وهذا أيضاً كلام متهالك لا يتحصل منه شيء ، فإنه لم يثبت أصلاً أن أيّاً من فرق المسيحية الأولى اتخذت الشرق قبلة ، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن بعض العقائد غير السماوية كانت تحض أتباعها على استقبال مطلع الشمس عند الصلاة في الصباح ، ومغربها عند الصلاة في المساء . ومن هذه العقائد عقيدة عبادة قرص الشمس التي قال بها أمينوفيس الرابع وهو الفرعون الذي عُرف باسم إخناتون ، وهذا التوجيه بعيد عن مفهوم القبلة الإسلامية بعداً شاسعاً - كما هو واضح .

والحقيقة أن القبلة مفهوم إسلامي صرّف لم تعرفه اليهودية أو المسيحية ، بل المصطلح نفسه نُحِتَ خاصة لهذا الغرض ، فإن القبلة هي الجهة - على قول ابن منظور في لسان العرب - وهو يضرب لاستعمال اللفظ في هذا المعنى أمثلة غير دقيقة فيقول مثلاً : ليس لفلان قبلة ، أى : جهة ، « من أين قبلتك ؟ أى : من أين جهتك ؟ » ..

وأعتقد أن معنى هذين المثالين غير واضح ، فما المراد بقوله : ليس لفلان جهة ؟ هل يريد أنه ليست له وجهة ؟ .. ثم ما معنى من أين قبلتك ؟ أو من أين جهتك ؟ .. هل يريد من أين طريقك ؟ .. أو إلى أين تقصد ؟ .. أو من أين أتيت ؟ .

الحق أن هذا الإبهام يدل على أن المعنى غير واضح في ذهن ابن منظور ومن نقل عنه ، لأن الذي حدث هو أن القرآن الكريم استعمل اللفظ في معنى الناحية التي يوجه المصلون وجوههم نحوها غير مسبوق إلى ذلك وفرضه على اللغة فرضاً ، ثم جاء أهل اللغة بعد ذلك فأخذوا المعنى القرآني نفسه ، وتصوروا أنه معنى مفهوم واضح كان جارياً في الاستعمال قبل ذلك ، وما كان واضحاً ولا جارياً في الاستعمال قبل أن يدخل في مصطلح القرآن .

ولم يقرّر القرآن أن تكون للصلاة ومساجدها قبلة إلا رمزاً على معنى جليل من معاني الرسالة الإسلامية ، فهي رمز لوحدة الجماعة الإسلامية ، لأن الله سبحانه موجود في كل مكان: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

[البقرة : ١١٥]

فالقبلة ليست تعييناً لمكان المعبود سبحانه ، ولا علاقة لها به جل جلاله ، وإنما هي تصوير عملي لوحدة الجماعة الإسلامية واتحاد قلوب المؤمنين . ولقد كانت القبلة أولاً إلى بيت المقدس ، ثم صُرفت إلى الجهة المقابلة ، أي : إلى الكعبة ، وهي بيت الله الذي بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ومِلَّة إبراهيم هي « الدين القديم » ، هي الإسلام دين الله الواحد الذي لا يتغير ، وملته التي قال بها كل المرسلين من أيام إبراهيم أبي الأنبياء .

وفى حقيقة الأمر تعتبر صحف موسى وألواح إنجيل عيسى توكيداً لمِلَّة إبراهيم وتطهيراً لها مما أصابها من الانحراف على مر السنين ، والإسلام الذي بشر به محمد عليه الصلاة والسلام هو العودة الكاملة إلى مِلَّة إبراهيم صافية كما بدأها الله ، وصُرفت القبلة إلى الكعبة إنما هو عودة إلى الوجهة الواحدة لدين الله والوحدة .

هذه المعاني لا نجدها إلا في الإسلام ، فلا عجب أن ينفرد من بين الأديان بالقبلة ، والمسلمون يسمون أنفسهم أحياناً أهل القبلة ، أي : أهل الوجهة الواحدة ، وسبحان من جعل الإسلام عقيدة وحدة وتوحيد .

المهم لدينا أن القبلة أكدت معنى أساسياً من معاني الإسلام ، وأضافت إلى المساجد ميزة انفردت بها دون غيرها من أماكن العبادة ، فكل مساجد الأرض تتجه وجهة واحدة ، وهذا بدوره فرض على عمارة المساجد مطالب واشتراطات هندسية شتى ، فقد أصبح لزاماً أن تكون بيوت الصلاة في المساجد كلها ناحية القبلة ، وأن يصرف أكبر جانب من العناية الهندسية والفنية نحو هذا الجزء من المسجد ، وابتداء من مسجد الرسول ﷺ في المدينة - وهو أبو المساجد - إلى المساجد التي بُنيت اليوم ، نجد أن المعماري يهتم - أولاً وقبل كل شيء - بهذا الجزء من مسجده ، فيه يحشد أكبر جانب من عنايته ويضع أحسن ما عنده من مواد البناء من رخام ومرمر ، وأخشاب غالية ، وفيه ينفق المعماري والمزخرف والنقّاش معظم جهدهم .

والقبلات أعظم ما في مساجد المسلمين من الناحية الفنية إلى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ولم ينتقل جانب كبير من الاهتمام إلى المجنّبات والأروقة والأبواب والقباب والمآذن إلا ابتداء من مساجد الطراز السلجوقي ، وهو طراز أدخل على عمارة المساجد في وسط العالم الإسلامي وشرقه انقلاباً شاملاً .

أما مساجد المغرب الإسلامى فظلت صادقة الولاء للتقليد الإسلامى الأول ، بل زادته تأكيداً ؛ ففى مسجد عقبة - كما أعاد بناءه إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (وهو الذى أعطى صورته النهائية) - يمتد بيت الصلاة إلى نصف مساحة المسجد تقريباً ، ويلغى المجنّبات اليمنى واليسرى والخلفية إلغاء تاماً ، بل هو يجعل المثذنة فى الجدار الخلفى المقابل لجدار القبلة ، ومسجد قرطبة الجامع - درة مساجد المغرب الإسلامى - يغطى بيت صلاته وقبلته بقية أجزاء المسجد الفسيح حتى تحتجز القبلة لنفسها انتباه الإنسان كله ؛ وسنرى أن ذلك يعتبر خاصة من خواص مساجد الجناح الغربى لعالم الإسلام .

المحراب :

فى تفسير لفظ المحراب فى معاجمنا الكبرى نجد نفس الإبهام الذى وجدناه فى لفظ « القبلة » ؛ ففى لسان العرب لابن منظور نجد التعريفات التالية :

- المحراب : صدر البيت وأكرم موضع فيه ، والجمع : محاريب . وهو أيضاً الغرفة .

- والمحراب عند العامة : الذى يقيمه الناس اليوم ليكون مقام الإمام فى المسجد .

- والمحراب : أرفع بيت فى الدار (قاله الزَّجَّاج) ، والمحراب هنا كالغرفة .

- وفى الحديث أن النبى ﷺ بعث عروة بن مسعود - رضي الله عنه - إلى قومه بالطائف ، فأتاهم ودخل محراباً له ، فأشرف عليهم عند الفجر ، ثم أذن للصلاة ، قال : وهذا يدل على أنه غرفة يُرتقى إليها .

- والمحاريب : صدور المجالس ، ومنه سُمي محراب المسجد ، ومنه محاريب غمدان باليمن .

- والمحراب : القبلة .

- ومحراب المجلس : صدره وأشرف موضع فيه .

- ومحاريب بنى إسرائيل : مساجدهم التى كانوا يجلسون فيها ، وفى التهذيب : التى يجتمعون فيها للصلاة .

- وقوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ [مريم : ١١] ، قالوا : من المسجد .

- والمحراب : أكرم مجالس الملوك .

- وقال أبو عبيدة : والمحراب سيّد المجالس ومقدّمها وأشرفها ، وكذلك هو من المساجد .

- وعن الأصمعي : العرب تُسمّى القصر محراباً لشرفه .

- وقيل : المحراب : الموضع الذى يتفرد فيه الملك ، فيتباعد من الناس .

- وقال الأزهري : وُسُمِيَ المحراب محراباً لانفراد الإمام فيه وبعده عن الناس . قال : ومنه فلان حرب لفلان إذا كان بينهما تباعد .

- وقال الفراء فى قوله - عز وجل - : ﴿ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ [سبأ : ١٣] ، ذكر أنها صور الأنبياء والملائكة كانت تصوّر فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة .

- وقال الزجاج : المحراب الذى يُصَلَّى فيه .

- وقال الليث : المحراب عنق الدابة .

- وقيل : سُمِيَ المحراب محراباً لأن الإمام إذا قام فيه لم يأمن أن يلحن أو يخطئ .. فهو خائف كأنه فى مأوى الأسد .

- والمحراب : مأوى الأسد .. يقال : دخل فلان على الأسد فى محرابه وغيله وعرينه .

- وقال ابن الأعرابي : المحراب مجلس الناس ومجتمعهم .

وهذه كلها معانى متباعد بعضها عن بعض ، وهى لا تفسر لنا لماذا سُمِيَ الموضع الذى يقف تجاهه الإمام إذا قاد الصلاة محراباً ، ومن الأسف أن معاجمنا اللغوية ليست لديها أية فكرة عن التطور التاريخي للفظ ومعانيه واستعمالاته ؛ فأنت لا تعرف أى هذه المعانى أقدم وأيها أحدث ؟ والراجع أن هذه المعانى والاستعمالات للفظ المحراب حديثة جاءت بعد استعمال القرآن لمصطلح المحراب فى معناه المعروف .

والرأى الراجح عند علماء اللغات السامية من أمثال إنيلوليمان Littman وتيودور نولدكه Theodor Noldeke^(١) ويعقوب هوروفيتز Jakob Horowitz أن اللفظ حَمِيرِيٌّ ، أى : من اللهجات العربية الجنوبية . وقد دخل إلى اليمن من الحبشة مع النصرانية ، فى صورة Mikrab ، وأصله الحبشى Mekurab بمعنى الكنيسة أو المعبد أو الحنية التى يوضع فيها تمثال القديس . (انظر : J. Horowitz: Islam, VL, 1937) .

وتناول هذه الفكرة وبالحق فى توسيعها - على عادته فى كل ما يتصور أنه يضير الإسلام - الأب لامانس فى مقاله عن زياد بن أبيه :

H.Lammens, Ziad ibn Abihi, Revista delgi Studi Orientali, Vol. IV, 1925 .

وشاع استعمال اللفظ بين نصارى «نجران» للدلالة على «الحنية» فى جدار صدر الكنيسة، وهناك أيضاً ما يدل على أن المحراب كان شائع الاستعمال فى كنائس مصر ، وقد ورد لفظ المحراب فى القرآن أربع مرات ، ثلاث منها فى هذا المعنى ، والرابعة يغلب أنها فيه أيضاً .. ووردت فى صيغة الجمع (محاريب) مرة واحدة بمعنى حنية الكنيسة Apse وهيكلها الذى يجمع الصور والتماثيل الدينية فوق المذبح مباشرة ، والهيكل هو ما يعرف فى الإنجليزية باسم Altar- piece وفى الفرنسية باسم Retable .

ولكن محراب الكنيسة (أو حنيتها Apse) ليس جزءاً أساسياً فى بنائها ، فهناك كنائس كثيرة جداً خالية من الحنيات ، فالمهم فى الكنيسة هو المذبح Altar وهو منضدة توضع عليها أدوات الصلوات من صلبان ومباخر وأجراس وكثوس وكتب وما إلى ذلك ، وخلف هذه المنضدة ، وفى مواجهة المصلين يقف القس ومساعدوه ليقوموا بالطقوس ، والقس ليس إمام الصلاة ، لأنه - فى الحقيقة - هو الوحيد الذى يصلى ، أما ما يُسمى بالمصلين فى الكنائس فيتابعون ما يعمل ويؤمنون على ما يقول - أحياناً - ويركعون بإشارته ، ثم يعودون إلى مواقعهم بإشارته أيضاً ، ويرددون فقرات معينة

(1) Theodor Noldecke, Neve Beiträge für Semitischen Sprachen, 1910, P.40 .

عندما يشير إليهم بذلك ، فهم فى الحق ليسوا « مصلّين » وإنما هم « فى حالة صلاة » .

أما المسلمون فكل منهم يصلّى وحده حتى لو كانت الصلاة جماعة ، ومن ثم فهم محتاجون إلى إمام ليوحّد حركات القيام والتكبير والركوع والسجود وما إليها ويوقّتها توقّيتاً واحداً ، حتى يتحرك المصلّون حركة واحدة ، وتكون الصلاة صلاة جماعة بالفعل ؛ ومن هنا احتاجت إلى إمام ، واحتاج الإمام إلى محراب .

وليس من الضروري أن يكون المحراب حنية ، بل يكفى تعيين موضعه فى جدار صدر المسجد ، وفى بعض المساجد الأولى كان يكتفى بوضع علامة مثل اللواء تعيّن المكان الذى يقف فيه الإمام ، ولم تظهر « المحاريب المحنية » إلا خلال عصر الوليد بن عبد الملك - كما سنفضّله بعد قليل - ونماذجها الأولى تشبه فى هيئتها المحارة المقلوبة ، وخاصة فى الجزء الأعلى من الحنية ، وفى بعض المساجد تعمّد الفنان أن يجعل الجزء الأعلى من الحنية فى هيئة المحارة بالضبط كما نرى فى المسجد الأقرم بالقاهرة ، وهو من عيون الفن المعماري الفاطمي . وفى مسجد قرطبة الجامع نجد المحراب الفريد الذى عمل فى الزيادة الثالثة فى المسجد ، وقد أمر بها عبد الرحمن الناصر وتمت على يد ابنه الحكم المستنصر ، وفى حكمه . والجزء الأعلى من ذلك المحراب قطعة مرمر واحدة فى هيئة محارة بالضبط .. وهى آية من آيات النحت والفن المعماري الإسلامى ، وهى تثبت بصورة لا تقبل الشك الصلة الوثيقة بين هيئة المحراب وهيئة المحارة . وهى تذكّرنا بما يقوله بعض الباحثين من أن هناك علاقة لغوية بين لفظى « محراب » و « محار » وهى علاقة تنبه إليها بعض أساتذة فقه الساميات .

والفرق جسيم على أى حال بين حنية محراب الجامع وحنية الكنيسة ، فبينما الأولى تجويف يسير فى جدار القبلة نجد الثانية بروزاً كاملاً بهذا الجدار خارج نطاق الكنيسة ، فيصبح هذا الجدار انحناء كله .. ولهذا فهو يسمى فى (الإنجليزية والفرنسية) بلفظين يحملان هذا المعنى (Apcés و Apssess) .

وقد كتبت المحاريب فصلاً طويلاً فى تاريخ العمارة الإسلامية ، فاختلفت أشكالها وأحجامها والطرق الهندسية التى أنشئت بموجبها ، وقد أدرج فريد شافعى فى كتابه عن العمارة العربية فى مصر الإسلامية (ص ٥٨٢ وما بعدها) فصلاً مطولاً عن المحراب

وتاريخه وتطوره ، منذ كان مجرد علامة يسيرة على جدار القبلة فى مسجد الرسول ﷺ ، إلى أن أصبحت المحارب هذه الأشكال الهندسية الرائعة فى مساجد مصر الفاطمية والمملوكية ومساجد الغرب الإسلامى ومساجد الطرز السلجوقية والتركية والمغولية والتركية العثمانية .

ويذكر ابن دقماق والمقرئزى (والمقرئزى ينقل عن الواقدى) أن أول من عمل المحراب فى هيئة حنية كان عمر بن عبد العزيز ، عندما أعاد بناء مسجد الرسول ﷺ فى المدينة بأمر ابن عمه الوليد بن عبد الملك . ويضيف كريسويل إلى هذه الرواية رواية أخرى أوردها السمهودى تقول : إن العرفاء الذين قاموا بإعادة بناء المسجد كانوا قبلاً مصريين أرسلهم والى مصر ، ويستنتج من هاتين الروايتين معاً أن حنية المحراب دخلت فى عمارة المساجد من الكنائس القبطية المصرية^(١) .

ويؤيد كريسويل هذا رأى بعبارة أوردها السيوطى تقول : إن عمل الحنايا كان محرماً أول الأمر ، لأن فيه تشبهاً بكنائس النصارى . وليس لدينا ما يؤيد قول السيوطى ، خاصة وهو من أهل القرن الخامس عشر الميلادى ، ولا يمكن أن نأخذ كلامه عما كان يحدث فى صدر الإسلام قضية مُسلمة .

وقد أنفق فريد شافعى جهداً ضخماً فى تحقيق الروايات المتعلقة بأصل المحراب المجوّف أو المخلّق كما يقول بعض كتابنا العرب (ص ٥٨٦ وما بعدها) ويخرج القارئ من كلامه بالشك فى أن ذلك المحراب اقتبس من الكنائس القبطية .

ونرى فى بحث فريد شافعى المشار إليه أنه يرجّح أن يكون أقدم محراب مجوّف على هيئة حنية ذات مسقط نصف دائرى لا يزال موجوداً إلى الآن هو الموجود فى الضلع الجنوبى من المنحنى الخارجى لقبة الصخرة فى القدس ، ويليه فى التاريخ المحراب الأوسط فى الجامع الأموى فى دمشق ، والذى مُلئت به إحدى فتحات الباب الرئيسى فى الجدار الجنوبى للملعب الرومانى القديم^(٢) .

(١) فريد شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٦١٣ .

(٢) فريد شافعى ، العمارة العربية ، ص ٦١١ .

ونعتقد أنه لا يضير أصالة العمارة الإسلامية أن نقبل افتراض دخول حنية المحراب من الكنائس القبطية خاصة ، ومن المؤكد أن ثاني حنية في تاريخ المساجد كانت في إعادة مسجد عمرو في الفسطاط على يد قرّة بن شريك سنة (٩٢ هـ / ٧١٠ م) ، بل هناك من يذهب إلى أن الذي أدخل هذه «الحنية» في جامع عمرو كان «مسلمة بن مخلد» والى معاوية سنة (٤٧ هـ / ٦٦٧ م) .

وهناك ما يدل على أن المسلمين استخدموا - أحياناً - خلال العصر الأموي محاريب خشبية توضع في المكان المراد من جدار القبلة ويغير مكانها إذا اقتضى الأمر ذلك ، أي : أنها كانت محاريب متنقلة ، وربما كان هذا الطراز من المحاريب سابقاً على استعمال محاريب الحنايا في عصر الوليد بن عبد الملك .

وقد تطورت المحاريب تطوراً بعيداً ، وأخذت أشكالاً شتى في مختلف طرز العمارة الإسلامية .. وأصبحت - مع الزمن - ناحية من نواحي التنافس في الابتكار بين المعماريين .

ويجمع العلماء على أن محراب مسجد الرسول الأول في المدينة موجه نحو الكعبة بغاية الدقة ، ولهذا يقولون : « لا يُجْتَهِد في محراب رسول الله ﷺ لأنه صواب قطعاً إذ لا يقرُّ على خطأ » (أي : أن رسول الله لا يوافق على خطأ ، وما دام قد صلى إليه فهو صحيح) فلا مجال للاجتهاد فيه ، حتى لا يُجْتَهِد فيه باليمين واليسرة بخلاف محاريب المسلمين ، والمراد بمحرابه ﷺ مكان مُصَلَّاهُ ، فإنه لم يكن في زمنه عليه السلام محراب .

قال الرافعي : وفي معنى المدينة سائر البقاع التي صَلَّى فيها رسول الله . وقد علّق الزركشي على ذلك بقوله : وفي ضبطه عُسْرٌ أو تَعَذُّرٌ ، وألْحَقَ الدارميُّ في «الاستذكار» بمسجد المدينة مسجد الكوفة والبصرة وعباء والشام وبيت المقدس ، قال : لصلاته عليه السلام في بعضها والصحابة في بعضها الآخر^(١) .

وكان المسلمون يجدون صعوبة في تحديد مواقع محاريب المساجد ، لأن ذلك كان

(١) الزركشي ، إعلام الساجد ، ص ٢٥٩ .

يتطلب معرفة دقيقة بعلم الفلك لتحديد اتجاه الكعبة بالدقة ، ولهذا قالوا : « القبلة النص ^(١) : الكعبة ، ومسجد رسول الله ﷺ ، ومسجد إيلياء ، ومسجد الكوفة ، أربعة » ^(٢) .

وقد كرهه الكثيرون من الصالحين استعمال المحاريب ، لأنها أحياناً لا توضع في الوضع الصحيح ، فيكون ذلك مدعاة لخطأ اتجاه المصلين خلف الإمام ، وقد لاحظ الكثيرون من فقهاء مصر خطأ اتجاه قبلات الكثير من مساجدهم الكبرى مثل جامع عمرو بن العاص عندما جده عمر بن عبد العزيز واتخذ فيه المحراب المجوف ، وكذلك قبلة المسجد الطولوني منحرفة انحرافاً كبيراً ، وقبلة الشافعي وكثير من القرافة على خط نصف النهار ، فلا أدري هل ذلك لقصور أهل الوقت في معرفة أدلة القبلة أم لعدم الاكتفاء بالمحاريب المنصوبة المجهولة . انتهى ^(٣) .

وقد علق الزركشى على ذلك بقوله : وهذا كلام صحيح ، والظاهر أن كثيراً من هذه المحاريب إنما وضعها من ليس له معرفة بهذا الفن ولا حرر فيه التحرير التام ، فالوجه القطع بجواز الاجتهاد فيه بمنة ويسرة . وقد أورد الزركشى في ص ٢٥٦ من كتابه « إعلام الساجد » كلاماً كثيراً عن كراهية بعض السلف اتخاذ المحاريب في المساجد ، والصلاة في طاق المسجد ، أى : حيث المحراب ، والحقيقة أننا لا نعرف ما يدعو إلى كراهة الصلاة في المحاريب .

ونزيد على ما قال الزركشى هنا عن عدم دقة تحديد قبلات الكثير من المساجد التي بنيت في الماضي أن هناك شكاً كبيراً في صحة توجيه قبلات الكثير من مساجد الغرب ، ومن المقطوع به أن مسجد قرطبة الجامع لم تكن قبلته صحيحة التوجيه ، وقد تحدث الفقهاء في ذلك إلى الخليفة الناصر فرأى ألا يهدم جدار القبلة لهذا السبب ، ومع ذلك فالانحراف في غالب الحالات قليل .

(١) أى : القبلة التي لا شك في صحة توجيهها .

(٢) ورد في الهامش : وإفريقية ، وهو خطأ بدليل قوله : أربعة . والحقيقة أن ذكر « إفريقية » هنا صواب لا خطأ ، لأن الذى بنى مسجدها « مسجد القيروان » هو التابعى عقبه بن نافع وقد بذل مجهوداً كبيراً فى تحرى اتجاه قبلته . انظر الزركشى ، إعلام الساجد ، ص ٢٥٩ .

(٣) الزركشى ، إعلام الساجد ، ص ٢٥٩ ، ولم يقل عمن ينقل هنا ولكن الغالب أنه ينقل عن أبى عبد الله القضاى . وهو أقدم من ألف فى خطط مصر ، وعنه أخذ المقرئى ومعظم اعتماده عليه .

المنبر :

والمنبر أيضاً مفهوم يغلب أنه دخل لغة قريش من لهجة اليمن عن طريق الجماعة المسيحية في نجران ؛ ومعاجم اللغة لا تطيل فيه ، فابن منظور يكتفى بالقول بأن « المنبر مرقاة الخاطب ، سُمي منبراً لارتفاعه وعلوه ، وانتبر الأمير : ارتفع فوق المنبر » وهم يشتقونه من « النبر » وهو العلو والارتقاء في الصوت وفي رسم الحروف خاصة ؛ والنبرة عندهم هي الهمزة سواء بسواء .

وفيما عدا هذه الاستعمالات القليلة للمنبر بمعنى الارتفاع لا نجد له ذكراً في اللغة ؛ والغالب أن « المنبر » دخل باستعماله الديني كما هو دون أن يكون اشتقاقاً من فعل نبر بمعنى همز أو رفع الصوت في الكلام ، أو علأ بالحرف عند الكتابة . واللفظ غير قرأني على أى حال ، فلا وجود له في الكتاب الكريم .

عندما بنى مسجد الرسول كان منبره أول الأمر مجرد ارتفاع في الأرض إلى جانب موضع المحراب ، ويقول البخارى في كتاب الصلاة : إن النبي ﷺ كان يصلّى على منبره . وهذا لا يمكن إذا كان المنبر على شكله الحالى أو قريباً منه ، ولابد أنه كان مساحة مرتفعة تكفى لإقامة الصلاة عليها ، ربما كانت بُنيت من الآجر .

يقول ابن الأثير في « أسد الغابة » (٢٣ / ١) : إن منبراً خشبياً صنع للرسول سنة ٦ أو ٧ أو ٨ أو ٩ للهجرة ووضعت في مسجده .

ويضيف الديار بكرى في سيرته للرسول المسماة « الخميس في سيرة أنفـس نفيس » (١٢٩ / ١) ، وبرهان الدين الحلبي في السيرة الحلبية (١٤٦ / ٢) أن الذى صنع المنبر الخشبى لمسجد الرسول كان قبطياً أو رومياً يسمى باخوم أو باقول ، وأنه صنعه من درجتين ثم مقعد يجلس عليه الرسول . هذا المنبر الخشبى لابد أن يكون قد حل محل المنبر المبنى الأول ، وهنا نشهد ميلاد المنابر الخشبية .

ولدينا عن منبر رسول الله ﷺ بعض التفاصيل ، فيقال إن الرسول كان يقوم أول الأمر إلى جذع في المسجد ، أى : إلى جوار أحد جذوع النخل التى كانت تقوم مقام الأعمدة فى الجزء المسقوف ، وأن الرسول لما بدّن قال له تميم الدارى : ألا أتخذ لك منبراً يجمع أو يحمل عظامك ، قال : نعم ، فاتخذ له منبراً من مرقأتين .

وقد روى البخارى هذا الأثر فى الصحيح وأبو داود فى السنن ، ويحيرنا معنى هذا الحديث لأن معنى « بدن » كبر وأسْن ، والرسول ﷺ كانت سنة فى ذلك الحين ما بين ٥٥ و ٥٧ سنة لأن المنبر صنع فى المسجد بعد بناء المسجد بقليل . ولم يكن رسول الله قد ظهر عليه ما يجعل تيمناً الدارى يعرض عليه أن يصنع له منبراً « يرمُ عظامه » .

والحقيقة أن المنبر عُمِل فى المسجد بعد إنشاء المسجد بستين أو ثلاث ، دون أن يكون الداعى لذلك كبر سن الرسول ﷺ وحاجته إلى ما يرمُ عظامه .

وذهب الزركشى فى إعلام الساجد (ص ٣٧٤) إلى أنه لا يستحب أن يكون المنبر كبيراً لئلاً يشغل جزءاً كبيراً من مساحة المسجد ، ولهذا يفضل بعض العلماء المنبر المتحرك ، أى : الذى يحرك لصق الجدار إذا لم تكن له حاجة ، أو الذى يردُّ وراءه ويوارى فى خزانة له بعد الخطبة « كما هو بالإسكندرية » وأضاف ناشر « الإعلام » أنه كان بمسجد الزيتونة بتونس أيضاً منبر متحرك يوضع فى خزانة خاصة به لصق الجدار .

ونعود إلى منبر مسجد الرسول ﷺ فنقول إنه كان مجرد شيء مبنًى مرتفع قليلاً عن الأرض ، وظلت المنابر على هذه الصورة حتى أيام معاوية ، فصنع لنفسه منبراً خشبياً متقللاً من ست درجات ومقعد ، وعندما ذهب إلى مكة حمله معه إلى هناك كأنه رمز سلطانه ، وقد تركه فى الحرم المكى وظل هناك حتى أيام الرشيد ، وكان بعض خلفاء بنى أمية يحملون منابرهم معهم إذا انتقلوا كما فعل معاوية ، وهذا جعل المستشرق الألمانى كارل هاينريخ بيكر يقول : إن المنبر كان رمز سلطان ؛ وهذا وهم منه ، فالمنبر جزء من المسجد ، وحملُ بعض خلفاء بنى أمية منابرهم معهم يفسر بأنهم لم يكونوا واثقين من وجود منابر خشبية ، مهياة على النحو الذى يريدون فى المواضع التى سيزورونها .

وأول مرة سمعنا فيها عن منبر خشبى كبير قريب الشبه بمنابر اليوم كان فى مسجد قرطبة الجامع ، حيث صنعوا للمسجد عند بناء جزئه الأول منبراً ذا درجات كثيرة ، وهذا المنبر القرطبى الأول سابق لمنابر مصر التى بدأت فى الظهور مع بناء جامع ابن طولون .

وفى مصر أيضاً نسمع عن منبر خشبى كبير وضعه الخليفة الحاكم الفاطمى سنة (٤٠٥هـ / ١٠١٤م) فى جامع عمرو فى الفسطاط ، ومع ذلك فنحن لا ندري كيف تطورت المنابر بعد ذلك حتى وصلت إلى صورتها المعروفة ، والسبب فى ذلك أن المنابر ظلت دائماً جزءاً من أثاث المسجد المنقول ، ولم تدخل فى بنيته إلا فى بعض مساجد العصور المتأخرة ، بخلاف ما رأينا فى حالة المحراب ، الذى انتقل من علامة توضع فى الموضع المراد فى صدر المسجد ، إلى رسم ثابت على الجدار ، إلى محراب خشبى متنقل ، إلى حنية فى الجدار ، فأصبحت جزءاً من عمارة المسجد نفسه تستطيع التأريخ له .

وإذا لم يكن المنبر نفسه مؤرخاً ، أو إذا لم تكن هناك قرينة من صناعته أو زخرفته تعيننا على تحديد عصره ، فإننا لا نستطيع تعيين تاريخ صنعه . وفى كثير من المساجد الكبرى نجد منابر قديمة محفوظة فى غرف أو ممرات خارج بيت الصلاة ، بعد أن صُنعت منابر جديدة ووضعت فى مواضعها ولدينا مثالان معروفان لذلك ، واحد فى مسجد سوسة (فى تونس الحالية) والثانى فى مسجد الكتبية فى مدينة مراكش . فأما الأول فقد عثر عليه - فى غرفة صغيرة مستورة إلى يمين المحراب - الكابتن كريسويل ، وتحدث عنه . وأما الثانى فقد كان معروفاً من زمن طويل ، وقد بقى مهماً حتى تنبه لقيمته الفنية ودرسه دراسة وافية هنرى تيراس Henri Terasse ، وقرر أنه تحفة فنية نادرة المثال فى تاريخ المنابر الإسلامية .

وبمناسبة المنبر القديم فى جامع سوسة يقرر كريسويل أنه مُركَّب على عجل على صورة تجعل تحريكه ونقله فى ميسور رجل واحد دون جهد ، ويقول إن المنابر المتحركة على عجلات لم تُعرف إلا فى المغرب ، ولكن هذا غير صحيح ، فابن جبير يحدثنا عن منابر كثيرة رآها كانوا يضعونها فى مواضعها عند الصلاة ، وفيما عدا ذلك كانت تُحرك وتوضع ملاصقة للجدار ، وقد ذكر الزركشى - كما رأينا - منابر أخرى متحركة .

ومن الواضح أن الذى دفع إلى ابتكار المنابر المتحركة هو أن المنابر - أول الأمر - كانت صغيرة الحجم : بضع درجات خشبية تقوم على قاعدة خشبية ذات عجل ، فتوضع فى مكانها فى الصلوات الجامعة ثم تؤخر إلى جوار الصدر فى غير هذه المناسبات ، والحق أن المنبر تطور كقطعة من أثاث المسجد ، ولكنه لم يتطور كجزء من

عمارته ، أى : أن المنابر أصبحت - مع الزمن - مجالاً لفن النجارة ونحت الخشب والحفر فيه ، ولكنها لم تندمج فى عمارة المسجد ، ولهذا ما زالت أوضاع المنابر فى المساجد غير مريحة أو منسجمة مع العمارة ، فهى تبرز فى بيت الصلاة بروزاً شديداً وتحتل منه مساحة كبيرة دون مبرر ، ومداخلها - حتى فى المنابر الممتازة - بوابات خشبية رمزية تُدلى عليها سُرٌّ لا تتفق فى هيئتها وقيمتها مع سائر المنبر ، وجوانب المنابر - وهى أجمل ما فيها من الناحية الفنية - دائماً فى منطقة الظل الكثيف وانعدام الضوء تقريباً ، ونادراً ما ينتبه إلى جمالها أحد ، وما دخلت مسجداً أثرياً لتأمل ما فيه إلا ومعى مصباح كهربائى ذو بطارية حتى أستطيع رؤية المنبر وتأمل ما فيه ودراسته .

ولابد - على أى حال - أن تختفى هذه المنابر البارزة فى بيت الصلاة ، وأن يجد المعماريون وسيلة لوضع سُلَّمها خلف جدار القبلة ، وجعل مكان الخطيب أشبه بشرفة يطل منها على الناس إطلالاً مباشراً ويتحدث إليهم رأساً ، بدلاً من اختفائه وراء المدخل الخشبي الزائف وستاره ودرجات السُلَّم الخشبي وما إلى ذلك ، وقد رأيت فعلاً هذا التطور فى بعض المساجد الحديثة .

وقد ذهب بعض المستشرقين - اعتماداً على بعض النصوص العربية - إلى أن المنبر ذا الدرجات كان فى أول الأمر رمزاً على السلطان أو بعض أدواته ، وذهب كارل هاينريخ بيكر Karl H. Becker إلى أن الرسول ﷺ اتخذ هذا المنبر عندما تم له النصر وعظم سلطانه ، وأن عمر بن الخطاب كان يرى أن المنبر لا يجوز اتخاذه إلا للخليفة وحده ، ولهذا رفض أن يأذن لعمر بن العاص أن يتخذ المنبر فى جامع فى القسطنطينية ، واستدل على ذلك بأن معاوية بن أبى سفيان كان يحمل معه منبره إذا ذهب خارج دمشق . وقد ناقش فريد شافعى هذه الآراء مناقشة دقيقة انتهى منها إلى نقضها ، وهو على حق فى ذلك ، فما كان المنبر قطّ رمزاً على السلطان ولا إشارة من شاراته .

ونختتم الكلام عن المنابر بالقول بأن المنبر فى المساجد الجامعة كانت له دائماً أهمية دينية وسياسية وإدارية ، وفى أول الأمر لم يكن هناك منبر إلا فى جامع الرسول فى المدينة ، ولم يأذن عمر بن الخطاب لعمر بن العاص فى اتخاذ منبر فى مسجده فى القسطنطينية ، كأنه كان يرى أن المنبر لا يكون إلا لرئيس الجماعة الإسلامية . وفى أيام

عثمان ظهرت منابر الأمصار فأصبح لكل مصر منبر فى عاصمته ، أما المساجد الأخرى فلا منابر لها .

بعد ذلك أصبح لكل مدينة كبيرة الحق فى أن يكون لها مسجد جامع ذو منبر ، أو مسجد ومنبر كما يقول كُتّابنا . هنا نجد أن المنبر أصبح رمزاً للمدن الكبرى ، أى : المراكز الإدارية التى تمتد سلطان كل منها على ناحية واسعة ، وبهذا الاستعمال يرد لفظ المنبر عند ابن حوقل والمقدسى مثلاً .

وهذا لا يمنع من القول بأن كل المساجد الأخرى كانت لها منابر وكانت تُصلى فيها الجماعات ، ولكن المسجد ذا المنبر هو المسجد الرسمى الذى يصلى فيه حاكم البلد أو أمير الولاية ويخطب فيه خطيب معين من الدولة ، وخطبته - على هذا - لها معنى رسمى وللفقهاء تعبير خاص بهذا الخطيب ، فيقولون : « إمام راتب بولاية سلطانية » ، وقد ظهر هذا المصطلح فى (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) .

ويُسمى المنبر أحياناً بالعود ، وجدير بالذكر أن لفظ العود (والأعواد) كان يطلق على كل ما يصنع من الخشب ويستعمل للعود أو النوم ، فيستعمل فى معنى الكرسي : « جلس على الأعواد » ، وفى معنى تابوت الميت ، وفى معنى السرير .

بيت الصلاة والصحن :

بيت الصلاة - كما قلنا - هو الجزء المسقوف من صحن المسجد ناحية القبلة ، وقد تعود الأثريون الأوربيون أن يعبروا عنه بلفظ Sanctuary فى اللغة الإنجليزية، ولفظ Sanctuaire فى الفرنسية ، أما الألمان فيسمونه Gebet hall أو Gebet Saal .

وقد ولد بيت الصلاة مع مسجد الرسول فى المدينة فى الصورة البسيطة التى تحدثنا عنها ، وتطور - مع الزمن - حتى أصبح الجزء الرئيسى من المسجد . ففيه القبلة والمحراب والمنبر ، وفوقه فى كثير جداً من الأحيان تقوم القباب ، وتوجد فيه - فى الغالب - المقصورة أو المقاصير .

وفى العادة يقوم بيت الصلاة على عمد تحمل فوقها عقوداً أو أقواساً ، وفوق هذه يقوم السقف ، وقد أصبحت العمد وعقودها وكل ما يتصل بها باباً واسعاً من أبواب العمارة الإسلامية ، أضاف فيه المعمارى المسلم إضافات عظيمة ، سواء فى أشكال الأعمدة وطرق إقامتها ، أو أنواع العقود التى تقوم عليها وأشكالها ووسائل ربط

الأعمدة بعضها ببعض ، وكيفية وصل العقود بالسقف أو إقامة قباب فوقها وما إلى ذلك .

وبواسطة صفوف الأعمدة ينقسم بيت الصلاة إلى أروقة رأسية : تبدأ من الباب الرئيسى للمسجد وتنتهى بجدار القبلة ، وأخرى عرضية موازية لجدار القبلة . وفى العادة تُسمى المسافة المحصورة بين أربعة أعمدة « بلاطة » والجمع « بلاطات » . فإذا قال ابن عذارى - مثلاً - إن مسجد قرطبة الجامع الأول - الذى بناه عبد الرحمن الداخل - كان عرضه إحدى عشرة بلاطة ، فهنا من ذلك أن بيت الصلاة كان يتكون من رواق أوسط يودى إلى المحراب وخمسة أروقة على يمينه ومثلها على يساره . وإذا قال المؤرخ نفسه إن طول المسجد فى اتجاه المحراب كان ثمانى بلاطات ، فمعنى ذلك أن عمق بيت الصلاة كان سبعة صفوف من الأعمدة موازية لجدار القبلة ، ويلى ذلك جدار القبلة وهو يقوم مقام صف الأعمدة الثامن الذى تقوم عليه البلاطة الثامنة . ويعبر عن « عمق » بيت الصلاة « بعجوف » بيت الصلاة .

وفى العادة يكون الرواق الأوسط المؤدى إلى المحراب أوسع من سائر الأروقة ، وهو يُسمى بالرواق الأوسط أو الرئيسى أو الرواق فقط ، وقد يُسمى بالمجاز القاطع . وقد اقترح أحمد فكرى فى جزء « المدخل » من كتابه القيم عن « مساجد القاهرة ومدارسها » قصر تسمية البلاطات على الأروقة الرأسية أى : التى تتجه متعامدة نحو جدار القبلة ، أما العرضية الموازية لجدار القبلة فيُسميها الأساكيب ومفردها أسكوب .. وهو تمييز مشكور لأنه يضيف تحديداً ضرورياً إلى مصطلح العمارة الإسلامية .

وفى مساجد مصر وشرق العالم الإسلامى يمتد صف أو أكثر من الأروقة الرأسية على جانبي الصحن الأيمن والأيسر ، وتعود الأساكيب إلى الظهور فى شئ من العمق فى مؤخرة المسجد فيصبح الصحن محصوراً تماماً بين بيت الصلاة والأروقة الجانبية والخلفية ، وتُسمى هذه الامتدادات بالمجنبات : اليمنى واليسرى والخلفية ، وأوضح مثال لذلك جامع أحمد بن طولون فى القاهرة ؛ فقد اتبع فيه هذا النظام بغاية الدقة ، وإذا دققت فى الصحن رأيت أنه محاط بالأعمدة والعقود من كل ناحية ؛ ولا يشوب هذا المنظر المتناسق إلا مبنى الميضأة الذى وضع فى وسط الصحن تماماً .

أما فى الجناح الغربى لمملكة الإسلام ، فقد جرت العادة بأن يمتد بيت الصلاة حتى يشغل نصف مساحة المسجد أو أكثر ؛ وفى هذه الحالة تلغى المجنّبات ، فيبدو الصحن وكأنه فناء فسيح فى مؤخرة المسجد ، وإن دار عليه السور ؛ والسبب فى ذلك راجع - فى الغالب - إلى أن الأمطار فى هذا الجانب من بلاد الإسلام أغزر وأطول مدى مما هى عليه فى المشرق ، فاتجهت العناية إلى تغطية أكبر مساحة ممكنة من المسجد . وهذا الوضع لبيت الصلاة بالنسبة للصحن المكشوف متبع فى الغالبية العظمى من مساجد الغرب الإسلامى ، وهو ميزة من ميزاتها الواضحة .

وقد عمد الناس فى الأندلس إلى غرس أشجار النارج فى الصحن تجميلاً لهيئته والتماساً لشيء من الظل للمصلّين فى الصيف ، وقد تناقش الفقهاء طويلاً فى جواز غرس الأشجار فى الصحن وعدم جوازه ، وانتهى الأمر بإقراره ، والموضوع - على أى حال - ليس موضوع فقه وفقهاء ، فالأشجار لا دخل لها فى الصلاة ، ويستطيع أى مسلم أو أية جماعة من المسلمين ، أن يقيم (أو يقيموا) صلاة مفردة أو جامعة تحت الشجر .

وقد كره الفقهاء غرس الشجر فى صحن المساجد خوفاً مما ينجم من المشكلات بسبب ثمرها ، وبسبب الطيور التى تسكن الشجر وتكون سبباً من أسباب عدم نظافة الصحن ، وقد أرادوا أن يتحاشوا الخلاف على من يجوز له الانتفاع بالشمر ، وأرادوا كذلك أن يوصدوا الباب أمام أى استغلال زراعى لصحن المساجد . وأضاف الزركشى ملاحظة قيمة عن مخالفة الأندلسيين لهذه القاعدة ، قال :

« وذكر أبو الوليد بن الفرضى فى تاريخ الأندلس أن صعصعة بن سلام الشامى يروى عن الأوزاعى قال : وولى القضاء بقرطبة ، وفى أيامه غرست الشجر فى المسجد الجامع ، قال : وهو مذهب الأوزاعى والشاميين ، ويكرهه مالك وأصحابه »^(١).

والصحن المكشوف تنكمش انكماشاً شديداً فى البلاد الباردة أو الشديدة الحرارة ، ومن هنا فإن الصحن تصغر كلما اتجهنا شمالاً أو جنوباً فى بلاد الإسلام ، فهى تكاد أن تكون أبهاء مكشوفة فى مساجد البلاد العربية وإيران وشبه القارة الهندية ، وتصغر

(١) الزركشى - إعلام الساجد ، ص ٣٤١ وكل هذه الفقرة من ذلك الكتاب غنية بالملاحظات والمعلومات عن موقف الفقهاء من صحن الجامع .

أحجامها جداً فى مساجد آسيا الصغرى وما وراء النهر وتركيا وما إليها من البلاد الإسلامية الشمالية . وهى نادرة فى المساجد الاستوائية ، وفى الأندلس نجد الصحون تنتهى عند خط طليطلة شمالاً بسبب كثرة الأمطار وبرودة الجو معظم العام فوق هذا الخط ، وقد اقتضى ذلك تصغير مساحات المساجد مع إكثار عددها ما أمكن ، وليس هناك ما يدل على أن المساجد الجامعة فى طليطلة وسرقسطة ووشقة ولاردة وتطيلة كانت ذات صحون ، والمسجد الوحيد الباقى الأثر فى سرقسطة هو مسجد الجعفرية الذى بناه أبو جعفر أحمد بن هود ، وهو مسجد صغير مغطى كله .

ورغم هذا ، فإننا لا نعرف مسجداً إلا فيه مساحة مكشوفة تستعمل للصلاة فى حالات قليلة دون أن تكون صحناً بالضرورة ، فقد تكون ردهة أو بهو أو منوراً أو حديقة .

تلك هى العناصر الخمسة الرئيسية التى لا بد منها حتى يكتمل تكوين المسجد ، أما غير ذلك من عناصر المساجد - كالقباب والمآذن والميضآت والمقاصير وما إلى ذلك - فلا تدخل فى تكوين المسجد بصورة أساسية . فالأذان يمكن أن يُرْفَع من باب المسجد أو من فوق سقفه أو من أعلى بيت مجاور دون حاجة إلى المئذنة ، والقباب إضافة معمارية زخرفية ظهرت من وقت مبكر عندما أنشأ الوليد بن عبد الملك قبة الصخرة ، ولكنها ليست من أجزاء المساجد الأساسية .

وكذلك يقال عن الميضأة ، وهى أقل عناصر المسجد لزوماً له ، وعندما نفكر قليلاً نجد أن وجود الميضأة فى المسجد يقلل من هيئته وحرمة ، فهى موضع غير نظيف ، وإذا أضيفت إليها دورة مياه أصبحت موضعاً غير طاهر لا يجوز وجوده داخل المسجد .

والمفروض أن المسلم يذهب إلى المسجد طاهراً متوضئاً ، وليس المفروض - على أى حال - أن يتنظف ويتوضأ فى المسجد . وقد كان وجود الميضأة فى المسجد مفهوماً - رغم ذلك - فى العصور الماضية - عندما كانت معظم البيوت تخلو من المياه الجارية ودورات المياه ، أما اليوم فلم يعد لذلك معنى أصلاً ، وإذا كان مما لا بد منه فلينشأ خارج المسجد مكان للوضوء فقط على صورة تختلف عن صور الميضآت الحالية ، لأنها بوضعها الحالى لا تعين على نظافة أو طهارة ، أما دورات المياه فلا بد من استبعادها من المساجد تماماً .

ولكل من المثناة والقبة والمقصورة والعقد والعمود تاريخ طويل فى قصة العمارة الإسلامية ، وسنخصص لكل منها فقرة عند كلامنا على تطور العمارة الإسلامية واختلاف طرزها ، وهناك ستحدث عن خصائص المآذن والقباب وما إليها فى الكلام عن كل طراز على حدة .

ولكن لا بد لنا من إضافة بعض الملاحظات عن هذه الأجزاء الإضافية وجدناها فى كتاب الزركشى « إعلام الساجد » ..

عن الميضاة :

يجوز بناء المطاهر بالقرب من المساجد والتوضئة منها ، وقد روى أبو عبد الله بن بطة فى كتاب « جواز اتخاذ السقاية فى رحبة المسجد » من جهة عبد الرزاق : حدثنا الثورى عن المقدم بن شريح عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كُنَّ المعتكفات إذا حضُنَّ أَمَرَ رسولُ الله ﷺ بإخراجهنَّ من المسجد ، وأنَّ يضربنَّ الأخبية فى رحبة المسجد حتى يطهرنَّ . وذكر فيه حكاية من أحمد أنه احتج بذلك ، وهو يدل على صحته عنده . وفى كتاب الطهور لأبى عبيد عن إبراهيم النخعى قال : كانوا يتطهرون من مطاهر المساجد ، وروى فعل ذلك عن على وأبى هريرة رضي الله عنهما (١) .

عن المقصورة :

اتخاذ المقاصير فى المسجد لم يعهد فى الصدر الأول ، وقال أبو العباس القرطبى فى شرح مسلم : لا يجوز اتخاذها ولا يُصَلَّى فيها لتفريقها الصفوف وحيلولتها من التمكن من المشاهدة . وهذا منه (أى : من أبى العباس القرطبى) مبنى على أن المقصورة تقطع الصف الأول ، وفيه ما سبق فى المنبر (٢) .

وروى أن الحسن (البصرى) وبكر المزنى كانا لا يصلَّيان فيها ، لأنها أحدثت بعد النبى ﷺ ، والمسجد مطلق لجميع الناس . وذكر مَنْ صَنَّفَ فى الأوائل أن أول من اتخذها بجامع دمشق معاوية (٣) .

(١) الزركشى - إعلام الساجد ، ص ٣٨٣ .

(٢) أى : كراهية امتداد المنبر فى الصحن حتى يقطع صفوف المصلين .

(٣) الزركشى - إعلام الساجد ، ص ٣٧٥ .

والمقصورة حجرة بنى فى صدر المسجد على يمين القبلة أو يسارها لكى يصلى فيها الحاكم ، والقصد منها حمايته من الناس ، وقد عرفت فى كثير من المساجد .

ويشير الزركشى هنا إلى أنه ينطبق عليها ما سبق أن قاله فى المنبر ، إذ لا يجوز أن يمتد المنبر فى بيت الصلاة حتى يقطع الصف الأول من المصلين .

أما احتجاج من كرهوا الصلاة فى المقصورة بأنها لم تحدث أيام الرسول ﷺ فليس بحجة لأن المئذنة أيضاً لم تتخذ أيام الرسول ، وكذلك القبة ، فهل معنى ذلك أنهما مكروهتان ؟

وقد عرف المسلمون المصلّيات (جمع مُصَلَّى) ، وهو مكان فسيح خارج البلد كانوا يصلون فيه الأعياد ويقومون فيه بصلاة الاستسقاء مثلاً ، فهى - إذن - مساجد مؤقتة تتخذ للضرورة ، وقد عرفت من أيام الرسول ﷺ ، ومنها المصلى الذى على باب المدينة الشرقى ، وهو الآن محل للحجاج ، ولم يُصلَّ العيد فى المسجد إلا مرة لأجل مطر أصابهم - كذا رواه أبو داود وابن ماجه (١) .

وذهب الغزالى إلى أن هذه المصلّيات لا تعتبر مساجد ، وقال : لأن المسجد هو الذى أُعدَّ لرواتب الصلاة وعُيِّنَ لها حتى لا يُتَنَفَّعَ به فى غيرها ، وموضع صلاة العيد مُعدٌّ للآجتماعات ولنزول القوافل ولركوب الدواب ولعب الصبيان ولم تَجْرِ عادة السلف بمنع شئ من ذلك فيه ولو اعتقدوه مسجداً لصانوه ، ولقُصِدَ لإقامة سائر الصلوات ، وصلاة العيد تطوع ، وهو لا يكثر تَكَرُّرُهُ بل يُبْنَى لقصد الاجتماع والصلاة تقع فيه بالتبع (٢) .

وقد اشتهر أمر بعض هذه المصلّيات ، مثل مُصَلَّى قرطبة على ضفة النهر فى موضع يُسمَّى المصاراة ، وقد ظل يستعمل لصلاة الأعياد على طول عصر الأمويين فى الأندلس حتى آخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

وكان لقرطبة مُصَلَّى آخر يُسمَّى مُصَلَّى الربض على الضفة اليسرى للوادى الكبير وكان يُسمَّى أيضاً مُصَلَّى الجنائز .

(١) نفس المصدر ، ص ٣٨٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٨٦ .

ومصلّيات الجنائز وجدت في كل بلاد المسلمين ، وهى مصلّيات بسيطة لا تزيد على موضع مُسَوَّر خارج البلد فى الطريق إلى المقابر ، وكانوا يصلُّون فيها على الأموات .

وعرف المسلمون نوعاً آخر من المصلّيات ، وهى مساجد صغيرة فى الأحياء والبيوت ، وفى العادة يبنها الأفراد ويهبونها للجماعة . وقد عرفت أيضاً بالزوايا (جمع زاوية وهى المصلّى الصغير) وقد أخذت الزوايا معنى آخر عندما اتبعت الطرق الصوفية سياسة إنشائها - وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك فى المدخل .

* * *



الفصل السادس

طُرُزُ المساجد

(نظرة عامة)



أنفق علماء الآثار المتخصصون فى العمارة الإسلامية جهوداً كبيرة فى دراسة أسسها المعمارية والحلول الهندسية التى ابتكرها المعماريون المسلمون للمشاكل الفنية التى صادفتهم ، واجتهدوا فى تصنيف ما درسوا من الآثار فى طرز ومدارس لكل منها خصائص وصفات محددة ؛ ورغم اختلاف العصور والبلاد والأذواق ، فقد عرف المعماري المسلم - سواء أكان عربياً أو صينياً أو هندياً أو مغربياً أو أندلسياً - أن يحتفظ بالخصائص الإسلامية للمساجد وهى البساطة والتناسق والوقار .

تصنيف كونل :

ومن أشهر التصنيفات فى ذلك المجال : تصنيف الأثرى الألمانى (إيرنست كونل) Ernst Kuhnel كما أوردته فى كتابه المختصر المعروف باسم Die Kunst des Islam^(١) وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ أحمد موسى ونشره فى القاهرة . ولا يقوم تقسيم كونل على العصور أو على الأقاليم ، وإنما هو يمزج بين هذه وتلك على النحو التالى :

دور نشأة العمارة الإسلامية المساجدية :

ويضع كونل تحت المساجد الآتية : مسجد الرسول فى المدينة ، ومسجد الكوفة ، ومسجد البصرة ، ومسجد عمرو بن العاص فى القسطنطينية ، ومسجد عقبة فى القيروان . وهذه المساجد الخمسة تمتاز بالبساطة الكاملة ، وكلها بُنيت على قواعد مسجد الرسول الذى سبق أن وصفناه ، وقد ضاعت معالمها الأولى بسبب التجديدات الكثيرة التى توالى عليها ، وفكرتنا عنها مستقاة من أوصافها فى الكتب ومعظم هذه الأوصاف غير دقيق .

الطرز الأموى :

ويضع تحت قبة الصخرة ، والمسجد الأقصى ، والمسجد الأموى فى دمشق^(٢) .

(١) ومعناه : فنون الإسلام ، وقد طبع سنة ١٩٦٢م فى شتوتجارت بألمانيا .

(٢) نتحدث عن كل من هذه المنشآت وخصائصها فى فقرات خاصة من هذا الكتاب .

الطراز العباسى :

ونماذجه عنده هى مسجد بغداد ، ومسجد واسط ، ومسجد سامرا ، ومسجد أبى دلف ، ومسجد ابن طولون ، وإعادة بناء مسجد القيروان على يد زيادة الله بن الأغلب ، ثم إبراهيم بن أحمد .

الطراز الفاطمى فى مصر :

وهو يدرس أصوله وتطوره وخصائصه ويتخذ نماذج له : الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، والجامع الأحمر ، وجامع طلائع بن رزيك .

الطراز السلجوقى :

وهو يدرس هنا ابتكار بناء المدارس وأشكالها الأولى فى العراق والشام ، وتأثر عمارة المساجد بذلك ، و « مسجد السلطان » فى بغداد ، ومسجد أصفهان الجامع ، ومسجد نور الدين فى الموصل (بنى على مرحلتين : سنة ١١٤٨م و ١١٧٠ - ١١٧١م) والمآذن الحلزونية ومئذنة جامع بالس ذات السلم الداخلى ومئذنة جامع سوق الغزل فى بغداد ومساجد الشام من الطراز السلجوقى ، والمساجد السلجوقية فى آسيا الصغرى ، مسجد سيواس ومسجد قونية (بنى سنة ١٢٠٩ م) ومسجد أولو جامع فى مدينة وان فى أرمينية (أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر) ومسجد مدينة عانى (سنة ١١٠٠م) والتوسع فى إنشاء القباب وتنوع أشكالها وامتداد الفن الإسلامى إلى الهند ونشوء الطراز الإسلامى الهندى على أثر فتوح السلطان محمود الغزنوى (٩٩٧ - ١٠٢٨م) وجامع قطب الدين ومئذنته المشهورة باسم قطب منار فى دلهى .

الطراز الإيرانى المغولى :

يدرس إيرنست كونل هنا غارات المغول على العالم الإسلامى ابتداء من النصف الثانى للقرن الثالث عشر الميلادى ، وكيف فتحت بلاد الإسلام لتيارات ومؤثرات فنية آسيوية قديمة تأثرت بها العمارة الإسلامية الدينية وغير الدينية فى إيران وما وراء النهر (وشمال الهند فيما بعد) ويبين كيف دخل عليها تطور جوهرى فأصبحت تتجه إلى الفخامة والضخامة فى كل ناحية من نواحي المنشآت : الجدران العالية المبنية بالحجارة

المنحوتة المصقولة - البوابات الضخمة الملبسة بالرخام والمرمر والقاشاني الملون - القباب المرتفعة المزينة من الخارج والداخل بالرسوم والقاشاني - تعدد بيوت الصلاة في المسجد الواحد عن طريق إيوانات جانبية وفرعية تتجه كلها نحو القبلة - اختفاء العمود شيئاً فشيئاً وحلول الدعامات الحجرية محلها لتستطيع حمل العقود الضخمة التي يتركز عليها السقف ، وتقوم عليها القباب - صغر أحجام الصحن المكشوفة واختفاؤها في أحيان كثيرة - ظهور المآذن العظيمة الارتفاع .

نماذجها : مسجد جوهر شاه في روضة الإمام على الرضا في مدينة مشهد (بنى سنة ١٤١٨ م) - مسجد قبالان في بخارى (في الوقت نفسه تقريباً) - مسجد تيمورلنك الجامع في سمرقند - المسجد الأزرق في تبريز (منتصف القرن الخامس عشر) - مسجدا شاه في مشهد (١٤٥١ م) .

الطراز المملوكي في مصر والشام :

هنا نرى كيف تحولت المساجد إلى مجموعات معمارية تضم كل منها مسجداً وروضة (مدفناً لصاحب المسجد) ومدرسة ويضاف إليها - أحياناً - سبيل يستقى منه الناس ، ومارستان - أي : مستشفى - وتتسع مساحات المساجد وتعدد أجزاؤها وملحقاتها وأبهاؤها وإيواناتها .

أول مظهر للطراز الجديد مسجد الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) ، وأشهر نماذجه ما بين كبيرة وصغيرة : (مسجد الناصر في قلعة الجبل (١٣١٨ م) - جامع السلطان المؤيد (١٤١٦ - ١٤١٩ م) - جامع وروضة ومارستان السلطان قلاوون - جامع السلطان حسن (١٣٥٦ - ١٣٦٢ م) - جامع السلطان برقوق - جامع قايتباي - جامع السلطان الغوري .

الطراز المغربي الأندلسي :

ساد هذا الطراز في المغرب والأندلس ، ونقطة البداية في تاريخه عند مسجد عقبة في القيروان والمسجد الأموي في قرطبة ، وتتميز مساجد هذا الطراز باتساع بيوت الصلاة وكثرة الأعمدة الرخامية التي تحمل السقف وفي جامع قرطبة - عند الزيادة

الأولى على يد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م) ابتكر المعماري الأقواس المزدوجة لتعلية السقف وبعد الزيادة الثانية للمسجد أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م) أضيفت قُبَّتَان صغيرتان إلى يمين قبة الرواق الأوسط ويسارها .

كما تتميز تلك المساجد بالتفنن في هيئات المحاريب وانجائها إلى زيادة عمق الحنية - التوسع في استعمال الأقواس المدببة وأقواس حذوة الحصان - السقوف الخشبية المزخرفة - المثانة تصبح شبيهة بالبرج الضخم يبنى عند الجدار المقابل لجدار القبلة - أحياناً تفصل تماماً عن بنية المسجد وتصبح برجاً قائماً بذاته كما نرى في مساجد العصر الموحدى ، بسبب ضخامة العقود يتجه المعمارىون إلى استخدام الدعامات القصيرة بدلاً من أعمدة الرخام - الاهتمام بزينة الجدران بالقاشانى والفسيفساء ، كما نرى في مساجد الموحدىين وبنى مرين ومن جاء بعدهم . ونماذجها كثيرة جداً فى كل مدن المغرب ابتداء من سوسة والقيروان حتى رباط وسلا على ساحل الأطلسى ، ومراكش ذات المساجد الرائعة فى قلب المنطقة المدارية الإفريقية .

فى الأندلس تطورت العمارة تطوراً بعيداً ، فمرة فى طراز عصر الخلافة ومرة فى الطرازين المدجنى والمورىسكى .. حتى نصل إلى الطراز الغرناطى الذى يتجلى فى آثار الحمراء .

الطراز الصفوى فى إيران :

المساجد الصفوية الكبرى تقوم على أساس من روضات (مدافن) شيوخ المذهب الإسماعيلى وشاهات الأسرة الصفوية ، فروضة الشيخ (إمام زادة) أو الشاه هى قلب المسجد ، فترزين زينة بالغة وترفع فوقها القبة ، وتكون بقية المسجد فى هذه الحالة إيواناً (أو أكثر) ملحقاً بالروضة .

الخصائص الرئيسية : فخامة المبانى وارتفاع الجدران والأبواب واستعمال أغلى المواد فى بنائها - المزوجة بين المصلّيات الصغيرة الأنيقة تقوم فوقها القباب المحلاة بالقاشانى ، والصحون الصغيرة والكبيرة تُفرش أرضها بالمرمر وأحياناً توضع فيها النافورات - إدخال الحدائق كعناصر أساسية فى تكوين المجموعة المسجدية .

من أهم نماذج هذا الطراز : جامع الشيخ صفى الدين فى أردبيل ، بُدئ فى بنائه فى القرن السادس عشر ولم يتم إلا فى منتصف القرن السابع عشر - مسجدا شاه فى أصفهان - كيوك جامع (الجامع الأصفر) فى إريفان (بنى فى القرن الثامن عشر) - جامع ومدرسة السلطان حسين (مادرى شاه) فى أصفهان (بنى حوالى سنة ١٧٠٠ م) .

تدخل فى هذا الطراز المزارات الشيعية الرائعة فى كربلاء والنجف وسامرا ، وقد استمر البناء فيها إلى القرن التاسع عشر - ويدخل فيه أيضاً مسجد الكاظمين فى بغداد وأول إنشائه يرجع إلى القرن الخامس عشر .

الطراز المغولى فى الهند :

تمتاز المساجد المغولية فى الهند بالضخامة وتعدد أقسام البناء وقاعاته ودهاليزه ، بل نجد المبنى من طبقات أحياناً ، فتكثر المصليات الصغيرة ، وفى بيت الصلاة الرئيسى يأخذ المحراب هيئة ضخمة مثقلة بالزينة والزخارف ، كذلك تعدد القباب والمآذن حتى يبدو الجامع من بعيد وكأنه مجموعة من المباني متصل بعضها ببعض .

وبطبيعة الحال ؛ لانستطيع الكلام عن طراز هندي إسلامي واحد ، فإن الإسلام انتشر فى شبه الجزيرة الهندية انتشاراً واسعاً ، وقامت إمارات وسلطنات إسلامية فى البنجاب (حوض السند ١١٥٠ - ١٣٢٥ م) وكشمير (١٤١٠ م) وجوانبور (١٣٧٦ - ١٤٧٩ م) والبنغال (١٢٠٣ - ١٣٧٠ م) ثم امتدت^(١) إلى سنة ١٥٧٥ م ، وجوجارات (١٣٠٠ - ١٥٧٨ م) وملوا (١٤٠٥ - ١٥٦٩ م) وجولكوندا (١٣٤٧ - ١٦١٧ م) وبيشابور (١٤٩٠ - ١٦٥٦ م) ، وكانت هذه وحدات سياسية إسلامية هندية مستقلة بعضها عن بعض ، لكل منها طرازها الحضارى وتاريخها السياسى ، فقام فى الهند نتيجة لذلك أكثر من شكل حضارى إسلامي ، واختلفت لهذا طرز المساجد وأماطها اختلافاً بيناً^(٢) .

ولكن الناحية التى تميزت بها العمارة الإسلامية الهندية هى ناحية الروضات (أى : المدافن) ، فقد أكثر السلاطين والأمراء منها وتفننوا فيها وأنشأوها فى الحدائق وعلى

(١) أى : استمر عصر إنشائها إلى سنة ١٥٧٥ م .

(٢) وستخصص فقرة طويلة لمساجد الهند فيما بعد .

ضفاف الأنهار فى أوضاع بديعة تروق العين ، وتعتبر من بدائع الفن المعمارى العالمى ، والروضة فى الحقيقة مسجد صغير أو مصلى فيه بيت صلاة ومحراب ، ومن ثم فهى تدخل فى نطاق العمارة الدينية الإسلامية .

والنماذج - التى يشير كونل إليها هنا هى لمساجد وروضات معاً ، فلدينا من القرن السادس عشر روضة شير - شاه فى سَهَسَرَام Sahsaram وهى تحفة فنية تقوم على ضفة نهر وترتفع طبقات بعضها فوق بعض ، وروضة السلطان أكبر فى سيكاندرا Sekandra وروضة التاج محل التى بناها السلطان شاه جاهان لذكرى زوجته فى أجرا ، ومعظم البناية ملبس بالرخام ، وهى تقوم وسط حديقة غناء ويجرى خلفها نهر جومنا .

ولدينا من القرن السابع عشر روضة السلطان اعتماد الدولة (سنة ١٦١٠ م) ذات المآذن المضلعة ، وروضة محمود عادل شاه فى بيشابور (حوالى ١٦٦٠ م) ذات المنارة العالية الطبقات والقبة السامقة الضخمة (قطرها ٣٨ متراً) .

وفى بيشابور أيضاً نجد مسجدها الجامع الضخم الذى بنى فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وهو يحتفظ بالتقاليد المعمارية الهندية الأصلية مضافاً عليها طابعاً إسلامياً ، وهو يأخذ العين بقبته الوسطى التى تقوم فوق بيت الصلاة تحيط بها قباب صغيرة ترتفع كل منها على أربع من دعائم بيت الصلاة ، أما جامع فاتح بور سيكرى فهو يمتاز بثلاثة بيوت للصلاة ، كل منها إلى جانب الآخر . وهناك جامع السلطان أكبر الضخم فى أجرا . وقد أكمله من بعده السلطان شاه جاهان ، وشاه جاهان هو الذى بنى مسجد لاهور أيضاً ، وكذلك بدأ مسجد دلهى ، وقد أنشأه على شرفة عالية وبسط بناءه على مساحة واسعة ، وجعل له بوابة ضخمة ، وأقام على طرفى واجهته مئذنتين رفيعتين .

أما أجمل منشآت شاه جاهان فى عالم المساجد فهو المسمى بجامع اللؤلؤة (موتى - مسجد) الذى بنى بين سنتى (١٦٤٨ و ١٦٥٥ م) وهو من الحجر الرملى الأحمر ، وداخله كله مبطن بالمرمر .

ويحمل اسم جامع اللؤلؤة أيضاً مسجد آخر بناه السلطان أورانجزيب فى دلهى سنة (١٦٥٩ م) .

وشاه چاهان واحد من أعظم البناة فى تاريخ الإسلام ، وهو يقف فى صف واحد مع عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وعبد الرحمن الناصر وأبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ثانى خلفاء الموحدين ، وأبو يعقوب هذا هو صاحب مسجد إشبيلية الجامع الذى بقيت لنا منه مئذنته المعروفة اليوم باسم برج الخير الدا ، وهى من روائع فن المعمار فى تاريخ بلد حافل بجلال أعمال المعمار هو إسبانيا . وأبو يعقوب يوسف هو الذى شرع فى بناء الجامع الذى يُعرف اليوم بجامع حسان فى رباط الفتح فى المغرب ، وهو رائعة فنية لم تتم ، مثلها فى ذلك مثل سيمفونية فرانتس شوبرت المشهورة .

الطراز التركى العثمانى :

ونختتم هذا الموجز - تصنيف طرز العمارة الدينية الإسلامية كما أورده فى كتابه إيرنست كونل - بالكلام على مساجد الطراز العثمانى ، وهو طراز معروف بخصائصه وشخصيته مما يسهل مهمتنا فى الكلام عنه .

يعتبر الطراز العثمانى استمراراً للطراز السلجوقى مع اقتباسات كثيرة من الطراز الإيرانى ، وقد تكون هذا الطراز أثناء توسع العثمانيين فى آسيا الصغرى خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، وعندما استولى أورخان على بروسة ونقل إليها عاصمة الدولة العثمانية الناشئة ، أخذت خصائص الطراز العثمانى المميزة تتجلى فى سلسلة المساجد التى أنشأها العثمانيون فى عاصمتهم الجديدة وما دخل فى طاعتهم بعد ذلك من المدن والعواصم الأخرى ، حتى إذا فتح الأتراك القسطنطينية وجعلوها عاصمة دولتهم تجلّت هذه الخصائص بصورة واضحة ، وظهر الطراز العثمانى بخصائصه الفارقة - التى سنشير إليها - امتداء من النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى .

وأول مسجد عثمانى واضح المعالم هو أولو جامع الذى أنشأه أورخان فى بروسة ، وهو مسجد جميل له بيت صلاة فسيح متعدد الأروقة ، وفى منتصف الرواق الأوسط تقوم قبة كبيرة ، وهناك قباب صغيرة فوق الرواقين المحيطين بذلك الرواق الأوسط . والنور يدخل الجامع من طاقات صغيرة فى الجدران الحاملة للقباب ، وقد كثرت المساجد الشبيهة بمسجد بروسة فى بلاد الأناضول والروملّى . ويراد بالروملّى ما دان للعثمانيين من بلاد الروم (أى : البيزنطيين) فى بلاد اليونان ومقدونيا .

وفى بعض المساجد الصغيرة من الطراز العثمانى فى دوره الأول هذا ، نجد المسجد يقتصر على بيت صلاة رئيسى تقوم عليه قبة ويتسع بيت الصلاة فى الجهة المقابلة للقبلة عن طريق بهوٍ مستطيل ذى عمد ، وقد يَغطَّى البهو أو جزء منه ويترك الباقي صحناً مكشوفاً ، وقد يقتصر الأمر على بيت صلاة تغطيه قبة واسعة على الطراز الفارسى .

وقد تطور هذا الطراز فى المنشآت العثمانية التالية ، وخاصة مدرسة السلطان مراد الأول فى بروسة ، وبلغ درجة عالية من الجمال فى جامع رايشيل الذى وضع تصميمه المعماري إلياس على ، وفى هذا الجامع - وعدد آخر من المساجد العثمانية فى ذلك العصر - نجد ملامح الطراز السلجوقى القديم ظاهرة ، مع اقتباسات من الطراز المملوكى .

واستمر استخدام هذا الطراز - على هذه الصورة - فى منشآت العثمانيين الأولى فى الآستانة ، وخاصة فى مدارس محمود باشا (١٤٦٤م) ومراد باشا (حوالى ١٤٧٠م) وجامع عتيق على باشا (١٤٩٧م) ، ولكن المساجد العثمانية الكبرى التى أخذ العثمانيون ينشئونها بعد أن أصبحت دولتهم إمبراطورية كبرى أخذت تنظر إلى عمارة كنيسة أياصوفيا ، وتتأثر بها تأثراً واضحاً ، فقد وجد المعماريون الأتراك فى مبنى تلك الكنيسة الرائعة - التى تحولت إلى مسجد - حلاً موفقة لمشاكل كثيرة كانت تحول بينهم وبين الإنشاء الفخم ، وخاصة حينما يتعلق الأمر بإنشاء القاعات الفسيحة العالية السقوف الوفيرة الضوء تقوم على وسطها قبة سامقة ، ومن المعروف أن المهندسين الإسكندرانيين اللذين أقاما كنيسة أياصوفيا للإمبراطور البيزنطى جوستيان قد أقاما قبتها الوسطى على دعائم حجرية ضخمة تحمل عقوداً منفرجة هى الغاية فى المثانة ورشاقة الهيئة فى نفس الوقت ، وفوق هذه العقود تقوم القبة ، وهى فى ذاتها تتكون من عقود عالية متقاطعة ، والبناء كله يقوم على توازن دقيق وعسير التحقيق جداً .

ولكن المعماري العثماني استطاع أن يقلد هذا الشكل المعماري فى مهارة بالغة ، وبدا ذلك بوضوح فى جامع المحمدية الذى أنشأه السلطان محمد الفاتح فيما بين سنتى (١٤٦٣ و ١٤٦٩م) .

وهناك من قالوا إن الذى أقام هذا المسجد لابد أن يكون معمارياً مسيحياً من أئقنوا الإنشاء على هذا الطراز ، ولكن المتأمل فى جامع المحمدية يجد أنه مسجد إسلامى الروح فى كل تفصيل من تفاصيله ، مما يستبعد معه أن يكون المنشئ غير مسلم ، وقد أصلح هذا المسجد ورَّمَّم أكثر من مرة بحيث لم نعد متأكدين من أن المبنى الذى أمامنا الآن هو المبنى الأصلى .

ولكن المسجد العثمانى الباقى على حاله من ذلك العصر هو مسجد السلطان بايزيد (١٥٠١ - ١٥٠٧ م) الذى أنشأه المهندس خير الدين فى إستانبول ، وهو مبنى على طراز أياصوفيا ، فيه الرواق الأوسط الفسيح الذى تقوم عليه نصف قبة ، وعلى جانبى ذلك الرواق الأوسط تمتد أروقة جانبية ، وعلى ركنى الواجهة تقوم مئذنتان نحيلتان هما فى الحق نموذجان للمئذنة العثمانية ذات الشرفة الواحدة التى تضرب فى الجو كأنها قلم رصاص مسنون .

وقد دخلت العمارة العثمانية دور تطور رائع على يد مهندس معمارى عبقرى يقف فى نفس المستوى مع أعظم المماريين فى عصر النهضة ممن زينوا روما وغيرها بروائع الفن المعمارى ؛ ذلك هو سنان باشا المتوفى سنة (١٥٧٨ م) .

وقد حاول بعض الباحثين الغربيين أن يجدوا له أصلاً يونانياً أو ألبانياً ضناً بعبقريته على الإسلام وأهله ، ولكن واقع الحال يكذب ذلك ، فسنان تركى مسلم أصيل من رأسه إلى قدمه ، وأصغر التفاصيل فى منشأته إسلامية خالصة .

وجدير بالذكر أن مثل هذا قيل أيضاً عمن أنشأوا قبة الصخرة والجامع الأموى فى دمشق ومسجد قرطبة الجامع وغيرها مع أن لدينا أسماء المماريين الذين صمّموا الزيادة الثالثة لمسجد قرطبة الجامع ، وفيها كل جماله وروعته ، ومن أسف أن العرب لم يحتفظوا لنا بأسماء عباقرة المهندسين والمماريين الذين أقاموا عمائرهم الرائعة ، لأن العربى ركز اهتمامه كله على الكلام ، وخاصة المنظوم منه ، وما من بيت شعر هزيل لا يقدم ولا يؤخر إلا سجّلوه ونسبوه لصاحبه كأنه فتح عظيم ، والأندلسى الذى كان يجهل اسم المعمارى الذى أنشأ محراب جامع قرطبة كان يردّد بإعجاب بالغ بيت شعر هزيل لعلى بن الجهم قال فيه ما معناه :

إن عيون النساء الجميلات بين الرصافة والجسر سلبن لُبَّهُ ..

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجِسْرِ

جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرَى وَلَا أَدْرَى !

وهذا - على ضحاكته - عندهم أهم بكثير من عمل خالد وفريد فى بابهِ حقاً مثل
محراب جامع قرطبة .

ولكن الأتراك حفظوا سيرة سنان باشا وتلاميذه ، ربما لأن الرجل نفسه كان ذا
عبقريّة أصيلة فعاش فيه فى عمق وتكلم هو عنه كثيراً ، وقد مرَّ سنان باشا فى تطوره
بثلاث مراحل كل منها يتمثل فى مبنى من مبانيه الأولى ، وقد قال هو عنها إن الأول
يمثله صبيّاً يتعلم ، والثانى معمارياً متمكناً ، والثالث أستاذاً .

أما المبنى الأول فمسجد شاه زادة (١٥٤٣ - ١٥٤٨ م) وهو يسير فيه على نسق
جامع المحمدية ، والمبنى الثانى هو جامع السليمانية (١٥٥٠ - ١٥٥٦ م) الذى يرتد فيه
إلى أصول أياصوفيا ويتقنأ إتقاناً كاملاً ، أما الثالث فهو عمله الأكمل فى مسجد
السليمية فى أدنة (١٥٧٠ - ١٥٧٤ م) ؛ هنا يتخطى سنان أياصوفيا نفسها فيقيم قبة
الرواق الأوسط على مساحة فسيحة تحيط بها اثنتا عشرة دعامة تحمل فوقها اثنى عشر
عقدأ ، تدور حول تلك المساحة ، ثم رفع فوق العقود طبانات تتخللها النوافذ ذات
الزجاج الملون ، وفوق هذه الطبانات التى تكون شكلاً من اثنى عشر جداراً أقام نصف
قبة ، أى : قبة منفرجة .

وعلى يمين ذلك الرواق الأوسط وشماله امتدت الأروقة الجانبية تزينها قباب أصغر ،
والمسجد كله ملبس بالرخام والمرمر ، وأنت عندما تتوسط المساحة تحت القبة الرئيسية
تشعر بعبقرية هذا المعمارى الخالد الذى أنشأ طوال عمره قرابة مائتى مبنى ما بين مساجد
ومدارس وقناطر وأسبلة وقصور .

وعلى يدى سنان باشا قامت مدرسة كبرى من المعمارين وصلوا بالعمارة العثمانية
إلى الأوج الذى وصلت إليه ، نذكر منهم «خوجة قاسم» منشىء جامع بنى وليدى
(١٦٥١ م) .

ذلك هو تصنيف طرز العمارة الدينية الإسلامية - أو مدارسها - كما يراها إيرنست كونل ، وإنما تابعت فيه بشيء من التفصيل لأنه يعطينا الفرصة لنمر مروراً سريعاً بأهم مدارس العمارة الإسلامية مع الإلمام بالرئيسى من خصائصها ونماذجها .

ونجمل بعد ذلك الكلام على أهم التقسيمات الأخرى لتاريخ العمارة الإسلامية ومدارسها ، فنقول إن كريسويل يتبع تقسيماً يقوم على أعمال معينة لا على عصور أو مدارس ؛ والنقطة الرئيسية فى تقسيمه هى :

١ - المساجد الإسلامية الأولى ، ويسمّيها بالبداية ، ويدخل فيها مسجد الرسول فى المدينة والمساجد الجامعة الأولى .

٢ - قبة الصخرة ، وهو يعتبر إنشاءها أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حدثاً فاصلاً فى تاريخ العمارة الإسلامية .

٣ - منشآت الوليد بن عبد الملك ، ويركز الكلام هنا على المسجد الأموى فى دمشق ، ويسهب الكلام فيما كان لقيام هذا المسجد من أثر فى تطور العمارة فى العصر الأموى .

٤ - ثم يفرد باباً لمنشآت الوليد بن عبد الملك غير الدينية ، مثل : قصر المنية عند بحيرة طبرية - قصير عمره ، حمام السّرح - جامع قصير الحلّابات .

٥ - منشآت سليمان وهشام ابنى عبد الملك : مثذنة مسجد القيروان وتطور هذه المثذنة ، قصر الحير الشرقى .

٦ - قصر المشتى ، قصر الطوى ، مسجد حران الكبير .

٧ - العمارة فى العصر العباسى : إنشاء بغداد ، قصر المنصور فى بغداد .

٨ - مسجد الرقة الكبير ، ثم الأثر الفارسى .

٩ - قصر أخضر وقصر عطشان .

١٠ - المسجد الأقصى فى بيت المقدس ، مسجد قرطبة الجامع ، صهريج الرملة ، رباط سوسة .

- ١١ - جامع عمرو فى القاهرة كما كان سنة (٢١٢هـ / ٨٢٧ م) .
١٢ - جامع القيروان الأول (حتى أيام إبراهيم بن أحمد الأغلبى) .
١٣ - سامرا وآثارها (القسم الأول) الجوسق الخاقانى .
١٤ - جامع بوفتاته فى سوسة ، مسجد سوسة الجامع .
١٥ - سامرا (القسم الثانى) مسجد سامرا الجامع ، مسجد أبى دلف ، دور سامرا، نقوش سامرا .

١٦ - القيروان (الدور لثانى لعمارة القيروان) ، مواجل الأغلبية ، مقياس الروضة فى مصر ، مسجد القيروان كما جده إبراهيم بن أحمد ، مسجد الأبواب الثلاثة .

١٧ - منشآت أحمد بن طولون : الجامع والميدان .

وهذا - فى الحقيقة - ليس بتقسيم ، إنما هو تاريخ ووصف لأهم آثار العمارة الإسلامية حتى منتصف العصر العباسى . وقد واصل الرجل عمله فى كتابه عن مساجد القاهرة ؛ ولكنه على أى حال لم يقم بدراسة عامة شاملة كهذه التى قام بها إيرنست كونل وأوجزناها فيما سبق .

أما الأثرى المصرى الدكتور أحمد فكرى فيتحدث عن المساجد الجامعة الأولى ، ثم مساجد العصر الأموى فى الشام والعراق ، ثم مساجد نهاية العصر الأموى ، ثم مساجد الشرق العربى ، ثم مساجد الأندلس ، فمساجد المغرب .

وقد اتبع فكرى هذا التقسيم فى قسم المدخل من كتابه القيم عن مساجد القاهرة ومدارسها ، وهذا المدخل لا يعتبر تاريخاً للفن المعمارى الإسلامى ولا تقسيماً دقيقاً لمراحله ، وإنما هو مدخل ممتاز لموضوع الكتاب الأسمى ، ومن ثم فإن الجهد قد انصرف فيه إلى دراسة الأصول والبدايات بصورة خاصة ، فهناك مثلاً دراسة وافية جداً لمسجد الرسول ﷺ ، والأدوار التى مر بها ما بين زيادات وإعادة بناء حتى عصر الخليفة المهدي العباسى ، وهناك دراسة وافية للمساجد الجامعة الأولى التى بنيت بعد مسجد الرسول ، وهى مساجد الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان ، وهناك كذلك دراسة مفصلة جداً لجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط وتاريخه وتطوره .

وفرق فريد شافعى بين المساجد البسيطة التى سارت على الأسس التى رأيناها فى مسجد الرسول فى المدينة - ويسمىها بالطراز النبوى ، أو طراز الظلّات والأروقة - والمساجد المعقدة التى تعددت أقسامها وأجزاؤها ويسمىها بالتخطيط ذى الإيوانات ، ويقول : إن ذلك التخطيط استعمل للعمائر الدينية كالمدرسة والخانقاه .

وإليك أهم النقاط التى يركز عليها تقسيمه هذا (١) :

فأما الطراز - أو التخطيط - النبوى ، فيُسمّى أيضاً بالتخطيط ذى الصحن والظلّات ..

ويتكون المسجد فيه من :

١ - مساحة محدودة بسور أو خندق تحفظ للمسجد حرمة .

٢ - سقيفة أو ظلّة عند جدار القبلة ، وقد تضاف أخرى .

٣ - الصحن المكشوف ، وهو بقية فناء المساحة المسورة فى مؤخرة المسجد ، وذلك لحماية المصلّين من الشمس والمطر .

٤ - اكتملت سمات هذا الطراز سنة (٢٤هـ) ، بعد تمام توسيع المسجد على يد عثمان بن عفان ؛ ويحتمل أن يكون عثمان قد أضاف ظلّات أخرى فى جوانب الفناء الصحنى .

٥ - « والظلّات هى المساحات المسقوفة التى تتكون كل منها من مجموعة من الأروقة ، أى : المسافات المتوازية التى تنقسم إليها الظلّات وتمتد بطول الواحدة منها ، ويفصل كل رواق عن الآخر صف من الأعمدة المستديرة أى : الأساطين (جمع أسطوان أو أسطوانة) أو من البدنات ، وهى الأكتاف المتعامدة الأضلاع المشيدة بالبناء وكانت هذه الأساطين والبدنات تحمل دائماً - إلا فى أحوال نادرة - عقوداً أو قناطر متتالية تتكون منها بائكات يوضع فوقها السقف ، أما فى تلك الأحوال النادرة فكان يوضع السقف فوق كمرات (أى : أعمدة خشبية) تحملها الأساطين والبدنات » .

(١) العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ج ١ ص ٢٣٧ وما يليها .

٦ - اتبع العرب هذا التخطيط (أى : الطراز) فى مساجدهم الأولى : مسجد البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ودمشق (المسجد الأموى) وبيت المقدس (مسجد عمر) ، وحافظوا على هذا التخطيط فى حالات التوسعة أو إعادة البناء وذلك بزيادة مساحة الظلّات أو إضافة ظلّات جانبية .

وكانت تضاف إليه - فى بعض الأحيان - زيادات حول جدرانها الخارجية ، عدا ما وراء جدار القبلة ، كما حدث فى مسجد سامرا الكبير الذى شيّده الخليفة المتوكل سنة (٢٣٧هـ / ٨٥٠ م) ، وكذلك جامع أحمد بن طولون الذى شيّده بالقطائع فى فسطاط مصر ويؤرخ فى سنة (٢٦٥هـ / ٨٧٩ م) .

وكان الشكل الخارجى يتراوح بين المربع والمستطيل ، ويختلف عدد الظلّات والأروقة من مسجد إلى مسجد ، قال الدكتور فريد شافعى^(١) : ومثال ذلك أن أروقة ظلّة القبلة فى المسجد الأموى بدمشق كان عددها ثلاثة فقط ، وتتجه بئكتاتها موازية لجدار القبلة ، وذلك عندما بناه الوليد بن عبد الملك فى عام (٩٦هـ / ٧١٤ م) ولكن يقطعها رواق عريض يتعامد اتجاهه عليها فى وسط الظلّة ، أى : يقع على المحور الرئيسى الذى يمر بالمحراب الأوسط ، ويطلق على ذلك الرواق العمودى اسم « المجاز » أو المجاز القاطع Transept أما ظلّات الصحن الأخرى فى الجوانب الثلاثة الباقية من الصحن فكانت تتكون كل منها من رواق واحد .

كذلك كان المسجد الأول فى مدينة الرقّة الذى بناه الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور فى عام (١٥٥هـ / ٧٢٢ م) إذ كانت ظلّة القبلة فيه تتكون من ثلاثة أروقة توازى جدار القبلة ولكن بغير مجاز قاطع ، أما الظلّات الأخرى فكانت كل منها مكونة من رواقين .

أما المسجد الأقصى الذى شيّده الوليد بن عبد الملك حوالى سنة (٨٧ - ٨٩ هـ) ثم عدلّه الخليفة المهدي العباسى فى عام (١٦٣هـ / ٧٨٠ م) فكانت ظلّة قبلته بعد التعديل عميقة إلى حد كبير ، ولكننا لا نعلم ما إذا كان هناك فى الأصل فناء يتقدم ظلّة

(١) فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ج١ ص ٢٤٣ .

القبلة أم لا ، ولكن يمكن الوصول إلى معرفة أن أروقة ظلّة القبلة كان عددها خمسة عشر رواقاً تتجه كلها مع البائكات التي تفصلها عن بعضها في اتجاه عمودى على جدار القبلة ، وكان الرواق الأوسط عريضاً يبلغ ضعف عرض الأروقة على الجانبين منه ، غير أنه كانت هناك بائكتان مستعرضتان تسيران قرب جدار القبلة وتوازياته ، وقد أعاد الظاهر الفاطمى بناء هذا المسجد فى عام (٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م) على أساس تخطيطه أيام المهدي العباسى .

وهناك مسجد يشبه المسجد الأقصى إلى حد كبير وهو المسجد الجامع بمدينة قرطبة بالأندلس الذى شيّده عبد الرحمن الداخل الأموى فى عام (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) ، فقد كانت ظلّة قبلة المسجد الأول عندما شيّده عبد الرحمن الداخل تتكون من أحد عشر رواقاً تسير كلها ببائكاتها فى اتجاه عمودى على جدار القبلة ، وكان الرواق الأوسط كذلك أعرض بكثير من الأروقة الجانبية ، ولكن لم تكن هناك بائكات مستعرضة مثل التي كانت فى المسجد الأقصى ، أما الظلّات الأخرى حول جوانب الصحن فإنها لم تُشيد إلا قبيل عام (٣٤٠ هـ / ٩٥١ م) .

كذلك كان جامع القيروان عندما أُعيد بناؤه فى عام (٢٢١ هـ / ٨٣٦ م) ، غير أن بائكاته فى ظلّة القبلة التي تتجه عمودية على جدار القبلة كانت تقف عند بائكة مستعرضة تتقدم ذلك الجدار ، وكانت هناك أيضاً بائكتان مستعرضتان تسير إحداهما وراء واجهة ظلّة القبلة على الصحن وتسير الثانية فى وسط المسافة بين البائكتين المستعرضتين السابقتين ، أما الظلّات الأخرى حول جوانب الصحن فأغلب الظن أنها أضيفت فيما بعد ضمن أعمال التجديد والإضافة التي تابعت على المسجد .

ويكاد المسجد الجامع بمدينة سوسة الذى شيّده فى عام (٢٣٦ هـ / ٨٥١ م) يكون المثل الوحيد الذى تتكون ظلّة قبلته من أروقة متقاطعة ، ثلاثة موازية لجدار القبلة ، وثلاثة عشر تتجه عمودية عليه ، ويتميز الرواق الأوسط منها بأنه أعرض من الأروقة الأخرى ، وتغطيها كلها أقبية تتجه عمودياً على جدار القبلة ، ووضعت قبة فوق منطقة مربعة تتقدم المحراب الأول ، الذى كان يوجد بجدار القبلة القديم قبل هدمه لتوسيع الظلّة بإضافة جزء جديد مساوٍ للقديم فى العصر الفاطمى ، أما الظلّات الثلاث الأخرى

حول الصحن فقد شُيّدت مع ظلّة القبلة القديمة وكانت كل منها تتكون من رواق واحد .

ويتميز جامع أبى دلف فى شمال سامرا والذى شَيّده الخليفة المتوكل فى عام (٢٤٧هـ / ٨٦١ م) بأن جميع أروقته - سواء أكانت فى ظلّة القبلة أو فى الظلّات الثلاث الأخرى - تتجه كلها عمودية على جدار القبلة ، باستثناء بائكتين تسيّران موازيتين لجدار القبلة وتتقدمانه بحيث منعت إحداهما بائكات الأروقة من أن تلتقى بجدار القبلة .

وأما التخطيط ذو الإيوانات ، فيقصّره فريد شافعى على العماثر ذات الطابع الدينى كالمدارس والخانقاهات ، وكانت فى الوقت نفسه تُتخذ مساجد أيضاً ، وهو يريد بها المنشآت الدينية ذات التكوين المركّب الذى يتكوّن من أجنحة (أووين) تحيط بالصحن أو تتفرع عنه .

ويرى أن هذا الطراز بدأ على أيدي السلاجقة فى العراق فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ، ثم انتشر فى العالم الإسلامى بعد ذلك .. وهو يُسمّيه - أيضاً - بالتخطيط السنّى لأنه يرى أن الذين ابتكروه كانوا أصحاب الدول الذين تحمّسوا للمذهب السنّى والذين جاءوا بعد نظم شيعية ، كالسلاجقة بعد البويهيين فى العراق ، والأبويين بعد الفاطميين فى مصر فقد اهتموا اهتماماً شديداً بإعادة المذهب السنّى إلى السيادة فى تلك الأقاليم فأنشأوا المدارس التى تدرّس الفقه على المذاهب الأربعة وخصّصوا فيها لشيخ كل مذهب إيواناً .

ويُفهم من مجموع كلام د. شافعى أنه يرى أن المساجد جميعاً سارت على الطراز - أو التخطيط - النبوى .

أما التخطيط ذو الإيوانات فقد اتبع فى المنشآت الدينية - كالمدارس السنّية - أو التى تقام لأعمال الخير والبر كالخانقاه والمآستان .

* * *

وقد تصدى لتاريخ العمارة الإسلامية وتتبع تطورها عدد آخر من أعلام الأثريين الغربيين أهمهم جورج مارسيه Gorge Marçais الذى يعتبر كتابه Précis d'Art Musulman (الوجيز فى الفن الإسلامى) من أحسن وأشمل ما ألف فى الفنون الإسلامية إلى الآن ، ولم يتبين جورج مارسيه طرزاً معمارية إسلامية يختلف بعضها عن بعض ويسود كل منها عالم الإسلام كله خلال عصر معين ، وإنما هو تتبع التطور العام للتاريخ السياسى والحضارى لعالم الإسلام ، وجعل تطور العمارة الإسلامية جزءاً - أو مظهراً - من مظاهر ذلك التطور السياسى والحضارى العام .

وهو يحدد أربع مراحل (أو أربعة أدوار) لهذا التطور ، وهى :

١ - المرحلة الأولى (أو الدور الأول) من منتصف القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع الميلاديين :

خلال هذه الفترة قامت دولة الإسلام وبلغت أقصى اتساعها شرقاً وغرباً ، ودخلت فى نطاقها بلاد كانت قبلاً فى النطاق الحضارى الساسانى من ناحية والبيزنطى من ناحية أخرى ، فورث المسلمون التقاليد المعمارية لهاتين الحضارتين واستخدموها فى إنشاء عمائر إسلامية خاصة بهم ولهذا يمكن أن يقال إن العمارة الإسلامية فى ذلك العصر قامت على الاقتباس عن الفرس والبيزنطيين ، مُحاولَةً تطويع العناصر المقتبسة للذوق العربى الإسلامى ومطالبه ؛ ونتيجة لذلك يرى جورج مارسيه أن كل العمائر التى أقامها المسلمون فى هذه المرحلة لا تتميز بشخصية إسلامية خاصة ، وإن دلت على مهارة وقدرة فى الاقتباس والتحوير والملاءمة بين ما هو موجود وما هو مطلوب .

ويعترض كل مؤرخى العمارة الإسلامية من العرب - من أمثال حسن عبد الوهاب وأحمد فكري وفريد شافعى - على هذا رأى ، ويقولون إن هذه الفترة الأولى شهدت ظهور فن إسلامى مستقل الشخصية والملامح وإن كانوا لا ينكرون أن المسلمين استمدوا من الروم والساسانيين عناصر فنية كثيرة وأدجوها فى منشآتهم الفنية .

٢ - المرحلة الثانية ؛ تمتد من أوائل القرن العاشر وتستمر إلى منتصف القرن الثانى عشر الميلاديين :

خلال هذه الفترة ضعفت الدولة العباسية وتفككت وحدتها وقامت فى نواحيها الدول المستقلة أو شبه المستقلة ، ويشير جورج مارسيه بصورة خاصة إلى قيام ثلاث خلافات كبرى متعاصرة فى ذلك العصر ، هى العباسية والفاطمية والأموية الأندلسية ، ويقول إن قيام الدول المستقلة ودول الخلافة المتنافسة قد أدى إلى ظهور صور حضارية محلية فى كل ناحية ، وانتقل الفن الإسلامى - نتيجة لذلك - من دور التقليد إلى دور الإبداع ، وتأثر بالتقاليد المحلية فى كل ناحية ، فتنوعت اتجاهاته وأساليبه المعمارية مع المحافظة على الطابع الإسلامى العام فى الإنشاء .

فى هذه المرحلة ظهر مسجد سامرا الكبير الذى تذكّرنا مثذنته بـ بـرج بابل القديم ، وقام فى الفسطاط مسجد أحمد بن طولون مقتبساً المئذنة الملوية وتقاليد البناء المتين الرصين المعروفة فى مصر من أيام قدماء المصريين ، وظهرت فى القاهرة - بعد ذلك - العمارة الفاطمية التى تعتبر استمراراً لفن المعمار المصرى القديم القائم على البناء الرصين بالحجر المنحوت والذى يتوخى دائماً المتانة والجمال والفضامة والتوازن فى البناء ويشير مارسيه هنا إلى المساجد الفاطمية التى تتميز بهذه الخصائص مثل الجامع الأحمر وجامع طلائع بن رزيك ، ويقول إن المساجد المملوكية إنما هى استمرار وتطور لهذه التقاليد المعمارية المصرية القديمة فى ثوب إسلامى .

وفى أواخر المرحلة التى نتحدث عنها قامت الدولة السلجوقية التركية ووضعت نهاية للسيطرة البويهية الشيعية على العراق ، واجتهد أولئك الأتراك السُّنيُّون المتحمسون للإسلام فى بناء العمائر الضخمة من مساجد ومدارس وروضات (أضرحة) وكلها تتميز بالمتانة والفضامة رغم صغر حجمها نسبياً ، وتتميز أيضاً بالخطوط البسيطة فى رسم بيوت الصلاة والصحن مع إضافة القباب والمآذن المستديرة والإكثار منها والعناية بالزخارف سواء فى داخل المبنى أو خارجه ، واستعمال المواد الغالية أو النبيلة كالرخام والمرمر والأخشاب الغالية والقاشانى والفسيفساء والزجاج الملون ، ويمتاز هذا الطراز السلجوقى التركى أيضاً بالإتقان والدقة وإحكام الصنعة .

ويتكلم مارسيه فى هذه المرحلة أيضاً عن قيام الطراز المغربى الأندلسى وخصائصه .

٣ - المرحلة الثالثة؛ من بداية القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلاديين :

من الناحية التاريخية تتميز هذه المرحلة بالأخطار التي أحاطت بعالم الإسلام والخسائر التي مني بها ، فلم يكد عالم الإسلام يتخلص من الخطر الصليبي ، حتى داهمته أخطار المغول من ناحية والغزو النصراني الإسباني من ناحية أخرى ، وقيام النورمان والبيزنطيين والجمهوريات التجارية الإيطالية بانتزاع السيادة في البحر الأبيض من المسلمين ؛ وهذا كله يعنى ضياع وحدة العالم الإسلامي بصورة حاسمة .

ويرى مارسيه أنه - برغم هذه الكوارث - سار الإبداع الفني الإسلامي في طريقه ، ففي الشرق نجد المغول ، بعد عدوانهم المخرب على العالم الإسلامي وتخريبهم لشرقه وقضائهم على دولة بنى العباس ، بعد ذلك كله دخلوا الإسلام وقامت الدول الإسلامية المغولية في وسط آسيا وغربها وخاصة دولة إيلخانات فارس ، واهتم سلاطين هذه الدول ببناء المساجد والمدارس والروضات وأصبحت عاصمتهم « تبريز » مركزاً كبيراً من مراكز الحضارة الإسلامية ، وقامت فيها المنشآت المعمارية المغولية الإسلامية بما تمتاز به من البناء بالآجر وكسوة المبنى بالرخام والقاشاني المثقل بالزخارف والقباب ذات الرقاب الطويلة والمآذن المستديرة .

وفي الطرف الآخر لعالم الإسلام تطور « الطراز المغربي » في ظلال المرابطين ، ثم الموحدّين وبلغ أوجه في المساجد الكثيرة التي أنشأها خلفاء الموحّدين في إمبراطوريتهم من إشبيلية إلى مراكش ومن الجزائر إلى المحيط ، وبين هذين الطرفين - المغول من ناحية ودول المغرب الكبرى من ناحية أخرى - قامت دولة المماليك في مصر وامتدت حتى شملت الشام والحجاز ؛ وأبدع المعماريون في نواحي الدولة المملوكية الواسعة في تطوير الطراز المملوكي البديع .

٤ - المرحلة الرابعة؛ تمتد من بداية القرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلاديين :

تمكّن الأتراك العثمانيون خلال هذه المرحلة من إعادة الوحدة إلى جانب كبير من عالم الإسلام ، فامتدت دولتهم (من العراق إلى حدود المغرب الأقصى) ، واهتم

سلاطينهم بالإنشاء والتعمير ، واعتمدوا - فى منشأتهم - على معماريين من أبناء إمبراطوريتهم الواسعة ممن عرفوا التقليد المحلى ، وأضافوا عليه صبغة إسلامية واضحة .

وفى نفس الوقت ظهرت دولة الصفويين فى إيران واجتهد ملوكها فى إحياء التقاليد المعمارية الإيرانية ، فظهرت فى بلاد الدولتين الكبيرتين - التركية العثمانية والصفوية الإيرانية - طرز إسلامية جديدة ذات شخصية وخصائص واضحة ، أهمها الطراز الإيرانى الذى نشأ فى ظل الصفويين ، فتألفت عاصمتهم «أصفهان» كمركز للعمارة الإسلامية الصفوية المتميزة بضخامة جدرانها وبواباتها المزينة بالقاشانى الملون ، وبمساجدها المعروفة بقبابها المدببة ذات الرقاب العالية والمزينة من الخارج بالقاشانى ذى البريق المعدنى ، وأزهرت العمارة الإسلامية فى الهند فى ظل الغوريين وظهرت القباب البصلية الهيئة والمآذن المستديرة العالية والمساجد الضخمة المتعددة الطبقات ، وأنشأ الفنانون تلك الروضات البديعة التى بهرت أنظار العالم مثل روضة التاج محل .

ونضج الطراز التركى الذى يقوم على خطوط هندسية معقدة بعض التعقيد ، وقباب كثيرة من كل شكل وحجم ، ومآذن بديعة رفيعة كالسهام .

وهكذا أصبحت العمارة الإسلامية - فى آخر أدوارها وأعلى درجات تطورها - مجموعة من الطرز المعمارية الرائعة التى يختلف بعضها عن بعض فى التفاصيل ، ولكنها تتحدث جميعاً عن روح إسلامى غلاب ، ولا تخطئ العين فى تبيين الأسس المعمارية العربية الأولى فى أعماق كل طراز منها .

وهناك دراسات وتقسيمات عامة أخرى كثيرة ، ولكن واحداً منها لا يصل إلى شمول تقسيم كونل رغم صغر حجم كتابه واختصاره الشديد .

هل يمكن كتابة تاريخ العمارة الإسلامية ؟

الحقيقة أنه تصعب رواية تاريخ الفن المعمارى الإسلامى على أنه تاريخ متكامل ذو مراحل وأدوار يلى بعضها بعضاً ويكمل اللاحق منها السابق ، لأن هذا الفن المعمارى ولد مع مسجد الرسول ﷺ فى المدينة وهو الذى وضع الخطوط الرئيسية لكل مساجد الإسلام وحدد العناصر الأساسية التى ينبغى أن تتوافر فى كل منها ، ثم ترك الناس

أحراراً بعد ذلك يبنون مساجدهم كيف شاءوا ما داموا محافظين على روح المساجد ورئاسياتها ، مبتعدين بها عن كل ما يمكن أن يشوب عقيدة التوحيد أو ييهما ، كوضع التماثيل ورسم التصاویر على الجدران والإكثار من المصلّيات الجانبية والغرف ومخازن الذخائر وما إلى ذلك .

ومن خصائص العقيدة الإسلامية أنها لا تعترف بولاية فريق من المسلمين على فريق في شئون الدين^(١) ، وكل من يعتنق الإسلام يصبح ولياً على نفسه ومستولاً عن إيمانه أمام الله مباشرة ، بخلاف ما نرى في تاريخ المسيحية مثلاً من تمسك بعض الكنائس الأولى بزعامة عالم المسيحية ، ومحاولتها فرض سلطانها الديني على غيرها ، وهذا واضح فيما تتمسك به كنيسة روما من سيادة العالم المسيحي كله وقول البابا بأنه ممثل المسيح على الأرض ، وأن له حق تعيين الكرادلة والأساقفة والقسس ، وهؤلاء لهم حق تفسير العقيدة - وربما تعديلها - وفق نظام خاص ، فهذا بدوره جعل القسس أولياء شرعيين على عقيدة الناس ، وجعل الكنائس مراكز لإدارة الشئون الدينية للناس ، فأصبحت الكنائس لهذا لا تُبنى إلا بإذن - ولو شكلياً - من الكنيسة المحلية في حين أن الأسقفيات لا تُنشأ إلا بموافقة البابوية .

وقد كان لهذا أثره في عمارة الكنائس ؛ فإن الإدارة الكنسية المحلية أو المركزية لابد أن توافق على خطة بناء الكنيسة ، وهذا بدوره أوجد نوعاً من التنظيم في عمارة الكنائس ، فلكل مستوى من مستويات الكنائس مواصفات لابد من توافرها ، فلا بد مثلاً لكاتدرائية من مصلّى رفيع الذرى ينتهى صدره بمذبح وهيكل ، ولا بد أن يكون المذبح عند تقاطع المصلّى بممر معترض Transept يصنع مع المصلّى هيئة صليب ، وفي ذراعى الصليب تُنشأ غرف للقسس والشمامسة وغرف لحفظ أدوات الكنيسة وذخائرها ، وتُبنى - فوقهما - مكاتب للأسقف ومساعديه ومسكن للأسقف ، ولا بد - كذلك - من مصلّيات صغيرة تُنشأ حول المصلّى الكبير ومقاصير للاعتراف ، ومن الضروري أن يكون هناك أرغن لمصاحبة الأناشيد .. وما إلى ذلك .

(١) وهذا لا يتعارض مع ما كان للفقهاء دائماً من مكانة ورأى في شئون الدين نظراً لتخصصهم في علومه واعتراف المسلمين لكبارهم بهذه المكانة ، ولكن الفقهاء لم يكونوا قط هيئة رسمية تفرض سلطانها على الناس ، كما نرى في هيئة الكرادلة مثلاً في نظام الكنيسة الكاثوليكية .

ومن هنا كانت لدى الإهارات الكنسية المركزية والفرعية رسوم نموذجية للكنائس بأنواعها ، وهذا يفسر لنا كيف أن كل الكنائس الأوربية سادها الطراز الرومانى مثلاً حتى القرن الثانى عشر ، ثم الطراز القوطى حتى القرن الخامس عشر ، ثم طراز النهضة ثم الركوكو أو الباروك حتى أوائل القرن التاسع عشر ؛ ثم حدث الانقلاب الهندسى المعمارى الحديث وتحرّر المعمار من القواعد المفروضة كما تحرّر غيره من نواحى العمل والفكر فى الغرب بعد ذلك ، وبدأت تظهر الكنائس الحديثة المبتكرة الأشكال فى كل مكان .

لهذا ، فهم فى أوروبا يستطيعون كتابة تاريخ لعماراة الكنائس ويستطيعون تحديد هذا التاريخ بعصور تميّزت بطرز واضحة المعالم ساد كل منها فى وقت معين ، حتى الطرز المحلية - كالطراز النورمانى فى شمال فرنسا وإنجلترا والطراز المستعربى فى إسبانيا المسيحية - نجد كلاً منها يمتد على مساحات شاسعة من الأرض ويسود فترة طويلة من الزمان ، كل ذلك بفضل التنظيم العام للكنائس ، وحرص الإدارات الكنسية على المحافظة على مستوى وشكل معين للكنائس ، وما يتبع ذلك من زيتها بالتصاوير واللوحات والتماثيل والهيكل المزخرفة والقطع الفنية من الرخام والمرمر والبرونز وما إلى ذلك .

كل ذلك كانت تُعنى به الكنيسة وتجتهد فى توفيره فى كنائسها الكبرى ، وهذا كله كان سبباً فى بعث تيارات فكرية وفنية متوازية فى كل العالم الكاثوليكي تقريباً .

مثل هذا لا نجده فى تاريخ العمارة الإسلامية ، لأن الإنشاء المعمارى خضع فى كل مكان لأربعة عوامل رئيسية : العناصر المساجدية الرئيسية التى كان لابد من توافرها : القبلة والمحراب والمنبر وبيت الصلاة والصحن (خلاً بعض استثناءات لا تؤثر فى الصميم) ، ثم التقاليد المحلية ، ومواد البناء المتيسرة ، ثم الابتكارات الفردية ، فكل طراز من الطرز التى مررنا بها نشأ فى بقعة معينة من عالم الإسلام نتيجة لتلك العوامل الأربعة .

فلا نزاع فى أن منشآت عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك فى الشام أخذت بجانب كبير من التقاليد المعمارية البيزنطية ، ومن الواضح أن العمارة العباسية فى

عصرها الأول - بما فى ذلك سامرا - واصلت تقاليد العمارة القديمة فى بلاد الرافدين ، وهل هناك شك فى أن مثذنة مسجد سامرا الجامع تذكرنا - ولو من بعيد جداً - بفكرة برج بابل ؟ ..

والعمارة السلجوقية تحمل طابع بلاد التركستان وما تعود الناس فيها من قديم الزمان من الإنشاء المتين الضخم بالحجر المنجور . وكذلك يقال عن منشآت إيران والهند وكل من طرز هذه البلاد يواصل تقاليد بلاده القديمة فى الإنشاء والزينة والزخرفة .

ومن الواضح أن ميلاد الطراز المصرى أيام الفاطميين يعيد إلى الأذهان مهارة المصريين فى البناء المتين الرفيع الذرى فى كل العصور ، ومع أنه لا علاقة إطلاقاً بين عمارة المعبد المصرى القديم والمسجد الفاطمى أو المملوكى ، إلا أن الاثنين يمتازان بوضوح الخطوط وسلامة الإنشاء المعمارى وضخامة الجدران وارتفاعها مع المحافظة على وحدة فنية للمبنى كله .

ولا شك فى أنك إذا دقت النظر فى صحن جامع برقوق الهائل ونظرت إلى بيت الصلاة ودرت ببصرك فيما حولك شعرت وكأنك فى ساحة معبد مصرى قديم ، لا من حيث الروح بل من حيث الجو المعمارى العام .

لقد أخذ المعمارى المصرى عن أخيه الآسيوى عناصر لم تعرفها قط العمارة المصرية القديمة - كالعقود والحنايا والقباب - ولكنه صنعها صناعة مصرية جارية فى ذلك على تقاليد أجداده فى الإنشاء المتين .

أما العمارة المساجدية المغربية فقد تطورت عن عمارة القصور - أو الأقصر - التقليدية المغربية ، والقصر فى المغرب قبل الإسلام هو القرية البربرية الحصينة ذات الأبراج والأسوار . والاسم مشتق فى الغالب من لفظ Castra اللاتينى بمعنى الحصن مباشرة ، أى : أنه ليس تحريفاً للفظ القصر العربى .

وخطط مساجد القيروان وسوسة الأولى هى خطط قصور أو حصون بربرية ، وجامع عقبة الأول كان على هيئة سور حصن ، ثم أضاف إليه حسان بن النعمان أبراجاً على الأركان . والمثذنة المغربية برج للدفاع فى هيئتها ، أما تصميم جامع عقبة فى

القيروان - كما بناه إبراهيم بن أحمد الأغلبى - فلا شك فى أنه من عمل مهندس بارع ، عرف كيف يحوِّك هذه الهيئة العسكرية إلى طراز معمارى مساجدى جميل ، فجعل نصف مساحة الحصن بيت صلاة هو الغاية فى الجمال مع ترك بقية الحصن صحناً . أما تطور العمارة المغربية من أيام المرابطين فقد دخلت فيه عوامل أندلسية وأخرى إفريقية ، وقد بين ذلك بوضوح هنرى باسيه وهنرى تيراس فى كتابهما المعروف : « قلاع ومعابد

Henri Basset et Henri Terasse :

موحدة »

Fortresses et Sanctuaires Almahades, Hespéris 1924 - 1926.

وقد كتب العلماء كثيراً عن العمارة الأندلسية وخصّصوا طراز عصر الخلافة الذى يمثله مسجد قرطبة الجامع بدراسات مفصلة ، وحاولوا أن يردوا الأقواس المزدوجة التى تميز الجامع إلى أصول إسبانية معروفة فى منشآت قديمة مثل سقايات شقوبية .. ولكنى وجدت فى « مسالك الأبصار للعمري » (ج ١ ص ١٨١) النص التالى فى سياق الكلام عن بنيان الجامع الأموى فى دمشق :

« وقيل : لما أراد الوليد أن يبنى المسجد أشار ببناء أسطوانات إلى الطاقات ، فدخل بعض البنّائين فقال : لا ينبغى أن يُبنى هكذا ، ولكن ينبغى أن يبنى فيه قناطر ، وتعقد أركانها ، ثم تجعل أساطين ، وتجعل عمداً ، وتجعل فوق العمد قناطر ، تحمل السقف ، وتخفف عن العمد البناء » .

وهذا كلام واضح يشرح الخطة الهندسية لهذه الأقواس المزدوجة بما لا يدع مجالاً للشك ، ويدل على أنها ابتكار معمارى عربى مسلم ، أراد المعمارىون أن يطبقوه أول الأمر فى المسجد الأموى فى دمشق ، ولكنهم لم يوفقوا ، وظلت الفكرة معلقة فى الهواء حتى وجدت من يستطيع تطبيقها والإفادة منها فى الأندلس .

وإذن : فطرز العمارة الإسلامية لا تكون تاريخاً لها ، وإنما هى أشكال ونماذج سادت فى هذه الناحية أو تلك لأسباب محلية خاصة ، وقد تعاصرت معظم هذه الطرز فى الغالب .

* * *

إلى أى حدٌ وفقَ المعماريون المسلمون ؟

من الواضح المعروف أن المساجد رغم تاريخها الطويل وتعدد طرزها وأشكالها لم تخرج فى تكوينها العام عن هيكل مسجد الرسول فى المدينة . ولقد تفنن المعماريون وأهل الفن فى أشكال بيوت الصلاة والصحون والقبلات والمحاريب والمنابر ، ولكنهم لم يضيفوا عنصراً رئيسياً واحداً إلى عمارة المساجد ، ومساجد الأحياء الصغيرة المتواضعة تبدو دائماً وكأنها مختصرات أمينة للمساجد الجامعة الضخمة .

ومن طريف ما يلاحظ هو أن المعماري المسلم وجَّه كل قدراته الفنية الابتكارية إلى العناصر الزخرفية الجديدة ، التى دخلت عمارة المساجد دون أن تصبح أجزاء أساسية ذات وظائف رئيسية ، كالمئذنة والقبّة والشرفة والمقعد والدكة والمقصورة ، فهذه كلها عناصر دخلت عمارة المساجد خلال تاريخها الطويل ولكن كعناصر زخرفية جمالية فحسب ، فالمئذنة مثلاً ليست ضرورية للأذان ، والقبّة لا وظيفة لها فى المساجد إلا فى الناحية المعمارية الجمالية ، وكذلك الأمر مع بقية العناصر التى ذكرناها . وإلى هذه العناصر بالذات وجَّه المعماري المسلم كل جهده فى الابتكار والزينة . وإذا كان المعماري قد وجد أن إمكانات الابتكار بالنسبة للمنبر مثلاً قليلة فقد وجد هذه الإمكانية واسعة فى المئذنة والقبّة ، فأطلق لنفسه العنان وجرى فى ميدان التجديد شوطاً بعيداً .

والسبب فى ذلك أن المسجد - كمسجد - لا يحتتمل زيادة شىء على صلبه الأساسى لأنه ينبغى أن يكون - مهما كان حجمه وشكله - مجرد مكان للصلاة ، فلا يمكن أن تضاف إليه غرفة خاصة للإمام كما نجد فى غرف القسس فى الكنائس ، لأن الإمام المنقطع لإمامة الصلاة أمر مستحدث وهو ليس من ضرورات الصلاة ، وأى مسلم يستطيع أن يؤم إخوانه إذا ألمَّ بأركان الصلاة إماماً كافياً (وهو أمر غير عسير) .

والصلاة الإسلامية ليست لها أدوات مادية يستعان بها فى أدائها ، فلا هياكل أو مذابح أو نواقيس ولا صلبان ولا أكواب ولا أشرطة ملونة ولا مناوئ ولا أغطية ولا ملابس معينة للطقوس ؛ ولتصرف إلى ذلك أن الكنيسة كانت دائماً إدارة زواج وتسجيل مدنى ومكتب توثيق وحفظ للمستندات ، مما اقتضى إنشاء الغرف والمكاتب فيها .

أما المسجد فكان وما يزال مجرد بيت للصلاة .. لقد استعملت المساجد مدارس

ومحاكم ومراكز لاجتماع المؤمنين ، ولكن دون أن يقتضى ذلك إدخال تعديل على عمارة المسجد ، فالتعليم يتم فى بيت الصلاة أو الصحن ، والشيوخ يجلسون عند الأعمدة ويتحلّق التلاميذ عليهم ، والقاضى يدخل الجامع ومن خلفه كاتب يحمل قَمَطَرَهُ الذى يضمُّ أوراقه ، ويأخذ القاضى مجلسه فى ركن معين من الجامع ، ويأخذ المتقاضون أماكنهم أمامه. وخلف القاضى يجلس رئيس الأعوان وهم الرجال الذين يخصّصُهم صاحب الشرطة والمُحتسِب لتففيذ أحكام القاضى ، أما بقيّتهم فينتظرون خارج المسجد .

وهكذا ظل المسجد مكاناً للصلاة أساساً ، ولم تخضع عمارته إلا لهذا المطلب ؛ أما بقية المطالب فكانت إضافية بالنسبة له ، ولم تستعمل المساجد لهذه الأغراض الإضافية لأنها مساجد .. بل لأنها أبنية عامة تملكها الجماعة ، وتستطيع استخدامها فى مصالحها المتعلقة بالدين ؛ كالقضاء ، وهو تطبيق الشريعة ، والتعليم ، وهو - أساساً - تلقين علوم الإسلام .

كان من حق أى مسلم فى العصور الماضية أن يبني فى الجامع إذا كان غريباً عن البلد ، ولهذا نجد أنه من بين أحكام المساجد التى قررها أبو حامد الغزالى أن يؤدّن صلاة الفجر ينبغى أن يؤدّن داخل المسجد حتى يصحو كل النائمى فيه ، ثم يؤدّن بعد ذلك على الباب .

وإذن : فقد واجه المعمارى المسلم - من أول الأمر - مشكلة الجمع بين بساطة المسجد والفخامة التى لا غنى عنها لمساجد جامعة فى عواصم كبرى لإمبراطورية شملت نحو نصف المعمورة فى عصورها الذهبية . لقد كان مسجد الرسول فى المدينة الهيكل الأساسى الذى لا بد من المحافظة عليه ، ولكن لم يكن هناك مفر من تضخيمه حتى يصبح مظهرأ مناسبأ للدولة الكبرى التى قامت على الإسلام ومظهرأ من مظاهر حضارته .. تلك كانت معادلة عسيرة التحقيق : الجمع بين البساطة والفخامة .

ورغم ذلك فقد عرف المعمارىون كيف يحلّون هذه المعادلة - التى تبدو مستحيلة لأول وهلة - بتوفيق كبير ، فوجّهوا همّهم إلى التضخيم والتوسعة والمئانة فى الأجزاء الدائمة الاستعمال من بيت الصلاة والصحن ، وجعلوا الزينة والتجميل فى غير متناول

اليد ، وحرصوا - مع ذلك - على أن يكون ذلك فى حدود ضيقة وعلى نحو يحفظ على المسجد وقاره .

وكان عليهم - إلى جانب ذلك - أن يأخذوا فى الاعتبار الخدمات الأخرى التى كان لابد للمسجد أن يؤديها ، فلا بد أن يكون بيت صلاة المسجد رحباً حتى يتسع للقاضى ومجلسه والشيوخ وطلابهم ، وهذا تطلب الإكثار من الأبواب لتسهيل الدخول والخروج أولاً ثم لضمان التهوية المستمرة ، وكان عليهم أن يراعوا أن يكون كل ما فى المسجد متيناً يحتمل الاستعمال المستمر ، بل يحتمل سوء الاستعمال والإهمال الذى لا مفر منه ما دام المسجد ملك الجماعة لا يعنى بإصلاح خلله أحد بصورة مستمرة . وهذا الأمر الأخير هو الذى جعل المعمارى لا يضع فى المسجد شيئاً منقولاً يمكن أن يتحطم أو يطمع فيه جاهل أو ضعيف الإيمان ، مثل الأثاث الزخرفى وحلية الجدران التى يمكن انتزاعها أو النوافذ النحاسية أو كسوة الحوائط بالخشب الغالى الثمن وما إلى ذلك .. بل جعلت هذه كلها على مستويات عالية لا تصل إليها اليد : فالنوافذ المعدنية وزجاجها الملون ، والمشكوات ذوات السلاسل الغالية ، والكتابات المزينة بقطع الجواهر ، والخشب المنجور المزخرف الملون ، كل هذه جعلت فى السقف أو قربه ، أو علقت فيه بحيث لا تصل إليها الأيدى بسهولة ، أما زينة الأجزاء الدنيا من البناء فقد جعلت ثابتة لا يسهل انتزاعها أو إلحاق الضرر بها ، كالأعمدة الرخامية وزينة الحوائط بالفسيفساء ، بل إن الفقهاء كرهوا فرش المساجد بالسجاد الغالى ، بحجة أن ذلك يتنافى مع البساطة ، والحقيقة أنهم مالوا إلى ذلك صرفاً لأطماع الناس عنها . فلم توجد هذه الفرش إلا فى المساجد الملكية أو فى مقاصيرها ، وفى العصر الحديث عندما أصبح للمساجد خدم وحرس فرشت الجوامع بالفرش الثمين ، وحرص المسئولون مع ذلك على ألا يوضع الفرش إلا فى المناسبات ثم يرفع بعد ذلك ، ومال الناس فى معظم الحالات إلى الحصر فهى تفى بالغرض ولا تثير الطمع .

نقول هذا لأن بعض الناس نظر إلى الكنائس وما فيها من ذخائر وتحف وأثاث فظن أن ذلك يرجع إلى عاطفة دينية أعمق هناك ، وخاصة أن الكنائس لم تكن أمكنة عامة أبداً ، بل هى منشآت خاصة فى واقع الأمر ، تملكها وتُشرف عليها وتُعنّى بها الهيئات الكنسية . ورجل الدين المشرف على الكنيسة - أسقفًا كان أو راعياً - مسئول عما فيها ولا يأذن للناس بالدخول فيها إلا فى أوقات الصلوات ، أما الذين يريدون أن يدخلوا

الكنيسة للدعاء فحسب فلا يتخطون بهَوَ الكنيسة ذا المقاعد ولا يقتربون من المذبح أو الهيكل إلا تحت بصر السَدَنَة والقَوَمَة ، ثم إن هناك - فى العادة - حاجزاً بين هذين الجزأين الخاص والعام من الكنيسة ، فأين هذا من المساجد المفتحة الأبواب التى لا يحرسها أحد ، وادخل - إذا شئت - إلى الجامع الأزهر أو مسجد الحسين أو جامع الكاظمين فى بغداد أو الجامع الأموى فى دمشق ، وانظر إلى الداخلين والخارجين والمصلّين والمعتكفين والجالسين لمجرد الجلوس ، بل النائمين ، وتأمل كيف يحتمل المسجد هذا الاستعمال العنيف الذى لا يهدأ من أذان الفجر إلى ما بعد العشاء الآخرة بوقت طويل ..

أى أن المعمارين جعلوا الزينة والابتكار فى الشكل دون الروح ، أما الفن والتألق والابتكار فقد اقتصرت على العناصر الثانوية : من قباب ومآذن وعقود وبوابات وحدائق ونافورات ..

وظل المسجد بذلك بيت صلاة وقبلة ومحراباً ومنبراً وصحناً أولاً وقبل كل شىء ، يستوى فى هذا المسجد القروى الصغير ، ومسجد سامرا الجامع الهائل المساحة ومسجد قرطبة الجامع الرائع العمارة ومساجد الممالك ومساجد الأتراك التى تبهر البصر وتشرح القلب والنفس وتنطق بجلال الإسلام فى آن واحد .

وجدير بالذكر أن المعمارى المسلم عرف كيف يتخلص من التقليدية التى طبعت نواحي أخرى من نواحي الفن العربى كالأدب مثلاً ؛ فبينما نجد أن شعراء العرب تقيّدوا دائماً بقواعد القصيدة وبحورها واقتصروا على فنون الشعر الموروثة من مدح وفخر وهجاء ورناء ، مما حدد مجال الإبداع الشعرى تحديداً مؤسفاً انتهى به إلى الجمود التام من أواخر القرن الرابع الهجرى ، نجد أن المعمارى المسلم ظل يبتكر ويجدد ويخترع ويقتبس عناصر غير إسلامية ويطوّعها لفنه حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادى على الأقل ؛ وباستثناء الطرز الأموية والعباسية والمغربية والأندلسية الأولى ، نجد أن معظم الإبداع المعمارى الإسلامى جاء ابتداء من عصر السلاجقة ، أى : فى القرن العاشر الميلادى ، بعد أن ركدت رياح التجديد والابتكار فى ميادين الأدب والفكر فى كل نواحي مملكة الإسلام تقريباً .

* * *

العمارة الإسلامية ظلت دائماً فناً شعبياً؛ ولهذا احتفظت بحيويتها :

والسبب فى ذلك أن الأدب العربى اتجه دائماً إلى أن يكون ملكاً لطبقة معينة من المثقفين الذين اتجهوا إلى البعد عن جمهور الناس ، وجعلوا إنتاجهم الأدبى معرضاً لأفكار طائفهم التى أنهكتها وامتصت حيويتها تطلعات أرستقراطية خادعة ، وهبطت بها حاجة الشاعر أو الكاتب إلى أصحاب السلطان والمال ومن إليهم ممن يعيش على هامشهم ، مما جعل الإنتاج الأدبى - فى معظم الحالات - خادماً لأطماع مادية جعلته دائماً يدور فى فلك أصحاب الجاه والمال ، ومن هنا فقد جفَّت شجرة الابتكار الفكرى سريعاً .

وقد حاول المتنبى أن يتخلص من ذلك الإسار فلم يستطع ، لأن عالمه الفكرى ظل طوال عمره مقتصرأ على أفلاك أهل السلطان ، فظل ينتقل من فلك إلى فلك ، حتى تحطم فى النهاية على صخرة مطامعه ومطامع الطبقة التى عاش فى إسارها . ولم يحسن المتنبى أبداً بأن هناك بشراً خارج أفلاك أهل السلطان ، ولو فطن إلى ذلك لتخلص من ذلك الذل الذى ظل طول حياته يشكو منه دون أن يستطيع الفكاك منه ، لأن عالم الفكر فى تلك العصور كان عالماً مترقئاً مقفلأ مادياً جامداً .

وهذا كان سبب تعاسة معظم الشعراء ، ولو تخلَّصوا من ذلك لعرفوا أن فى جماهير الناس من صدق الحس وصفاء العاطفة ، أكثر بكثير مما كان المتنبى يلتصمه عند مدوحيه من سيف الدولة إلى كافور .

وإنه لمن العجب أن ذلك النائر الغاضب ، الذى مدح صعاليك أهل السلطان لم يقل مدحة نبوية واحدة ومن حوله شعراء الجماهير الذين لم يكن الواحد منهم يبدأ شعره إلا بمدح خاتم النبیین وخير الخلق أجمعين ، ولو تنبَّه المتنبى إلى ذلك فربما كانت عقده قد انحلت ، كما خرج أحمد شوقى من تزمّت القصور وتقاليد البلاط إلى الشعر القومى ومدايح النبى ﷺ ، فوجد نفسه فى سنوات قليلة شاعر العروبة والإسلام ، وبلغ من المجد وسمو المكانة وبعُد الصوت وحُب الناس ، ما لم يسبقه إليه شاعر عربى .

وذلك يرجع إلى أن الابتكار فى الفن والفكر لا يظل حياً إلا إذا ظل الفكر متصلاً بحياة الجماهير اتصالاً مباشراً ودائماً ، فإذا انقطع عنها جف ومات ، وتلك هى الفكرة

الأساسية التي أدار عليها هنرى برجسون دراسته المتمعة التي نشرها سنة (١٩٣٢ م)
باسم : مصدرا الأخلاق والدين :

Henri Bergson, Les Deux Sources de la Morale et la Réligion.

وقال فيها إن الفكر كالشجرة ؛ لابد أن تظل متصلة بالأرض - أى : بالزمان والمكان -
لكى تظل حية ، فإذا أنت قطعتها فقد فصلتها عن الزمان والمكان ، فبدأ فى الجفاف
والموت . والفكر المتكلف المصنوع المنمق إنما هو كقطعة أثاث جميلة ، لا تزيد فى
جوهرها على قطعة خشب ميتة ، وأفضل منها جذع شجرة صغيرة نابتة فى الأرض غير
أنيق ولا مهذب ، ولكنه حتى ينمو ويتطور لأنه متصل بالأرض ، متصل بالزمان والمكان.

كذلك الفن ، لابد أن يظل على اتصال بالناس نابعا منهم ، أخذاً من حياتهم صاباً
فى مجتمعهم . وقد نسى ذلك أهل الفكر العرب من ناظمين وناثرين فانفصلوا بأنفسهم
عن الجماهير وترفعوا عنها فماتوا وما دروا أنهم ماتوا . أما العمارة فقد ظلت دائماً فى
أيدى معماريين وعرفاء من صميم جمهور الناس ، ممن ظلت شعلة الإيمان حية فى
قلوبهم ؛ فظل المسجد دائماً مظهراً صادقاً من مظاهر الإيمان . وسواء وقفت فى جامع
قرطبة ، أو تحت قبة مسجد بايزيد فى الآستانة ، فإنك تحس بالإسلام إحساساً قوياً
عميقاً ، لأن المعمارين والبنائين الذين بنوا هذا وذاك أحسوا دائماً بالإسلام إحساساً
شاملاً عميقاً ، فى حين أنك تقرأ ديوان شاعر موهوب كأبى تمام فلا تجد فيه قصيدة
واحدة فى مدح الرسول ﷺ ، والرسول هو محور حياة جماهير المسلمين ، ومعنى
هذا أن هذا الشاعر الضخم لم يحسّ بنبض الشعب الذى عاش فيه قط .

اذكر - إلى جانب ذلك - أن معظم الشعر الشعبى يبدأ بمدح الرسول ﷺ .

واذكر - كذلك - أن الكثير من كنائس المسيحية الكبرى تبدو وكأنها معارض
للفن ، وليست بيوتاً للصلاة ، وخاصة ابتداء من كنائس عصر النهضة وما تلاه ..
فهى - كالمساجد - كانت مجالاً للفنانين ، صوروا فيها أحاسيسهم ، وهى أحاسيس
الجماهير .

* * *



الفصل السابع

المآذن والعقود والقباب (وعناصر معمارية أخرى)



ونختم هذه الدراسة الموجزة عن المساجد بالتعريف بأهم العناصر المعمارية التي دخلت على المساجد ، بعد العناصر الأساسية التي اجتهدنا في التعريف بها في أول هذا الكلام ، فقد تكلمنا عن بيت الصلاة والصحن والقبلة والمحراب والمنبر ، والآن نتحدث في إيجاز عن المشذنة والقبّة والعقد والعمود والزخارف وبقية العناصر المعمارية الإضافية.

وسنقتصر في ذلك على ما يفى بضرورة التعريف دون الدخول في مناقشات عن الأصول أو الإحصاء الشامل للصور المختلفة التي أخذتها كل من هذه العناصر في شتى الطرز والعصور والبلاد ، لأن هدفنا من ذلك هو مجرد استلفات ذهن القارئ العادي إلى هذه العناصر وتمكينه من تذوقها وتبيين نواحي الامتياز الفني والجمالي فيها .

المشذنة :

أقدم ما لدينا عن ذكر المآذن ما رواه البلاذري (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٩ م) من أن زياد ابن أبيه - عامل معاوية على العراق - بنى لجامع البصرة « منارة من الحجر » في سنة (٤٥هـ / ٦٦٥ م) وذلك عندما هدم الجامع الأول وأعاد بناءه بالحجر ، على نحو يتناسب مع ما وصلت إليه البصرة من اتساع وعمران وزيادة سكان . وليست لدينا أى تفاصيل عن هيئة هذه المنارة ، ويلاحظ أن اسم « المنارة » هو الذى أُطلق على المآذن أول ما ظهرت في العمارة الإسلامية .

وتلى ذلك رواية لابن دقماق والمقريزى يقولان فيها إن مسلمة بن مخلد - الذى كان عامل مصر لمعاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد وحفيده معاوية (من ٤٧ إلى ٦٢هـ / ٦٦٧ - ٦٨١ م) - أنشأ في سنة (٥٣هـ / ٦٧٢ م) أربع صوامع في أركان جامع عمرو ابن العاص في القسطنطينية لغرض الأذان ، وأمر بأن تبني « منارات » في معظم مساجد القسطنطينية الأخرى ، وأمر مؤدنى جامع عمرو بأن يبدؤوا بالأذان للصلوات ثم يتلوها المؤذنون في المنارات .

ونلاحظ أن النصوص تفرّق هنا بين الصوامع التى بنيت فى أركان جامع عمرو بن العاص ، والمنارات التى بنيت فى المساجد الأخرى التى تلى المسجد الجامع فى المرتبة ، وليست لدينا فكرة واضحة عن الشكل المعمارى لهذه أو تلك ، ولكننا نستنتج من نصوص أخرى أن الصوامع كانت أقرب إلى الأبراج فى ضخامة الهيئة ، وأما المنارات فكانت أقل حجماً وربما أقل ارتفاعاً ، واستعمال لفظ المنارة هنا يدل على أن المنارات كانت هياكل معمارية مقتبسة من المنارات التى كانت تُنشأ على السواحل أو على قُنن الجبال فى العصور القديمة .

وهذان الخبران يسمحان لنا بالقول بأن المآذن نشأت عن الصوامع (وهى الأبراج) والمنائر ، ثم امتزج الطرازان معاً فظهرت مآذن المساجد الأولى التى بقى لنا بعضها إلى اليوم .

والحق أننا إذا تأملنا مثذنة جامع عقبة بن نافع فى القيروان مثلاً ، وجدنا أنها تتكون من جزئين أساسيين : البدن أو القاعدة وهى بناء مربع مرتفع سميك الجدران بداخله سلّم يؤدى إلى سطحه ، فهى - إذن - مقتبسة من البرج القديم ، ثم تلى ذلك منارة تقوم على هذا البرج فى هيئة بناءين ، واحد منهما فوق الآخر ، الأدنى منهما أصغر حجماً من البدن ، والأعلى أصغرهما جميعاً ، ومثذنة جامع عقبة - إذن - برج ومنارة فى آن واحد ، فإن الأذان كان يرفع من سطح البدن أو البرج الأسفل ، والسلالم الرئيسية تنتهى عند هذه الشرفة ، أما الصعود إلى المنارة فيكون عن طريق سلّم صغير خشبى يبدأ من عند سطح البدن أو البرج .

ثم تلى ذلك - من حيث الترتيب الزمنى - صوامع المسجد الأموى فى دمشق ، فقد أنشئ هذا المسجد أيام معاوية بن أبى سفيان على أنقاض معبد روماني قديم تحول إلى كنيسة ، ثم هُجرت ، حتى جاء المسلمون فانتفعوا ببناء المعبد القديم وحولوه إلى مسجد جامع ؛ وبعد ذلك بسنوات رفعوا فوق الأبراج التى كانت قائمة فى أركان المعبد القديم ظلالاً خشبية تقوم على عمد خشبية أيضاً ، يستظل بها المؤذنون عندما يرفعون الأذان ؛ فلما جدّد عبد الملك بن مروان منار الجامع الأموى وأعطاه صورته الحالية جدّد أيضاً ظلال المآذن سنة (٩٦ هـ / ٧١٥ م) ولا يزال بعضها باقياً إلى اليوم .

ولكن هذا الطراز من المآذن المرتجلة لم يتطور كثيراً إلا فى بعض مساجد الشام مثل جامع حلب القديم ، والسبب الرئيسى فى عدم تطور هذا الطراز من المآذن أنها كانت صغيرة الحجم لا تسمح بالارتفاع الكثير ، ثم إنها كانت سريعة التهدم بفعل الزلازل ، وجدير بالذكر أن المئذنتين الحاليتين فى مسجد دمشق - واللتين ترتفعان فوق البرجين الرومانيين القدميين فى الركنين الجنوبي الشرقي والجنوبي الغربي - قد أعيد بناؤهما فى عصر متأخر .

ولهذا يتخذ مؤرخو الفن الإسلامى مئذنة جامع عقبة فى القيروان نقطة البداية لتاريخ المآذن وتطورها ، وقد أنشئت هذه المئذنة أول مرة على يد بشر بن صفوان عامل بنى أمية على القيروان فيما بين سنتى (١٠٥ و ١٠٩هـ / ٧٢٤ و ٧٢٩ م) فهى - على هذا - أقدم المآذن الباقية إلى اليوم ، وتليها فى القدم منارة قصر الحير الشرقي فى الشام ويرجع إنشاؤها إلى حوالى سنة (١١٠هـ / ٧٣٠ م) .

وتقوم مئذنة جامع القيروان على قاعدة مربعة مرتفعة سميكة الجدران ، ويدخل إليها من باب ذى عقد حذوة حصان ، وينفذ الضوء داخلها من شبابيك فوق الباب ذات عقود من نفس الهيئة ، وتتكون هذه الشبابيك فى جدران القاعدة الأخرى ، ويصعد إلى السطح بسلاسل ضخمة داخلية تدور مع الجدران . ومن سطح القاعدة يرتفع - كما قلنا - بناء أصغر حجماً من نفس الطراز يعلوه بناء ثالث ، وفوق هذه الثلاثة أنشئ الجوسق وهو رأس المئذنة . ويقول فريد شافعى : « وأغلب ظننا أن جميع مآذن العالم الإسلامى كله فى العصر المبكر ، كانت تتبع تكويناً معمارياً مشتركاً ومشابهاً لمئذنة القيروان أو قريباً منها ، وينحصر الاختلاف فى النسب المعمارية للقواعد وطبقاتها العالية أو أبدانها وذلك من ناحية طول ضلعها إن كانت مربعة المسقط ، أو قطرها إن كانت مستديرة بالنسبة لارتفاعها ، ومن ناحية عمل جوسق واحد فوقها مباشرة أو يأتى فوقها طابق وسيط أو بمعنى آخر عمل شرفة واحدة أو شرفتين وأغلب ظننا أيضاً أنه فى جميع الحالات والنماذج كان الجوسق العلوى يغطى بقبة تتبع الأسلوب المحلى السائد فى المنطقة أو الإقليم ، وغالباً ما كانت الشرفات تغطى بمظلة من الخشب وذلك فى الأقطار التى تكثر فيها الأمطار حتى تحميها منها وتمنع ماء المطر من التسرب إلى السلم الحلزوني داخلها ؛ وكانت تشبه فى ذلك الأمثلة الباقية فى الشام والعراق وفارس » .

وأقدم منارة فى بلاد الشام ليست مثذنة ، وإنما هى منارة ما زالت قائمة بين أطلال قصر الحير الشرقى وقد أنشئت حوالى سنة (١١٠ هـ / ٧٢٩ م) وهى برج مرتفع أنشئ فى وسط القصر ليدل عليه من بعيد ، وتشبهها فى ذلك منارة مُجُصَّة ، التى ترجع إلى نفس العصر الذى بنى فيه قصر أخضر التاريخى المشهور أى : سنة (١٦١ هـ / ٧٨٠ م) وهى أسطوانية الهيئة ومبنية بالآجر ، وكانت وظيفتها هى الأخرى الدلالة على القصر الذى يقوم فى منطقة صحراوية كثيرة التلال العالية التى تحجب القصر عن الباحث عنه من بعيد (١) .

ومن أقدم مآذن مصر مثذنة المشهد البحرى جنوب بلدة الشلال ، وقد أنشئت فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وكذلك مثذنة الطابية وقد أنشئت على ربوة عالية جنوب أسوان فى نفس العصر أيضاً .

ويلاحظ أن مآذن العراق والجانب الشرقى من عالم الإسلام يغلب عليها أن تكون القاعدة - أى : بدن المثذنة - على شكل دائرى ، ويتبع ذلك أن تكون الشرفات العلوية مستديرة أيضاً .

وفى مصر - وابتداء من العصر الفاطمى - نلاحظ أن الاتجاه كان يسير نحو تصغير بدن المثذنة ، وذلك بالاهتمام بإحكام بنائه وصقل أحجاره ، حتى يكون ذلك أعون على المحافظة على ثبات المثذنة ، رغم ضيق قاعدتها وارتفاعها . وشرع المعمارىون - فى نفس الوقت - فى تحويل القاعدة من مربع إلى مسدس أو مثنى ثم إلى هيئة أسطوانية أحياناً ، وقد نجحوا فى ذلك نجاحاً كبيراً ومتصلاً ، بحيث نجد المآذن الفاطمية ثم المملوكية تتطور تطوراً سريعاً نحو هيئة المآذن المصرية التقليدية المعروفة إلى اليوم . ونلاحظ أن المعمارى كان يجتهد أن يرفع بدن المثذنة إلى أعلى ارتفاع يمكنه حتى يستطيع الإفادة من صلابة تلك القاعدة فى العلوِّ ببناء المثذنة بعد ذلك ، وإنشاء شرفات أخرى فوقها ، حتى لقد يصل العلوُّ فوق البدن إلى ما يعادل ارتفاع البدن نفسه ، وقد تتكون المثذنة من ثلاث شرفات يعلوها الجوسق ، وهو فى كثير من الأحيان شبيه بكرسى صغير على قوائم من الرخام أعلى الشرفات ثم يتوجَّج العمل بقبة زخرفية صغيرة أو بكرَّة فى هيئة العمامة .

(١) فريد شافعى - العمارة العربية فى مصر الإسلامية (١ / ٦٤٧) .

وقد تأتق المعمارىون المصرىون فى زينة جدران المآذن وشرفاتها بالزخارف المنقوشة فى الحجر ، وكل ذلك أضفى على ذلك الطراز من المآذن جمالاً ورقّة ، وما زالت المئذنة المصرية متميزة بهيئتها النحيلة الطويلة وتوازنها التام ، فالنسب دائماً محفوظة بين بدن المئذنة وارتفاع شرفاتها ، وكما هى العادة كان يرتفع داخل المئذنة سلّم حلزونى متقن ، وهذا السلّم يصل إلى أعلى البدن حيث الشرفة الأولى ، وقد يرتفع سلّم آخر داخل امتداد المئذنة طولاً حتى يصل إلى الشرفة الثانية ، ولكنه لا يكون فى هذه الحالة حلزونياً وإنما مجرد مصعد ، هدفه تمكين الناس من الوصول إلى أعلاها لإصلاح أى عطب يصيب أجزائها العلوية .

أما مآذن الشام فسارت على خطة البدن المربع ، وظلت دائماً على هيئة البرج ، ولهذا قلّ أن تصل إلى ارتفاعات عالية ، وفى العادة تكون شرفة الأذان فوق البدن ، وفوق ذلك ترتفع ظلّة خشبية لتحضى المؤذن وتسمى «الجوسق» .

ومآذن العراق والجانب الشرقى من بلاد الإسلام تغلب عليها الهيئة الأسطوانية ، ويلاحظ فى بنائها أنها تعتمد على قطع كبيرة من الحجر المنحوت ، وقد تجعل هذه الأحجار على هيئة فصوص من الخارج ، ويلجأون - أحياناً - إلى توسيع مساحة سطح البدن - أى : الشرفة الأولى - بخرجات تؤيدها كوابيل ، وتعود المئذنة إلى الارتفاع مرة أخرى فى صورة أسطوانة ملساء أو مزينة بالتقوش ، وقد تنتهى المئذنة عند هذا الارتفاع الثانى بشرفة يعلوها جوسق يختم المئذنة من أعلى .

وقد تأثرت المآذن فى الهند وما يليها شرقاً بالطرز المحليّة المعمارية فى طريقة بنائها لا فى هيئتها ، لأن المئذنة - كبناء رفيع عال يستعمل لتنبيه المصلّين إلى الصلاة - لم تعرف فى طرز المعابد فى الهند وما يليها شرقاً ، فهى عنصر جديد فى عمارتها ، ولهذا اجتهد المعمارىون فى ابتكار أساليب خاصة لبنائها ، وفى بعض الأحيان - كما نرى فى منارة القطب فى دلهى - نجد أن المعمارى أنشأ المئذنة فى هيئة مخروط يضيق شيئاً فشيئاً كلما ارتفع حتى يصل إلى الشرفة الأولى ، ثم يرتفع على نفس الطريقة مرة أخرى حتى الشرفة الثانية فالثالثة ، ثم أكمل المعمارى الارتفاع بأسطوانة من الحجر ينتهى أعلاها بقبة صغيرة وقد جاوز المعمارى الحد فى الارتفاع ، ولهذا كان لابد له من توسيع قاعدة

المئذنة على الأرض وتعميق أساسها حتى تحتل هذا الارتفاع ، وكان لابد في هذه الحالة من فصل المئذنة عن البناء لأنها أصبحت بناء قائماً بذاته لا يمكن وصله ببنية المسجد بسهولة .

وفى مآذن ماليزيا وإندونيسيا القديمة اكتفى المعمارىون ببدن المئذنة ، ثم أقاموا فوقه الجوسق على شكل سقف الباجودا ، وفى بعض الأحيان يكثرون من المآذن فى أركان البناء وعلى واجهته لغرض زخرفى صرف .

أما المآذن التركية فقد بدأت فى آسيا الصغرى على يد السلاجقة ثم سلاجقة الروم ، وقد قنع المعمارىون الأوّل بأن تكون المئذنة أسطوانة متوسطة الارتفاع هى بدن المئذنة ، وهنا تكون الشرفة الأولى ، ثم يرتفع البناء مرة أخرى دون سلّم خارجى حتى تصل المئذنة إلى الارتفاع الذى يراه المعمارى مناسباً لها ثم يختمها بمخروط .

وقد تطور هذا الأسلوب على أيدي معماريين أتراك ، حتى أصبحت المئذنة التركية أشبه بقلم رصاص مسنون أو سهم ذاهب نحو السماء ، وفى أحيان كثيرة لم يكتف المعمارى بمئذنة واحدة ، بل أنشأ اثنتين على طرفى الواجهة مما أكسب المسجد العثماني جمالاً بديعاً ، خاصة إذا تذكّرنا أن المعمارىين الأتراك استعانوا بالقباب فى إكمال الصورة الجمالية للمسجد ، وقد انتشرت هذه المآذن العثمانية فى كل بلاد شرق أوروبا التى حكمها الأتراك ، وانتقلت إلى الشام ومصر ، ومن أجمل نماذجها خارج تركيا مآذن جامع محمد على فى قلعة القاهرة .

وجعل المآذن زوجاً على ركن الواجهة أو المدخل عُرف منذ إنشاء مآذن الجامع الأزهر ، ولكن المعمارىين الأتراك استطردوا فى ذلك حتى جعلوا للمسجد أربعاً من المآذن فى بعض الأحيان ، واحدة فى كل ركن . وقد عُرف الإكثار من المآذن كذلك فى المساجد الإيرانية كما هو معروف ، ولكن المعمارى الإيراني لم يهتم الاهتمام الكافى بالمئذنة لأنه صرفَ عنايته الرئيسية نحو القبة ، فأبدع فى أشكالها أيما إبداع .

أما مآذن الغرب الإسلامى فقد حافظت بصورة عامة على هيئة مئذنة جامع عقبة فى القيروان ، فاحتفظت دائماً بهيئة الأبراج .. وقد استعملت كثيراً لأغراض الدفاع العسكرية ، ولهذا فقد جعلت دائماً عند الجدار المقابل لجدار القبلة ، أى : فى مؤخرة

المسجد ، والدخول إليها يكون من داخل الصحن أو من خارج الجامع ، وهى - فى العادة - بدن ضخيم يقوم عند منتصف جدار الصحن ، وقد يرتفع هذا البدن فى هيئة مستطيل ضخم يصل ارتفاعه إلى ما يزيد على عشرين متراً أحياناً . ويبنى داخل هذا البدن بدن آخر أصغر منه ، ويكون السلم أو المصعد المتحدر بين البدنين ، حتى إذا وصلنا إلى الشرفة الأولى ارتفع البدن الداخلى وحده بجدارين واحد منهما داخل الآخر يحصران بينهما السلم حتى سطح الشرفة الثانية ، ثم يرتفع الجدار الداخلى وحده حتى تصل المئذنة إلى أقصى ارتفاعها . ونظراً للارتفاع الشاهق للبدن الأسمى ، فإنهم كانوا يقسمونه فى العادة إلى أدوار ، ينتهى كل دور ببسطة تدور مع البناء وتُفتح فيها النوافذ ، ثم يعود السلم أو المصعد إلى الارتفاع مرة أخرى وهكذا ، فمئذنة مسجد إشبيلية الجامع - وهى الباقية من ذلك المسجد - تبلغ أدوارها ستة حتى الشرفة الأولى ، وقد صُنعت النوافذ فى هيئة زخرفية جميلة ، وغطيت المسافات بينها بهيئات نوافذ وأبواب صمّاء وعقود زخرفية ، جعلت من جدار البدن آية من آيات الابتكار الزخرفى ، وكان البدن الداخلى يصعد بعد ذلك - دون نوافذ - نحو سبعة أمتار أخرى تنتهى بالشرفة الثانية ، ثم تُختم البنية بجوسق تزينه من أعلى كرات مطلية بالذهب تُسمى بالتفايح (جمع تفاحة) وقد تهدّم ذلك الجزء الأعلى كله بعد أن تحولت الصومعة إلى برج للنواقيس وعوضت جوسقاً حجرياً يقوم على أعمدة رخامية تحمل النواقيس .

وعلى هذا الطراز - فى صور أقل فخامة - نجد بقية مآذن الغرب الإسلامى التى تُسمى فى العادة بالصوامع . والكثير جداً من هذه الصوامع بنى بالآجر - وهو الطوب المحروق - أما صومعة مسجد قرطبة الجامع فكانت مبنية بالحجر ، على أسلوب يقارب مئذنة جامع إشبيلية المعروفة باسم الخير الدا ، وقد وصفناها ، وكانت أيضاً تقوم فى الطرف المقابل لجدار القبلة . وفى بعض مساجد المغربين الأوسط والأقصى يغطى بدن الصومعة بمربعات القاشانى الزخرفى المعروف بالزليج ، مما يكسب الصومعة كلها منظرأ فريداً كما نرى فى صومعة مسجد القرويين ومسجد فاس فى نفس المدينة .

وهناك طرز وأشكال أخرى للمآذن لا يتسع المقام لإحصائها ، ولكننا نختم هذا الكلام بالقول بأن المآذن - بشتى أشكالها - قد أضافت إلى المساجد جمالاً وورقة ،

يتجلبان للرأى من بعيد ، وقد ارتبطت المآذن بالمساجد ارتباطاً جعل منها قطعاً معمارية مبتكرة خاصة بالمساجد دون غيرها ، ومهما كان طرازها فقد عرف المعمارىون المسلمون كيف يصنعون منها أشكالاً فنية هى الغاية فى الجمال .

العقود والقباب :

تعتبر القبة - إلى جانب المئذنة - من أظهر عناصر العمارة المسجدية الإسلامية ، ويكاد يكون من العسير أن نتصور مسجداً ذا مئذنة بدون قبة ، أو مسجداً ذا قبة بدون مئذنة قريبة منها ، لأن المعمارىين المسلمين عرفوا كيف يجعلون من هذين العنصرين المعمارىين المختلفين فى الهيئة وحدة جمالية تضى على المسجد توازناً يرتاح إليه النظر .

والقبة قديمة فى تاريخ العمارة ، فقد عرفها المعمارىون فى آسيا فى وقت قديم ، ثم انتقلت إلى الفرس وإلى اليونان فالرومان ، ولا يخلو منها طراز من طرز الفنون الإنسانية الكبرى ، إلا الطراز المصرى القديم .

وعمل القبة فى ذاته معضلة فنية ، توصل إلى حلها المعمارىون بوسائل شتى كل منها يدل على مهارة وتفكير .

والمعضلة تلخص فى أن القبة تقوم - فى العادة - على شكل مربع ، فلا بد من الانتقال من المربع إلى شكل دائرى ثم إقامة القبة على جدران الدائرة .

فأما اليونان فلم يعرفوا القباب ولا السقوف المقببة ، لأن فنهم المعمارى كله إنما كان تطويراً للفن المصرى القديم ، وهم لم يضيفوا إلى فن المعمار شيئاً جديداً يزيدون به على المعمارىين المصرىين ، وإن كانوا قد ساروا فى التطوير شوطاً بعيداً وصل بهم إلى مراتب عُلّيا من الإبداع .

العقود :

ومن الواضح أن نقطة البداية فى عمل القبة هى ابتكار العقد أو القوس ، والمصرى القديم كان يطيل الأعمدة ويسقفها بقطع الحجر ، فلم يجد نفسه بحاجة إلى التفكير فى العقود .

وأصل العقد آسيوى ، ولكنه تطور على أيدي الفرس والرومان تطوراً واسعاً ، ثم جاء المسلمون فساروا بالعقود مدى أبعد وأكثر تنوعاً .

والعقد يرتكز أساساً على ابتكار العقد الخمس الذى يتكون من خمس قطع من الحجارة مهيأة على شكل أوتاد يُعشَق بعضها فى بعض على صورة تجعلها تزداد تماسكاً كلما وقع ضغط على أعلاها ، والحجر الوسطى يُسمى «المفتاح Keystone» ويضاف إلى الأحجار الوندية الرئيسية واحد فى كل جانب يُسمى «المقعد» ويعرف فى اللغة الإنجليزية باسم Import وفى الفرنسية باسم Voussoir ، أى : مقعد العقد ، ثم تضاف أحجار وندية أخرى تكمل استدارة العقد ، ويُسمى الحجر الخامس من كل جهة باسم الفوسوار أيضاً ، وبعد ذلك تتراص أحجار أخرى تنزل بالعقد من الناحيتين على كتف البناء أو على رأس العمود الحامل للعقد ، ويُسمى هذان الطرفان برِجْلَى العقد والواحد رِجْلٌ ؛ وتعرف كل قطعة من قطع الحجر التى تكون العقد بالصنجة (والجمع : صنجات) إذا كان العقد من الحجر ، أما إذا كان من الآجر فتعرف بالمدماك ؛ والمدماك يتكون من عدد من الأجرات توضع قائمة على هيئة تكون - فى مجموعها - صنجة .

ويلاحظ أن تركيب العقد يعتمد على إحكام هيئة كل حجر من أحجاره ، بحيث يتألف منها كل واحد مترابط ، والمهم أن قوة الدفع الحادثة من ضغط الأحجار بعضها على بعض ، وكذلك وزن البناء الذى سيحمل على العقد ، تتوزع على قطع العقد وأرجله بصورة كاملة التوازن تنتهى باتجاه عمودى نحو الأرض ، فيقع العبء الباقي كله على أساس البناء أو قاعدة العمود الحامل له .

والعقود أشكال مختلفة ، منها نصف الدائرى ، وحذوة الحصان ، والمنفرج ، والمدبب .. ويلاحظ أن العقد المدبب ينتج عن تقاطع دائرتين ؛ ولهذا فإن لانحنائه مركزين .

وأهم أشكال العقود المعروفة فى العمارة الإسلامية : العقد نصف البيضة ، وهو الذى يشبه انحناءه شكل نصف البيضة الأسفل ، وهو نادر الوجود فى العمارة الإسلامية ، وأصله إيراني . والعقد المستقيم ، وهو الذى يقوم انحناءه على كتف البناء مباشرة دون الحاجة إلى أرجل طويلة . والعقد نصف الدائرى - أى : الذى يكون

انحناءه في هيئة نصف دائرة - وهو واسع الانتشار في العمارة الإسلامية ؛ ومعظم العقود التي عرفها الرومان كانت من هذا الطراز . وعقد حذوة الفرس ، وهو معروف من قديم الزمان ولكنه ظهر لأول مرة في العمارة الإسلامية في عقود المسجد الأموي في دمشق المحيطة بالصحن وفي الشبابيك التي تعلو هذه العقود ؛ وقد انتشر هذا العقد في غرب العالم الإسلامي انتشاراً واسعاً ، وأخذ أشكالاً مبتكرة أصبحت - مع الزمن - الطابع المميز للهيئة العامة لكل مباني الغرب الإسلامي . ولكن العقد الذي انتشر أكثر من غيره في العمارة المساجدية هو العقد المدبب ، وهم يستخرجون هيئته من الزاوية التي تنتج من تقاطع دائرتين ، ولذلك يكون في العادة ذا مركزين وربما أربعة . والعقد المدبب أمثل من غيره ، لأن ثقل الوزن المحمول عليه ينحدر إلى الأرجل ثم إلى كتف البناء . أما العقود المفصصة - أي : التي يكون انحناء داخلها في شكل فصوص - فترجع إلى نحت باطن الصنج على هيئة فصوص ، وهي واسعة الانتشار جداً في العمارة الإسلامية الغربية خاصة ، وقد يكون التفصيل في القوالب الجصية الزخرفية التي تضاف إلى العقود بعد البناء على سبيل الزينة .

ومن العقود تطورت السقوف المقببة ثم القباب .

القباب :

والقباب ظهرت في أول الأمر في آسيا ، ثم انتقلت إلى الفرس والرومان .

ومن الواضح أن القبة تنشأ من عقود متقاطعة في مركز واحد هو المفتاح الرئيسي الأعلى للقبة كلها ، ولكي تتلاقى العقود في نقطة واحدة على هذه الصورة لابد أن تقوم أرجلها على كتف دائري أو مئمن أو مسدس . وتلك كانت المشكلة الأولى التي تعين على المعمارين حلها ؛ لأن الغالبية العظمى من المباني مربعة أو مستطيلة ، فلا بد - إذن - من تحويل أعلى البناء المربع إلى دائرة .

فأما الرومان فقد حلوا المشكلة ببناء ما يُسمى بالمثلثات الكروية ، فيقيمون على الجدران الأربعة أربعة عقود متساوية الارتفاع والشكل ، ثم ملء الفراغات بين العقود بأحجار مبنية في هيئة الأوتاد تنحني مع انحناء العقود وتنتهي في الأعلى بحافة منحنية بالضرورة ؛ ومن انحناءات المثلثات الكروية تتكون الحافة المستديرة المطلوبة التي تقوم عليها أرجل العقود التي تكون القبة .

وأما الفرس فقد ابتكروا ما يُسمى بحنية الأركان Squinch وهى وتد حجرى فى فراغ الزاوية بين عقدين يلتقيان فى زاوية التقاء جدارى مربع البناء ، وقمة ذلك الودد الحجرى ترتفع إلى مستوى قمم العقود الأربعة ، ثم يملأ الفراغان الباقيان بالحجارة المصقولة أو بالملاط المسلح بقطع الحجر فتنتج - عن ذلك - الحافة المستديرة المطلوبة .

وفى بعض العمائر الإسلامية لجأ المعمارى إلى حل آخر ، وهو تحويل الحافة المربعة للجدران إلى هيئة مثمّنة ثم إقامة أربعة أعمدة تعتمد على الأكتاف الثمانية وتتلاقى فى نقطة واحدة ، فتكون النتيجة قبة من ثمانية أضلاع ، ومن الممكن إكمال الاستدارة بتبطين القبة وتغطيتها من الخارج بالملاط .

وأبسط القباب ما يقوم على هيكل من الخشب دائرى الشكل يوضع فوق الجدران ثم يبطّن ويغطى بالملاط وهذه هى الطريقة التى اتبعت فى بناء أول قبة فى تاريخ العمارة الإسلامية وهى قبة الصخرة .

ويلاحظ أن المسلمين - بصورة عامة - لم يلجأوا إلى استعمال « العقود المتقاطعة » إلا لإقامة القباب ، لأن سقف المسجد لا يحمل فى العادة إلا القبة إن وجدت ، فى حين أن الكنائس تبنى من طبقات ، ثم إن أبراجها تحمل النواقيس ، والنواقيس الضخمة لا يحتملها إلا السقف القوى .. ولهذا لجأ المعمارىون فى الغرب إلى استعمال «العقود المتقاطعة» فى إقامة السقوف : سقف القبو السفلى Erypt ، وسقف بهو الكنيسة نفسها ، وجعلوا أرجل العقود تعتمد على الجدران وعلى دعائم ضخمة من الحجر ، وأطلقوا لأنفسهم العنان فى استعمال «العقود المدببة» حتى ظهر منها عقد شوك السمك Voute d'arête تشبيهاً له بالعمود الفقرى للسمكة والشوك الذى ينحدر منه من اليمين والشمال وهم يسمون «حافات العقود المدببة» بالعروق Nerivire أو الضلوع Ribbs ؛ وإذا أنت وقفت تحت سقف كنيسة قوطية الطراز ونظرت إلى السقف رأيت العروق بوضوح .

وقد كان يقال إن العقود القوطية المدببة هذه ابتكار أوربى ، والحق أنها ابتكار عربى ظهر أول ما ظهر فى قباب مسجد قرطبة الجامع فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، فهى سابقة على أقدم عقد قوطى فى أوربا بقرن كامل من الزمان .

وبديهيٌ أن كلامنا هذا ينصبُّ على القباب القديمة المبنية بالحجارة أو الآجر ، لأن الغالبية العظمى من القباب الحديثة تقوم على هيكل معدنى مكون من أسياخ حديد التسليح ثم يُصب عليها الأسمنت المقوى بالزلط ، فإذا جفَّت تماسكت تماسكاً هو الغاية فى المثانة .

وقد توسَّع المسلمون فى استعمال العقود والقباب على صورة لم يسبقهم إليها أحد فابتكروا من أشكال العقود والقباب ما يدل على مهارة رياضية معمارية بعيدة المدى ، واستخدموها على نطاق واسع فى الأبواب والنوافذ ، واتخذوها كذلك عنصراً زخرفياً فى صورة بوائك زخرفية صماء تزيّن الجدران الداخلية والخارجية للمباني .

ولم يقتصر ابتكار المسلمين على أشكال العقود وأنواعها بل تعدَّى ذلك إلى زينتها ، فابتكروا إنشاءها من الآجر أو الآجر والحجر معاً : صنجة من هذا وصنجة من ذاك ، فيكون لتوالي لون الحجر ولون الآجر أثر جمالى بديع ، ونرى ذلك بوضوح فى عقود مسجد قرطبة الجامع .

ومن أروع ما وصلوا إليه فى هذا الميدان إقامة أربعة عقود على أعمدة رخامية دقيقة بل جرؤ المهندسون الذين نفَّذوا الزيادة الأولى لجامع قرطبة - أيام عبد الرحمن الأوسط - على إقامة عقد ثانٍ فوق العقد الأول ، كما سنرى عند كلامنا على ذلك المسجد . وتُسمَّى فتحة العقد بالبائكة ، والجمع : بوائك .

ونحن إذا نظرنا إلى عقد فإننا نقدر براعة المعمارى الذى أقامه بارتفاعه واتساعه ونوع المواد التى استعملت فيه ، وقد اشتهرت من العقود الإسلامية العقود المدببة البالغة المثانة التى نراها فى جامع أحمد بن طولون فى القاهرة ، والعقود المدببة التى ظهرت لأول مرة فى جامع القيروان ، والعقود المزدوجة التى اشتهر بها جامع قرطبة ، والعقود البصلية الهيئة التى تفنن المعمارىون المغاربة فى إقامتها ، والعقود البالغة الاتساع والجرأة التى امتازت بها مساجد المماليك فى مصر ؛ كما نرى فى جامع قايد بك ، والعقود الإيرانية المزينة بالقاشانى التى عُرِفَتْ بها المساجد الإيرانية فى أصفهان خاصة ، والعقود العثمانية البالغة السعة ، وفى هذه العقود الأخيرة يتجلى أثر العمارة البيزنطية القديمة وعمارة عصر النهضة فى أوروبا .

وسنرى فى كلامنا عن الطرز المساجدية وعرضنا لنماذجها مقدار تفنن المسلمين وإبداعهم فى ميدان العقود والقباب .

الأعمدة :

الأعمدة عنصر معمارى أصيل اخترعه المصريون القدماء وأبدعوا فى استعماله ، حتى إن الإنسان ليتعجب وهو يتأمل مجموعة الكرنك المعمارية وما فيها من الأعمدة التى تروع النفس بضخامتها وارتفاعها وإتقان صنعها وتواليها فى البناء على نحو يحدث فى النفس أثراً عميقاً .

المصريون كذلك هم الذين علّموا الناس طريقة إقامة عمود متين وجميل فى آن واحد ، وذلك بتقسيمه إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، هى :

قاعدة العمود التى تعتمد على أساسه فى الأرض ، ثم بدن العمود ، ثم رأسه أو تاجه .

ولا يمكن إقامة عمود دون قاعدة متينة من الحجر أو الآجر ، ويختلف ارتفاع القاعدة بحسب ارتفاع العمود نفسه وما يراه المهندس من الناحيتين الهندسية والجمالية . أما بدن العمود فقد يكون من الرخام - قطعة واحدة أو قطعاً أسطوانية بعضها فوق بعض - أو قد يبنى من الآجر أو الحجر ، وفى هذه الحالة يُسمى «دعامة» ، والدعامات أقوى وأمتن ولكنها أقل جمالاً ، وفى العادة يزواج المعمارى بين الأعمدة والدعامات ، فهو يقيم الأعمدة - التى تحمل عقوداً متعددة - من الحجر أو الآجر لكى تحمل ثقل العقود والقبّة فوقها ، إذا كانت هناك قبّة .

أما تاج العمود فهو رأسه ، والمصريون القدماء هم أول من ابتكر زينة رأس العمود بعملها فى هيئة أغصان النخلة أو تفرع زهرة اللوتس ، ثم ابتكر اليونان والرومان أشكالاً بديعة لرؤوس الأعمدة .

ويستعمل رأس العمود أو تاجه كوسيلة لتوسيع مساحته العليا التى ستقوم عليها العقود ، ولهذا فإن التاج يكون فى هذه الحالة قاعدة أو مخدة فى هيئة مخروط مقلوب ينتهى من أعلاه بمسطح واسع .

وقد تَفَنَّنَ المعمارىون المسلمون فى استخدام الأعمدة وتنسيقها ، وابتكروا منها أنواعاً وأشكالاً شتى ، ومن بديع ابتكاراتهم الأعمدة القصيرة ، والأعمدة الدقيقة التى تستعمل أزواجاً ، وفى هذه الحالة يكون لكل زوج منها تاج واحد .

وفى العادة كانت الأعمدة الرخامية تُشترى جاهزة ، فقد كان هناك تجار متخصصون فى الحصول عليها وبيعها ، وهم فى العادة يأخذونها من الأبنية القديمة ، فإذا قيل لنا إن أعمدة جامع القيروان أتت بها من صقلية وجنوب إيطاليا ، فليس معنى ذلك أن المسلمين أخذوها من الكنائس غصباً ، كما يُفهم من بعض أقوال الباحثين الغربيين ، بل المفهوم أنهم اشتروها من تجارها ؛ وقد اشترى خلفاء بنى أمية فى الأندلس كل الأعمدة البديعة التى نراها فى مسجد قرطبة .

وتبين مهارة المعمارى فى إقامة الأعمدة على صورة كاملة التعامد والثبات ، ورفع العقود عليها دون الحاجة إلى أربطة ، كما ترى فى مسجد قرطبة الجامع ؛ والأربطة أعواد خشبية تمد عرضاً بين تيجان الأعمدة المتجاورة ، لتربط بعضها إلى بعض وتحول دون انفراجها تحت ثقل العقود أو الجدران الحاملة للسقوف ؛ ووجود الأربطة يعتبر من العيوب المعمارية ، ومن أسف أنها تنتشر فى كثير من المساجد الكبرى ، فتُشِين جمال العقود وتقلل من جمال داخل المسجد كله .

وقد أعطت المساجدُ الأعمدةَ كامل بهائها ، نظراً لأن الأعمدة تقوم فى فراغ بيت الصلاة الفسيح ، فتتجلى متراصة صفوفاً تحمل العقود دون أن يشاركها عنصر جمالى آخر ، فى حين أن أبهاء الكنائس ملأى بالمنشآت الدينية الأخرى التى تحول دون الأعمدة والتجلى بكل وقارها ، وتستطيع أن تبين هذه الحقيقة إذا أنت وقفت فى بيت الصلاة فى مسجد قرطبة الجامع أو مسجد عمرو فى القاهرة أو جامع عقبة فى القيروان وغيرها ، فترى منظراً فريداً حقاً : غابة من الأعمدة الدقيقة الرقيقة التى يُحْدِثُ تشابهها وتواليها فى النفس شعوراً عميقاً بالتقى والقداة .

ولا نزاع فى أن هذه الغابات الممتدة من الأعمدة وعقودها المتماثلة تعتبر من أعظم توفيقات المعمارىين المسلمين فى ميدان الإنشاء الجمالى الأصيل . وستلمس ذلك بنفسك عندما ترى نماذج من بيوت الصلاة ذات الأعمدة الكثيرة فى موضع آخر من هذا الكتاب .

الشرافات أو عرائس السماء :

السقف المسطح لا يمثل نهاية جمالية مناسبة لأى مبنى ، حتى عمائر الحديد والأسمنت المسلح التى تقوم فى عصرنا تبدو وكأنها ناقصة رغم ارتفاعها الشاهق ، إذ تنقصها دائماً تنويجة تدل على أن المبنى انتهى . وفى المباني الأوربية كان السقف المحدب - الذى يقوم أساساً على هيكل من الخشب - يمثل نهاية معقولة للبناء سواء أكان داراً للسكن أو كنيسة ؛ وفى المنازل الحديثة المتوسطة الارتفاع يجتهد المعمارى فى أن يضيف فوق السقف برجولاً تتوّج المبنى أو قد يضيف سياجاً من أعمدة الحديد يحيط بالسقف ، والمهم أن يكون هناك شئ يقلل أعلى المبنى .

وفى المساجد المتوسطة الحجم تقوم المئذنة والقبة بهذه الوظيفة ، فهما معاً يتكاملان بصورة لطيفة رغم اختلاف هيتهما ؛ ولكن عندما يتسع الجامع وتطول جدرانها تبدو مساحات كبيرة من سقفه وكأنها مقطوعة تحتاج إلى تئمة أو تنويجة .

هذا هو الذى حدّأ بالمعماريين المسلمين إلى اقتباس الشرافات وهى وحدات زخرفية من الطوب أو الحجر أو الأسمنت توضع متراسة على حافة السقف كأنها إطار أعلى أو كأنها الشرايات التى تختم طرفى سجادة ثمينة ، وطريف أن الشرافة والشراية قريبتان فى اللفظ والوظيفة ، وإن اختلفت طبيعة كل منهما عن الأخرى .

والشرافة أصلها إیرانى ، وكانت تستعمل لنفس الغرض فى المباني ، وكانت توضع كعنصر زخرفى فى تيجان الملوك ، وقد اقتبسها المسلمون وتفننوا فى أشكالها ، وغالباً ما تكون على هيئة مقطع هرم سقارة المدرج ، وقد تكون درجاتها صغيرة ومتعددة ، وقد تعمل على هيئة زهرات اليليق أو اللوتس المتجاورة ، وربما كانت مجرد مثلثات ، والعبرة الحقيقية تكمن فى تراصها وتواليها على نسق واحد بطول واجهات البناء .

وقد ارتبطت الشرافات بالمساجد ارتباطاً وثيقاً حتى سُميت بعرائس السماء ، والحق أن أشكالها من بعيد تشبه هيئات آدمية متراسة ؛ وخط الشرافات مكمل بديع لمقطع السماء أعلى المسجد ، وفى بعض كتابات الصوفية أن عرائس السماء تسبّح بحمد الله أو تنشد ترنيمات دينية .

وقد انتقلت الشرافات إلى الكثير من المباني الأوربية فى العصور الماضية ، وعرفت فى الإسبانية باسم المينات Alminas وهو لفظ مشتق من المنار Alminar ويراد به المنارة .
ومن أسف أن كثيرين من المعماريين المسلمين المعاصرين يتخلَّون عن هذا العنصر الجمالى البديع فى منشآتهم ، غير مدركين أنهم بذلك يضحون بعنصر أصيل من العناصر المميزة للمساجد الإسلامية .

عناصر معمارية مساجدية أخرى :

فى حديثنا عن عمارة المساجد الأولى تحدَّثنا عن الميضأة وقلنا إنها أُفحمت على المساجد فى الماضى ، وإنها كانت دائماً شائعة لعمارة المسجد شائعة لنظافته ؛ وإذا كان المعماريون لم يوفَّقوا إلى بناء ميضآت تيسرُ الوضوء على المصلِّين دون أن تسيء إلى نظافة الجامع فهم معذورون فى ذلك ، لأن الميضأة تحتاج إلى الماء الجارى ، ولم يكن الماء الجارى مُيسراً فى العصور الماضية ، وكان موضع إقامة الميضأة دائماً مشكلة وذلك لتجنب تأثير المياه فى مباني المسجد ؛ ومن المعروف أن جلب الماء قد يكون سهلاً ولكن العسير حقاً هو التخلص من الماء الزائد أو الماء المستعمل ، ولهذا فقد أصاب المساجد ضرر كبير من جرَّاء مشكلة تصريف المياه الزائدة .

ولهذا كان المعماريون يميلون إلى إنشاء الميضآت فى الصحن المكشوف ، فى جانب منه أو فى وسطه ، فذلك أعون على تخفيف ذلك الماء الزائد ، ولم يوفَّق المعماريون - مع ذلك - فى إقامة ميضآت ذات هيئة فنية جذيرة بأن تذكر ، فيما عدا ما يقال من أن المنصور بن أبى عامر الأندلسى أنشأ ميضأة بديعة فى جانب من صحن جامع قرطبة ، فجلب لها الماء من الجبل فى قنوات تحت الأرض ، وأنشأ الميضأة فى هيئة جوسق صغير ذى تسع قباب زخرفية ؛ وقد عثرنا على آثار هذه الميضأة .

وإذا كانت الميضأة مشكلة كبيرة بالنسبة للمعماريين ، فإن تضخيمها وتحويلها إلى دورة مياه كاملة كان مشكلة أكبر ؛ وعلى الرغم من تيسر المياه الجارية ووسائل الصرف اليوم فإن دورات المياه هذه ضرر شديد على المساجد دون أن تؤدى وظيفة ضرورية ،

وإذا نحن قلنا إن وجود الميضة يعين الناس على الصلاة فإن دورة المياه لا أساس لها إطلاقاً ولا بد من الاستغناء عنها على أى حال ، خاصة وأن المساجد فى أحياء المتاجر والأسواق وازدحام الناس تستخدم فى أحيان كثيرة دورات مياه ، وهذا ضرر شديد ، وإذا لم يكن من الأمر بد فليكن لدورة المياه مبنى آخر منفصل عن المسجد حتى لا يصيب المسجد ضررها .

المقصورة :

خلفاً لما يذهب إليه بعض الأثرين المسلمين لا تنفرد المساجد بالمقاصير ، ولا هى ابتكار إسلامى صرف ؛ فإن جميع المعابد - وثنية كانت أو مسيحية أو غير ذلك - عرفت المقاصير ، لصلاة الخواص أو العباد والزهاد والمعتكفين ، وهى مصلى صغير داخل المعبد أو ملحقة بقصر أو مبنى كبير .

وقد أنشئت المقصورة فى المسجد عن رغبة بعض الخلفاء والولاة فى أن يقيموا الصلوات فى مكان منفصل عن المسجد خوفاً على حياتهم ، ويبدو أن ذلك جاء من أن اثنين من الخلفاء الراشدين - عمر وعلى - اغتيلوا فى المسجد ، ويقال إن أول من اتخذ المقاصير معاوية بن أبى سفيان أو مروان بن الحكم ؛ ثم وجدت فى مساجد كثيرة بعد ذلك دون أن تصبح جزءاً أساسياً من أجزاء المسجد .

وكانت المقاصير الأولى مجرد حواجز خشبية تحيط بجزء صغير من المسجد عند جدار القبلة ، ويدخل إليها إما من باب خاص فى الجدار الملاصق لجدار القبلة أو من باب فى بيت الصلاة نفسه ، ثم تطورت حتى أصبحت غرفاً قائمة بذاتها .

ويقال إن الخليفة العباسى المهدى (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م) أمر بأن تُعمم المقاصير فى المساجد الجامعة ، ويقال العكس كذلك : وهو أن المهدى أمر فى سنة (١٦١ هـ / ٧٧٨ م) بأن تُزال المقاصير من جميع المساجد^(١) ، وقد عرفت المقاصير فى مسجد عمرو بن العاص من زمن بعيد ، ووجدت فى الكثير من المساجد المملوكية والتركية والإيرانية .

(١) انظر: العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، فريد شافعى، ص ٦٤٩ ، ٦٥٠ .

وأشهر المقاصير فى تاريخ العمارة الإسلامية تلك التى أنشأها الأمير محمد الأموى الأندلسى فى مسجد قرطبة الجامع ، وكانت تقوم على يمين جدار القبلة فى هيئة غرفة صغيرة يدخل إليها من باب خاص فُتح فى جدار الجامع الأيمن (بالنسبة للقبلة) فى مواجهة باب قصر الخلافة ، وقد أنشأ هذا الأمير ممراً عالياً فى صورة قنطرة فوق الطريق تؤدى من القصر إلى الجامع ، وكان هذا الممر يسمى بالسباط ، أى : الممر الذى يقوم على أرجل .

وجاء فى أحكام المساجد « للزركشى » أن اتخاذ المقاصير فى المساجد لم يُعهد فى الصدر الأول ، وقال أبو العباس القرطبى فى شرح « مسلم » : « لا يجوز اتخاذها ولا يصلّى فيها لتفريقها صفوف ، وحيلولتها من التمكن من المشاهدة . وهذا منه (أى : من أبى العباس القرطبى) مبنى على أن المقصورة تقطع الصف الأول ، وفيه ما سبق فى المنبر^(١) ، وروى أن الحسن (البصرى) وبكر المزنى كانا لا يصلّيان فيها لأنها أحدثت بعد النبى ﷺ فى المساجد ، والمسجد مطلق لجميع الناس ؛ وذكر من صنّف فى الأوائل أن أول من اتخذها بجامع دمشق معاوية^(٢) .

الشمسيّات والقمريّات :

الشمسية شباك أو فتحة مزخرفة فى جدار المسجد تُقفل بلوح من الرخام أو الخشب المخرم ؛ وهى تُصنع عادة برسم الزخارف على اللوح قبل وضعه ، ثم تُفرغ أجزاء من الزخرفة وتترك فارغة أو تُغطّى بزجاج ملون ؛ فإذا وضعت الشمسية فى الشباك أو الفتحة كانت عنصراً بديعاً من عناصر الزينة وساعدت على دخول الضوء أو الهواء فى المسجد . ولم يخلُ من الشمسيّات أى طراز من طرز العمارة الإسلامية نظراً لميزاتها الجمالية ، وهى - فى الغالب - توضع صفوفاً أو على مسافات متساوية من الجدار ، حتى يكون لها أثرها الجمالى المطلوب .

أما القمرية فهى فتحات مستديرة أو مربعة أو مسدسة أو مثمنة الهيئة تفتح فى أعلى الجدران أو فى رقاب القباب ثم تغطى بالزجاج الملون فيكون لها أثر جمالى زخرفى

(١) أى : كراهية امتداد المنبر فى الصحن حتى يقطع صفوف المصلين . وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك .

(٢) الزركشى - إعلام الساجد ، ص ٣٧٥ .

بديع ، وهى أكثر ما تكون فى المساجد السامقة الارتفاع أو القباب العالية ، واستعمالها قديم جداً فى العمارة الإسلامية ، ولكنها استخدمت بنجاح كبير فى مساجد الغرب الإسلامى ومساجد الطرازين الإيرانى والتركى ؛ وقد استعملها المعماريون فى العصر المملوكى فى المساجد السلطانية الكبرى وما زالت باقية إلى اليوم .

الشماسات :

الشماسة ظلّة خشبية زخرفية تقام فوق الأبواب والنوافذ ، لتحشى الداخل إليها من الشمس والمطر ولتضيف إليها عنصراً زخرفياً جمالياً .

وتوضع الشماسات ماثلة على الباب أو النافذة ، وتزين بالزخارف من كل نوع - ملونة وغير ملونة - وتجعل أطرافها فى هيئات هندسية جميلة ؛ وقد كثر استعمالها فى مساجد الغرب الإسلامى ، ووصلت إلى ذروة جمالها فى قصر إشبيلية المعروف ، وتعتبر شماسته أجمل شماسة فى تاريخ العمارة الإسلامية .

الزخارف والحليات :

الزخرفة هى كل رسم يعمل على مسطح بقصد ملء الفراغ بهيئات جميلة متناسقة تستريح إليها العين . والزخرفة تكون خطوطاً أو هيئات هندسية أو نباتية أو حيوانية ، وجمالها يعتمد أولاً وآخرأ على ذوق صانعها ودرجة سيطرته على المادة التى يزخرفها أو يزخرف بها .

ويتأتى أكبر جانب من جمال الزخارف من التكرار ؛ فإن هيئة ورقة العنب شكل جميل فإذا رسمنا هيئات ورق العنب متجاورة فى صورة متماثلة - على أى هيئة كانت - حصلنا على زخرفة ؛ وكذلك يقال عن زهرة اللوتس أو الأكانتوس أو الليلق أو الوردة أو أى زهرة أخرى .

وقد لجأ الفنان المسلم إلى الزخرفة ليملاؤها الفراغات بدلاً من رسوم الآدميين أو مناظر الطبيعة ، لا لأن الإسلام يحرم ذلك ، فليس هناك تحريم صريح لرسم الآدميين ، وإذا كان المسلمون الأوّل قد تحاشوا ذلك فقد كان هدفهم القضاء على بقايا الوثنية وعبادة الصور أو التماثيل ، فلما استوثق الإسلام واتسع مجاله وعمقت جذوره

لم يبقَ لهذا التخوف موضع ، وليس من المعقول أن يعبد المسلمون رسماً أو صورة أو تمثالاً .

ومع أن المسيحيين لم يتحرّجوا من الرسم والتصوير فى الكنائس ، إلا أنهم لم يعبدوا الصور أو التماثيل ، وإنما تَوَسَّلُوا بهيئات السيد المسيح والسيدة العذراء فى الرجاء والطلب من الله .

ومن الواضح أن هناك حاجزاً ضخماً يفصل بين الديانات السماوية التى تعبد الخالق سبحانه - وهو يَجَلُّ ويتعالى عن أن يُصوَّر أو يُمَثَّل - وبين الديانات الوثنية التى تعبد الأشجار والتماثيل - وما إليها - لارتباطها بقوى سحرية مرغوبة أو مرهوبة .

فلم يكن الخوف من الوثنية أو الشُّرك هو الذى جعل الفنان المسلم يتباعد عن تصوير الآدميين ومشاهد الطبيعة ، وإنما الذى أبعدته هو شعوره بأن الخالق - سبحانه - لا يُقَلَّد ، وأن محاولة تقليده - سبحانه - لا تجوز للرجل التقى ، ثم إن تصوير الآدميين يدفع الفنان دفعاً إلى تصوير الجسد العارى ، والعقيدة الإسلامية يزيناها دائماً حياء يجعل الإنسان يتحاشى كل ما يخدشه ، وبينما كان الناس فى بلاد اليونان والرومان مثلاً يتسلَّون بالتردد على الحمَّامات العامة للتسلَّى بمنظر العرايا ، فإن المسلمين - والحمَّامات تعتبر من مظاهر حضارتهم - كرهوا دائماً اتخاذ الحمَّامات مواضع فرجة وتسلية ، والحمَّام عند المسلم مكان تطهر فلا يجوز أن يكون وسيلة رجس ؛ وذلك يؤيد ما قلناه من أن تحرُّج الفنان المسلم من رسم الجسد الإنسانى كان يرجع إلى إجلاله لله - سبحانه - فلم يقلِّده ، وإلى شعوره بالحياء ؛ فتحرَّى ألا يخدشه ، وفى قصص «ألف ليلة وليلة» مشهد لطيف يعبر عما نقول بأصدق بيان : فقد دخل قمر الزمان يقوده الجنىُّ إلى خدر حبيبته شمس المكان ، فوجدها نائمة وقد انكشف بعض جسدها فاستدار وقال للجنىَّ : غَطَّهَا يا ملعون حتى يظهر جمالها ! ..

وكان هذا الحياء من الخالق ومن كل ما يجرح الحشمة هو الذى دفع الفنان المسلم إلى الاتجاه نحو الزخرفة ، فجعلها ميدان إبداعه الفنى ووصل بابتكاراته فى هذا المجال إلى ما لم يصل إليه غيره من أهل الفن فى أى نطاق حضارى آخر .

اعتمد الفنان المسلم على عنصرى التكرار والتوازن ، فالتكرار المتوالى لأى هيئة

يُحدث أثراً زخرفياً جمالياً؛ والتوازن كذلك له نفس الأثر، وهذا التوازن يبدأ من خطين أو منحنيين متماثلين، ويستطرد إلى صور هندسية ونباتية وحيوانية لا نهاية لها ولا حدّاً لجمالها.

والزخارف قد تكون مجرد رسوم وقد تحفر وقد تكون بارزة، وقد تكون ذات لون واحد أو أكثر، وقد ابتكر الفنانون المسلمون من تقاطع الخطوط ما يُسمى بالطبق النجمي، وهي زخارف مستديرة الهيئة تصنع خطوطها نجماً في وسطها، وتفتنوا في ذلك تفتناً يحار فيه العقل؛ وأبدعوا كذلك في استعمال ورقة العنب، وفروع النخلة والحبيبات (وهي كل هيئة متخذة من أشكال حبوب النبات) والأقراص والزيتون وسنبلة القمح والفصوص والورد والقرنفل والصنوبر والبلبل وعباد الشمس - المعروف بالمرجريت - والمشبكات، أي: الخطوط والدوائر المتشابكة، والخطوط المتكسرة والجدائل والخطوط المتعرجة أو المنحنية، وما إلى ذلك، وتستطيع أن تقول إن الفنان المسلم لم يغادر هيئة يمكن أن تخطر بالبال كعنصر زخرفي إلا استعملها بنجاح.

وقد استعملوا الزخارف على شكل إزارات متوازية، أو في صورة أطباق نجمية عند اتساع المساحات، واستعملوا الألوان بنجاح كبير، وكانوا يفضلون الألوان القرآنية أي: التي ورد ذكرها في القرآن، كالأخضر والأحمر والأصفر ولون الذهب والفضة؛ واستخرجوا معاني خاصة للألوان، فقالوا إن السندس هو الأخضر الفاتح، والإستبرق عند الرسامين والمزخرفين هو الأزرق؛ وفضلوا الأحمر الداكن على غيره وسمّوه المرجان لورود اللفظ في القرآن الكريم (في سورة الرحمن - الآية ٢٢) .. ومن هذا القبيل سمّوا اللون الأبيض باللؤلؤ، أما الأحمر القاني فقد سمّوه بالياقوت، واللفظ قرآني أيضاً.

ومعنى ذلك أن الفنانين المسلمين ظلوا في أعمالهم - دائماً - مرتبطين بالإسلام والقرآن، مما أضفى على أعمالهم جمالاً وسحراً روحياً لا يخطئه من يتأمل أعمال أولئك الفنانين الموهوبين، ولهذا السبب أيضاً استخدموا الكتابة كعنصر زخرفي، وخاصة أي القرآن الكريم وبعض الأحاديث الشريفة، بل استعملوا أسماء الرسول ﷺ وأسماء الخلفاء الأربعة كعناصر زخرفية، وأبدعوا في ذلك أيما إبداع. وهم في الكتابة الزخرفية يفضلون أن يكتبوا بالذهب على أرضية زرقاء داكنة أو إستبرق - كما يقولون - ومن مصطلحاتهم: «خط الذهب على بحر الإستبرق».

ويبلغ من اشتها الفئانين المسلمين بالزخارف العجيبة الهياث أن أطلق مؤرخو الفن العالمى لفظ (أرابيسك Arabesque) على كل زخرفة متشابكة - حتى لو لم تكن عربية ، وقد ترجم فريد شافعى إلى العربية ما كتبه المستشرق هيرتفلد فى « دائرة المعارف الإسلامية » تحت لفظ « أرابيسك » ، وفيما يلى أهم فقرات هذه الترجمة ، وقد أثرنا الإتيان بها بنصها لأنها من عمل مهندس معمارى واسع العلم بالآثار ، لهذا فترجمته متماز بدقة فنية لها قيمتها هنا ^(١) : « وتتمثل أخطر نتائج كراهية الإسلام للتصوير فى أن العدد الأكبر من الفئانين المسلمين قد انصرف إلى ميادين أخرى من الفنون تخلو من القيود ويجدون فيها حرية لإشباع غرائزهم الفنية وإظهار مهاراتهم ومواهبهم ، وتجلّى كل ذلك فى ميادين الزخرفة بأنواعها المختلفة ، فقد صال الفئانون العرب المسلمون فيها وجالوا وابتكروا وطوّروا فى الموضوعات والمجموعات والوحدات والعناصر الزخرفية ، مما جعل للفن العربى الإسلامى ذلك الطابع الزخرفى الأخّاذ ، الذى تميّز به عن سائر الفنون كلها ؛ بل إننا نعتبره حجر الزاوية فى تلك الوحدة الشاملة التى تضم فى نطاق إطارها الكبير جميع المدارس الفنية التى قامت فى كل عصر من العصور فى تلك السلسلة المترابطة حلقاتها من الأقطار العربية والإسلامية فى المشرق والمغرب » .

« لقد جعل الفئانون العرب المسلمون من الخط العربى بأنواعه المختلفة من كوفى إلى نسخى إلى غير ذلك ميداناً من الميادين الرئيسية للزخارف ؛ فأخرجوا من الحروف وأطرافها أشكالاً وعناصر من الزخرفة تتجمع فى كلمات وعبارات ليتّج منها كلها موضوعات زخرفية ذات إيقاع فنى متناغم ، وتبرزها وتؤكدّها فى أحيان كثيرة عناصر نباتية وهندسية وُضعتْ فى مستوى خلفى منها لتزيد من حسنّها وجمالها ، وزيّنا بها منتجات الفنون من عمارة وتحف زخرفية » .

« كما ابتكروا من الأشكال الهندسية ألواناً وأنواعاً جديدة ألّفوا بينها وأنّجوا منها أعداداً لا حصر لها من الوحدات والتكوينات الزخرفية التى تسيطر على المشاعر وتبعث النشوة والارتياح ، وقد أشرنا من قبل إلى ما اختص به الفن الإسلامى من نوع من الزخارف الهندسية هو الأطباق النجمية » .

(١) العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٢٦٥ - ٢٦٧ .

«وأنتجوا سجلاً حافلاً من العناصر النباتية من أوراق وزهور وثمار فى أشكال تجريدية محوّرة ذات طابع عربى إسلامى فريد ، جعلوها تتهادى وتتنى وتتشابك مع بعضها ومع الكتابات الكوفية والوحدات الهندسية لتخرج من مجموعاتها روائع تبهر الأبصار . ولقد بلغ من روعة تلك الابتكارات الزخرفية أن أطلق الفنانون الأوربيون كلمة « أرابيسك » Arabesque على أية تكوينات زخرفية تتشابك فيها العناصر حتى ولو كانت غير إسلامية بحيث ينتج منها ما يشبه ما أبدعه الفنانون العرب المسلمون . ولا شك أن نسبة ذلك إلى العرب تنطوى على أكبر تقدير لما وصلوا إليه من أصالة فى زخارفهم وهى اعتراف بفضلهم فى هذا المضمار الذى لم يبرز فيه غيرهم .

ونظراً لأهمية تلك الكلمة وانتشارها الكبير فإننا نقتبس مما كتبه العالم الأثرى الألماني هيرتزلد عن كلمة « أرابيسك » ما يلى : « هذا اللفظ أوربى أطلق فى اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية على زخارف الفن الإسلامى بوجه عام والنباتية منها بوجه خاص ، بل لقد أطلقها البعض على زخارف فن النهضة الأوربية لما حدث من مزج بين معنى هذه التسمية وبين زخارف فن النهضة التى كانت تتميز بالغرابة وأطلق عليها لفظ Grotesque ، نسبة إلى الزخارف الكلاسيكية التى اكتشفت فى وحدات حمامات تيتس Titus فى روما ، والتى ظهرت بالأقنية التى تغطيها على هيئة كهوف سُميت بالإيطالية Grottos ، وأطلق على الصور والزخارف المكتشفة فيها لفظ Grottesca .

أضف إلى ذلك أن زخارف فنون النهضة وخاصة فى النسيج والخزف والمعادن وزخارف الكتب والمخطوطات تحتوى على عدة عناصر من زخارف الفن الإسلامى ، كما توجد أيضاً عناصر منها فى زخارف كنائس مدن إيطاليا مثل كنيسة القديس ميخائيل فى بافيا Pavia وكنيسة القديس فرنسيس فى أسيسى Assisi ، وكنيسة القديس دومنيكو S. Domenico فى بولونيا ؛ وكل ذلك جعل من السهل أن تنتقل كلمة « أرابيسك » إلى زخارف طراز النهضة نفسه ، وبالذات للنوع المسمى Grottesca الذى أشرنا إليه . ويبرز تأثير الأرابيسك الإسلامى بوجه خاص على طراز النهضة وهو فى أوج ازدهاره وفى عصره الأخير وهو يرجع إلى محاكاة مقصودة لنماذج شرقية . ويتضح ذلك فى طراز النهضة الفرنسى فى عصر هنرى الثانى وبالذات فى زخارف الكتب ،

وكذلك فى ألمانيا وخاصة فى الأعمال الزخرفية التى قام بها بيتر فلوتر Peter Flotner وفيرجيل سوليس Virgil Solis فى مدينة نورنبرج .

« أما المعنى الحقيقى الذى أصبح متفقاً عليه بين علماء تاريخ الفنون لهذا الاسم الغربى - أى : « الأرابيسك » - فهو يعبر عن فنون الأقطار الإسلامية بوجه عام ؛ ومن الحق أن يطلق بالذات على الزخارف النباتية ، ولو أنه يصعب فصلها عن باقى الزخارف الأخرى مثل أشرطة الجداول والعناصر الكتابية وأشكال الكائنات الحية مما يمكن معه أن يمتد المعنى حتى يشمل أمثال هذه العناصر والأشكال ؛ وهو المعنى الشائع فى وقتنا الحاضر » .

« وظهرت كلمة أخرى تتوازى مع « أرابيسك » هى « مورسك » Mauresque لتطلق على زخارف الفنون الإسلامية فى الغرب الإسلامى لتمييزها عن زخارف المشرق الإسلامى ؛ ولكن كلمة « أرابيسك » ما زالت تشمل الزخارف الإسلامية النباتية كلها بوجه عام فى المشرق والمغرب ، بينما أصبحت كلمة « مورسك » تستخدم فى اللغات الأوروبية للفنون الإسلامية فى المغرب الإسلامى بصفة عامة » .

وانتقل هيرتزفلد بعد هذا الشرح والتعريف عن كلمة « أرابيسك » إلى تتبع الأصول التى اشتقت منها الزخارف النباتية الإسلامية ، فحصر تلك الأصول - كما هى عادة المستشرقين - فى داخل نطاق الزخارف الكلاسيكية ، أى : الإغريقية والرومانية .

ومن الواضح أن هيرتزفلد قد ضيق من هذا النطاق إلى حد كبير ، فضلاً عن أن هذه الزخارف الكلاسيكية تفصلها فترة زمنية طويلة عن العصر الإسلامى ، وتملاً هذه الفترة الزمنية فنون أخرى ذات طابع شرقى واضح تمتزج فيه رواسب من تلك « الفنون الكلاسيكية » مع عناصر وأساليب وأذواق أصيلة فى أقطار الشرق ، وهى « الفنون الساسانية والهلينستية » .

وقد ورثت الأخيرة أو تَوَلَّد عنها الفن المسيحى الشرقى المعروف بالبيزنطى ، إذ رأينا مدرسة متأخرة من مدارس الفنون الهلينستية ؛ فقد قام ذلك الفن المسيحى على أساس متين من الفنون الهلينستية ولم يغير منها أو يضيف إليها الكثير ، وبخاصة فى المراحل المبكرة من نشأته وتطوره .

تلك الفنون الشرقية هي التي اختار الفنانون العرب المسلمون منها ما وافق مزاجهم وأذواقهم من عناصر وتقاليد زخرفية ثم صهروها بطريقتهم الخاصة بعد أن أضافوا إليها عناصر ابتكروها ، وأخرجوا من ذلك كله زخارف إسلامية خالصة ، ثم نوعوا فيها وطوروها ، حتى أضفت على الفن الإسلامى من جميع نواحيه ذلك السحر الشرقى الأخاذ والمظهر الطليّ الجذاب الذى جعل الغربيين يقعون تحت تأثير سحره وجاذبيته ويقلدون عناصره ووحداته وتوزيعاته الزخرفية ، بل قد وصل الأمر - كما رأينا - إلى أن يطلق اسم « أرابيسك » على الزخارف الأوربية التى توجد فيها مسحة من طلاوة الزخارف الإسلامية ، خاصة فى عصر النهضة فى أوج ازدهاره وفى أزهى مراحلها .

وقد تنقش الزخارف على الجص ، وقد تصنع قطع من الجص على هياكل زخرفية ليزين بها البناء ، وتُسمى فى هذه الحالة « حلية » وتسمى فى الإنجليزية Moulding وقد تصنع الحلية من الخشب أو الحجر ؛ فإذا كانت مسطحة مصنوعة لتسد فتحة سُميت « حشوة » ، وإذا كانت صغيرة دقيقة سُميت « لقمة » وأكثر ما تكون الحشوات واللقم فى زخارف المنابر الخشبية .

إلى هنا نقف بالكلام عن عمارة المساجد ، فقد أتينا من ذلك بما يكفى حاجة هذا الكتاب . والباب - بعد ذلك - واسع جداً ، ولو استرسلنا فيه إلى مده لما وصلنا إلى نهاية فإن ميدان الفن الإسلامى بحر لا ساحل له .. فلنقف منه عند هذا الحد الذى بلغناه ، والله المستعان .

* * *



الفصل الثامن

أرض المساجد



كل بلاد الإسلام أرض مساجد :

ما من مدينة فى عالم الإسلام إلا وجد فيها المسجد بعد المسجد على نسق ، حتى قيل - مثلاً - إن القاهرة مدينة « الألف مئذنة » ، ولكن الحجاز مع ذلك هو أرض المساجد ، حتى ولو كان عدد مساجده يقل مثلاً عن عدد مساجد « دَكَّا » ، فى أرض البنغال شرق شبه الجزيرة الهندية ، إذ يقال إن عدد مساجدها يناهز أربعة آلاف .

إن أرض الحجاز هى مهد بيوت الله ، وفيها مسجد المساجد وهو الحرم الشريف ؛ وأبو المساجد ، مسجد الرسول ﷺ ، وفيها كذلك المساجد الجليلة التى تعود بنا إلى عصر الرسول والصحابة ، عصر ميلاد الإسلام وقيام جماعته ودولته ، ذلك العصر الذى نشعر - ونحن نقرأ أخباره - وكأن بركة الله حلت على الأرض وأهلها فبدلت أرضاً غير الأرض وبدلت ناساً غير الناس .

ولقد كان رَحَّالة المسلمين إذا أهلَّوا على أرض الحجاز ، أحسُّوا وكأن نوراً إلهياً يغمرها ويجعلها شيئاً آخر غير أرض البشر فيحسُّون بأن الأرض مسكٌ وكأن الدور دُرٌّ وياقوت ، وذلك كلام ابن عربى فى بعض صفحات « الفتوحات المكية » وعند ابن جبير خاصة تستطيع أن تقرَّأ هذه الأوصاف الصادرة عن إشراق نفس المؤمن بروح الإيمان ، فما رأيت رَحَّالة يعبرُّ عن « وَجْد » المسلم لرؤية مشاهد النبوة والصحابة كهذا الغرناطى العميق الإيمان .

غار حراء مسجد قبل الإسلام :

والناس - فى العادة - يبدءون تاريخ المساجد من المسجد الحرام ، فهو أول بيت وضع للناس ، وهو قبلة إبراهيم أبى الأنبياء المسلم الحنيف ، وهو أول مسجد قام فيه رسول الله ﷺ .

ولكننا نحب أن نرجع بمساجد الإسلام إلى غار حراء ، فهذا هو مسجد الإسلام الأول دون شك .

هنا صلَّى رسول الله ﷺ وتحنَّث وعبد الله ، قبل أن يتنزَّل عليه الوحي .

وفى غار حراء نزلت الآيات الخمس الأولى من « سورة العلق » ، وهى أول ما أنزل من قرآن .

فهذا الغار جدير بأن يُعَدَّ فى المساجد وإن سبق عصر المساجد ، وإذا لم يصحَّ أن رسول الله سجد فيه ، فلنقل إنه معبد . ومن المعروف أنك تستطيع تسمية المسجد بالمعبد كما تستطيع أن تُسمِّيه بالمُرْكَع ، ولكن لفظ «المسجد» غلب على معابد الإسلام .

المسجد الحرام أول بيت وضع للناس :

وعلى بُعد ٧ كيلومترات جنوب غرب غار حراء تقوم مكة ، وفى قلبها يقوم المسجد الحرام .

المسجد ، والكعبة فى وسطه ، وشعائر الله الأخرى التى يلمُّ بها الناس فى الحج والعمرة إنما هى قلب الحرم المكى ، أرض الله الحرام ، وهى كلها أرض مقدسة بمثابة المسجد ، إذا دخلها الإنسان على نية الحج أو العمرة دخل مُحَرِّماً .

وحُدود هذا المسجد الأكبر تُعَيِّنُها أعلام الحرم المنصوبة على الطرق المؤدية إلى مكة من كل ناحية ؛ وهذه الأعلام - وهى مواضع على الطرق - تكونُ فى مجموعها نطاقاً واسعاً مُحَرِّماً مُطَهَّراً لا يجوز فيه سفك دم ولا عدوان .

فى هذه المساحة تنتشر المساجد المكرمة كأنها النجوم حول الكوكب الأعظم ، وهو المسجد الحرام ؛ إنه أقدم مساجد الإسلام ، إذا ذكرنا أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً . وهو - دون شك - أوسع مساجد الدنيا ، إن لم يكن أوسع معبد دينى على الإطلاق.

وأنا أتحدث هنا عن صحنه الفسيح المحيط بالكعبة وبيوت صلاته المتعددة تحت البوائك المحيطة بالحرم . والقبلة هنا هى الكعبة المشرفة ، ذلك المبنى المكعَّب الجليل الذى يقوم خالداً تحت ستاره المخملىَّ الأسود توشَّيه أزرُّ من الآيات القرآنية .

هيئة الحرم الحالية ترجع إلى أيام المماليك ثم الأتراك :

لقد كانت عناية سلاطين المماليك بالحرم عظيمة ، فمنذ أن أعاد بناء الكعبة والحرم السلطانُ الظاهر بيبرس إلى أيام قلاوون ، لم يكفَّ هؤلاء السلاطين عن العناية بالحرمين

المكى والمدنى . آخر مرة أعاد فيها الممالك بناء الحرم المكى كله كانت سنة (٨٦٨ هـ / ١٤٦٤ م) . وعندما دخلت الأراضى المقدسة فى رعاية سلاطين آل عثمان انتقل إليهم أمر رعاية الحرم ، ولم يقصروا فى ذلك ، بدأ ذلك العمل الجليل السلطان سليم ، ولكن سليمان القانونى أو سليمان الفخم (٩٢٦ - ٩٧٣ هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٥ م) هو الذى أعاد بناء الكعبة والحرم وأعطاهما الهيئة الباقية إلى اليوم على وجه التقريب ، ومن حسن الحظ أن الحكومة السعودية حافظت على ذلك التصميم وأضفت عليه جمالاً وثناء وفخامة .

هذا التصميم - أو التخطيط - من عمل المهندس العثمانى الأشهر سنان باشا ؛ ولم يعيش سنان ليرى تنفيذ مشروعه فقام به تلميذه محمد أغا ؛ وبحسب هذا التخطيط اتسع الحرم حول الكعبة حتى أصبحت مقاييسه $[٢٠٠ \times ٢٠٠ = ٤٠,٠٠٠]$ متر مربع [على وجه التقريب ، نحو عشرة أفدنة كما يقال بالقياس المصرى . وأعيد إنشاء البوائك المحيطة بالحرم ، فأزيلت الأعمدة الرخامية القديمة - التى ترجع إلى أيام السيدة زبيدة زوج الرشيد - ووضعت مكانها دعائم من الرخام عددها (٨٩٢) ، وبين هذه الدعائم وضعوا أعمدة من الحجر الرملى لتحمل البوائك والسقف والقباب الصغيرة التى بنيت من الحجر ، وكانت قبل ذلك من الخشب ، كان عدد هذه القباب (٥٠٠) .

وقام برسم زخارف الحرم المصور التركى عبد الله لطفى ، وهو مصور مجيد يعتبر من أكابر ممثلى المدرسة العثمانية فى التصوير ، وإليه يُنسب كناش مشهور فيه تصاوير حياة الرسول الأكرم ، وقد حرص هذا المصور التقى على ألا يصور الرسول الكريم أبداً . وقد نقش الزخارف وكتب الكتابات بخط الثلث المذهب على قاعدة من الأزرق العربى المعروف عند أهل الفن بالإستبرق .

وفى سنة (٩٩٤ هـ / ١٥٨٦ م) بُنيت جدران المسجد بالرخام الملون وجُددت قناديله وأضيفت ثريات فى هيئة رؤوس النخيل ، وبنيت للحرم مآذن كبراهم مستديرة على الطراز العثمانى ذات ثلاث شرفات للأذان ، تحت هذه المئذنة الكبرى - التى عرفت بمئذنة الخليفة - أنشأ السلطان سليمان مدرسة للفقهاء ، هى السلیمانیة التى ظلت تقوم بعملها زمناً طويلاً .

وفى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى بدا أن بناء الكعبة نفسه يتصدع ، واختلف العلماء فيما إذا كان من الجائز هدم الكعبة لبنائها من جديد . فأما علماء الآستانة فقد قالوا بجواز ذلك فى حين أن القاضى الشافعى فى مكة قال إن ذلك لا يجوز ، وإنه لابد من الانتظار حتى يتهدم البناء من تلقاء نفسه . وفى سنة (١٠٣٩ هـ / ١٦٢٩ م) جاء سيل عارم وهدم ركنين من أركان الكعبة ، فلم يعد هناك ما يمنع من إزالة البناء كله وإعادةه جديداً مع وضع الحجر الأسود فى مكانه .

وقد قام بالأمر مهندسون وعرفاء وبنّاءون أتوا من الآستانة والقاهرة ، وعندما جاء دور وضع الحجر الأسود فى مكانه ، فعل القضاة الأربعة والمهندسون وأشراف مكة ما فعلته قريش عندما أعادت بناء الكعبة أيام النبى ﷺ وقبل بعثته : وضعوه فى ثوب ورفعوه جميعاً من الأطراف ، وقد حرص المعماريون على أن يستعملوا فى البناء نفس أحجار الكعبة ، لأنه قيل إن بعضها يرجع إلى أيام النبى ﷺ ، واحتفظوا بالقاعدة المبنية بحجارة من البازلت الأخضر ، لأنهم قالوا إن تلك هى الحجارة التى بنى بها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت المكرّم ، وهذه القاعدة هى المعروفة بالشاذروان وهى ملبّسة بالرخام .

كذلك احتفظوا بالأعمدة الخشبية التى ترفع سقف الكعبة ، بعد أن عاجلوا خللها ودهنوها بمزيج من الزعفران واللبان ، وأعيد وضع الباب الصغير الذى كان السلطان سليمان قد صنعه للكعبة ، وكان مغطى بصفائح الذهب والفضة ، وصُنِعَ للكعبة ميزاب جديد من الذهب المزخرف بالمينا الزرقاء ، وبطنوا داخل الكعبة بالحرير الأحمر ، وغطوها من الخارج بالحرير الأسود ، وقد صُنِعَت هذه السُتُرُ فى مصر وأتى بها إلى مكة وفد من مصر ، كما كانت العادة إلى حين قريب .

وقد ظل هذا البناء مكانه حتى أوائل القرن الثامن عشر ، فقام والى مصر والحجاز محمد على بإعادة بناء الحرم المكى كله ، وجدد أعمدته وحجارته ورخامه وأصلح مآذنه ، وكان ذلك سنة (١٨٢١ م) .

أما تجديد مبانى الحرم المكى كله وعمارته على الهيئة التى نراها اليوم فقد بدأت فى (فبراير ١٩٥٨ م) أيام الملك سعود بن عبد العزيز ، وقد أشرف عليها منذ البداية أخوه

الملك فيصل بن عبد العزيز وكان إذ ذاك ولياً للعهد ، وما زالت الأعمال مستمرة إلى يومنا هذا ، وقد أخذ الحرم المكرم بهذه العمارة الجديدة صورة فريدة فى بابها من الجمال والرواء .

وقد أصبحت مساحة المسجد الآن (٧٥ , ٠٠٠ متر مربع) بعد أن كانت (٣٠ , ٠٠٠ متر مربع) ، وبهذا اتسعت لحوالى نصف مليون مُصلٍّ ، ويحيط بالحرم شارع عرضه ثلاثون متراً ، وأنشئت ممرات المسعى من طابقين وجعل عرضه عشرين متراً وجعلت له ثمانية أبواب ، ونظم السير فيه فى اتجاه واحد .

الحرم النبوى فى المدينة :

أما ثانى المساجد الكبرى ، فمسجد الرسول ﷺ ، فقد تتبعنا تطور مبناه حتى أيام الخليفة المهدي العباسى .

ونضيف الآن أن العناية بذلك المسجد المكرم لم تتجدد بصورة جديدة بالذكر إلا أيام المماليك ، فقد قاموا بتجديده مرة بعد مرة ، وكانت هناك إدارة مصرية خاصة بالحرمين المكي والمدنى . وآخر من أعاد بناء المسجد النبوى كله من سلاطين مصر كان السلطان سيف الدين لاشين سنة (٨٦٨ هـ / ١٤٨١ م) .

ثم تولى الأمر سلاطين آل عثمان ابتداء من سليم الأول ، ثم رعمه وجدده سليمان القانونى عندما جدد الحرمين كليهما سنة (٩٤٠ هـ / ١٥٢٩ م) ، ولا يزال جزء كبير من تجديد سليمان باقياً إلى اليوم عند باب السلام فى الواجهة الغربية للمسجد المكرم ؛ ويعتبر المنبر الذى أهده سليمان لمسجد النبى ﷺ من آيات صنعة الحفر فى الخشب عند المسلمين .

وقد أصلح الجامع مرة أخرى سنة (٩٩٤ هـ / ١٥٣٣ م) ثم سنة (١١٢٧ هـ / ١٧١٥ م) وفى سنة (١١٩٦ هـ / ١٧٨٢ م) صنع للمسجد محراب جديد من المرمر الملون ورفعت فوق موضع المحراب قبة جميلة .

وقد أهدى سلاطين مصر وتركيا والهند وأمرؤها ونفر كبير من الأتقياء هدايا بديعة للمسجد المكرم ما زالت باقية فى ذخائره إلى اليوم ، ولعل أغلاها من ناحية القيمة المادية

تلك الأهلّة الذهبية المرصّعة بالجواهر ، وفى داخل كل هلال نجم ذهبى مرصّع أيضاً ،
وبين هذه الجواهر قطع من الماس تزن بضعة قراريط ولا تقدّر بثمن ، وهذه الذخائر
معلقة بداخل الروضة الشريفة ، وفى روضة السيدة فاطمة الزهراء .

وفى سنة (١٢٦٦هـ / ١٨٤٩م) قام محمد على والى مصر بإعادة بناء المسجد
كله ؛ وقد قام بالعمل مهندسون مصريون تحت إشراف حلیم باشا مهندس قصور
الخلافة فى الآستانة ، يساعده المعلم إبراهيم كبير البنائين المصريين والخطاط التركى
المشهور شكر الله .

وقد ألّف أيوب صبرى باشا كتاباً عن الحرمين وصف فيه كيف تم هذا العمل
العظيم ، فنسب معظم الفضل للعثمانيين ولكن رفاة رافع الطهطاوى صحح الأخطاء
ثم جاء على مبارك فوضع الأمر فى نصابه فى كتابه « الخطط التوفيقية » وذكر القصة
كلها شفيق باشا فى مذكراته .

وإلى هذا التجديد - الذى أشرف عليه إبراهيم بن محمد على - ترجع القبة الخضراء
الباقية إلى اليوم ، وهى من إنشاء المعلم إبراهيم المصرى ، وقد عُنِيَ أشد العناية بأن
يجعل فيها كل الحجارة القديمة التى ترجع إلى أيام السلطان بيبرس .

وقد قام السلطان عبد الحميد الأول - المتوفى سنة (١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م) - بتبطين
المسجد كله بالرخام الوردى وأنفق فى ذلك نفقة طائلة ، وكان هذا السلطان - الذى
توفى فى التاسعة والثلاثين من عمره - يسأل وهو على سرير الموت عما إذا كانت عمارة
مسجد الرسول قد تمت ، ويقال إنهم عندما أبلغوه أن العمل قد تم قرّت عينه وصعدت
روحه إلى بارئها . وبسبب الرخام الوردى الذى لُبّست به جدران المسجد أصبح يُسمّى
كله بالمسجد الوردى .

وما زال مبنى الحرم النبوى المملوكى العثمانى باقياً إلى اليوم ، بالإضافة إلى
التوسعة العظيمة التى أمر بعملها الملك عبد العزيز آل سعود فى أيامنا هذه ، فقد
أضافت هذه التوسعة للمسجد المكرم أبواباً جديدة تفضى إلى بيت صلاة رائع يقوم
على أعمدة فخمة من المرمر وكسيت الأرضية كلها بالمرمر ، ويبلغ عدد هذه الأعمدة
الجديدة (٢٣٢ عموداً) ، وأنشئت لهذه الزيادة كذلك واجهة بديعة عرفت بواجهة الملك

عبد العزيز ، تزينها مئذنتان ارتفاع كل منهما (٧٥ متراً مربعاً) . وقد أضيفت إلى المسجد بهذه الزيادة مساحة كبيرة ، فأصبح اتساعه يزيد على (١٦٠,٠٠٠ متر مربع) تتسع لما يزيد على (٣٠٠,٠٠٠) من المصلين .

مسجد قباء ، ومساجد أخرى :

تحفل مكة والمدينة وما بينهما بالمساجد التاريخية ، ومعظم الأسماء التي تطلق على هذه المساجد غير صحيحة ، فلسنا نعرف - في التاريخ - مسجد أبي بكر ولا مسجد عمر ولا مسجد عثمان ولا مسجد علي ، وليس لدينا ما يثبت أن أحداً بنى مسجداً عند العقبة التي لقي الرسول ﷺ عندها الأنصار قبل الهجرة بعامين ثم قبلها بعام فكان هذا أول الفتح الحاسم في تاريخ الإسلام ، ولا نعرف كذلك أنه كان هناك مسجد عند شجرة الرضوان ، بل الثابت أن عمر بن الخطاب بحث عن هذه الشجرة في خلافته فوجد أنها قد زالت .

ولكن هذه المساجد كلها جميلة بسيطة يزيناها رواء من التقى والحب ، ومعظمها من بناء سلاطين المماليك والعثمانيين وأمرائهم وبعض أهل الخير من أهل الحجاز . ويكاد أن يكون من العسير أن نتحقق من عمرها على مر الزمن ؛ فلنأخذها كما هي ولنعتبرها كلها مساجد جليلة لأنها تقوم في الأرض المقدسة .

ولكن مسجد قباء ينفرد من بين هذه المساجد ، فنحن نعرف أن الرسول ﷺ بناه لأول وصوله إلى قباء ضاحية المدينة التي تقع على بُعد ثلاثة كيلومترات جنوبها ، فهو أول مسجد بنى في الإسلام ، وهو المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، المذكور في القرآن الكريم .

ولابد أن المسجد رُمِّ وأعيد بناؤه مراراً قبل أن يأخذ صورته الحالية التي ترجع إلى سلطان مصر الأشرف قايتباي في سنة (٨٨٨ هـ / ١٥٨٠ م) ، فقد أعيد بناء هذا المسجد كله وأضيف إليه محراب جديد من الرخام ، أما منبر الجامع فهو المنبر الذي كان قايتباي قد أهدها للحرم النبوي ، وقد نقل إلى قباء عندما وضع في المسجد النبوي المنبر البديع الذي أهدها له السلطان مراد .

ومئذنة المسجد ترجع إلى العصر العثماني ، وأغلب الظن أنها عُمِلت في أيام

السلطان محمود الثانى سنة (١٢٤٥هـ / ١٨٢٥م) وكان الذى قام بها محمد على
والى مصر وعرفاء وبنّاءون من مصر ، وقد أكملت هذه العمارة أيام ابنه السلطان
عبد المجيد .

أما المبنى الصغير داخل الصحن فيقال إنه يعين موضع مبارك ناقة الرسول ﷺ ،
وهذا غير ثابت .

وما زال المسجد يحتفظ بطابع البساطة الذى كان يميز مساجد الإسلام الأولى ،
ونعتقد أن صورته الحالية هى نفسها التى كانت أيام جدّه عمر بن عبد العزيز ، وهو أول
من جعل له مثذنة وبيت صلاة ذا أعمدة ورواقات .

* * *



الفصل التاسع

المساجد العتيقة الألفية



كنا قد تحدثنا عن المساجد الأولى التى أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه : مسجد
النبي فى المدينة ، ومساجد الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان ؛ وفى الفصل السابق -
فى كلامنا عن مساجد الأرض المقدسة - تحدثنا عن الحرم النبوى .

لماذا نسميها عتيقة وألفية ؟

وفى هذا الفصل ستحدث عن بقية مساجد الإسلام العتيقة التى ما زالت قائمة
تُطاول الدهر إلى أيامنا هذه .

إننا نُسَمِّيها المساجد « العتيقة » لأن أقدمها - وهو جامع عمرو بن العاص فى
الفسطاط - يُسمى الجامع العتيق من زمن طويل ، واعتبرت هذه التسمية تشريفاً له ، لأنها
شهادة له بالأصالة وامتداد العمر فى خدمة الجماعة الإسلامية .

وعلى هذا القياس قلنا إن إخوته من المساجد التى قامت فى عصور الإسلام الأولى
مساجد عتيقة أصيلة .

وقد رأينا أن تمتد هذه العصور إلى قرب نهاية القرن الثالث الهجرى لكى تشمل
الجامع الأزهر الذى أصبح - بحق - عميد هذه المساجد العتيقة وإن كان آخرها فى
الإنشاء .

وقد سميناها « بالألفية » لأن كلاً منها قد جاوز ألف سنة عمراً ، بل إن بعضها مثل
جامع عمرو بن العاص كاد يبلغ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، وهو بهذا أقدم مساجد
الإسلام الباقية إلى يومنا هذا .

وقبة الصخرة والمسجد الأقصى والجامع الأموى فى دمشق وجامع عقبة فى القيروان
عمرت - إلى الآن - ثلاثة عشر قرناً ، تزيد أعواماً أو تنقص أعواماً ، ومسجد سوسة
قريب فى العمر منها .

ومسجد قرطبة الجامع قام فى النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى فعمره - على
هذا - اثنا عشر قرناً .

وقريب منه - فى هذا - مسجد القرويين فى فاس .

ويلى هذه جامع ابن طولون فى الفسطاط ، ثم الجامع الأزهر وهو أحدثها جميعاً وإن كان أبعدها فى تاريخ الجماعة الإسلامية أثراً ، وثمة جوامع أخرى كثيرة مهمة ولكنها لم تصل فى المكانة إلى ما وصلته تلك التى نذكرها .

وهذه المساجد العتيقة الألفية تشترك فى ظاهرة أخرى غير القدم والأصالة هى أنها كانت منذ ميلادها مراكز علم ونور ، وكل منها كتب صفحات ناصعة فى تاريخ العالم ، فى عالم الإسلام وخارج عالم الإسلام . ومن المعروف أن شيوخ هذه المساجد ألفوا من الكتب ما تُرجم إلى لغات البشر ودُرّسَ فى جامعاتها وما زال - إلى اليوم - من أعمدة العلم .

بل من الثابت المحقق علمياً أن حلقات الدرس فى كل من المسجد الأموى بدمشق والمسجد الأقصى فى القدس ومسجد قرطبة الجامع والجامع الأزهر حضرها الكثيرون من غير المسلمين ؛ والكثيرون من علماء الدولة البيزنطية تلاميذ لشيوخ جامع دمشق الأموى ، وقد كشفت عن ذلك الدراسات الخاصة بمشكلة إنكار عبادة التماثيل أو ما يُسمى باسم Iconoclasm التى يترجمونها أحياناً ترجمة غير مستساغة بقولهم اللا أيقونية ، فقد تبين أن الذين قادوا الحركة وأنكروا على المسيحيين تقديس التماثيل والصور والصلاة إليها كانوا قد درسوا فى الشام ، فى المسجد الأموى وفى مسجد حلب وغيرهما ، واقتنعوا بأن عبادة التماثيل - على النحو الذى كان جارياً فى الدولة البيزنطية - وثنية تشوب العقيدة .

وكانت الحجج التى ناقشوا بها خصومهم مأخوذة من كتب فقهاء المسلمين ؛ وكان ليون بن قسطنطين الذى أنشأ الدولة الأيسورية وهى من أقوى الدول فى تاريخ الروم قد تعلم قبل أن يصل إلى العرش فى دمشق ، ويؤكد المسعودى فى « التنبيه والإشراف » أنه كان فصيحاً بالعربية والرومية ، وكان قد ترك بلده « مرعش » وجاور فى دمشق زمناً ودرس على الشيوخ فيها .

وأما طلاب العلم من غير المسلمين فى مسجد قرطبة الجامع فكانوا يفدون من شتى بلاد أوروبا - وخاصة من روما - للدراسة هناك ؛ وقد وصل واحد منهم إلى كرسى البابوية .

وكذلك يقال عن الجامع الأزهر ، فإلى يومنا هذا يحضر الكثيرون من غير المسلمين الدروس فيه إلى جانب الألواف من المسلمين الذين ينهلون العلم من موارده التي لا تنضب .

ومسجد عمرو كان مهد الحركة العلمية العربية في مصر ، وشيوخه يشاركون شيوخ دار الهجرة - المدينة - في نشر العلم والإسلام في المغرب وإفريقية والأندلس .

ويشاركه في هذا الفضل مسجد القيروان الجليل ، الذي كان على مر العصور منارة العلم في المغرب كله ، وقد أخرج من الشيوخ من يفخر بهم العلم العربي الإسلامي على مر العصور .

وشيوخ القيروان هم الذين جعلوا من مسجد القرويين في فاس جامعة كبرى ، وهم الذين أعطوه اسمه ، فإن القرويين هم القيروانيون .

كانت تلك - إذن - مساجد ملأت الأرض هدى وأفاضت على أهلها العلم والنور . وهذا كان سبب خلودها وسبب إسراع التهدم إليها ، ولولا عناية الناس بترميمها وإعادة بنائها مرة بعد مرة لزالَت من الوجود ، لأن استعمالها دور علم - إلى جانب الصلاة - جعل استخدامها عنيفاً .

بل إن جامع عمرو في الفسطاط كان لا يكاد يرمم أو يجدد حتى يستهلك لكثرة تردد الناس فيه حتى قيل إن عدد الموجودين فيه في أى ساعة من ساعات النهار لم يكن يقل عن خمسة آلاف ؛ بل كان الناس يستخدمونه مركزاً لكتابة الوثائق ، فكان الكتاب يجلسون فيه ويأتيهم من الأميين من يريد كتابة خطاب أو وثيقة .

وفى أوصاف الرحالة من أيام ابن حوقل أن الناس كانوا يستخدمون مسجد عمرو دون رحمة أو رفق ، ولهذا كان إسراع الخراب إلى هذا المسجد خطراً عليه يهدده دائماً . وبلغ من كثرة ترميمه وإعادة بنائه أن المسجد فقد آخر الأمر هيئته وجانباً كبيراً من جماله ؛ وإنك لتنظر إليه اليوم فتراه - وقد تهلهل من كل جانب واستهلك في كل ركن - بسبب ذلك الاستعمال العنيف .

ومثله في ذلك : الجامع الأزهر ؛ لولا أن حظ هذا الأخير من العناية أكبر فاحتفظ بشيء من روائه القديم .

وهذا - كله - بالإضافة إلى قيام هذه المساجد العتيقة الألفية بأعمال المساجد المعروفة إلى جانب الصلاة : دُوراً للقضاء ومراكز للكثير من الأعمال المالية ، فمسجد الفسطاط مثلاً كان مقرّاً لبيت المال زمناً طويلاً .

هذه المساجد العتيقة الألفية قدمت للجماعات الإسلامية من الخدمات الدينية والحضارية ما يمكن أن تؤلّف فيه مجلدات .

ولكننا سنقتصر هنا على ناحيتها المعمارية : على هندستها وبنائها وما تمتاز به عمارتها ، وسنقصر الكلام هنا على أهمها ونتبع تطورها المعماري في اختصار شديد .

وبديهى أنه من المستحيل أن يبنى مسجد من ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ويظل كما هو دون ترميم أو إصلاح أو تغيير إلى يومنا هذا ، فإن الحجر يلى والطوب يتفتت والخشب يهلك ، ثم إن العمارة تتقدم ، والجماعات تنمو والمدن تتسع ، فتمس الحاجة إلى مساجد أوسع وأجمل وأكثر صلابة ؛ وقد رأينا هذا في حديثنا عن الحرمين المكي والنبوي ؛ ولكننا نلاحظ بصورة عامة أن القليل من هذه المساجد الجليلة احتفظ بهيئته العامة ، وقد ضربنا المثل لذلك بجامع عمرو بالفسطاط ، وقلنا إن نمو تلك المدينة ، ودخول المصريين في الإسلام جماعات ضخمة ، واستعمال الناس له في عنف ، كل ذلك اقتضى توسيع هذا المسجد وإعادة بنائه مرة بعد مرة ، حتى زالت بالفعل معالمه الأولى وأصبح في صورته الحالية مسجداً آخر لا يحمل من جامع عمرو إلا الاسم والذكرى .

ولكن بعض هذه المساجد العتيقة ما زالت - إلى يومنا هذا - تحتفظ بتخطيطها الأصيل ، مما يعطينا فكرة واضحة عن العمارة الإسلامية في عصرها الأول ؛ وسنلاحظ أن الخطوط الرئيسية لهذه العمارة المسجدية حافظت على هيئة المسجد كما خطّه رسول الله ﷺ في مسجده في المدينة ، بل اجتهد المسلمون في حالة استخدامهم لمبنى قديم - كما هو الحال مع المسجد الأموي في دمشق - في أن يصوغوه في قالب الفكرة الأولى عن إنشاء المساجد ، وقد وفقوا في ذلك إلى مدى يدل على أصالة فنية ومعمارية جديرة بالثناء .

ولن ندخل في كلامنا هذا في مناقشات عن الأصول ، أى : أننا لن ننفق وقتاً في

البحث عن أصول العقود والقباب وما إليها من التفاصيل المعمارية ، لأننا نعتقد أن الأصالة الحقيقية لا تتجلى في أن يكون العمل الفني أو كل جزء فيه مبتكراً تماماً ، وإنما هي تتجلى في القدرة على صبّ العمل كله - ما هو أصيل منه وما هو مقتبس - على قالب واحد ذي شخصية متجانسة واضحة لللمحات والسّمات ، فالفكرة في معظم مسرحيات شكسبير مقتبسة عن كُتّاب آخرين معاصرين له أو سابقين عليه ، ولكن أصلاته تتمثل في صياغة مسرحياته في ذلك القالب العبقري المتجانس الذي لا يصدر إلا عن شكسبير .

نقول ذلك لأننا رأينا الكثيرين من مؤرخي العمارة الإسلامية يبالغون في محاربة أى قول يذهب إلى أن المسلمين اقتبسوا صورة أو حلولاَ معمارية من غيرهم ، فإن إثبات الأصالة الكاملة لا يعنى كبير فضل ، بل الذى يعنى الفضل الحق هو كيف استُخدمت العناصر كلها - أصيلاً وغير أصيل - فى إنشاء عمل أصيل مثل قبة الصخرة ، وماذا يعنينا هنا إذا كان اشترك فيها معماريون من غير العرب ، ما دامت النتيجة التى أماننا عملاً رائعاً يتحدث عن العروبة والإسلام بأجلى بيان ؟

وهذه المساجد - أو المنشآت المساجدية - الأولى يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيّناً فى الهيئة الخارجية والشخصية ، لأن الفن المعمارى الإسلامى كان يبحث عن نفسه إذ ذاك ، وكان يتقرئ المادة التى وضعتها الظروف فى يديه ، ويحاول أن يصنع منها مساجد لله ، تسير - ما أمكن - فى الخط الذى رسمه سيّد المخطّطين ؛ رسول الله وصفيه عليه السلام .

فالفرق - فى الشكل - بعيد بين المسجد الأقصى ، والمسجد الأموى ، وقبة الصخرة ، ومسجد عقبة فى القيروان ، ومسجد قرطبة الجامع ؛ ولكن الروح واحدة ، فنحن - فى كل حالة - أمام مساجد ناطقة بشخصية الإسلام ؛ هنا - كما قلنا - موطن الأصالة والعبقرية .

وفى كلامنا عن هذه المنشآت سنتبع تطورها بعد الفترة الأولى حتى صارت إلى هيئتها الفنية الكاملة ، فنحن لا نستطيع أن نقف بمسجد قرطبة الجامع - مثلاً - عند جزئه الأول ؛ ولهذا وجدنا أنه من الضروري أن نتابع تطوره بعد ذلك .

وكما هي الخطة في هذا الكتاب ستُكمل الصورةُ الكلامَ ، وما لا نستطيع أن نذكره في السطور نستدرك ما يتيسر لنا منه في الصور والرسوم ، وسنذكرها بحسب ترتيبها الزمني .

مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط :

يعتبر جامع عمرو بن العاص في مصر رابع مسجد جامع أقيم في الإسلام - بعد مساجد المدينة والكوفة والبصرة - فقد أقيم سنة (٢١هـ / ٦٤٢ م) فعمره حوالى أربعة عشر قرناً .

وقد أنشأ فاتح مصر مسجده المنسوب إليه في الفسطاط بعد تمام فتح مصر على يديه ، وكان في أول أمره مسجداً بالغ البساطة : مساحة طولها (٢٥ متراً) وعرضها (١٥ متراً) مغطاة بظلة من الخشب وسعف النخل قائمة على أعمدة من جذوع النخل ، بل كانت قبلته الأولى غير محررة نحو القبلة تماماً ، وظلت كذلك حتى صححها قرّة بن شريك .

وهذا هو المسجد الذي يقال إنه اجتمع على إقامة محرابه ثمانون من صحابة رسول الله ﷺ ؛ وكان المسجد يقوم محاذياً لضفة النيل ، فكان النهر يقوم عوضاً عن جداره الشرقي ، ولهذا لم يكن للمسجد إلا ثلاثة جدران .

وقد أزاله مسلمة بن مخلد - والى مصر لمعاوية بن أبي سفيان - وأعاد إنشاءه من جديد سنة (٥٣ هـ / ٦٧٢ م) ، فضاغف حجمه وجعل له سوراً من الآجر ، وترك جزءاً كبيراً من الزيادة الجديدة صحنًا مكشوفاً ، وجعل للمسجد أربع مآذن في أركانه ، ويقال إن هذه كانت أقدم مآذن أقيمت في الإسلام .

ثم جدّده وعمره عبد العزيز بن مروان سنة (٧٩ هـ / ٦٩٨ م) .

ثم هدمه من أساسه وأعاد بناءه كله قرّة بن شريك سنة (٩٣ هـ / ٧١٠ م) على مساحة واسعة ، وجعل له جدراناً عالية وسقفاً من الخشب ؛ وقرّة هو الذى أنشأ له المحراب المجوّف - وهو أول محراب من نوعه في مصر - وأضاف إليه منبراً خشبياً جميلاً .

وفى سنة (١٣٣هـ / ٧٥٠ م) أتمَّ الوالى العباسى صالح بن على (وهو عمُّ أبى جعفر المنصور) عمل « قُرَّة » وأعطى الجامع صورته التى بقى عليها بعد ذلك لقرون طويلة .

وفى سنة (٢١٢هـ / ٨٢٧ م) بلغ الجامع مساحته الحالية على يد عبد الله بن طاهر والى المأمون ، وقد ثبت الجامع على تلك المساحة إلى الآن وهى [١١٢,٥ × ١٢٠ متراً على وجه التقريب = ١٣,٥٠٠ متر] وهذا المسجد الذى أتمه عبد الله بن طاهر هو الذى يعتبر الآن المسجد الأصيل الذى يجتهدون فى المحافظة عليه .

واحترق جزء كبير من جامع عمرو أيام خمارويه بن أحمد بن طولون فأعيد بناؤه ، وأكمل محمد بن طفج الإخشيد عمل خمارويه .

ثم جدد المسجد مرات كثيرة أيام الفاطميين حتى بلغ ذروة جماله القديم أيام الخليفة المستنصر ، وقد زاره ووصفه وهو فى أوج بهائه الرحالة ناصرى خسرو سنة (٤٣٩هـ / ١٠٤٧ م) وهو يُسمِّيه بالمسجد العتيق ، وقال إنه يقوم على (٤٠٠ عمود) من الرخام ، وجدار المحراب كله مغطى بالرخام الأبيض كتبت عليه آيات القرآن بخط جميل ، يضيئه بالليل من الداخل تنور (أى : مصباح ضخيم ، ثرياً) أهدها إليه الخليفة الحاكم بأمر الله ، وزنه سبعة قناطير من الفضة ، بالإضافة إلى أكثر من (٧٠٠ قنديل) ، وكان المسجد مفروشاً بعشر طبقات من الحصى الملون بعضها فوق بعض ، وقال إنه كان من أعمر المساجد بالناس والحركة ، ولا يقل الموجودون فيه - من الصباح إلى صلاة العشاء - عن خمسة آلاف شخص ، ما بين مصلين وشيوخ أساتذة وطلاب علم وكتاب يحرون الصكوك والمبايعات للناس .

وقد احترق جانب من هذا المسجد سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨ م) عندما أشعل الوزير الخسيس شاور النيران فى القسطنطينية فظلت مشتعلة فيها ٥٤ يوماً ؛ فلما جاء صلاح الدين الأيوبي أصلحه وجده سنة (٥٦٨هـ / ١١٧٢ م) « وأعاد بناء صدر الجامع والمحراب الكبير ورخمه ورسم عليه اسمه » .

ثم أعاد تعميره الظاهر بيبرس سنة (٦٦٦هـ / ١٢٨٨ م) ، وتوالت عليه أعمال الترميم حتى كان آخر من جددّه من المماليك مراد بك سنة (١٢١٣هـ / ١٧٩٨ م) ،

ويقول الأثرى فريد شافعى إن عمل مراد بك يعتبر من أسوأ ما نزل بالمسجد ، فقد تمَّ الترميم على صورة غير علمية ولا هندسية أضرتَّ بهيئة المسجد وبعض أجزائه .

وقد أدخلت على المسجد بعد ذلك إصلاحات وترميمات كثيرة كان آخرها سنة (١٩٢٢م) ؛ وكانت نتيجة هذه العمليات الكثيرة أن أصبح ذلك المسجد الجليل اليوم من أقل المساجد الكبرى وحدة فنية وأقلها انسجاماً ، ويزيد حالة المسجد سوءاً اختلاف الأثرين حول صورته الأصلية ، وما هو أصيل منه وما هو غير أصيل ، وإلى أن يتم اتفاقهم سيظل هذا المسجد الجليل أبعد ما يكون عما ينبغى له من جمال ورواء .

والمسجد الحالى هائل الحجم ، تحمل سقفه مئات الأعمدة ، وفى وسطه صحن مكشوف غير منتظم الهيئة تزينه قبة صغيرة .

وقد أمكن أخيراً وضع خطة لإعادة منارة المسجد ، مع المحافظة على هيئات تفاصيله المعمارية الأولى ، وستضاف له أربع مآذن .

قبة الصخرة :

هذا مبنى مساجدى فريد فى بابه فى عالم الإسلام ؛ بل نعتقد أنه لا يوجد فى الدنيا مبنى أنشئ خاصة تكريماً وتخليداً لصخرة ، والفرق بعيد بين الكعبة التى تضم فى ركن من أركانها الحجر الأسود ومبنى القبة التى فوق الصخرة فى الحرم القدسى الشريف .

والفكرة فى ذاتها جميلة : فكرة إظهار موضع الصخرة التى عُرج بمحمد - صلوات الله وسلامه عليه - عندها إلى السماء ، وحمايتها من الشمس والمطر وعدوان الأيام .

ويقال إن عمر بن الخطاب كان أول من فكَّر فى حماية الصخرة ، فأمر بإنشاء ظلَّة من الخشب فوقها ، وأن هذه الظلَّة بقيت فى مكانها حتى جاء عبد الملك بن مروان ورأى أن يستبدل بها عملاً فنياً يتناسب مع ما لهذه الصخرة من مكانة فى قلوب المسلمين .

وليس صحيحاً أن موضع الصخرة كان - قبل ذلك - مكاناً لكنيس يهودى ، فإن الصخرة نفسها قمة بارزة فى أعلى جبل موريا ، وسطح هذا الجبل هو الحرم القدسى الشريف الذى يضم المسجد الأقصى وقبة الصخرة ومشاهد إسلامية أخرى .

وليس هناك ما يثبت أن موضع الصخرة يعين مشهد شروع إبراهيم عليه السلام فى التضحية بابنه إسماعيل وفداء الله إياه بكبش كبير .

وليس بصحيح كذلك ما يقال من أن عبد الملك بن مروان أنشأ القبة ليجعلها موضعاً لحج المسلمين عوضاً عن الكعبة ؛ فهذا من اختراعات أعداء الإسلام .. وهو لا يدخل فى عقل إنسان ، لأن مكة - وفيها الكعبة - كانت جزءاً من دولة عبد الملك ، بعد أن انتهى أمر ابن الزبير أمر عبد الملك نفسه بتجديد الحرم المكى وإعادته كما كان ؛ ثم كيف يجوز فى العقل أن خليفة مسلماً - هو عبد الملك بن مروان وموضعه من العلم والإسلام معروف - يتصور أن الحج صحيح إلى موضع آخر غير بيت الله الذى بناه إبراهيم عليه السلام ، وحجَّ إليه محمد ﷺ ، ونُصَّ عليه فى القرآن الكريم ؟ ! .

شرع عبد الملك بن مروان فى إنشاء مبنى قبة الصخرة سنة (٦٩ هـ / ٦٨٨ م) - ٦٨٩ م) ، وكان الفراغ من إنشائه سنة (٧٢ هـ / ٦٩١ - ٦٩٢ م) .

ولا شك فى أن عبد الملك استعان فى إنشاء مبنى القبة بمهندسين وعرفاء من البيزنطيين ، أو من أهل الشام ممن أتقن فنون العمارة البيزنطية وذلك هو الأصح ، لأنه - فى الواقع - لم يكن يوجد إنسان يمكن وصفه بأنه بيزنطى أو رومى ، لأن الدولة البيزنطية (أو دولة الروم) تألفت من أجناس وشعوب شتى ، فيهم اليونانى والمقدونى والبلغارى والقيطى والكريتى والشامى والعراقى ، والرابطة الوحيدة بينهم كانت هى الدخول فى النطاق الحضارى البيزنطى أو الرومى ، فليس هناك ما يمنع - إذن - من القول بأن الذين صمّموا القبة كانوا شاميين ممن أخذوا حضارة الروم ؛ وليس هناك ما يمنع من القول - كذلك - بأنهم كانوا قد أسلموا ، فإن المبنى - رغم قيامه على قواعد العمارة البيزنطية - إسلامى الروح ، وهو فى ظاهره نصب تذكارى ، وفى حقيقته مصلّى ومسجد .

المبنى قاعة واسعة من ستة أضلاع ، ترتفع فوقها قبة نصف دائرية جميلة تقوم على هيكل من الخشب ، وهى مُجَصَّصة من الداخل والخارج ، وداخل القبة مزين بنقوش بيزنطية بدبعة ، وخارجها ملون بماء الذهب .

والصخرة تقوم داخل المبنى ، تحيط بها دائرة من البوائك ، تقوم على عقود مدببة ، مرفوعة على دعائم حجرية وأعمدة من الرخام بالتوالى . وفوق العقود - التى تدور حول الصخرة - يقوم جدار مستدير مرتفع مجصص ومزين بنقوش وزخارف بيزنطية الطابع ، وفوق هذا الجدار تقوم رقبة القبة مزينة بشمّاسات ذات زجاج ملون ، والفراغات بين الشمّاسات مغطاة بالزخارف ؛ والقبة تقوم فوق ذلك كله ، فهى معتمدة على العقود التى ذكرناها ، لا على الجدار الخارجى . وتدور حول القبة - بين الأعمدة - ستارة من الخشب الملبس بالنحاس ، تحول بين الناس والصخرة .

بين العقود والجدار الخارجى لمبنى القبة مطاف جميل يدور حول الصخرة .

جدار المبنى الخارجى مسدس الأضلاع كما قلنا ، كل ضلع منها مُحلّى بعقود زخرفية عددها سبعة ، العقد الأوسط فى أربعة منها فيه باب للدخول ؛ والجدران الخارجية كلها ملبسة بالرخام إلى ارتفاع النوافذ ، ثم تغطى بعد ذلك بالفسيفساء ذات البريق الزجاجى والقاشانى التركى ، هذا القاشانى يرجع إلى سنة (١٥٥٤ م) ، أما القبة الحالية فقد رُفعت فى القرن الثانى عشر ، على غط القبة القديمة بعد تجديد هيكلها الخشبى .

المسجد الجامع فى القيروان :

هذا أبو مساجد الجناح الغربى لمملكة الإسلام ؛ وقد اهتم أحمد فكري بدراسته اهتماماً كبيراً ، واختصه بفصل كبير فى جزء المدخل من كتابه الشامل عن مساجد مصر ومدارسها ؛ وعمادنا هنا عليه وعلى ما كتبه جورج مارسيه وكريسويل عن ذلك المسجد الجليل .

بدأ عقبة بن نافع بناء ذلك المسجد سنة (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) (وهو تاريخ اختطاط القيروان رابعة العواصم الإسلامية الأولى) ، وفرغ منه ومن القيروان سنة (٥٥ هـ / ٦٧٥ م) .

وليست لدينا فكرة واضحة عن عمارة المسجد فى دوره الأول هذا ، كما لا نعرف أيضاً كيف كانت عمارة القيروان الأولى ، ولكننا نستطيع أن نقول إنه كان مكوناً من

بيت صلاة مسقف بعريش يقوم على جذوع النخل وصحن مكشوف فى نفس حجمه .
ونقول هذا استنتاجاً من هيئة المسجد فيما بعد ، وقد حرص الذين جددوه على أن
يحافظوا على هيئته الأولى .

وليست لدينا كذلك فكرة عن حجمه الأول .

وقد جُددَ المسجد وزيدَ فيه مراراً عديدة على يد :

- حسان بن النعمان الغسانى حوالى سنة (٨٠ هـ / ٦٦٩ م) .

- بشر بن صفوان الكلبي؛ عامل هشام بن عبد الملك سنة (١٠٥ هـ / ٧٢٣ م) .

وقد زاد فيه بشر زيادة كبيرة .

- يزيد بن حاتم؛ عامل الخليفة العباسى «المنصور» على إفريقية

سنة (١٥٥ هـ / ٧٧٢ م) .

- زيادة الله بن الأغلب؛ ثانى أمراء الأسرة الأغلبية سنة (٢٢١ هـ / ٨٣٦ م) .

- إبراهيم بن أحمد بن الأغلب؛ تاسع أمراء بنى الأغلب

سنة (٢٦١ هـ / ٨٧٥ م) .

وهذه الزيادة الأخيرة هى التى أعطت المسجد صورته التى بقى عليها إلى اليوم .

ويرجع الفضل إلى الوالى يزيد بن حاتم فى الهيئة التى بقى عليها المسجد بعد ذلك،

فقد هدمه كله - حاشا المثذنة والمحراب - وأعاد بناءه كله سنة (١٥٧ هـ / ٧٧٣ -

٧٧٤ م) . ثم جاء زيادة الله بن الأغلب فهدمه كله وأعاد بناءه على نفس الخطوط . وقد

أراد زيادة الله أن يهدم المحراب أيضاً ، ولكن الفقهاء اعترضوا على ذلك وانتهى الأمر

إلى تغطية المحراب القديم بحائط بحيث لا يبدو لأحد ويظل قائماً ، وبهذا أمكن إنقاذ

محراب عقبة بن نافع .

وبنى زيادة الله جدار قبلة ومحراباً جديداً للمسجد ، وكلاهما مكسوٌّ بالرخام

الأبيض المغطى بالزخارف والكتابات ، وتحفُّ بالمحراب أعمدة رخامية فى غاية الدقة

والجمال . أما الساريتان (العمودان) الحمران اللتان كانتا زينة مسجد يزيد بن حاتم

فقد وضعتا أمام المحراب وما زالتا باقيتين إلى اليوم ، وفى بيت الصلاة (٤١٤ عموداً)

من الرخام ، تحمل عقود أروقة السبعة عشر .

أما تجديد المسجد على يد إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٨٧٥ - ٩٠٢ م) وزيادته فيه ، فقد تمَّ سنة (٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م) ووصلا بالجامع إلى أوج جماله ؛ وفى هذا التعمير الجديد أضيفت إلى المحراب كسوة من الرخام الملون ، وزين إطاره بالقاشانى ذى البريق المعدنى .

وقد أعاد تجديد المسجد المعز بن باديس الصنهاجى ، بعد انفصاله عن الفاطميين وعودته إلى السُّنة ؛ وبعد الغزوة الهلالية اهتم به الحفصيون فأعادوا تجديده كله سنة (٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م) .

وقد بنيت قبة المسجد الكبيرة - التى تقوم فوق البلاطة المؤدية إلى المحراب - على يد إبراهيم بن أحمد فى تجديده الذى ذكرناه ، وهى تقوم على (٣٢) عموداً جميلاً من الرخام (بينها السارتان الحمراءوان) وهى منقوشة من الداخل بزخارف فى غاية الجمال ، وعقود القبة من طراز هو بين المذهب وحذوة الحصان ، أما القبة نفسها فتألف من (٢٤) عقداً مديباً يُسمَّى كل منها ضلعاً ، وهى ليست مستديرة بل مثمثة .

ويمتاز جامع القيروان بالضوء الذى يفيض فيه والإشراق الروحى الذى يحسُّ به الإنسان إذا وقف تحت قبة المحراب وتأمل العقود الجميلة والجدران الرخامية المزينة من أعلى بوحداث زخرفية فى غاية الجمال .

وما زال المسجد يحتفظ بمقاييسه الأولى التى كان عليها أيام إبراهيم بن أحمد ؛ فطول جدار القبلة (٧٢ متراً) وجوف (عمق) بيت الصلاة (٣٦ متراً) تنقسم إلى سبعة أساكيب ، أما البلاطات - أى : الأروقة - المؤدية إلى جدار القبلة فعددها (١٧ رواقاً) ، الأوسط منها أوسع من الأروقة الأخرى ويؤدى إلى المحراب ، ولهذا المسجد صحن واسع يبلغ طوله (٩٠ متراً) وعرضه (٧٠ متراً) والعقود مستديرة تقوم على أعمدة من الرخام مقوَّاة بدعائم .

ويمتاز ذلك الجامع بالميزتين اللتين سنجدهما فى كل مساجد الغرب الإسلامى ، أولاهما أن بيت الصلاة عميق يغطى نصف مساحة المسجد كله تقريباً ، والمجتمعات قليلة العمق فكل منها رواقان ، والميزة الثانية أن المئذنة بناء مستقل شبيه بالبرج يقوم فى الجدار المواجه لجدار القبلة ، وقد يقوم خارج سور المسجد .

وهذه المئذنة تعتبر من نوادر المآذن وأجملها - مع قدمها - فهي في الحقيقة برج من ثلاث طبقات كلها مربعة ، والسفلى أكبرها حجماً وتليها الثانية فالثالثة ؛ وضلع بدن المئذنة من أسفل (٦٧ ، ١٠ مترًا) ، وارتفاعه (٨٧ ، ١٨ مترًا) ، فهو على هذا مبنى ضخمة يكاد حجمه أن يكون حجم بيت كامل ، وارتفاع الطبقة الثانية (٥ أمتار) ، والثالثة (٧ ، ٥٠ مترًا) ؛ فالارتفاع الكلى للمئذنة يصل إلى (٣٧ ، ٣١ مترًا) أى : ما يقرب من ارتفاع بيت من تسعة أدوار من المباني الحديثة .

والمئذنة كلها تقوم في الجدار المقابل لجدار القبلة في آخر الصحن ، وبابها عرضه متر وارتفاعه (٨٥ ، ١ م) ، وهو ذو عقد حذوة فرس ؛ والسلم الرئيسى يصل إلى أعلى البدن الأسفل ، وهو سلم ضخم . وهناك سلم آخران في الدورين الثانى والثالث .

ويذهب بعض الأثرين إلى أن الذى بُنى أول الأمر كان البدن الأسفل ، أما الاثنان الآخران فبنيا بعد ذلك بزمان طويل . وقد بنى فى خلافة هشام بن عبد الملك على يد واليه بشر بن صفوان الذى كان عامل الأندلس من سنة (٧٢٤ إلى ٧٢٧ م) .

والمسجد كله يكاد - من الخارج - أن يكون حصناً ، فالجدران عالية سميكة مشدودة بدعامات والمئذنة برج حقيقى ؛ وفى بعض مساجد الغرب الإسلامى تقوم أبراج أخرى على زوايا السور ، وهذا يرجع إلى أن مساجد الغرب الإسلامى احتفظت بطابع القصور المغربية ؛ « والقصر » - وجمعه : قصور - فى المغرب هو الدار المحصنة التى يبنيتها أهل القرى ويجعلون لها جدراناً عالية ، وقد يطلق اللفظ على القرية البربرية كلها .

المسجد الأموى فى دمشق :

يذهب الكثيرون من الكتاب الغربيين إلى أن الفاتحين المسلمين كانوا - عندما يدخلون بلداً نصرانياً - يحولون كنيسة الرئيسة أو كاتدرائيتها إلى مسجد ، ويتخذ أولئك الكتاب مسجد دمشق مثلاً لذلك ويقولون إنه كان كنيسة القديس يوحنا . وهذا القول خطأ ، والبرهان على ذلك مسجد دمشق بالذات .

فإن مسجد دمشق الأموى أنشئ فى جزء من معبد كان هناك للإله الرومانى جوبيتر وكان المسيحيون أيضاً يستخدمون أجزاء من المعابد الرومانية القديمة كنائس ومصليات ، وخاصة فى عصور الاضطهاد الأولى .

فى معبد جُوبَر هذا كان المسيحيون قد أقاموا مُصلًى - أو كنيسة - ونسبوه للقدس يوحنا ؛ فلما جاء المسلمون ورأوا سعة هذا المعبد المهجور فى معظم أجزائه ، رغبوا فى الاستفادة من الأحجار والرخام والأرض المبلَّطة لهذا المبنى القديم ، ورأى رجال عبد الملك بن مروان أنهم يستطيعون تحويل المبنى كله إلى مسجد ، وتراضوا مع النصارى على تعويضهم عن المصلًى الصغير الذى كان لهم ، وتم الاتفاق على ذلك ، وأخذ النصارى تعويضاً كبيراً عن مُصلَّاهم ، وأنشأوا لهم بالفعل مُصلًى جديداً فى موضع آخر .

وفى عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥ م) بدأ بناء المسجد العظيم سنة (٧٠٦ م) ولم يتم إلا سنة (٧١٥ م) ، وقد استخدم البناءون المساحة كلها ، ولما كان الجدار الطولى للمساحة يتجه إلى الجنوب - أى : نحو مكة - فقد جعلوه جدار القبلة ، وأصبح طول بيت الصلاة غير متناسب مع جوفه الذى يتكون من ثلاثة أساكيب ، ولكنهم لم يروا فى ذلك بأساً لأن طول جدار القبلة أعطى بيت الصلاة سعة تكفى لمئات المصلِّين ، ولهذا لم يروا زيادة جوف بيت الصلاة ، وتركوا بقية المساحة صحناً مكشوفاً مستطيلاً أيضاً ، وأصلحوا أرض الصحن - وكانت من الحجر - وأكملوا ما كان ناقصاً منها . وجعل المهندسون باب بيت الصلاة المؤدى إلى الصحن باباً فخماً كأنه باب مسجد كامل ، خاصة وهو يؤدى إلى الرواق الأوسط - أو المجاز الأعظم - الذى ينتهى بالقبلة . ويبلغ طول جدار القبلة حوالى (١٩٠ متراً) ، وعدد بلاطاته - أى : أروقه - اثنتين وعشرين بلاطة ، مقسَّمة على قسمين : كل منهما إحدى عشرة بلاطة ، على يمين الرواق الأوسط وشماله ، ويفتح بيت الصلاة على الصحن بسلسلة من العقود عددها عدد البلاطات ، وهى عقود مستديرة ، وتزيّن الجدار - أعلى العقود - سلسلة من نوافذ ذات عقود مستديرة ، وتقوم كل هذه النوافذ أزواجاً : كل اثنتين منها فوق عقد من العقود ؛ ويحيط بالصحن من شرق وغرب - مجنَّبان ، لهما نفس هيئة أروقة بيت الصلاة ؛ وتقوم فوق الرواق الأوسط - فى وسطه - قبة صغيرة ولكنها آية فى الجمال .

وبالرغم من أن العمارة البيزنطية كانت مصدراً أساسياً من مصادر العمارة الإسلامية الناشئة فى ذلك الحين فإن الجامع الأموى بنى وفق مخطط مسجد الرسول

عَلَيْهِ السَّلَامُ الأول بساحته المكشوفة الفسيحة، وقد جعل حرم الصلاة مغلقاً وأقيم على أعمدة وأقواس بسبب جو دمشق الممطر في الشتاء، وكانت هندسة الجامع المتفقة مع شعائر الدين الجديد أساساً لبناء الجوامع الكبرى التي بنيت من بعد في مختلف بلاد الإسلام.

والملاحع البيزنطية في عمارته إنما تمثلت في أقواسه وفي تزييناته من الفسيفساء وتعتبر مآذن الجامع الأموي أول محاولة لإقامة المآذن في الشام، وهي مآذن ثلاث، وكان في ركني المعبد القديم الذي بنى عليه المسجد في الجانبين الجنوبيين - الشرقي والغربي - برجان مربعان، فأعاد الوليد بناءهما ليكون من فوقهما الأذان، ثم أنشئ على شكلهما مثذنة ثالثة في منتصف الواجهة الشمالية للجامع.

والبناء الحالي لهذه المآذن يعود إلى العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية؛ والمثذنة الغربية منها هي الأجمل والأرشق وقد بنيت زمن السلطان قايتباي (في القرن الخامس عشر).

وقد احترق الجامع خمس مرات أولها سنة (٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م)، وآخرها سنة (١٨٩٣ م) أيام السلطان عبد الحميد الثاني. والبناء الحالي بأعمدته وشكله يرجع إلى عهد هذا السلطان.

على أن جميع الترميمات التي توالى على هذا الجامع حافظت تماماً على مخططة المعمارى الأول وعلى هندسته الأموية دون تعديل؛ فللجامع - إلى اليوم - حَرَمٌ مغطى مستطيل تتوسطه قبة تقوم فوق سقف مثلث وتسمى قبة النسر وأما باحة المسجد فمحاطة من أركانها الثلاثة (في الشرق والشمال والغرب) بأروقة تحملها أقواس تقوم على الأعمدة.

وللجامع أربعة أبواب أهمها البابان الشرقي (باب جيرون) والغربي (باب البريد) اللذان يقومان على أساس بوابتين ضخمتين قديمتين؛ وبقايا الفسيفساء القديمة ما تزال موجودة في أجزاء مهمة منها في داخل باب البريد الغربي.

وفي باحة الجامع نحو الغرب بناء يقوم على عدة أعمدة يقال إن مال الجامع كان يودع فيه، وكان في القرن الماضي مستودعاً للكتب والمخطوطات.

المسجد الأقصى :

ترجع بدايات هذا المسجد المكرم إلى عمر بن الخطاب الذى أمر ببناء مسجد فى الحرم القدسى غير بعيد من موضع الصخرة التى بنيت عليها القبة ، وهناك من يقولون إن مسجد عمر أقيم فى جزء من معبد رومانى قديم ينسب إلى هيرود وهدمه الإمبراطور تيتوس ، ويذهب كريسويل إلى أن هذا المسجد الأول كان يقوم فى جناح من ذلك المعبد .

ولكن الوليد بن عبد الملك كان أول من أنشأ المسجد الأقصى فى مكانه الحالى ، وكان ذلك فى سنة (٩٧ هـ / ٧١٥ - ٧١٦ م) ، ولم يبق من مسجد الوليد هذا إلا العقود القائمة على أعمدة من الرخام على عيىن القبة الصغيرة عند المدخل ويسارها .

وقد تهدم معظم مسجد الوليد هذا فى زلزال وقع سنة (١٣٠ هـ / ٧٤٧ - ٧٤٨ م) فأعاد بناءه الخليفة المنصور حوالى سنة (١٤٠ هـ) على الأغلب بعد أن اقتلع الذهب عن أبوابه لينفق عليه ؛ ثم تهدم كَرَّةً أخرى ورفع الأمر إلى المهدي فقال : رثَّ هذا المسجد وطال وخلا من الرجال ، أنقصوا من طوله وزيدوا فى عرضه . وهكذا تم إنشاؤه بأمر الخليفة المهدي العباسى سنة (١٦٣ هـ / ٧٤٧ م) الذى أعطى المسجد صورته وحجمه الحالىين ، ومن أسف أن معظم بناء المهدي تهدم فى زلزال وقع فى مطلع القرن الثالث فوزع الخليفة المأمون بناءه على أمراء الأطراف يبنى كل منهم رواقاً على نفقته ، وتولى البناء عبد الله بن طاهر بعد سنة (٢١٠ هـ) وقد زلزل هذا البناء أيضاً سنة (٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م) ، ولكن المقدسى الرحالة احتفظ لنا بجانب من وصفه فقال : إن بيت صلاته كان يتكون من ستة وعشرين رواقاً تشرع كلها من جدار القبلة إلى الصحن ، أما أبواب المسجد فكانت سبعة أكبرها هو الأوسط ، وكان الباب الرئيسى ملبساً بالنحاس ، وكانت تتوسط الرواق الأوسط قبة لطيفة .

وأعيد بناء المسجد بعد زلزال سنة (٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م) الذى ذكرناه ، وكان الذى بناه هو الخليفة الفاطمى الظاهر سنة (٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م) ، وقد ذهب جزء كبير من بناء الخليفة الظاهر الفاطمى أثناء الحروب الصليبية وما أصاب القدس خلالها من أحداث ؛ ولكن بقى لنا منه الهيكل العام المكون من سبعة أروقة عمودية على القبلة ،

وجوف بيت الصلاة الذى يتكون من (١١ أسكوباً) - أى : صفّاً - من العقود الموازية لجدار القبلة .

والرواق الأوسط - أو المجاز الأعظم - ضعف بقية الأروقة فى الاتساع ، وتقوم فوق البلاطة الأخيرة منه قبة صغيرة فوق المدخل مباشرة ، وهناك قبة أخرى أكبر من هذه فوق البلاطة المؤدية إلى المحراب .

وما زال المسجد المكرم يحتفظ بهذه الهيئة على وجه التقريب ، فقد رُمِّم وأعيد بناء الكثير من أجزائه أيام المماليك والعثمانيين ، وقد كانت عناية هؤلاء الأخيرين به كبيرة جداً ، وإليهم يرجع الفضل فيما يمتاز به المسجد اليوم من رواء بديع ، وخاصة عندما تقف وسط الرواق الأوسط فى اتجاه القبلة ، ترى المربع البديع - الذى يحمل القبة الكبرى - مرفوعاً على أعمدة رخامية سامقة الارتفاع ، تعلوها عقود تقوم على أرجل ، يعدل ارتفاعها ارتفاع العمدة .

والجدار الحامل للقبّة فوق العقود مزينٌ بنوافذ صغيرة على هيئة بوائك صغيرة ؛ وهذا الارتفاع العظيم للسقف هو الذى حدّأ بالمعماري إلى أن يربط الأعمدة بأوتاد خشبية سمكية ؛ وهذه الأوتاد هى الشئ الوحيد الذى يشوب روعة جمال هذا الجامع الجليل رغم زخارفها الكثيرة .

ويذهب المعمارىون إلى أن هذه الأوتاد ترجع إلى بناء الظاهر الفاطمى ، ومعنى ذلك أن القبة الكبيرة نفسها ترجع إلى ذلك العصر أيضاً .

والمسجد الأقصى الحالى ، عمل معمارى يجمع بين البساطة والجلال على صورة تندر فى غيره من المساجد ، فإن بناءه رغم ضخامته هشٌّ ، فالجدران الحاملة للقبّة الكبرى لا تتميز بضخامة ، والقبة نفسها تقوم على هيكل خشبى ؛ وزينة الجدران نفسها قليلة ، والقبلة بسيطة رغم زخارفها ، ولكن يضيف إلى روائها أن الجدار - إلى يمينها ويسارها إلى ارتفاع المحراب - مغطى بالقاشانى المزخرف ؛ وجزء كبير من فخامة الجامع يرجع إلى سعة بيت الصلاة التى تملأ النفس روعة وبهجة ؛ وهذه السعة هى التى جعلت المعمارى يكتفى بتسقيفه بالخشب .

جامع القرويين فى فاس :

مدينة فاس درة من درر المدن العربية الإسلامية ، فهى عربية إسلامية فى طابعها الحضارى وثقافتها ، ودورها فى تاريخ الحضارة الإسلامية فى الغرب الإسلامى لا يقارن إلا بدور القيروان وقرطبة ، وهى مع ذلك مغربية تنطق هيئتها وأشكال مبانيها وهندستها بالروح المغربية الخالصة ، وإنك لتعرف هيئتها من أية صورة تظفر بها لأصغر ركن من أركانها ؛ وهى من المدن ذات الشخصية المتميزة فى العالم كله .

وفاس - فى الحقيقة - مدينتان ، بل ربما كانت أكثر من مدينتين ، فإن الأمير إدريس ابن عبد الله الحسنى ، عندما وصل إلى المغرب هارباً من تعقب العباسيين إياه ، استطاع - بمعاونة مولاه راشد - أن يكسب ولاء قبيلة أوربة البربرية ، وفى مدينة « ولىلى » عاصمتها - فى وادى نهر سبو - اتخذ عاصمته الأولى عندما بوع فى منتصف رمضان (١٧٢ هـ / ١٢ فبراير ٧٨٩ م) ودخلت فى دعوته قبائل زناتة وزواغة وزواوة ولماية وسدراتة ومسرارة وغيانة ونفزة ومكناسة وغمارة .

وعقب قيام الدولة شرع إدريس الأول فى بناء مدينة فاس عند سفح جبل زالغ على ضفة نهر من وادى سبو ، هو وادى فاس ، وقد قامت المدينة فى مساكن قبيلتين بربريتين هما زواغة - التى تعرف ببني الخير - وبنو بزغتن ، فنشأت بربرية الطابع بدائية الهيئة ، أبنيتهما من القصب والخشب ، وهنا أيضاً أنشأ إدريس جامع فاس الأول الذى عُرف أولاً بمسجد الأشياخ ، وقد أعاد بناءه وأعطاه صورة قريبة من صورته الحالية إدريس الثانى بن إدريس الأول هذا .

وفاس الأولى هذه هى التى عرفت - فيما بعد - بعدوة الأندلسيين ، نسبة إلى جالية أندلسية وفدت على المغرب سنة (٢٠٢ هـ / ٨١٧ م) ، بعد طردهم من قرطبة أيام الحكم الثانى ؛ وقد عمّر أولئك الأندلسيون هذا البلد الريفى البربرى ، وأعطوه طابعاً عربياً مدنياً أندلسياً .

أما فاس الثانية فقد أنشأها إدريس الثانى بن إدريس الأول سنة (١٩٢ هـ / ٨٠٨ م) ، عندما استطاع أن يترك « ولىلى » نهائياً ويتخذ « فاس » عاصمة له ، وموضعها فى مقابلة المدينة الأولى وبيتها الوادى ، وقد سميت المدينة أولاً « العالية » ثم غلب عليها اسم

فاس ، ثم اتصلت المدينتان - مع الزمن - وأصبحتا بلداً واحداً يُسمى كل قسم من أقسامه بالعدوة ، فأما عدوة الأندلسيين فقد ذكرنا سبب تسميتها بذلك الاسم ، وأما العدوة الثانية - وهى الجديدة - فقد سُميت باسم عدوة القرويين ، أى : القيروانيين نسبة إلى جالية كبيرة من أهل القيروان نزلت بها وعمرتها .

وجامع القرويين يقع فى عدوة القرويين ، وهو أكبر من جامع فاس الذى يقع فى عدوة الأندلسيين ، وسنتحدث عنه .

الجامع هو زينة فاس وأجمل ما فيها ، والبناء الحالى للمسجد يقص تاريخاً طويلاً يؤكد الحقيقة التى ذكرناها مراراً فى هذه الدراسة ، وهى أن المساجد الجامعة تقدم لنا فى تاريخها صفحات طويلة من التاريخ السياسى والاجتماعى للجماعات التى أنشأناها .

فجامع القرويين هذا بدأ فى أصله جامعاً صغيراً يسمى جامع الشرفاء ، بناء إدريس الثانى فى «عدوة القرويين» من فاس عند أول إنشائها ؛ ويرجع أن جامع الأشراف هذا بنى هو وجامع الأشياخ الذى قام فى «عدوة الأندلسيين» فى نفس الوقت ، أى : سنة (١٩٢هـ / ٨٠٨ م) .

وقد ظل هذان الجامعان على حالهما حتى سنة (٢٤٥هـ / ٨٥٩ م) عندما اتسعت العمارة فى العدوتين القروية والأندلسية نتيجة للرخاء الذى ساد المغرب الشمالى إذاك وكانت الدولة الإدريسية فى أوجها الحضارى رغم ما منيت به من متاعب سياسية .

فى ذلك الحين توفى فى فاس رجل من عرب القيروان يسمى محمد بن عبد الله الفهرى كان قد هاجر إلى المغرب وكسب مالاً عريضاً ورثته بنتاه فاطمة ومريم ، وشاءت هاتان السيدتان إنفاق جزء كبير من هذا المال فى أعمال الخير ، واهتمت فاطمة بجامع القرويين ورأت أن تنفق مالها فى تجديد بنائه وتوسعته ، ويبدو أن الفكرة كانت فكرة أبيها ، لأننا عثرنا على نقش مكتوب يدل على أن أعمال تجديد الجامع بدأت سنة (٢٤٣هـ / ٨٥٧ م) .

أنفقت فاطمة الفهرية مالاً جسيماً فى توسيع الجامع وإعادة بنائه ، فتضاعف حجمه وزاد بيت صلاته عمقاً بما أضيف إليه من الأساكيب الجديدة ، ووُسّع الصحن أيضاً وأعيد بناء المجنّبات ، وأنشئ للجامع محراب ومنبر جديدان وبنيت المئذنة التى ما زالت

تستوقف الأنظار - إلى اليوم - بارتفاعها الشامخ وخطوطها الهندسية الرائعة . وقد أعيد بناء هذه المئذنة عندما وسَّع الجامع للمرة الثانية فيما بين سنتي (٣٤٤ و ٣٤٥ هـ / ٩٥٥ و ٩٥٦ م) ، فأصبح كل ضلع من أضلاع قاعدتها خمسة أمتار ، وارتفعت في الجو ٢٠ متراً وكُسيَتْ بالقاشاني ، وزُيِّن رأسها بتفافيح صغيرة موشَّاة بالذهب .

وعلى الرغم من أن المئذنة يضيق اتساعها بعد الشرفة الأولى ، إلا أن السلم الداخلي يتصل حتى قرب قمته ؛ وقد أعيد العمل في هذه المئذنة الجميلة سنة (٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) أيام الأمير أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى ، فأتقنت كسوتها ونوافذها وزينت شرفاتها بشرفات على هيئة الأهرام ، وجعلت في رأسها قبة صغيرة ، وهكذا أخذت هذه المئذنة شكلها واستقامت مشرفة على فاس الجميلة من علوِّ سامق .

وفي عهد الأمير على بن يوسف المرابطى ، زيدت في جامع القرويين زيادة كبيرة ، فيما بين سنتي (٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م) و (٥٣٩ هـ / ١١٤٣ م) ، فأصبحت بلاطات بيت الصلاة عشرين بعد أن كانت سبعة ، وصنع للجامع محراب ومنبر جديدين في الغاية من الجمال ، وأعيد بناء أبواب الجامع - وخاصة باب الفَخَّارين الذى يسمَّى اليوم باب الشَّمَّاعين - فأصبحت هذه الأبواب من أجل ما أنشأ المسلمون من هذا الطراز ، فقد كسيت الأبواب الخشبية بالنحاس ، وأقيم على كل باب قبة صغيرة ، وأنشئت فوق بلاطة المحراب قبة من الجصّ المقرنص زُيِّت بالنقوش الذهبية والملوَّنة ، وإن من يتأمل زخارف شمسات القبة يَرى فيها أعمالاً فنية تعتبر قمة من قمم الفن المعماري الإسلامي ، وقد اشترك في هذه الأعمال معماريون ومزخرفون من الأندلس .

ومن أجل ما يميز تلك الزيادة المرابطية : القباب الصغيرة المقرنصة التى أقيمت في سقف رواق المحراب ، ومقرنصات هذه القباب فريدة في بابها نظراً لدقَّتْها وإحكام صنعها ، وعليها زخارف نباتية في غاية الدقة والانسجام .

ومنبر الجامع من أجل المنابر المعروفة إلى اليوم ، فهو مصنوع من الأخشاب النبيلة كالصندل والابنوس والحوار ، وزخارفه مطعَّمة بالعاج ، وزخارف جوانبه تعتبر نماذج للزخارف الهندسية العربية من كل صنف ، والتوريقات النخلية التى تحيِّر العين ، وقد اشترك في صنعها فنيون أندلسيون ؛ فهو - على هذا - نموذج للفن المغربى الأندلسى .

وقد أخذت المئذنة صورتها النهائية في سنة (٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) ؛ إذ أمر الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى بتبييضها وكسوتها بالحصّ والقاشانى وتدعيم وَصَلَات أحجارها وصَقْلها حتى أصبحت كالمرآة .

وهكذا يعتبر هذا الجامع الفريد سجلاً لتاريخ المغرب ، فقد اشتركت في بنائه جميع الدول التى تعاقبت على حكم المغرب ، حتى « بنو أمية الأندلسيون » شاركوا في عمارته عندما نشروا سلطانهم على شمال المغرب أيام الخليفة الحكم المستنصر وابنه هشام المؤيد ، بل بذل الفرنسيون جهوداً كبيرة في الحفاظ عليه ودراسته وتبيان نواحي امتيازه الفنى ، والكثير مما كتبناه عنه هنا مُستقى من دراسات الأثرى الفرنسى جورج مارسيه في كتابه عن العمارة الإسلامية .

إن هذا المسجد - الذى بناه المولى إدريس في النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى - أصبح بحق عالماً من أعلام الحضارة الإسلامية ؛ فهو كتاب حافل في تاريخ الفن الإسلامى ، وقد أصبح - منذ عُنيت بتجديد بنائه فاطمة بنت محمد الفهرية - جامعة ، يُلقى الشيوخ دروسهم عند قواعد أعمدته ، فهو - على هذا - أقدم جامعة في الدنيا ، وهذا الجامع الجليل يقف على قدم المساواة مع الجامع الأزهر ومسجد قرطبة الجامع وجامع القيروان والمسجد الأموى في دمشق ، فكلها مراكز عبادة ومنارات عرفان ، وقد سائر جامع القرويين الزمان فتحول في أيامنا هذه إلى جامعة حديثة تُدرس فيها علوم الإسلام وعلوم العصر الحديث .

ويزين فاس جامع آخر يشبه جامع القرويين ولكنه يقلُّ عنه في الحجم والشهرة والجمال ، وهو جامع الأندلس بفاس الذى يرجع إلى عصر إدريس الثانى أيضاً ، فقد كان يُعرف بمسجد الأشياخ ، ثم عُنيت بأمره مريم بنت محمد الفهرى - أخت فاطمة التى ذكرناها - فجددته وزادت فيه سنة (٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) . وفي سنة (٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م) بُنيت له مئذنة شبيهة بمئذنة جامع القرويين ، وإن كانت تقل عنها رواء ؛ وقد أخذ الجامع شكله الحالى أيام الموحّدين ، فقد عُنى بأمره الخليفة الموحّد الرابع محمد الناصر وأمر بإعادة بنائه سنة (٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م) ، وقد دخلت عليه بعد ذلك زيادات وتجديدات كثيرة ، ولا يزال يُعَدُّ من المعالم الكبرى في تاريخ العمارة الإسلامية المغربية .

مسجد قرطبة الجامع :

لا شك في أن هذا المسجد يعتبر واحداً من أروع ما أنشأ المسلمون من الأعمال المعمارية ، وهو - باعترا ف مؤرخى العمارة من الأوربيين - قمة من قمم الفن المعمارى العالمى على مر العصور . لقد تم بناء هذا المسجد خلال قرنين ونصف قرن على وجه التقريب ، فقد بُدئ فى إنشائه على يد عبد الرحمن الداخل سنة (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) ، واستغرق إنشاء الجزء الأول منه سبع سنوات .

ثم توالى عليه أعمال الزيادة والتجميل والتوسيع إلى أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ؛ وأهم ما يعطى هذا الجامع الفريد مكانه فى تاريخ الفن المعمارى أن كل الإضافات والتعديلات وأعمال الزينة سارت فى اتجاه واحد وعلى وتيرة واحدة ، محترمة احتراماً كاملاً شخصية المسجد وطرازه ، اشتركت فى إنشائه أجيال كثيرة متعاقبة من أهل الهندسة والمعمار والفن فى الأندلس ، كلها سارت على نهج واحد لتعطينا آخر الأمر عملاً فنياً واحداً .

بدأ بإنشاء هذا المسجد - كما قلنا - عبد الرحمن الداخل سنة (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) ، وكانت مقاييسه [٧٥ متراً فى العرض و ٦٥ فى الطول أى : فى عمق بيت الصلاة] ، يضاف إلى ذلك صحن فسيح تعدل مساحته مساحة بيت الصلاة تقريباً ؛ وكما رأينا فى مسجد عقبة فى القيروان ، اهتم المعمارى بتوسيع مساحة بيت الصلاة ، ولكنه لم يضيف مجنّبات حول الصحن المكشوف .

وكان المسجد مكوناً من (١٢ أسكوباً) - أى : أروقة - موازية لجدار المحراب ، وتسع بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وكانت البلاطة الوسطى أوسع من الباقيات - وتسمى بالرواق الأوسط - وتؤدى إلى المحراب .

وفى سنة (١٨٠ هـ / ٧٩٦ م) أضاف هشام الرضى - ابن عبد الرحمن الداخل وخليفته - أسكوباً لبيت الصلاة من ناحية الصحن .

وقد اهتم عبد الرحمن الأوسط - رابع أمراء بنى أمية الأندلسيين - بالمسجد اهتماماً كبيراً ، فزاد فيه سنة (٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) زيادة صغيرة ، ثم تبين بعد ذلك أن عدد المصلين زاد زيادة كبيرة بسبب اتساع قرطبة ، ولهذا فقد بدأ فى سنة (٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م)

فى زىادة عمق بيت الصلاة بإضافة ثمانية أساكيب فى اتجاه القبلة (أى : نحو الجنوب فى اتجاه نهر الوادى الكبير) ونقل جدار القبلة إلى موضع الجدار الجديد ، وصنع للمسجد محراباً جميلاً فأصبحت مقاييس المسجد [١٣٠ × ٧٥ متراً] بما فى ذلك الصحن .

والغالب أن العقود المزدوجة ظهرت أثناء هذه الزيادة الكبيرة ، لأن المعمارين وجدوا عند تخطيطها أن ارتفاع المسجد لن يكون متناسباً مع مساحته الجديدة ، فابتكروا تعلية السقف عن طريق وضع دعائم حجرية فوق الأعمدة الأولى ، وإضافة عقود ثانية ثم رفع السقف فوق ذلك ، ولهذا جعلوا السقف من الخشب حتى يكون خفيفاً ، وغطوه بالقرميد الأحمر ، وقد تناقش الأثريون طويلاً فى أصل هذه العقود المزدوجة ، وقال بعضهم إنها اقتبست من سقايات شقوبية El Acuaducoto de Segoire التى أنشئت فى عصور الرومان ، ولكن ثبت الآن بالبرهان أنها ابتكار عربى صرّف اهتدى إليه المعمارىون المسلمون أثناء بناء المسجد الأموى فى دمشق ، ولكنه لم يتحقق هناك ، وإنما تحقق فى الأندلس ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك .

وقد أكمل هذه الزيادة وقام بزخرفة الجامع الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط فى سنة (٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) ، وأضاف هذا الأمير إلى المسجد شيئين جديدين : المقصورة إلى يمين المحراب ثم قنطرة فوق المحجة العظمى ، وهى الشارع الرئيسى لقرطبة (وكان هذا الشارع يمر غرب المسجد) لينتقل الأمير عليها من قصره - وكان يقوم على الجانب الآخر من المحجة العظمى - إلى المسجد دون أن يمر فى الشارع .

وفى سنة (٣٤٠ هـ / ٩٥١ م) أنشأ عبد الرحمن الناصر صومعة - أى : مئذنة جديدة فى أقصى جدار الصحن ناحية الشمال ، وقد جعلها على هيئة برج ضخّم ذى شرفتين للأذان ويصعد إلى هاتين الشرفتين بسُلّم داخلها ؛ وهذه المئذنة ما زالت باقية إلى اليوم ، وإن كانت قد حُوّكت إلى برج نواقيس ، وكذلك أضاف الناصر إلى المسجد زخارف كثيرة .

ورأى عبد الرحمن الناصر أنه لابد من توسعة المسجد مرة ثالثة ، فأمر ابنه الحكم - الذى لُقّب بالمستنصر - بالإشراف على هذه الزيادة التى تمت سنة (٣٥١ هـ / ٩٦١ م) ؛

وكانت هذه الزيادة جهة الجنوب مثل الزيادة السابقة ، فنقل جدار المحراب (٣٥ متراً) إلى الجنوب ، وبذلك وصل المسجد إلى ضفة النهر بزيادة (١٢ أسكوباً جديداً) ، ثم عمل محراباً جديداً يُعدُّ آية من آيات فن المعمار والنحت فى تاريخ العمارة الإسلامية ، وأصبح جوف بيت الصلاة (٧٥ متراً) ، وإذا أضفنا إلى ذلك الصحن أصبح طول المسجد (١٠٥ أمتار) .

وقد عملت هذه الزيادة على صورة مسجد جديد متصل بالأول ومتناسق معه فى الهيئة العامة ، فاستمرت العقود المزدوجة ولكن مع تفنُّن واسع فى الأشكال والصور الهندسية المتشابكة ؛ وتأثقت المعمارى - بصفة خاصة - فى هندسة البلاطة المؤدية إلى بلاطة المحراب ، والتى على يمينها والتى على يسارها ، فرفع السقف وجعل العقود المزدوجة ذات فصوص ، وأقام على البلاطة الوسطى قبة صغيرة ، تجاورها عن يمين وشمال قبتان أصغر حجماً .

وهذه القباب الثلاث - على صغرها - تؤدى بنا إلى كشف أثرى على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لتاريخ العمارة ، فإن تجويفها يقوم على عروق حجرية نصف دائرية تتقاطع فى نقطة واحدة وهى قمة القبة ، وهذه العروق تصنع عند تقاطعها عقوداً مدببة كهذه التى قام عليها طراز العمارة القوطى وهى التى تعرف فى المصطلح المعمارى باسم عقود شوك السمكة لأن هيئة عروقها كهية شوك السمكة الخارج من عمودها الفقرى .

وعقود قباب جامع قرطبة هى أقدم عقود من هذا الطراز على وجه الأرض ، ومعنى هذا أن الطراز القوطى ابتكار إسلامى ولد وظهر لأول مرة فى قرطبة سنة (٩٦١ م) فى مسجدتها الجامع .

وقد زيد هذا المسجد مرة رابعة على يد المنصور محمد بن أبى عامر ، الذى استبد بحكم الأندلس أيام الخليفة هشام المؤيد ، وقد تمت هذه الزيادة سنة (٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) ، وكانت بطول المسجد كله من ناحية الشرق .

وقد تحرَّى المنصور أن تكون الزيادة متفقة فى الهيئة والروح العام مع بقية بنيان المسجد ؛ ومع أن هذه الزيادة لا تمتاز بالأصالة التى تمتاز بها أجزاء المسجد الثلاثة الأخرى ، إلا أنها أعطته عمقاً وسعة زاد فيهما على كل مسجد معروف فى بلاد الإسلام

فَبِهَا أصبح عدد أروقة المسجد الذاهبة إلى جدار القبلة (١٩ رواقاً) ، وأصبح عدد أساكيه أى : أروقه الموازية لجدار القبلة (٣٥ أسكوباً) ، وأصبحت مقاييس المسجد [١٢٥ × ١٨٠ متراً] ، أى : أن مساحته الكلية - بما فى ذلك الصحن - (٢٢ , ٥٠٠ متر) أى : خمسة أفدنة ، يشغل بيت الصلاة وحده منها ثلاثة أفدنة ، وهذا أضخم بيت صلاة بنى فى الإسلام ، وأجمل ما فى الموضوع أنه باقٍ إلى اليوم شاهداً على ما بلغت أمة العرب من أوجٍ فى فن الهندسة والمعمار .

وصحن ذلك المسجد وحده قطعة فنية ، فهو محاط بسور تشقه سبعة أبواب ، وفى جهته الشمالية تقوم الصومعة التى ذكرناها ؛ وقد زرع الناس أشجار النارج فى الصحن ؛ ولهذا يسمى بصحن النارج ، وقد تناقش الفقهاء طويلاً فيما إذا كان يجوز زرع الأشجار فى صحن المساجد ، وأفتى شيوخ المالكية الأندلسيون بجواز ذلك ، لأن الأشجار تنقى ظلاً على المصلين .

وفى الناحية الشرقية من الصحن تقوم الميضأة البديعة التى أنشأها المنصور محمد بن أبى عامر وأجرى لها الماء فى قناة تحت الأرض ، وهذه القناة تصب فى حوض واسع مقسم إلى تسعة أحواض كانت تقوم فوقها تسع قباب صغيرة ؛ والغالب أن المتوضئ كان ينزل بضعة سلالم حتى يكون فى مستوى الماء .

وقد حوّل ذلك المسجد إلى كاتدرائية عندما استولى الإسبان على قرطبة سنة (١٢٣٦ م) .

وفى القرن الرابع عشر أنشئت فى الجانب الغربى منه - فى زيادة عبد الرحمن الأوسط - كاتدرائية صغيرة أمر ببنائها الملك الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيلاً .

وفى القرن السادس عشر - وعلى وجه التحديد سنة (١٥٢٣ م) - أنشئت فى قلب الجامع كاتدرائية كبيرة كاملة شوهدت وسط الجامع تشويهاً مؤسفاً ، وقد أنكر الإمبراطور كارلوس الخامس - المعروف عندنا بشرلكان - هذا البناء المُقَحَّم على المسجد العظيم ، الذى أفسد الصورة الرائعة التى كان بيت الصلاة فى هذا المسجد يمتاز بها .

ومن غريب الأمر أن بيت الصلاة لا يزال محتفظاً - إلى اليوم - بمعظم بهائه وجماله .

وجدير بالذكر أن أروقة المسجد كلها كانت تفتح على الصحن المكشوف ، مما كان يأذن للضوء فى أن يغمر داخل المسجد ويلفت الناس إلى جماله .

وقد أقفلت هذه الأروقة بجدار سميك عندما حوّل الجامع إلى كنيسة ، ويقول القُسس إن داخل الكنائس ينبغى أن يغلب عليه الظلام فذلك - فى رأيهم - يجعل للمعبد رهبة وهيبة .

ومن العسير وصف التفاصيل المعمارية البديعة التى يمتاز بها هذا الجامع - وخاصة فى زيادة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر - فذلك يحتاج إلى مجلد قائم بذاته ، وقد ألّف معماريون أجلاء - من أمثال جوميث مورينو Gómez Moreno وليوبولد توريس بالباس L. T. Balbas - ما يشبه المجلّدات فى عمارة هذا المسجد البديع .

وكان أهل قرطبة مفتونين بجامعهم هذا ، حريصين أشد الحرص على نظافته وروائه ، حتى كان هناك رجال نذروا فراغ وقتهم كله لخدمة الجامع ، فكانوا لا يزالون طوال اليوم ينظفون أرضه وجدرانه ويلمعون نحاسه وفضته وينظفون مشكواته ، وقد تركوا لنا من أوصافه ما يفوق أوصاف أىّ مسجد آخر على وجه الأرض .

وبينما نجد أن أهل الفسطاط قد أسرفوا فى القسوة على مسجدهم ، فاستخدموه فى كل غرض دون أن يصرفوا إليه من العناية ما هو جدير بها ، مما جعل الجامع يتداعى لأقرب وقت من تجديداته الكثيرة ، نجد أن أهل قرطبة أحبوا جامعهم وعشقوه وحافظوا عليه إلى آخر أيامهم فيه ، وظلوا - بعد ذلك - يتشوقون إليه ويقولون الشعر فى الحنين إليه ؛ وهم يخاطبونه فى هذه الأشعار مخاطبة الصديق العزيز ، فكأنه كان فى حسابهم شخصاً حياً يعيش بينهم .

ولا يقل المركز الذى يحتله مسجد قرطبة الجامع فى تاريخ العلوم العربية والإسلامية عن مكانته فى التاريخ المعمارى الإسلامى ، فقد كان هذا المسجد - من أول إنشائه - جامعة حقيقية تحفل بالشيوخ والطلاب ، وقد تعاقبت عليه أجيالهم وشدّت إليه الرّحال من نواحي الأرض كلها ، حتى كان - خلال قرون طويلة - أعظم مراكز العلم فى أوروبا . ومع أن الدولة لم يكن لها إشراف مباشر على التدريس فى جامع قرطبة ، كما كان

الحال مع الجامع الأزهر ، إلا أن أهل العلم الأندلسيين عرفوا كيف يضعون من القواعد والنظم ما حفظ لجامعهم مستواه العلمى الرفيع ، فكان شيوخ جامع قرطبة أجلاً الشيوخ وأوفرهم علماً وأحسنهم سَمَناً ، وكانت الدراسة تسير فيه وفق نظام دقيق قرره الشيوخ أنفسهم وحافظوا عليه .

وظل جامع قرطبة - طوال تاريخه - دار القضاء فى قرطبة ، فيه كان يجلس القاضى كل يوم ، فى ركن معين من أركان بيت الصلاة ، وإلى جواره كاتبه ودولاب محفوظاته الذى يُسمى بالقمطر ، وأمامه المتخاصمون ؛ وفى مؤخرة مجلس القضاء كان يجلس نفرٌ من المحامين - وكانوا يُسمَّون بالخصوم أو الوكلاء - وكان لا يُؤذَن لأحد بأن يكون خصماً أو وكيلاً إلا بإجازة من قاضى قرطبة ، فكان الرجل يستطيع أن يوكل عنه واحداً من هؤلاء المحامين ويقرر ذلك بين يدي القاضى ، ويتصرف كما نفعل نحن اليوم .

مسجد سوسة الجامع :

أنشئ هذا المسجد سنة (٢٣٦ هـ / ٨٥١ م) ، أيام أبى العباس عبد الله بن إبراهيم ابن أحمد الأغلبى ، وهو يعتبر من أجمل وأكبر المساجد العتيقة الباقية إلى اليوم ، رغم أنه يقل فى الشهرة عن أمثاله من تلك المساجد الجليلية .

والمسجد يقوم على شبه جزيرة داخلية فى البحر قرب باب البحر ، من أبواب سوسة القديمة ، شمال شرق ذلك البلد التونسى الجميل .

ولم يدخل على المسجد تغيير كبير منذ بنائه ، أى : أنه لا يزال يحتفظ بهيئته العامة كما كان فى أيام الأغالبة ، ولهذا فإن ذلك المسجد يُعدُّ من أكبر المعالم فى تاريخ عمارة المساجد .

والمسجد واسع المساحة إذ هو مستطيل - على وجه التقريب - طوله (٥٧ متراً) وعرضه (٥٠ متراً) ، فمساحته الكلية - على هذا - (٢٨٥٠ متراً) ، يتوسطه صحن مستطيل تبلغ مساحته (٣٤٤ متراً) ، تحيط به ثلاث مجنَّبات عرض كل منها رواق واحد . ومنظر الجامع - من الصحن - جميل فإن بيت الصلاة والمجَنَّبَات تطل عليه بعقود حذوة الفرس ، تقوم على دعائم حجرية ؛ وبيت الصلاة عميق يتكون من ستة

أساكيب ، أما بلاطاته (أو أروقته) فعددها ثلاث عشرة والوسطى منها أكثر سعة وهي الرواق الأوسط الذى يؤدى إلى المحراب ؛ وفوق بلاطة المحراب قبة صغيرة ، وهناك قبة مماثلة لها تماماً فوق الرواق أيضاً ، فى وسط بيت الصلاة . وموضع هذه القبة الأخيرة يعين جدار قبلة المسجد القديم ، فقد كان جوف بيت صلاته ثلاثة أساكيب ثم وُسِّعَ بعد ذلك إلى الجنوب بإضافة أربعة أساكيب أخرى ، ونُقِلَ جدار الجامع إلى موضعه الحالى وأنشئ له محراب جديد .

والى جانب المحراب يوجد باب كان مسدوداً إلى وقت قريب ، وقد فتحه الأثرى الكابتن كريسويل فوجد عُرفة صغيرة فيها محراب خشبى متحرك يقوم على عجلات ، ويعتبر هذا المحراب من أقدم ما عثر عليه من نوعه فى تاريخ العمارة الإسلامية ؛ وهناك محرابان آخران من هذا النوع فى المغرب : واحد فى مسجد الزيتونة فى تونس ، والثانى فى المسجد الجامع بالجزائر ؛ وكلها غير مستعملة الآن .

وفى ركنى المسجد الشمالى والجنوبى - من ناحية الغرب - يقوم بُرجان مستديران يصل ارتفاعهما إلى مستوى سطح الجامع ؛ والشمالى منهما كان يستعمل مئذنة ، لأن له سلماً داخلياً يُدخِلُ إليه من داخل المسجد ، وفى أعلى كل من البرجين جوسق تقوم عليه قبة .

مسجد سامرا الجامع :

بدأ الخليفة المعتصم بالله (٨٣٣ - ٨٤٢ م) فى إنشاء سامرا سنة (٨٣٦ م) ، ولم يكن يريد لها أن تكون مدينة ملكية كما فعل عبد الرحمن الناصر عندما أنشأ مدينة الزهراء ، وإنما أراد أن تكون معسكراً يؤوى جنده التركى ويبعدهم عن بغداد بعد أن ضاقت بهم وأذوا سكانها ؛ فكل مبانيها لا تمتاز بجمال أو أناقة ، وإنما تمتاز بالضخامة والمتانة حتى تتحمل الأعداد الضخمة من الجنود والحرس ، وتصمد للاستعمال الحثيث وسير الخيل والفرسان ، وقد بنيت المدينة كلها على عجل ، فلم يوضع لها تصميم مدروس على مهل ، ولم يبق من المدينة الآن إلا أطلال بالية ، وكلامنا كله قائم على استنتاجات بنيناها على ما كشف من بقايا أساسات المباني .

وهذا ينطبق على ما كشفت آثاره من مباني « سرَّ من رأى » مثل الجوسق الخاقاني الذي بناه الخليفة لسُكْنَاهُ ، وقصر بلكوارا الذي بُنى لسُكْنَى أحد أولاد المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) ، ويعيننا هنا مسجد سامرا الجامع الذي بناه المتوكل ، وهو دون شك أوسع ما بنى المسلمون من مساجد ، وقد بقيت لنا أجزاء من جدرانه التي تشبه أسوار الحصون ، وبقيت لنا مثذنته ذات المصعد اللولبي الخارجى التي تذكر الإنسان بفكرة برج بابل . والمسجد كله مبنى بالآجر (الطوب المحروق) ويبلغ سمك الجدار أكثر من مترين ونصف متر ، تؤيده - على مسافات متساوية - دعائم خارجية نصف دائرية يزيد قطر الواحدة منها على (٣ , ٥ أمتار) ، وتبعد الواحدة عن الأخرى (١٥ متراً) وتقوم أربع منها عند الأركان .

والمسجد مستطيل ، مقاييسه [١٥٦ × ٢٤٠ متراً] .. أى : أن مساحته كانت (٣٧٤٤٠ متراً) ؛ ويذكر المؤرخون أنه أضيفت إليه - فيما بعد - زيادات جعلت مقاييسه [٤٤٤ × ٣٧٦ متراً] .. أى : أن مساحته بزيادته بلغت (١٦٦ , ٩٤٤ متراً) ؛ أى : فوق الأربعين فداناً ، وهذه مساحة مدينة صغيرة ، لا مجرد مسجد جامع .

وكان جوف (عمق) بيت الصلاة (٦٢ متراً) ، يتألف من تسعة أسايب تقوم على تسعة صفوف من الدعائم ، فى كل صف (٢٤ دعامة) ؛ وكانت تلك الدعائم مبنية بالآجر ، وضلع الدعامة الواحدة متران وارتفاعها عشرة أمتار ونصف ؛ وكانت تحيط بالصحن مجنّبات فى الجهات الثلاث يتألف كل منها من ثلاثة أروقة ؛ وكان للمسجد (١٦ باباً) .

أما مثذنته - المعروفة بالملوية - فكانت تقوم على قاعدة مربعة ضلعها (٣٣ متراً) ، ويبلغ ارتفاعها فى الجو (٥٠ متراً) فوق القاعدة المربعة .. أى : أن ارتفاعها يعدل ارتفاع بيت حديث من عشرين دوراً ، على وجه التقريب .

جامع أحمد بن طولون :

يقع هذا المسجد الهائل المساحة شرق حى السيدة زينب جنوب القاهرة ، فى موقع مدينة القطائع التى أنشأها أحمد بن طولون لتكون معسكراً لجندة ومقرّاً لحكومته .

شرع ابن طولون فى بناء هذا المسجد سنة (٢٦٥هـ / ٨٧٩ م) ، وكان تخطيطه - ولا يزال - تخطيط حصن ، كما هو الحال مع مسجد سامرا الجامع ، وقد تأثر ابن طولون فى عمارة جامعہ بعمارة مسجد سامرا ، فكلاهما مسجد حصن ، ولكل منهما مثدنة ملوية .

وقد نالت أعمال التجديد والبناء فى جامع ابن طولون ، ولكنه لا يزال محتفظاً - إلى اليوم - بهيئته الأصلية ، سواء فى هيكله العام أو تفاصيله المعمارية ؛ ومن حسن الحظ أن المسجد قائم على تل مرتفع ، فلا يوصل إليه إلا بواسطة سلّم ، وإلى هذا يرجع الفضل فى احتفاظ الجامع بهيئته ، فقد حال دون الناس واستعماله الاستعمال العنيف الذى أضرّ بجامع الفسطاط .

والمسجد مربع ، مقياسه [١٦٢,٥ × ١٦١,٥ متراً] ، أى : أن مساحته (٢٦٢٤٣) متراً مربعاً تقريباً ، فهو - على هذا - من أضخم المساجد القائمة فى عالم الإسلام ؛ وفى وسطه صحن مكشوف تريعه (٩٢,٥٠ × ٩١,٨٠ متراً) .

وجوف بيت الصلاة يتكون من خمسة أساكيب تقوم على عقود مدببة من الحجر والأجر ، ترتكز على دعائم ضخمة من الأجر ، وعدد أروقته - أى : بلاطاته - الشارعة من الصحن إلى جدار القبلة (١٧) ، كلها على نفس النسق مما يعطى بيت صلاة المسجد جمالاً فريداً .

وقد أقيمت فى أركان الدعائم أعمدة زخرفية محلاة بالزخارف ، وغُطيت العقود بزخارف جصية متنوعة ، ويدور بجدران بيت الصلاة إزار خشبى ، نُقشت عليه بالخط الكوفى البارز سورتا البقرة وآل عمران .

والجدران الداخلية للمسجد محلاة بشبابيك ذات عقود مدببة عددها (١٢٩) مغطاة بالحصّ المزين بالنقوش من كل نوع .

والمسجد متعدد المحارب ، كما هو الحال فى الكثير من المساجد مثل الجامع الأموى والجامع الأزهر وبعض المساجد المملوكية ، وعدد محارب جامع ابن طولون خمسة ، أكبرها وأهمها الأوسط ، وهو محراب مجوّف عمّل أيام السلطان المملوكى سيف الدين

لاجين، وهو مزخرف بالفسيفساء الزجاجية المذهبة والملونة وقد نُقشت بينها الشهاداتتان .
وطاقيّة المحراب - أى : أعلاه - مصنوعة من الخشب المزين بالزخارف الملونة؛ أما بقية
المحاريب فمسطحة .

وصحن المسجد الفسيح يملأ النفس إجلالاً ، فهو شاسع رفيع الجدران تطل عليه
البوائك من كل ناحية ، إذ يحيط به بيت الصلاة ، ومجنتان - يُسرى ويُمنى - كل منهما
من رواقين ، ومجنته الخلفية من رواقين أيضاً ، وتتوسط الصحن قبة كبيرة تشوب
بوضعها جمال الصحن الفسيح ، وقد أنشئت هذه القبة مرة بعد مرة ، والقبة الحالية -
التي تقوم على بناء مربع - أنشأها السلطان سيف الدين لاجين سنة (٦٩٦ هـ /
١٢٩٧ م) .

أما مئذنة الجامع فهي الثانية من طرازها فى العالم فهي ذات مصعد خارجى بدور
حول بدنها حتى أعلاها ، وهى توأمة مئذنة مسجد سامرا الجامع ، وتقوم غرب الجامع
مستقلة عنه ، ويدور بها المصعد الحلزونى الذى ذكرناه ، وهى تتكون من أربع طبقات :
الأولى مربعة ، والثانية مثمّنة ، والثالثة مثمّنة ، والرابعة على نفس الهيئة تعلوها قبة
صغيرة .

وأهم ما يميز هذا المسجد هيئته المربعة وتمائل أجزائه ، فإن الناظر إلى جدرانه
تستوقف نظره صفوف الشبابيك المتراسة تعلوها الشرفات الجميلة التى تكون إفريزاً
جميلاً للسقف الكبير .

الجامع الأزهر :

شرع جَوهر الصَّقْلَى - قائد الخليفة الفاطمى الرابع المعزّ لدين الله - فى إنشاء الجامع
الأزهر فى (٢٤ جمادى الأولى ٣٥٩ هـ / ٤ أبريل ٩٧٠ م) ، وتم تشييده وبدأت
الصلاة فيه ظهر يوم من أيام (رمضان ٣٦١ هـ / يونيو - يوليو ٩٧٢ م) .

وكان حجمه إذ ذاك نصف حجمه اليوم ..

ومنذ تلك الصلاة أصبح هذا المسجد جزءاً من تاريخ مصر ، وموطناً مصرياً سائر
ذلك التاريخ يوماً بيوم ، بحيث نستطيع أن نؤرّخ لمصر بتتبع تاريخ الأزهر ، فنَدْر أن وقع

فى مصر حادث له شأن إلا كانت فى الأزهر بدايته أو منتهاه ، وإذا أنت دخلت الجامع اليوم من بابيه الكبيرين المتجاورين - المعروفين ببابى المزينين - فى ميدان الأزهر ، وطُفَّت بأرجاء الجامع حتى تخرج من باب الجوهريّة - فى الضلع الشمالى للجامع - الذى يفتح على شارع الشنوانى خلف المسجد ، فإنك تكون قد مررت بألف سنة من تاريخ مصر .

وأول ما يستوقف نظرك عدد الخلفاء والسلاطين والأمراء ومشايخ الأزهر الذين حرصوا على ترميمه وإصلاحه والإضافة إليه ، فهم عشرات يحتاج إحصاؤهم وإحصاء ما عملوه إلى مجلد كامل ، لأن هذا الجامع سجل حافل لتاريخ مصر السياسى والعلمى ؛ فكما تقرأ فى تاريخه أسماء المعز لدين الله الفاطمى ، والعزىز والحاكم الفاطميين ، وصلاح الدين الأيوبي ، والظاهر بيبرس ، وسيف الدين لاجين ، وبرقوق ، وغيرهم من سلاطين المماليك ، ومحمد على ، وعباس حلمى ، ومن إليهما من الحكام الذين تعاقبوا على حكم مصر خلال القرون العشرة الماضية ، فأنت تمر فى تاريخه بأسماء نفر كثير من أقطاب التاريخ الفكرى لمصر والعالم الإسلامى خلال تلك القرون .

وأول الأساندة الذين تولّوا التدريس فى الأزهر هو القاضى أبو الحسن بن النعمان ابن محمد (المتوفى سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م) وهو ابن داعى الدعاة الفقيه الإسماعيلى المتضلّع النعمان بن محمد (المتوفى سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م) ، وكان أبو الحسن فقيهاً إسماعيلياً وأديباً كآبيه ، وكذلك كان أخوه القاضى محمد بن النعمان بن محمد (المتوفى سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م) .

ومن أعلام من درسوا فى الأزهر فى العصر الفاطمى الأمير المختار عزّ الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد الحرانى ، المعروف بالمسبحى المؤرخ (٣٦٦ - ٤٢٠ هـ / ٩٧٦ - ١٠٢٩ م) ، وأبو عبد الله القُضَاعى المؤرخ المعروف وهو أول من كتب فى خطط مصر ، وعنه أخذ تقى الدين المقرئى ، والحسن بن زولاق المؤرخ الذى احتفظ لنا على بن سعيد بكتابه عن الدولة الإخشيدية ، وأبو القاسم الرعينى الشاطبى عالم القراءات المشهور ؛ ودرس فى الأزهر من علماء الرياضيات فى ذلك العصر الحسن بن الخطير الفارسى .

وعندما قامت دولة صلاح الدين أوقف التدريس فى الأزهر ، لأن ذلك التدريس كان مرتبطاً بالمذهب الإسماعيلى الذى أبطله صلاح الدين ، عندما أعاد السُّنَّة إلى

مكائنها التقليدية في مصر ، واتجهت همته إلى إنشاء المدارس لتقوم بتدريس الفقه السنّي ، وبقي الأزهر خاملاً من الناحية العلمية حتى نهاية الدولة الأيوبية .

واستعاد الأزهر مكانته العلمية في العصر المملوكي ، وتحول إلى جامعة حقيقية : يضم الأساتذة والمدرسين والمعيدين والطلاب ، ويجري فيه العمل العلمي على نظام علمي كامل ، ترعاه وتنفق عليه الدولة حسب نظام مقرر مرسوم ، واتسع الجامع - تبعاً لذلك - فقامت فيه الأروقة والزيادات المختلفة حتى وصل إلى حجمه الحالي ، وهو يكاد أن يكون مدينة قائمة بذاتها ، فقد ضُمَّت مُلحقَات الجامع التعليمية ما يشبه المدينة الجامعية الكاملة ، فهي مكوّنة من مبانٍ كل منها يُسمّى رواقات ، وقد يضم مبنى الرواق الطلبة الوافدين من نواحٍ مختلفة من مصر أو من العالم الإسلامي ، مثل : رواق الأكراد ، ورواق الهنود ، ورواق البغداديين ، والبرنية (القادمين من البرنو في تشاد الحالية) واليمنية ، والجبرّوتية (جبرّت : ناحية من نواحي الحبشة) ، والسّنّارية (نسبة إلى سنّار في السودان) ، والجاوية ، والشوام ، والصعايدة ، والشراقة (نسبة إلى محافظة الشرقية في مصر) ، والفيومية ، والبحاروة ، والشفوانية ... وما إلى ذلك .

ولم يكن الطلاب ينامون في هذه الأروقة المنسوبة إليهم ، بل كان الرواق أشبه بسكرتارية ومكتبة لهم وخزائن لكتبهم الخاصة ؛ ولهذا نجد أيضاً رواقاً خاصاً بالحنابلة وآخر للحنفية ، والمراد : الطلاب الذين يدرسون فقه هذين المذهبين .

وأشهر هذه الأروقة: الرواق العباسي ، وهو حديث بنى في عهد خديو مصر عباس حلمي الذي تولى الخديوية حتى سنة (١٩١٤م) ، وقد افتتح في (شوال ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م) وكان شبيهاً بإدارة عامة للأزهر فكان يضم مقرّاً لمجلس إدارة الأزهر ومشيعته ومكتبته وطبيبه ومحفوظاته ، وكانت فيه أيضاً بعض أروقة للطلاب . ومبنى الرواق العباسي قطعة من العمارة والفن الإسلاميين في أواخر العصر التركي .

أما الطلاب الغرباء فكانوا يسكنون في حارات حول الأزهر خُصّصت لهم وعددها ثلاث عشرة ، مثل : حارة العفيفي والزرافة والبشاشة والسليمانية والجيزاوية والزهار والمناصرة ، وما إليها .

وقد كان عدد عظيم ممن قاموا بالنهضة الفكرية في مصر والعالم العربي من طلاب

الأزهر ، وهم كثيرون جداً ؛ ولهذا فسكتفى بالإشارة إلى نفر منهم مثل : عبد الرحمن الجبرتي ، ورفاعة رافع الطهطاوى ، وعلى مبارك ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، ورشيد رضا ، وعبد الله النديم ، وطه حسين ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وأحمد حسن الزيات ، وعلى عبد الرازق ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمد مصطفى المراعى .

وفى سنة (١٩٦١م) دخل الأزهر فى طور جديد من تاريخه ، إذ صدر القانون الذى حوَّله إلى جامعة حديثة تحتفظ فى نفس الوقت بالدراسات التقليدية للأزهر ، وهى دراسات الإسلام واللغة العربية ؛ وأنشئت له الكليات الحديثة وتضاعف عدد طلابه ، حتى أصبح مؤسسة دينية علمية فريدة فى بابها من كل وجه .

ولا يضارع الأزهر معهد آخر فى الدنيا ، فى الخدمات العلمية التى قام بها منذ إنشائه قبل نصف وألف سنة إلى اليوم ، فقد كانت وفود الطلبة تُقبل عليه من أركان الدنيا كلها ، فيجاءون فى الأزهر ثم يعودون إلى بلادهم شيوخاً يقومون بدورهم بإنشاء المعاهد الدينية الإسلامية فى بلادهم ، وحيثما نزلت فى العالم الإسلامى وجدت الأزهريين ، من أقصى الفلبين إلى المحيط الأطلسى وقلب إفريقيا .

وإلى الأزهر يعود جانب كبير من الفضل فيما تمتعت به مصر - على مر العصور - كمركز من مراكز العلم والعرفان فى الدنيا .

وقد كان المبنى الأول للأزهر - كما أنشأه جوهر - يتكون من مسجد لا يزيد حجمه على نصف الجامع الحالى وملحقاته ، وكان يتكون من الصحن الحالى المكشوف الذى تحف به العقود المدببة ، وبيت الصلاة الذى يقع إلى شماله ، وكانت له مجنبتان : يمنى ويسرى ، لكل منهما ثلاثة أروقة ، ثم توالى الإضافات بعد ذلك ، حتى أصبح الجامع القديم محصوراً فى قلب الجامع الحالى .

والإضافات مجموعة من الأبنية ، ما بين أروقة جديدة ومدارس ومحارِب ومآذن وميضآت ؛ وقد فقد الجامع - نتيجة لهذه الزيادات والتعديلات - هيئته الأصلية ووحدته الفنية ؛ ولهذا فالجامع الأزهر - اليوم - شبيه بمعرض واسع للفن الإسلامى فى مصر ، من بداية العصر الفاطمى إلى اليوم .

وقد أورد الأستاذ حسن عبد الوهاب فى كتابه عن « المساجد المصرية » وصفاً شاملاً

لكل جزء من أجزاء الجامع مع تاريخ معمارى كامل للمسجد ، وأوردت الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها « مساجد مصر وأولياؤها الصالحون » (جـ ١ ص ١٩٤ - ٢٢٦) وصفاً آخر دقيقاً للناحية المعمارية من المسجد .

وإذا دخل الإنسان من باب المزينين - وهو الباب الرئيسى للجامع ، ويقع فى ميدان الأزهر - سار فى ممر طويل ، فعلى يمينه مبنى المدرسة الأقبغاوية ، التى بناها الأمير المملوكى علاء الدين أقبغا عبد الواحد سنة (٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م) فى جزء من ساحة الأزهر وجعلها ملحقة به .

وهذا الأمير كان من أكبر من اهتموا بعمارة الأزهر ، فقد أنشأ لمدرسته تلك بيت صلاة وقبة ومنارة ، ويقول المقريزى إن هذه المدرسة من أشد المدارس ظلاماً فى داخلها لأن الأمير الذى بناها فعل ذلك بأموال اغتصبت من الناس وسخر العمال فى بنائها ؛ وكان أقبغا هذا مقدّم المماليك فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ؛ وقد استعملت هذه المدرسة - إلى حين قريب - مكتبة للأزهر .

وعلى يسار الممر يقوم مبنى المدرسة الطيرسية القديمة ، نسبة إلى الأمير علاء الدين طيرس الخازندار نقيب الجيوش بمصر فى دولة الناصر محمد بن قلاوون ، وقد بنيت قبل المدرسة الأقبغاوية فى سنة (٧١٩ هـ / ١٣١٩ م) ، وكان طيرس على خلاف أقبغا أميراً صالحاً ، وقد بنى هذه المدرسة وجعلها مسجداً فى الوقت نفسه ، وتأنق فى بنائها وأنفق مالاً جزيلاً فى إتقانها وزخرفتها ، وكان مبنى هذه المدرسة من الداخل قطعة من الفن الإسلامى فى أحسن صوره ، ولكنها اتخذت فى سنة (١٣١٤ هـ / ١٨٩٦ م) ملحقةً لمكتبة الأزهر ؛ فضاع الكثير من الأعمال الفنية فيها .

فإذا فرغ الزائر من ذلك الممر بين المدرستين أفضى إلى صحن الجامع ، وهو صحن فسيح تحيط به البوائك من كل جهاته ، وهذا الصحن قبل الجامع القديم ، يليه بيت الصلاة الذى ينتهى بجدار القبلة القديم ، تليه بعد ذلك زيادة عبد الرحمن كتخدا - وكان من كبار أمراء المماليك فى مصر العثمانية - ولا شك فى أنه أكبر من اهتم بمبنى الجامع الأزهر على طول العصور الماضية ، فقد قام هذا الرجل فى سنة (١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م) بترميم مبانى الأزهر ، وأضاف إليه زيادة كبيرة شمال بيت الصلاة الأسمى ؛ وتبلغ هذه

الزيادة أكثر من نصف حجم الجامع الأصلي ، وهى بيت صلاة كامل بقبلته ومحرابه ، يقوم على خمسين عموداً ، يقوم عليها خمسون عقداً من نفس طراز عقود الأزهر الأصلية ، وأنشأ فى جدار القبلة الحديد محراباً بديعاً ، ورفع قبة جميلة فوق بلاطة المحراب ، وصنع لهذه الزيادة منبراً بديع الصنع ؛ وإلى جوار المحراب يقوم محراب أصغر منه يسمى بمحراب الدردير ، ثم محراب آخر حديث الصنع ؛ وبهذه الزيادة أصبح بيت صلاة الأزهر من أكبر بيوت الصلاة فى مساجد مصر .

وأنشأ - فيما يلى هذه الزيادة إلى الشمال - مبنى واسعاً له باب كبير يؤدى إلى حارة كثانة ، وهذا الباب هو المشهور اليوم باسم باب الصعايدة ، وهو باب فخم جميل أنشأ عبد الرحمن كتخدا بأعلاه غرفة تقوم على أعمدة رخامية خصصها لتحفيظ الصبيان القرآن ، وداخل الرحبة أقام كتخدا ضريحه وصهرجياً وسييل ماء ، وفوق ضريحه تقوم قبة صغيرة ؛ وأنشأ إلى جانب باب الصعايدة المئذنة المنسوبة إليه ؛ وإليه يرجع الفضل فى إنشاء الباب الرئيسى للأزهر ، وهو المعروف الآن بباب المزينين .

وللأزهر اليوم خمس مآذن مختلفة الطرز ، لأنها بنيت فى عصور متفاوتة ، منها اثنتان من إنشاء عبد الرحمن كتخدا ، وواحدة تُنسب إلى السلطان قايتباى ، وواحدة تُنسب إلى السلطان الغورى ؛ ومئذنة قايتباى ذات جوسقين وعمامتين ، وهى أكبر مآذن الأزهر .

وكان للجامع ثلاثة عشر محراباً ، بقى منها ستة ، أقدمها محراب إيوان القبلة القديمة عند جدار المسجد الأول ؛ وهذه المحاريب تتفاوت فى الجمال وإتقان الصنعة ، ولكن ليس فيها واحد يضارع محاريب مسجد المؤيد مثلاً .

وللأزهر ثلاث قباب ، أجملها وأكبرها تلك التى تقوم فوق المدرسة الجوهريّة الملحقّة بالأزهر ، وتقوم على رقبة ذات شماسات ثم عقود مديبة مزينة من الخارج بنقوش عربية غاية فى الجمال .

إلى هنا نقف بالحديث عن الأزهر وإخوته من المساجد الألفية العتيقة ؛ وكلامنا عنها إنّ هو إلا إشارات مختصرة لا تفى بحقها ولا تناسب مكانها فى التاريخ الحضارى لعالم الإسلام .



الفصل العاشر

الطرز المعمارية المساجدية الكبرى



ألمنا - فى الفصل الذى أوردناه عن تطور العمارة المساجدية الإسلامية وطرزها المختلفة - بآراء مؤرخى العمارة فى موضوع تطور فن إنشاء المساجد عند المسلمين ، وما ظهر فى بلادهم من طرز يختلف بعضها عن بعض ، وانتهينا إلى أن قصة العمارة الإسلامية لا تكون تاريخاً متصل الحلقات والعصور ، يسود فى كل منها طراز بعينه ينتشر فى عالم الإسلام كله ، كما تعاقبت على تاريخ العمارة الكنائسية فى الغرب الطرز المعروفة بالرومانى والقوطى وطرز النهضة (الرينسانس) والباروك الذى يُعرف أحياناً بالركوكو : وهو الطراز المركب الذى كان المعماري يجتهد فيه فينوع الأشكال المعمارية فى البناء الواحد ، ويشغل المبنى فى كل زاوية وركن أو قطعة من الجدار بالزخارف البارزة والمحفورة والتماثيل الصغيرة المتداخلة التى تمثل أشكالاً مصطنعة وسطحية ، كأشكال أطفال صغار (يُراد بهم الملائكة) فى كل هيئة وصورة .

فى عمارتنا الإسلامية لا نعرف هذا التطور المترابط الحلقات فى الطرز المعمارية ، وقد بينّا - فى إيجاز - أسباب ذلك ، وقلنا إن الفن المعماري الإسلامى قام - فيما يتعلق بالمساجد - على الهيكل الرئيسى لمسجد الرسول ﷺ فى المدينة المنورة ، وانتفع بعد ذلك بما تيسر له من عناصر فنية فى البلاد التى دخلت فى دولة الإسلام والبلاد المتصلة بها ، وتطور فن إنشاء المساجد فى كل إقليم فى اتجاه محلى ذى طابع إقليمى ، ومن هنا فإن الطرز المعمارية التى ابتكرتها شعوب الإسلام فى بناء المساجد طرز إقليمية ، يسود كل منها فى ناحية بعينها ويتطور داخل حدودها .

وقد اقتبست هذه الطرز بعضها من بعض ، ولكنها عرفت دائماً كيف تحوّر العناصر المقتبسة وتضمّن طرازها الخاص فى نطاق الهيئة العامة للمساجد وعناصرها الأساسية وغير الأساسية . وهذا كله أوجد بين الطرز المختلفة قدراً معيناً من التشابه ، وجعل للمساجد - أياً كان نوعها - هيئة خاصة متميزة تُعرف بها فى كل مكان .

وقد ذكرنا أهم هذه الطرز فيما سبق من فصول هذا الكتاب ، أثناء كلامنا عن تاريخ العمارة المساجدية الإسلامية بصورة عامة ، وأوجزنا أهم خصائص كل منها .. ونودّ

الآن أن نعرض كلاً منها ، ونبين خصائصه فى شىء من التفصيل ، ونعرض أهم نماذجه أو ما يتيسر لنا عرضه منها ، ونتخير من الصور ما يبين هذه الخصائص ويوضح ما نجمله من الكلام عن غرر المساجد من كل طراز .

الطرز التى سنعرض لها فى هذا الفصل هى :

١ - الطراز المغربى .

٢ - الطراز الأندلسى .

٣ - الطراز المصرى .

٤ - الطراز التركى السلجوقى .

٥ - الطراز الهندى .

٦ - الطراز الإيرانى الصفوى .

٧ - الطراز التركى العثمانى (فى ثنايا الكلام عن مساجد الجزائر) .

وأرجو ملاحظة ما يلى :

أولاً : أتى رتب الطرز بحسب قدمها التاريخى ، وهذا التاريخ يبدأ - فى العادة - بإنشاء أول مسجد من كل من هذه الطرز ، فالطراز المغربى - فى رأى - أقدمها لأنه نشأ عند بناء جامع عقبة فى القيروان ، الذى بنى أول الأمر فيما بين سنتى (٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م) ، وتجديداته إلى نهاية عصر الولاة فى أواخر القرن الهجرى الثانى / الثامن الميلادى .

وقد يوجد من يقول : ولكن جامع عمرو بن العاص أقدم ، وجوابنا أنه - بالفعل - أقدم ، ولكنه لا يعد ميلاداً للطراز المصرى ، والرأى السائد هو أن ميلاد العمارة المساجدية المصرية ولدت مع بناء جامع أحمد بن طولون فى منتصف القرن الهجرى الثالث / التاسع الميلادى . أما جامع عقبة فيحدد ميلاد الطراز المغربى الذى اتصل بعد ذلك فى نفس الخط والاتجاه .

وعلى أساس القدم - والسابقة أيضاً - جعلت الطراز الأندلسى تالياً للمغربى ، لأنه

ولد عند بناء القسم الأول من مسجد قرطبة الجامع على يد عبد الرحمن الداخل سنة (١٧٠هـ) .

وقد استمر تطور العمارة الأندلسية فى نفس الاتجاه بعد ذلك .

ثانياً : وفى الكلام عن أى من هذه الطرز تابعت تطوره بعد ذلك حتى يصل إلى نضجه فى صوره المتعددة ؛ وقد ينشأ عن الطراز المحلى طراز آخر فى نفس الناحية أيضاً ، ولكنه يختلف عنه اختلافاً واضحاً بحيث يمكن اعتباره طرازاً جديداً ، كما ظهر الطراز المستعربى ثم المدجنى فى الأندلس بعد طراز الخلافة ، وكما ظهر فى مصر الطراز المملوكى بعد الفاطمى ، وكما ظهر فى إيران الطراز الصفوى بعد المغولى .

ولكنى رأيت - فى كل حالة - أن أضع الطراز وما تطور عنه فى باب واحد ، وأن أستمّر فى الكلام على طراز الناحية وتطوراته حتى أنتهى منها .

وقد خالفت هذه القاعدة مرة واحدة وذلك فى الكلام عن الطراز التركى ، فقد رأيت أن الطراز التركى السلجوقى قد اتجه فى مسار تطوره إلى شمال إيران وبلاد التركستان ، وهذه نواح شاسعة سارت العمارة الإسلامية فيها كلها على خطوط الطراز السلجوقى ، وهى تبعد بعداً شاسعاً عن الطراز التركى العثمانى فاقضى ذلك الفصل بينهما .

ثالثاً : يلاحظ أن محاولتى هذه ربما كانت الأولى من نوعها ، فقد سبق أن حاول الكثيرون وضع العمارة الإسلامية كلها فى تقسيمات شتى أشرنا إليها ، ولكن أحداً لم يحاول أن يجمع ذلك كله فى صعيد واحد ويحاول أن يضع إطاراً واحداً يجمع المتفرق ويربط بين المتباعد فى نسق واحد واضح الخطوط .

وقد تصدّيتُ لهذه المحاولة بعد جمع طويل ، وقراءة متسعة ، ونظر صبور فى العمارة بصورة عامة : إسلامية وغير إسلامية ، ولهذا فإننى أتوقع أن يكون هناك على هذا التقسيم اعتراض ونقد .

والاعتراض مقبول ، والنقد هو ما نرجوه ، وفى الميدان - دون شك - من هو أعلم منى بالموضوع وأكثر تخصصاً وإحاطة ، والكلمة لهم آخر الأمر ، وما عملى هذا إلا

وساطة بينهم وبين جمهور متطلع ، من حقه أن يجد بين يديه كتاباً جامعاً عن العمارة المساجدية ، يعرض خصائصها وتاريخها وتطورها في صعيد واحد ، بأسلوب هو وسط بين ما يتطلبه القارئ المثقف وما يتمسك به المتخصص .

وكلامى فى هذا الموضوع إنما هو كلام متخصص فى حضارة الأمم الإسلامية - والعمارة ناحية من نواحي هذه الحضارة - فأنا أنظر إليها نظراً عاماً ، وأفهمها على ضوء فهمى لهيكل الحضارة الإسلامية كلها ؛ والفرق شاسع - طبعاً - بين هذه النظرة ونظرة المتخصص العالم بالدقائق ، والمُعاني للأصول ، المحقق للفروع .

أقول هذا على سبيل الاعتذار لهذا المتخصص والاعتراف بفضله ، فمن علمه نهلت ومن فضله أخذت .

* * *

١. الطراز المغربي

ذكرنا فيما سبق بعض الخصائص المميزة لهذا الطراز وأهمها :

١ - التركيز على بيت الصلاة والاهتمام بتعميق جوفه حتى يصبح مربعاً أو قريباً من المربع .

٢ - الاهتمام بالرواق الأوسط المؤدى إلى المحراب وجعله أوسع وأعلى سقفاً من الأروقة الأخرى ، ومن مظاهر الاهتمام بذلك الرواق الأوسط التأنيق في مدخله من ناحية الصحن ، فيبدو هذا المدخل وكأنه مدخل رئيسي للجامع .

٣ - الاكتفاء في المجنّبات برواقين أو ثلاثة ، فيتسع نتيجة لذلك الصحن ويزداد رونقه بهاء ، لأن بوائك بيت الصلاة والمجنّبات تطل عليه في تسلسل متشابه يزيد الشعور بالسعة والعمق .

٤ - الاكتفاء بقبة صغيرة أو قبتين ، وتكون القباب دائماً فوق الرواق الأوسط .

٥ - جدار القبلة يغطى إلى ارتفاع نحو مترين بمربعات الخزف الملون المعروف بالزليج ، وتترك بقية الحائط بياضاً قد تزيّن بزخارف جصّية ؛ أما المحراب فيكون مجوفاً بسيطاً ، وهو في الغالب من الرخام ، ويحيطونه بإطار زخرفى خشبى أو من الزليج يصل إلى السقف أحياناً فى هيئة بديعة .

٦ - السقوف خشبية مزخرفة تلتحم بالجدران بإطارات وأفاريز خشبية منقوشة ، ويرتفع فوق المبانى سقف محدّب ، يُغطّى من الخارج بالقرميد الأحمر أو الأخضر ، وذلك بسبب كثرة الأمطار فى المغرب والأندلس معاً .

٧ - جدران المسجد الخارجية كلها ضخمة تشبه الأسوار ، وفى بعض الأحيان تقوم على أركان الجدران الخارجية أبراج حقيقية تستعمل للأذان أحياناً .

٨ - المثانة تسمى الصومعة أو المنارة ، وهى فى هيئة برج يتألف من بدن مربع مرتفع سميك الجدران ، وينتهى البدن بشرفة للأذان يطلع من وسطها بدن آخر أصغر من الأول تختم به المثانة ، فيقيمون عليه قبة صغيرة ، وقد ينشئون فوق البدن الثانى بدنًا ثالثاً أصغر

منه ، وتبنى الصومعة فى الغالب فى الجدار المقابل لجدار القبلة أو خارجه ، ويكون لها مدخل خاص من خارج المسجد إلى جانب بابها من الصحن ، وقد تبنى من الآجر أو الحجر وقد تُحصص من الخارج أو تغطى بالقاشانى ، وتفتح النوافذ الصغيرة فى الجدران لتضىء السُّلم الداخلى ، وتكون هذه النوافذ على هيئة زخرفية جميلة تكسر فراغ الجدران .

٩ - تمتاز مساجد الطراز المغربى بمنابرها البديعة التى تعد أعمالاً فنية رائعة من الحفر والزخرفة على الخشب .

١٠ - بوابات المساجد تكون - فى العادة - ذات فخامة تستلفت النظر ، فهى تقوم على عقود حذوة الفرس بفصوص أو بغير فصوص ؛ وعقد المدخل يتركز على كتف حجرى منخفض وقد يزين الكتف بأعمدة رخامية ، وتُظَلُّ المدخل - أحياناً - شمساة خشبية مثقلة بالزينة .

١١ - عقود هذه المساجد مدببة أو حذوة حصان ، وهى تقوم إما على دعائم من الحجر أو الآجر ، أو على أعمدة قصيرة من الرخام .

١٢ - تحظى مساجد المغرب جميعاً بعناية بالغة ، فهى دائماً فى غاية النظافة والرواء ، وتُفرش أرضيتها بالسجاد المغربى المسمى بالزرابى .

١٣ - وكل مساجد المغرب - سواء أكانت كبيرة أم صغيرة - تستعمل مدارس ، وهى تتراوح بين مكاتب تحفيظ القرآن والجامعات .

١٤ - تشابه تلك المساجد - فى المغرب كله - تشابهاً لا نجد فى أى طراز معمارى إسلامى آخر ، فسواء أكان المسجد قديماً أم حديثاً ، وسواء أكان فى القيروان أو فى أغادير ، فإن الهيئة العامة واحدة ، بحيث لا يمكن أن يخطئ الإنسان فى التعرف على مساجد هذا الطراز .

والسبب الرئيسى فى احتفاظ الطراز المغربى بشخصيته وتطوره داخل نطاق الخصائص المميزة لكل جزء من أجزاء المبنى ، هو أن المغرب لم يتعرض - منذ دخول الإسلام - لأى تيار ثقافى خارجى ، إلى مطالع العصر الحديث ، فبينما تعرضت بلاد الشرق الإسلامى للتيارات البيزنطية والتركية والمغولية والصليبية فكان لذلك أثره فى

تغير أشكال طرزه المعمارية ، ظل الغرب الإسلامى - من حدود إفريقية (تونس) على الأقل إلى المحيط الأطلسى - بعيداً عن هذه التيارات مما أتاح للمعماريين وأهل الفن فيه الفرصة للتطور بفنونهم ، على نفس الأصول وفى نفس الخطوط ، مما أضفى على الفنون المغربية أصالة فريدة فى بابها .

ولم يتعرض المغرب لتأثير خارجى إلا من ناحية الأندلس ، فكانت العمارة الأندلسية دائماً ذات أثر بعيد فى عمائر المغرب ، خاصة بعد قيام الدول المغربية الكبرى - دول المرابطين والموحدين وبنى مرين - وامتداد سلطاتها على الأندلس ، فأصبح المغرب وما بقى من الأندلس بلداً واحداً : سياسياً وحضارياً ، فتبادل الجانبان التأثيرات ، وفى العمارة يمكن أن نقول إنه أصبح لهما طراز معمارى واحد ، هو الذى يسمى بالإسباني المغربى Hispano - Mauresque ونماذجه الكبرى : مسجد الكتبية فى مراكش ، ومسجد حسان فى الرباط ، ومسجد إشبيلية الجامع الذى بناه أبو يعقوب يوسف ثانى خلفاء الموحدين ، وهو الذى ما زالت مثذنته باقية إلى اليوم معروفة باسم : برج الدوارة (الخير الدا) إلى جانب كاتدرائية إشبيلية التى تقوم مكان ذلك الجامع .

ولا يزال الطراز المغربى محافظاً على خصائصه ، وعلى أساسه أنشأ - فى أيامنا هذه - الملك الحسن الثانى المسجد الذى بناه تكريماً لذكرى والده الملك المجاهد وبطل الاستقلال المغربى محمد الخامس .

وقد امتدت تأثيرات الطراز المغربى إلى ما يجاور المغرب من البلاد ، فنجدته فى موريتانيا وفى السنغال ، بل نجده فى بعض مساجد الإسكندرية والقاهرة .

وقد تحدثنا فى باب « المساجد الألفية العتيقة » عن مسجد عقبة فى القيروان الذى يعين ميلاد الطراز المغربى فى إفريقية (وهى تونس الحالية على وجه التقريب) ، وعن مسجد القرويين فى فاس الذى يعين المرحلة الحاسمة فى تطور هذا الطراز فى المغرب الأقصى ، وأشرنا فى أثناء ذلك إلى مساجد أخرى عتيقة فى هذين القطرين ، وبيناً فى كلامنا كيف تطورت خصائص الطراز المغربى حتى أخذ طابعه الثابت على مدى السنين .

وبقى الآن أن نتحدث عن بعض أمهات المساجد الأثرية في المغرب كله ، وطرزها وأشكالها الكثيرة ، ولن نستطيع - بطبيعة الحال - أن نتحدث إلا عن عدد قليل محدود منها ، ولهذا فسنختار بعضها فحسب ، على أساس أنها تمثل أشكالاً مختلفة من هذا الطراز في بعض نواحي المغرب :

الجامع المرابطي في تلمسان :

يعتبر هذا الجامع من أجمل الآثار التي بقيت لنا إلى اليوم من عصر المرابطين ، الذي بدأ في المغرب من سنة (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) وهي السنة التي خرج فيها قائدهم الأول عبد الله بن ياسين يقود رجاله من الصحراء جنوب المغرب الأقصى إلى وادي درعة وفتحوا سجلماسة عاصمة إقليم تافللت ، وتلك كانت فاتحة تاريخهم السياسي في المغرب الأقصى ، وامتد تاريخهم حتى (المحرم سنة ٥٤١ هـ / يونيو ١١٤٣ م) ، وهو التاريخ الذي استولى فيه الموحدون على مدينة مراكش ، وقتلوا إسحاق بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين آخر أمراء المرابطين ، وكان - بعد - صبيّاً .

أما تاريخهم في الأندلس فيبدأ في (ربيع الآخر سنة ٤٧٦ هـ / أغسطس ١٠٨٣ م) ، وهو تاريخ استيلاء المرابطين على سبتة ليعبروا منها إلى الأندلس في نفس العام ، ويستمر بعد ذلك في تلك البلاد حتى العقد الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .

وقد شرع في بناء جامع تلمسان « يوسف بن تاشفين » عقب استيلائه عليها سنة (٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) ثم تناوله علي بن يوسف بن تاشفين بالزيادة والزخرفة ابتداء من سنة (٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م) ، ثم أعاد ترميمه وإصلاحه يغمراسن بن زيان من أمراء بني عبد الواد وهو الذي أعطاه صورته الحالية .

والفضل فيما يمتاز به الجامع من الفخامة والجمال الفني يرجع إلى علي بن يوسف ؛ وبيت صلاة الجامع مستطيل يتألف من (١٣) بلاطة - أي : رواقاً عمودياً على جدار القبلة - و (٦) أساكيب - أي : أروقة موازية لجدار القبلة - وتقوم عقود الجامع على دعائم حجرية سمكة تحمل عقوداً على هيئة حذوة الفرس وحافاتهما على هيئة فصوص ؛

وبعض عقود الجامع منفوخة تتسع جوانبها ، وسقف بيت الصلاة من الخشب المزخرف وهو مغطى بسقف محدب من القرميد .

المسجد بقبتين صغيرتين ؛ واحدة منهما فوق بلاطة المحراب ، وهى شبيهة فى الهيئة بقبة مسجد قرطبة الجامع ، والثانية تقوم فوق البلاطة السابقة عليها على نفس الرواق ؛ وتقوم القبتان على مناوئ ذوات نوافذ صغيرة ، وكلها مزينة بالزخارف الجميلة .

جامع تينملل :

محراب جميل فى قرية جبلية أطلعت حركة سياسية ودينية كبرى ..

تينملل - أو تينمال - قرية صغيرة فى قلب جبال الأطلس الخلفية فى السوس الأدنى فى جنوب المملكة المغربية ، لا يصل إليها الزائر إلا عن طريق جبلى وعرٍ خطر ؛ ولهذا السبب اختارها محمد بن تومرت مهدى الموحدين مركزاً لجماعة الموحدين الدينية التى أنشأها ، وقد لجأ ابن تومرت إلى هذا الموضع بعد أن طاف بنواحي المغرب داعياً للتوحيد المطلق ، وإلى العودة إلى صفاء الإسلام الأول ونجح فى كسب طائفة من الأنصار ؛ وقد استقرت جماعته حيناً فى منازل قبيلته هرغة ، ثم انتقل إلى قرية تينملل سنة (٥١٥ هـ / ١١٢١ م) ، وكانت سنة إذ ذاك ثلاثين سنة ، فقد ولد - على أصح الأقوال - سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) .

جعل محمد بن تومرت «تينملل» رباطاً ومركزاً لدعوته ؛ وهناك - وفى أمن الجبال وحماية القبائل المصمودية التى انضمت إليه - وضع نظام جماعة الموحدين وأنشأ قواتها العسكرية ، وبدأ صراعه مع المرابطين الذين اتهمهم - ظلماً - بالمروق من الدين .

ومن سنة (٥٢٥ هـ / ١١٣١ م) فصاعداً أصبح الصراع بين الموحدين والمرابطين حرباً شاملة ، استمرت حتى تم للموحدين النصر على المرابطين فى سنة (٥٤١ هـ / ١١٤٦ م) ، باستيلائهم على مراكش وقتل آخر أمراءهم إسحاق بن على بن يوسف بن تاشفين ، على يد عبد المؤمن بن على خليفة محمد بن تومرت ، الذى توفى - على أصح الأقوال - فى (رمضان ٥٢٤ هـ / يوليو ١١٣٠ م) وإن كان خبر وفاته لم يعلن إلا سنة (٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م) ، عندما اطمأن عبد المؤمن بن على الكومى إلى أن السلطان قد استقر فى يده تماماً .

فى أثناء هذا الصراع انتقلت عاصمة الموحدين إلى مراكش ، ولكن تينملل ظلت العاصمة الروحية لحركة الموحدين حتى أيام الخليفة المأمون الموحدى ؛ وفيها دفن محمد ابن تومرت ، وعبد المؤمن بن على وابنه أبو يعقوب يوسف وحفيده أبو يوسف يعقوب المنصور ، وهؤلاء هم خلفاء الموحدين الكبار الذين أقاموا الدولة ومدّوا رواقها وبنوا مجدها .

وفى سنة (٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) زار عبد المؤمن تينملل وقرر أن ينشئ فيها جامعاً وروضة لتكون مدفنًا للمهدى ولنفسه وخلفائه ، فقام ذلك الجامع الجميل الذى يعتبر من المعالم الفاصلة فى تاريخ العمارة فى الغرب الإسلامى كله . هذا الجامع اشترك فى بنائه معماريون وفنانون من المغرب والأندلس ، فجمع - لهذا - خصائص الفنين المغربى والأندلسى على صورة بديعة من التناسق والانسجام ، وسيتجلى ذلك - بصورة أوضح - فى المنشآت المعمارية الكبرى التى سينشئها الموحّدون فى إمبراطوريتهم الواسعة فى المغرب والأندلس ، وستكلم على بعضها .

يقع الجامع فى الطرف الغربى من تينملل ومقاييسه [٤٨ ، ٦٠ ، ٤٣ متراً] ، وعلى رغم اتساعه فإنه يبدو صغيراً أنيقاً ، لأن المعمارين بذلوا أقصى جهدهم فى إتقان أعماله ؛ فبيت الصلاة عميق يشمل معظم المساحة ، وهو يتألف من تسع بلاطات (أى : أروقة عمودية على جدار المحراب) والأروقة واسعة ولهذا لم يجد المعمارى ما يدعو إلى توسيع رواق المحراب ، ووضع السعة فى الرواقين الجانبيين .

أما أساكيب الجامع (أى : أروقه الموازية لجدار القبلة) فأربعة ، وأسكوب القبلة أوسع من الأساكيب الأخرى ، وفوق تقاطعه مع رواق المحراب تقوم قبة جميلة ، تزيّنها من اليمين واليسار قبتان تذكّرانا بقبّتى جامع قرطبة الجانبيتين ، وتجاويف هذه القباب كلها مزينة بالمقرنصات .

وعقود ذلك الجامع مدبّبة فى غير مبالغه ، وأفاريزها مزينة بالمقرنصات - وخاصة عقود رواق المحراب والرواق الموازى لجدار القبلة - أما المحراب فأنيق مزين بالزخارف من كل نوع .

ومثدنة الجامع بسيطة مستطيلة الشكل ، وهى النموذج الذى اتخذه المعمارىون لإنشاء مثدنة جامع الكتبية الشهيرة فى مراكش ؛ وجدران المثدنة مزينة بالزخارف

وكذلك العقود والسقف ، وهذه الزخارف كلها قطع فنية تعطينا فكرة عن قدرة الفنان المغربي على استخراج الأشكال العجيبة من الخطوط والزوايا والدوائر .

جامع الكتبية في مراكش :

مراكش ، دُرّة المدن الإسلامية في إفريقيا المدارية ، تعتبر من أجمل مدن الإسلام ، بل مدن الدنيا على الإطلاق ، فهي تقوم في وسط سهل صحراوي وكأنها واحة حضارية وسط السكون المترامي من حولها ، ومبانيها - التي يغلب عليها اللون الأحمر البرتقالي - تترك في النفس وقعاً لا يُمحى ، وشوارعها واسعة مشرقة تشرح النفس ، والخضرة تطل عليك في كل مكان ، فتبدو وسط المباني البرتقالية أشد خضرة وأزهى لوناً ، وإذا نظرت إلى الأفق رأيت ذلك كله على قاع من زرقة السماء هي أجمل زرقة تقع عليها العين .

ومراكش تمتاز بمساجدها ومدارسها وروضاتها الأثرية ثم القطع الباقية من أسوارها القديمة ، ولكن درتها الكبرى هي مسجد الكتبية الذي يكاد أن يكون مدرسة للفن أو متحفاً للابتكار المعماري جمع كل عجيبة .

هذا الجامع من إنشاء عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحّدين ، شرع في بنائه سنة (٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) ، أي : في نفس الوقت الذي أنشئ فيه جامع تينملل ، وهو ثالث الآثار المعمارية الموحّدية الكبرى ، بعد تينملل ورباط تازا الذي أنشئ سنة (٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م) .

وجامع الكتبية فسيح مستطيل الشكل ، وبيت الصلاة من أوسع بيوت الصلاة التي نعرفها ، وقد كانت أروقته في الأصل تسعة عمودية على جدار المحراب ، والرواق الأوسط - أو البلاطة الوسطى ، أو رواق المحراب - آية في الروعة والجمال ، فإن عقوده - كبقية عقود الجامع - تقوم على دعائم حجرية ، والعقد على هيئة حذوة الفرس مع تدبيب في أعلاها وانتفاخ في جانبيها .. وهي - على هذا - نموذج للعقود الموحّدية التي لا نزال نراها إلى اليوم في كل بلد من بلاد المغرب .

وفوق رواق المحراب ست قباب صغيرة ، وكذلك نجد فوق أسكوب جدار المحراب خمس قباب ، وكل هذه مزيّنة في داخلها بالمقرنصات والزخارف من كل نوع .

أما أجمل ما يمتاز به جامع الكتبية فمئذنته ، وهى - دون شك - أروع مآذن المساجد الباقية ، فإن ارتفاعها فى الجو (٦٧,٥ متراً) ، أى : ارتفاع بيت من (٢٠ طابقاً) ، ومركزها أو قاعدتها بناء ضخّم من ستة طوابق فيها غرف كثيرة ، حتى إذا وصلنا إلى شرفة الأذان - أو بيت المؤذّن - انطلقت بقية المئذنة مستقيمة منسرحة فى الجو كأنها سَهْمٌ مارقٌ إلى السماء ؛ وجدرانها كلها مغطّاة بأفاريز متوالية من الزخارف التى تُحَيِّرُ الأبّاب ؛ والنوافذ ذوات عقود من كل صنف ، وهذه النوافذ منسّقة على هيئة تماشى مع السُلّم الداخلى الذى يصل إلى أعلى هذه المئذنة السامقة .

وقد درس هذه المئذنة العالم الأثرى الفرنسى هنرى تيراس دراسة شاملة ، وقال إن نقوشها ونوافذها وزخارفها جديرة بأن تنشر فى كتاب على حدة .

مسجد حسان فى رباط الفتح ؛ سيمفونية لم تتم :

بلغت الدولة الموحّدية أوجها السياسى أيام أبى يوسف يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحّدين (رجب ٥٨٠ - ربيع الأول ٥٩٥ هـ / سبتمبر ١١٨٤ - يناير ١١٩٩ م) .. وكانت ذروة أعمال المنصور انتصاره على ألفونسو الثامن ملك قشتالة فى معركة الأرك المشهورة فى (شعبان ٥٩١ هـ / يوليو ١١٩٥ م) ، وهى من أكبر المعارك التى خاضها المسلمون دفاعاً عن الأندلس وحفاظاً على كيانه المتهدم خلال العصر الموحّدى .

وقد خلّد المنصور الموحّدى انتصاره هذا فى إشبيلية بإكمال مسجدها الجامع الكبير وصومعته - أى : مئذنته - الباقية إلى اليوم ، وقد بدأ هذا العمل فى (شعبان ٥٩١ هـ) وتم فى (ربيع الآخر سنة ٥٩٢ هـ / يوليو ١١٩٥ - مارس ١١٩٦ م) وعندما عاد إلى المغرب - بعد ذلك بقليل - بدأ فى إنشاء مسجده الشاسع المعروف بمسجد حسان فى الرباط ، وقد ظل العمل جارياً فيه حتى وفاته فوقف دون إكمال إلى اليوم .

والجامع يبدو - اليوم - وكأنه طَلَلٌ دارسٌ عَدَتْ عليه الأيامُ ، فما زالت مساحته الكبيرة [١٨٠ × ١٤٠ متراً - أى : ٢٥,٢٠٠ متر] باقية كما هى مبلّطة بالأحجار التى تآكلت وتحطمت فى كل موضع ؛ وأعمدته مائلة كأنها عمد معبد مصرى قديم ، يقوم فى وسطها بدن مئذنته الرائعة وقد وقف البناء فيها عند نصفها ، وقد بدا الحجر المصقول

الذى بنيت منه عارياً ترى نقوشه (على الحجر أيضاً) وكأنها كتابة على بدن مسلةً
مصرية قديمة هائلة .

وقد بقيت أيضاً أساسات الجدران وقواعد بعضها ، وهى تدل على أن بلاطات هذا
المسجد كانت (٢١ بلاطة) ، متوسط سعة البلاطة الواحدة خمسة أمتار ، فكأن عرض
بيت الصلاة فى ذلك الجامع كان (١٠٥ أمتار) ، أما جوفه أو عمقه فكان يتكون من
خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة ، وكانت للجامع مجنّبات : يمينى ويسرى وخلفية .

والباقى من المئذنة التى لم تتمّ (٤٤ متراً) ، وقاعدتها مبنية بالحجر المصقول ، وهى
تضم غرفاً إلى علو ستة أدوار ، وفى داخلها طريق صاعد مائل ميلاً بطيئاً بحساب
هندسى جميل ؛ وهذه المئذنة هى أخت مئذنة جامع المنصور فى إشبيلية ، وهى المعروفة
بالخير الدا ، وهى باقية إلى اليوم .

مسجد القصبة الجامع فى إشبيلية :

مسجد جليل لم يبق منه إلا مئذنته ورواق خلفى صغير ..

عندما استتب الأمر للموحّدين فيما بقى للمسلمين من بلاد الأندلس ، اتخذ ثانياً
خلفائهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مدينة إشبيلية عاصمة للجناح الأندلسى من
مملكته ، وأراد أن يزينها بمسجد جامع يضارع مسجد قرطبة الجامع فى البهاء والرواء ،
فبدأ فى إنشاء هذا الجامع الفريد الشهيد فى (رمضان ٦٥٧ هـ / أبريل ١١٧٢ م)
ونقول : « الشهيد » لأن قساوسة الإسبان سارعوا عقب استيلاء فرناندو الثالث ملك
قشتالة على المدينة فى (٢٢ ديسمبر ١٢٤٨ م) إلى هدم الجامع وشرعوا فى إنشاء
كاتدرائية فوق كل مساحته ، ولم يتركوا على قيد الحياة إلا مئذنة المسجد الرائعة ،
فجعلوا منها برجاً للنواويس لكنيستهم التى بنوها ، وقد فعلوا ذلك فى القرن الخامس
عشر ، وبقي لنا كذلك جزء من صحن الجامع فى الجزء الخلفى من الكاتدرائية .

وقد احتفظ لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة المؤرخ بوصف بناء ذلك الجامع كما
كان على أيام أبى يعقوب يوسف ، بل احتفظ لنا باسم مهندسه أحمد بن باسة ، وقد
عمل معه خيرة المعماريين والعرفاء والمزخرفين فى المغرب والأندلس ، فجاء هذا الجامع
آية من آيات الفن كما تستشف من أوصافه وبعض قطع متناثرة باقية منه .

بيت صلاة هذا الجامع كان فسيحاً مثل بيت صلاة جامع الكتبية ، فعدد بلاطاته (٢٧) ، وأساكيه (١٤) ، وسعة البلاطة (٦ , ٤٠ مترًا) ، أى أن مساحته كانت (١٥٨٣٢ مترًا) - على وجه التقريب - وهى مساحة هائلة لبيت صلاة .

أضفُ إلى ذلك مساحة الصحن - وكان فى سعة صحن مسجد قرطبة الجامع اليوم - والمجنّبات ، وهذا كله يعيننا على أن نخرج بفكرة تقريبية عن أبعاد هذا الجامع العظيم .

وقد تم بناء الصومعة - أى : المئذنة ، الباقية إلى اليوم - بعد انتصار أبى يوسف يعقوب المنصور فى معركة الأرك التى ذكرناها ، وهى ترتفع فى الجو (٧٣ مترًا) ، وقاعدتها مربعة طول كل ضلع من أضلاعها (١٣ , ٥ مترًا) وتضم غرفاً جانبية ، ويدور داخل الصومعة طريق صاعد يصل إلى أعلاها ، وأنت تدور فيه (٣٥ دورة) حتى تصل إلى شرفة الأذان (أو بيت المؤذن) ؛ وكلما دُرت دورة وصلت إلى ردهة دائرية تزينها النوافذ الزخرفية الجميلة .

وقد عرف المعماريون المغاربة والأندلسيون كيف يغطون جدار الصومعة بالزخارف والنوافذ الجميلة ، على هيئة هى آية فى الذوق والجمال والتناسق ، والمئذنة كلها مبنية من الآجر ، وزخارفها أيضاً من الآجر المرصوص بصور هندسية مختلفة ؛ ومع أن يد الإصلاح والتبديل قد امتدت إليها كثيراً ، إلا أن هذه المئذنة ما زالت باقية إلى اليوم علماً على حضارة الإسلام فى أوروبا ، ورمزاً من رموز إسبانيا الإسلامية وحضارتها أيضاً .

المساجد المغربية الأصيلة :

وفى المغرب طراز آخر من المساجد لا نجد له مثلاً فى غير المغرب : طراز بسيط يقترب من البداوة بل من البدائية ، ولكنه ينطق بإيمان صحيح ويعبر عن إسلام صافٍ لا تشوبه شائبة تكلف أو زهو ..

إنه طراز المساجد الشعبية الصغيرة الأنيقة التى نجدها فى القرى والواحات والهضاب والوديان وأحياء المدن ، وهى مساجد تقتصر على الحد الأدنى من عناصر العمارة المساجدية ، فنادراً ما نجد فيها قبة ذات فخامة أو مئذنة سامقة ، ولكننا نجد فيها دائماً إيماناً ربما خلّت منه منشآت مساجدية أخرى تكلفت الألوف بعد الألوف .

ذلك أن الإسلام وصل إلى قلوب أهل المغرب منذ العقود الأولى للفتح العربى وانتشر بين الناس انتشاراً واسعاً ، فأقبلت عليه القبائل من أيام غزوات عمرو بن العاص الأولى فى برقة وطرابلس ، وما صاحبها من غزوات نافع بن عبد القيس الفهرى ، وبسر ابن أبى أرطاة فى واحات الصحراء الليبية : زويلة وودان وفزان وكوار ؛ وفى هذه الواحات نشأ عقبة بن عبد القيس مجاهداً منذ صباه إلى جانب أبيه ، فاكمل بذلك تكوينه للقيام بدوره الجليل فى فتوح المغرب الكبرى فيما بعد .

وخلال عمليات الفتوح الإسلامية أسلمت قبائل كثيرة بربرية : زناتية أولاً ثم صنهاجية بعد ذلك ، وقد وجدت هذه القبائل فى الإسلام طلبتها من الإيمان بالله الواحد سبحانه ، فتحمست له حماساً شديداً ، وأقبلت عليه جماعات بعد جماعات ، وبينما كان سيدى عقبة يبنى القيروان فيما بين سنتى (٥٠ - ٥٥ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٥ م) كان الألوف من البربر يسلمون وهم يرون كرامات هذا المسلم العميق الإيمان .

وأثناء حملة عقبة الكبرى التى وصل فيها إلى المحيط الأطلسى (٦٢ - ٦٣ هـ / ٦٨٢ - ٦٨٣ م) أسلمت على يده قبائل كثيرة فى المغربين الأوسط والأقصى وبلاد السوس . ومن أيام حسان بن النعمان الذى أتم فتح المغرب الأوسط (٧٤ - ٨٥ هـ / ٦٩٣ - ٧٠٤ م) دخل أهل المغرب فى جيوش الإسلام مجاهدين إلى جانب العرب ، وأنشأت القبائل مساجدها ، وأقبل معلّمون من العرب يعلمّون أهل المغرب الإسلام فى هذه المساجد ؛ وأرسل عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين إلى المغرب لينشروا فيه الإسلام الصحيح . وفى أثناء خلافة الوليد بن عبد الملك تم فتح السوس ثم المغرب الأقصى ، وتحولت هذه البلاد كلها إلى بلاد إسلامية صادقة الإيمان على يد موسى بن نصير (٨٥ - ٩٥ هـ / ٧٠٤ - ٧١٤ م) وأولاده من بعده ، وفى أثناء هذه المدة اشترك أهل المغرب فى فتح الأندلس ، وأضافوا - جنباً إلى جنب مع إخوانهم العرب - قطراً أوروبياً ضخماً - هو شبه الجزيرة الأيبيرية - إلى دولة الإسلام .

وأقبلت جماهير الناس فى المغرب على الإسلام إقبالاً لا نكاد نعرف له مثيلاً فيما فتح المسلمون من الأرضين خلال دفعة الفتح الأولى ؛ وقد ظهر هذا الإيمان العميق فى صور شتى ، منها السعى الحثيث لدراسة الإسلام والعلم به ، وهو سعى قام به المثات من

شباب المغرب الذين توجهوا إلى المشرق ليدرسوا الإسلام على الشيوخ ، وقد حرص معظم أولئك الشباب على أن يأخذوا الإسلام عن أئمة العلم والفقه في المدينة دار الهجرة ثم في مصر والعراق ، وظهر من بينهم نفر من أجل تلاميذ مالك بن أنس ، أصبحوا من عظماء علماء الإسلام ، ونموذجهم الأكبر سعيد بن عبد السلام المعروف بسحنون عالم إفريقية الأكبر ؛ وعلى يد كل شيخ من هؤلاء تخرج شيوخ آخرون استقروا في العواصم أو انتشروا في القرى حاملين معهم الإسلام الحنيف .

وظهر هذا الإيمان العميق كذلك في هيئة جماعات من العباد والزهاد ، درسوا وتفقهوا في الدين ثم انقطعوا للعبادة في المساجد أو في بيوتهم أو في دور كبيرة أنشئت لهم على ضفاف البحر سميت بالقصور أو بقصور العباد ؛ وفي هذه القصور وأهمها قصور سوسة والبنستير وتونس ، عاش أولئك الزهاد حياة مقسمة بين العبادة والرباط على ثغور دار الإسلام لحمايتها من عدوان دار الحرب عليها .

وقد كان أولئك العباد أهل إيمان صادق ومعرفة صحيحة بالدين ، مما جعلهم أوتاداً للإسلام وأخلاقياته في المغرب كله ؛ وإلى هؤلاء الصالحين من الزهاد يرجع الفضل في تعميق جذور الإسلام في المغرب ، فلقد عصفت بذلك القطر بعد ذلك عواصف خارجية وأخرى شيعية إسماعيلية ، ولكنها تلاشت وبقي المغرب كله بلداً إسلامياً سنياً ، فيما عدا جزائر صغيرة من الإباضيين في بعض النواحي .

ومن نتائج جهود أولئك الزهاد أن كل بلد ، بل كل قرية ، أصبح لها زاهدٌ ووليُّها الذي ينسب عوامُ الناس إليه الكرامات ويسألونه البركة ، ويجدون في ذلك اطمئناناً وراحة نفس ؛ وفي العادة يبنى عوامُ الناس إلى جوار قبر هذا الوليِّ مسجداً متواضع الهيئة .

ومن مظاهر هذا الإيمان قيام طرق صوفية انتشرت في المغرب كله ، حتى إننا لا نبالغ إذا قلنا إنه لم يكن في المغرب أحد - في العصور الوسطى - غير منتسب إلى طريقة ما كالتشاذلية والتيجانية والقادرية ثم السنوسية ، وقد تحولت هذه الطرق إلى إطارات تنظيم اجتماعي وديني كان له أبعد الأثر في المحافظة على مقومات المجتمع المغربي سليمة متينة ، وبفضلها أصبح الإسلام محور الحياة المغربية كلها ، وأصبحت

أخلاقياته أساس المعاملات ؛ ثم اتسع نطاق هذه الطرق فامتدت إلى خارج المغرب عبر الصحراء ، ووصلت إلى إفريقية المدارية والاستوائية ، وكان لها أبعد الأثر فى انتشار الإسلام فيها .

وعن هذه الحركات التصوفية ظهرت حركات سياسية عسكرية أنشأت دولاً كبرى مثل دولتى المرابطين والموحدين .

وهذه كلها كانت عوامل زادت فى عمق الجذور الإسلامية فى أقطار المغرب جميعاً ؛ فأصبحت بالفعل حصوناً للإسلام القويم لا يزعزعها شىء .

ولقد دام الاستعمار الفرنسى فى الجزائر (١٢٦ عاماً) ، وفى تونس (٧٤ عاماً) ، وفى المغرب الأقصى (٤٥ عاماً) ، وبذل الفرنسيون خلال هذه الحقبة كل ما استطاعوا لزعزعة أركان الإسلام ، فلم يصلوا - بعد الجهد الشديد - إلى شىء .

* * *

المساجد المغربية تصوّر ذلك الإيمان العميق :

هذه الحقائق كلها تتجلى لنا فى المغرب فى صور مساجد وربط وزوايا ومدارس ، بعضها شعبى بسيط وبعضها سلطانى ذو مظهر فخم ورواء عظيم ، ولكن حتى هذه الأخيرة لا تصل إلى ضخامة وفخامة مساجد إيران والهند وتركيا ، لأن بلاد المغرب كانت دائماً بلاد كفاية فى مطالب العيش الضرورى ، ولم تكن بلاد غنى واسع يسمح للسلطين بالإنشاء الباذخ الغالى التكاليف الذى نعرفه فى البلاد التى ذكرناها .

وعلى الرغم من أننا لا نجد فى مساجد المغرب الكبرى تلك الضخامة الباهرة التى نراها فى مساجد الهند ، ولا ذلك الفن الذى يُفرق مساجد إيران ، ولا المنشآت التى تروع النفس بأشكالها الباذخة فى تركيا ، إلا أن مساجد المغرب تمثل النفس - برغم ذلك - روعةً وجلالاً لا يقلان عما نُحسّه فى تلك المساجد الكبرى ، وهذه هى الميزة الرئيسية لمساجد المغرب كبيرةً وصغيرةً .

وسنختار من هذه المساجد المغربية عدداً قليلاً يتسع له مجال كتابنا هذا ، وسنتحرى أن يكون كل مسجد نختاره نموذجاً لطراز بعينه منها :

مسجد سيدى عقبة :

لا نزاع فى أن هذا المسجد يعتبر أقدم مساجد المغرب بعد «مسجد القيروان» ، فالراجع أنه نشأ أول الأمر ضريحاً - أو روضة - فى الموضع الذى استشهد فيه هذا الصحابى الفاتح العظيم .

والمكان الذى استشهد فيه عقبة مع أصحابه هو قرية تهودة ، والزمان سنة (٦٣ هـ) ، وتهودة تقع إلى الجنوب قليلاً من بـسكرة فى الجزائر الحالية .

ويقوم المسجد فى سهل فسيح قليل السكان غير بعيد من مجرى نهر صغير يُسمى وادى الأيوض ، ولكنه معمور بالرعاة الذين لا يزالون ينتقلون فى أرجائه بقطعانهم وخاصة فى فصل الشتاء .

ولا شك أن المسجد قد تناولته يد الترميم - مرة بعد مرة - قبل أن يصل إلى شكله الحالى ، ولكنه ما زال محتفظاً بهيئته البسيطة التى ترجع إلى عصوره الأولى .

والمسجد يقوم فى واحة صغيرة تحمل اسم سيدى عقبة ، وهو يضم روضة صغيرة للمجاهد العظيم ، وبیت صلاة ذا أروقة فسيحة تقوم فوقها عقود مستديرة ترتفع على دعائم صغيرة من الآجر ، وكل الأعمدة والعقود فى غاية من البساطة ماعدا عقود رواق المحراب فهى مزينة بعض الشيء ، والمحراب بسيط مجوّف مزخرف بطريقة بسيطة جداً لا تكلف فيها .

وللجامع صحن مستطيل تحيط به البوائك ، ورغم أن المعمارى الذى أنشأ المسجد فى صورته الأخيرة تلك لم يتكلف أى زينة ، إلا أن المسجد - مع ذلك - يبهّر الإنسان بما يفيض فيه من النور ، وبعض أروقة قاعة الصلاة لا تكاد تتسع إلا لاثنتين من المصلين ، ولكن مجنّبات الصحن فسيحة رائعة يشعر الإنسان إذا جلس فيها بفيض من الإيمان يملأ نفسه .

وروضة عقبة - فى الحقيقة - روضتان ، ففيها أيضاً دُفن فرسه الخالد الذى دخل به إلى صدره فى ماء المحيط الأطلسى ، وأشهد الله على أنه وصل براءة الإسلام إلى آخر المعمورة .

ومن المعروف أن رسول الله - ﷺ - أحب الخيل وكرمها، وقال :

« إِنَّ الْعَزَّ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .. بل إنه كان يمسح فرسه بردائه ويقول إن جبريل طلب إليه ذلك .

ولكن دفن فرس عقبة معه في روضة وإقامة قبة خاصة فوقه ، قبة صغيرة ؛ هذا في ذاته من إنسانية الإسلام التي اتسعت فشملت خيل المجاهدين ، فلا شك أن الذي أقام ضريح ذلك الفرس يؤمن بأن هذا الفرس أيضاً مؤمن ومجاهد ، وأنه لهذا جدير بالتمجيد والتخليد ، وهذه لمحة من الشعور الإسلامي الشعبي يصل عمقها إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه الشعور الإنساني في قلب بشر .

ومثذنة جامع سيدي عقبة شبيهة ببرج متوسط الارتفاع ، ولكنه غريب في هيئته ؛ ويظهر بوضوح أن المعماري البسيط الذي أنشأها بذل أقصى جهده في الوصول بمعلوماته المعمارية البسيطة إلى أقصاها ، فوفق في هذا توفيقاً كبيراً .

المساجد المغربية الأصلية في منطقتي الزيبان ومزاب (أو مصاب) :

وفي منطقة جامع عقبة - وهي السفوح الجنوبية لجلال الأوراس - نجد منطقة تعتبر من أكثر مناطق الجزائر أصالة ودلالة على الشخصية المغربية ، فهنا نجد جماعات جزائرية أصيلة نشأت من امتزاج القبائل البربرية بعرب بني هلال ، مثل بني جلال وبني سعادة والمغاير وبني عيدي وولد نايل ، وتمتد هذه المنطقة امتداداً واسعاً فتصل إلى مدن الوادي وتوجور وبو سعادة ، بل تصل إلى غرداية عاصمة ناحية مزاب الشهيرة .

هنا يحس الإنسان أنه في قلب «الجزائر» فعلاً ، وهنا أيضاً تقوم منطقة المساجد البسيطة الجزائرية الأصلية ، التي تشبه «جامع عقبة» والتي تعتبر طرازاً خاصاً من طرز المساجد الإسلامية عامة .

فهنا - وعلى مقربة من جامع عقبة - تقوم منطقة الزيبان التي تمتاز بمساجدها الجزائرية الجميلة ؛ وهذه المساجد - كلها - مبنية باللبن ، وهي تعود بنا إلى هندسة مسجد الرسول ﷺ ، فلكل منها بيت صلاة قليل العمق يقوم على أعمدة من الخشب أو من

جذوع النخل ، وفى أحيان قليلة من الحجر ، وبيوت الصلاة هذه مسقوفة تزينا حنايا ، تبدو لك وكأنها أنصاف أسطوانات وضع بعضها إلى جانب بعض ، ويزدان كل مسجد بمئذنة مربعة شبيهة بالبرج تضيق كلما صعدت إلى أعلى ، وتزينها من الخارج نوافذ ينفذ منها الضوء فينير السلم الصاعد ، ونجد هذا الطراز من المساجد فى بوشقرون والدوسن وزاوية بنى خالد وأولاد جلال (وهنا نجد أن المسجد قد زال فلم تبق إلا المئذنة أو المنارة) .

وفى قرية البرج فى إقليم الزيبان نجد مئذنة غريبة الشكل ، فإن قاعدتها - أى : دورها الأول - مربعة ، ثم يرتفع بدنها مسدس الهيئة ، فإذا قاربنا رأس المئذنة وجدنا جوسقاً مربعاً هو شرفة الأذان ، وهو أشبه بقمة برج النواقيس فى كنيسة .

وفى هذه النواحي أيضاً تكثر أضرحة الأولياء ، وهى تشبه أضرحة الأولياء فى الأرياف فى كل مكان من العالم الإسلامى ، أى : أنها أبنية صغيرة مربعة تقوم على كل منها قبة ، ولكن القبة قد تكون هنا مخروطية الشكل ، وقد تكون مخروطية مقببة كما نجد فى أحد الأضرحة فى أولاد جلال .

وفى مساجد ناحية مزاب - وعاصمتها غرداية - يظهر لنا طراز المساجد المغربية العتيقة التى استلهمت أشكالها من عمارة القصور البربرية القديمة . والقصر يراد به هنا بناءً قروياً شبيهاً بالحصن ، فهو ليس قصرًا بالمعنى المعروف وإنما هو حصن اسمه مشتق من لفظ Castra اللاتينى ومعناه الحصن ، ومع أن لفظ « قصر » العربى يرجع فى أصله إلى لفظ Castra أيضاً فإن الفرق بين الاثنين كبير ؛ فالقصر هو الدار القبلية البربرية القديمة ، وقد يطلق على القرية البربرية الجبلية كلها فتسمى قُصُور (بتسكين القاف) ، وقد يُجمع على « الأقصر » ، ومن هنا جاء اسم المدينة المصرية المشهورة ، وهى تقوم فى نفس المنطقة من ناحية خطوط العرض .

ومن أجمل مساجد هذه النواحي مسجد قرية تماسين فى ناحية تُوقرت المشهورة بجمالها ومناعتها ، فهنا نجد مساجد مبنية من اللَّبن المقوّى بجذوع النخل ، ولكل مسجد منها مئذنة تشبه - فى تخطيطها العام - هيئة مئذنة مسجد عقبة فى القيروان ، أى أنها مكعبٌ طويل يزينه فى أعلاه جوسق تعلوه قبة صغيرة .

والمثدنة مزخرفة فى أعلى بدنھا بأشكال هندسية مصنوعة من قوالب اللبن موضوعة بأشكال مختلفة .

وفى بعض هذه المساجد نُحِسُّ بالأثر التركى فى قباب صغيرة متقنة تقوم على عقود كما نجد فى مساجد قرية سُوَفَ ، وهى فى الحقيقة زوايا بسيطة الهندسة ، فليس لدينا إلا بيت الصلاة تقوم عليه القباب الصغيرة والصحن الواسع ثم المثدنة .

ومن المعروف أن أهل مزاب يغلب عليهم المذهب الإباضى - وهو من المذاهب الخارجية المعتدلة - وهم متمسكون بعقيدتهم أشد التمسك ، وهى أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب السنَّة ، ومساجدهم تعبر بأجلى بيان عن بساطتهم وعمق إيمانهم .

ومساجد الإباضية فى إقليم مزاب تعتبر نموذجاً لكل مساجد الحزام الصحراوى المحيط بالمغرب كله من الجنوب ، وهى مساجد تبدو وكأنها أعمال من الفن السورىالى ؛ والحقيقة أنها أسرفت فى الواقعية ، حتى أصبحت - فى بعض الأحيان - مجرد أشكال من اللبن مهمتها حماية المصلين من وهج الشمس والمحافظة على شىء يشبه المآذن والقباب من الخارج .

وهى - من هذه الناحية - مساجد رائعة بمعنى أنها تروى النفس ببساطتها وهيئاتها .

وجدير بالملاحظة أن قباب هذه المساجد الصغيرة - التى تبدو لنا وكأنها محاولات قباب - تطورت فى الأصل عن أشكال الأعشاش التى كان الناس يسكنونها فى القديم فى إفريقية الاستوائية والمدارية ، فهى مخروطة الشكل وإن كانت أضلاعها مقببة ، وفى بعض الأحيان لا يوفق المعمارى إلى عمل المخروط فيبدو شكلاً غريب الهيئة ، وقد يجعلون فوق روضة الولى أو بيت الصلاة أكثر من قبة غريبة الهيئة من هذا الطراز ؛ ولا نزاع فى أننا ينبغى أن نحكم على هذه الهيئات المعمارية فى الإطار الحضارى الذى ظهرت فيه .

وهذه الهيئات هى التى جعلت كبار المعمارين المسلمين الأفارقة ينشئون فى مساجدهم أزواجاً من القباب المخروطة الطويلة ، كل واحدة منها تقوم فوق رواق من أروقة المسجد الكبير ، وقد عرفنا هذا الطراز فى المسجد الذى أقامه محمد أحمد المهدي السودانى فى أم درمان ، ثم أعيد بناؤه بعد نهاية الثورة المهدية على نفس الصورة .

ونشاهد هذا الطراز فى مساجد كبرى فى السنغال وغينيا ومالى وموريتانيا ، ولكن صورته الكبرى نجدها فى مسجد «كانو» عاصمة الإقليم الشمالى ومركز الإسلام فى نيجيريا .

* * *

ونعود مرة أخرى للكلام عن المساجد المغربية المتأثرة بالطراز الأندلسى :

مسجد المرابطين فى مدينة الجزائر :

أمر ببناء هذا المسجد الجميل يوسف بن تاشفين أول أمراء المرابطين ، وهو من أعظم الفاتحين والمجاهدين فى تاريخ الإسلام ؛ ويرجع أن الشروع فى إنشائه كان سنة (٤٧٥هـ / ١٠٧٢م) وهى السنة التى أنشئ فيها جامع تلمسان ، أما الفراغ منه فكان فى سنة (٤٩٠هـ / ١٠٩٧م) وهو التاريخ المسجل على منبره ، وقد أعيد ترميم هذا الجامع مراراً عديدة على طول تاريخه ، وإذا كان بعض زخارفه يرجع إلى عصور متأخرة فإن هيكله العام وأجزائه الرئيسية ترجع إلى العصر المرابطى وهو من أجمل عمائر هذا العصر .

وبيت صلاة هذا الجامع يتألف من إحدى عشرة بلاطة وخمسة أساكيب ، وتحيط بالصحن ثلاث معبّبات يتألف كل من المعبّبتين منها من ثلاثة أروقة ، أما المعبّبة الخلفية فتتألف من رواق واحد ، وعقود المسجد تقوم على دعائم حجرية . أما عقود الأروقة المؤدية إلى جدار القبلة فمدمية منفوخة ، فى حين أن عقود الأساكيب الموازية لجدار القبلة مفصّصة على هيئة حذوة الفرس ، وفصوص هذه العقود متعددة ومثقلة بالزخارف .

وبوائك ذلك الجامع المطلّة على الصحن آية فى الجمال والتناسق ، وفصوصها من أجمل ما صنعه الفنانون المسلمون من هذا الطراز ، وكل جدران العقود مزينة بالزخارف المتداخلة المتشابكة ؛ وهذا الطراز من الزخارف يعتبر من أكبر الميادين التى تفوّق فيها الفنانون المغاربة على غيرهم ، نعم إن الزخارف المتشابكة المتداخلة عنصر أساسى ودائم فى العمارة الإسلامية فى كل مكان ، ولكن أهل المغرب شكّوا غيرهم فى ذلك الميدان بما أبدعوا من غرائب الزخرفة الدقيقة ، سواء أكانت محفورة على الخشب أو الحجر أو الجصّ أو مُسطّحة ملوّنة .

ويلاحظ أن الفنان المغربي جعل ميدان تفوقه على إخوانه إتقان التفاصيل والتدقيق في القطع الصغيرة ، فأخرج من الزخارف والمقرنصات روائع لم يصل إليها غيره .

ومن أسف أن دول المغرب كلها (فيما عدا صدر دولة الموحدين) كانت - في مجموعها - دولاً متوسطة الغنى تستهلك الثورات والأخطار الخارجية معظم دخولها ؛ فلم تتسع الفرصة لسلاطين المغرب لينشئوا مساجد كبيرة سامقة تكلف مئات الألوف كما سنرى في إيران والهند ومصر المملوكية وتركيا ، ولهذا تركّز جمال الفن المغربي في إتقان الصانع نفسه وإخلاصه لفنه واقتداره على الوصول إلى المدى البعيد بالإمكانات القليلة التي كانت بين يديه .

وهذا المسجد يعتبر من المساجد المرابطية القليلة الباقية بين أيدينا إلى اليوم ، لأن مساجدهم الأولى التي أنشأوها في مراكش - لأول بنائها - وفي غيرها من بلاد دولتهم الشاسعة قد زال بعضها ، وبعضها الآخر أعيد بناؤه على أيدي الموحدين ومن جاء بعدهم .

* * *

مساجد بنى عبد الواد في تلمسان :

عندما ضعفت « دولة الموحدين » وأذنت بالزوال تقاسمت بلادها أربع دول هي : بنو الأحمر في غرناطة وما بقى من الأندلس ، وبنو مرين في المغرب الأقصى ، وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط ، وبنو حفص - أو الحفصيون - في إفريقية (تونس الحالية وشرق الجزائر) .

وقد كانت هذه الدول قادرة على الصمود للخطر النصراني في الأندلس والبحر الأبيض لو أنها تعاونت بعضها مع بعض ، ولكن رجالها - كما هي العادة - أنفقوا جانباً كبيراً من جهدهم في حرب بعضهم مع بعض ، فقلّت الفائدة منها جميعاً .

وكان بنو عبد الواد - الذين ورثوا المغرب الأوسط - أضعف هذه الدول وأقربها إلى البدائية القبلية ، حكمت دولتهم أكثر من ثلاثمائة سنة من (١٣٢٦ إلى ١٥٥٠ م) ، وامتد سلطانهم على المغرب الأوسط فيما بين وادي شلف ووادي المولدية ، ومدوا سلطانهم - أحياناً - على جزء كبير من الجانب الغربي للجزائر الحالية .

ويعتبر مؤرخو الجزائر دولة بنى عبد الواد دولة جزائرية صرفة ، وهى فى الواقع كذلك ؛ فقد اتخذ بنو عبد الواد تلمسان عاصمة لهم ، وهم ينتسبون إلى بنى واسين الزناتيين ، وكانوا فى أول أمرهم بدواً رُحَلاً حتى دفعهم بنو هلال غرباً ، ثم خدموا دولة الموحدين ، فأقطعهم عبد المؤمن بن على - أول خلفاء الموحدين (١١٣٣ - ١١٦٣ م) - جزءاً من أراضي المراعى فى غرب الجزائر ، وعندما ضعف أمر الموحدين قام أمير بنى عبد الواد أبو يحيى يغمراسن (أو غمراسن) بن زيان بالتخلص من بقايا سلطان الموحدين واتخذ تلمسان عاصمة له ، وأعلن نفسه أميراً مستقلاً .

وبهذا ظهرت فى تاريخ المغرب دولة جديدة هى دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان سنة (١٢٣٦ م) وظل أبو يحيى يغمراسن يحكم إلى سنة (١٢٨٢ م) ، وخلفه ابنه أبو سعيد عثمان بن يغمراسن .

ولم يطمئن بنو عبد الواد فى حدود دولتهم أبداً ، فقد كانوا دائماً فى حروب مع جيرانهم ، ولكنهم استطاعوا - رغم الفتن المتوالية - أن يجعلوا من عاصمتهم تلمسان وضاحتها أغادير مدينة زاهرة من أجمل بلاد الغرب الإسلامى .

وقد حرص مؤسس الدولة (يغمراسن بن زيان) على أن يرُمِّم المسجد المرابطى الكبير فى تلمسان ويبنى له مئذنة تعتبر من أجمل المآذن الأندلسية الطراز فى المغرب .

وعلى أيدي بنى عبد الواد زحفت تقاليد الفن الأندلسى من غرناطة والمغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط ، ومن هنا كانت منشآت بنى عبد الواد أندلسية الطراز ، ولهذا كان لابد لنا من وقفة قصيرة عندها ، ونظرة إلى مئذنة مسجد تلمسان الجامع ومئذنة مسجد أغادير تدل على أن ذلك الأثر الأندلسى كان بعيداً عميقاً .

وفى سنة (١٢٩٦ م) أنشأ أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (١٢٨٢ - ١٣٠٣ م) مسجد سيدى أبى الحسن فى تلمسان ، وكان من أجمل مساجد ذلك البلد الجميل ، ولكنه تخرب مع الزمن ، ثم حوَّله الفرنسيون إلى متحف ، وقد بقى لدينا منه سقفه الخشبي المزخرف الذى يعتبر من أجمل سقوف المساجد ذات الطراز الأندلسى المغربى ، وكذلك محرابه الذى يظهر فيه بوضوح الاقتباس من محراب المسجد الجامع فى قرطبة .

وكان بنو مرين لا يكفون عن الإغارة على بنى عبد الواد ، فأنشأ هؤلاء قلعة ضخمة عُرِفَت بالمنصورة غرب تلمسان للتحصن بها من غارات جيرانهم ، وما زالت بعض أجزاء من سور المنصورة الضخم باقية إلى اليوم ، وفي وسطها بقية من مسجد المنصورة الجامع متمثلة في مئذنة أندلسية الطراز قائمة وحدها متهدم معظمها ، على مثال مئذنة جامع حسان في الرباط ، وفي المغرب مئذنة ثالثة من هذا الطراز باقية وحدها وسط «البربر» ، هي بقية مسجد قلعة بنى حماد التى ابتناها «بنو حماد» أبناء عم بنى زيرى الصنهاجيين ، عندما استقلوا عن أبناء عمهم وتحصنوا فى قلعتهـم أولاً ثم اتخذوا أشير عاصمة لهم ، ثم انتقلوا فى أواخر أيام دولتهـم إلى بجاية .

وقد تمكّن بنو مرين من التغلب على بنى عبد الواد أكثر من مرة ، وكانت المرة الأولى فيما بين سنتى (١٣٣٧ - ١٣٤٨ م) عندما تمكّن السلطان أبو الحسن على بن أبى سعيد المرينى (١٣٣١ - ١٣٥١ م) من دخول «تلمسان» ، وضمّ بلادها إلى دولته ، وأبو الحسن هو أعظم سلاطين بنى مرين وأوسعهم سلطاناً .

ولم يكن أبو الحسن المرينى أقل عناية بإنشاء المساجد فى المغرب الأوسط من بنى عبد الواد أنفسهم ، وإليه يرجع الفضل فى إنشاء مسجد وروضة لأبى مدين (قطب الصوفيين فى المغرب) فى مدينة العُباد الصغيرة قرب تلمسان ؛ ويعتبر هذا الأثر من أجمل المساجد الأندلسية الطراز فى المغرب كله .

مسجد أبى مدين وروضته فى بلدة العُباد :

وأبو مدين ، شعيب بن الحسن الأندلسى (١١٢٦ - ١١٩٦ م) يعتبر من أجلّ الصوفية وأهل الزهد الذين يزدان بهم تاريخ المغرب ؛ وُلِدَ فى قرية صغيرة قرب إشبيلية فى الأندلس ، وفى إشبيلية درس وتفقه ، ثم انتقل إلى فاس حيث واصل الدراسة ، ثم مالت نفسه إلى الزهد فانخلع عن الدنيا وبدأ حياة طويلة من الحج والسياحة والعبادة ، حتى توفى فى «قرية العُباد» التى ذكرناها ، وهناك أقام له أبو الحسن المرينى المسجد والروضة اللتين نتحدث عنهما ، وما زال قبر أبى مدين - إلى يومنا هذا - من أعظم مزارات المغرب ، ولا تنقطع الزيارة إليه أبداً .

وروضة أبي الحسن عمل معمارى بديع ، رغم صغر حجمها ؛ فأنت تدخل إليها من بوابة أندلسية تظللها شمساة مغطاة بالقرميد ، ثم تهبط السلالم المزينة بالزليج وتنتهى إلى مكان القبر فى قاعة مزينة كلها بالزليج أيضاً .

أما المسجد المجاور لها فأندلسى الطراز ، وهو صغير الحجم نسبياً ولكن صحنه الصغير الأنيق تزينه نافورة فى وسطه ، ويعتبر هذا الصحن - رغم صغر حجمه - من أجمل صحنون المساجد فى المغرب ، ونفس البوائك المغربية الطراز التى تحيط بالصحن تمتد فى بيت الصلاة الصغير الجميل .

هنا نجد العقود المستديرة تعتمد على دعائم مربعة من الحجر ، مزينة بزخارف جصية تذكرنا بزخارف الحمراء فى غرناطة ، ورغم بساطة هذه العقود فإنها تروى النفس ببياض لونها وانتظام هيئتها .

والمحراب أندلسى منقول عن محراب مسجد قرطبة الجامع ؛ وفوق بلاطة المحراب يرتفع سقف محدب يحل محل القبة ؛ وتعتبر مئذنة الجامع التى بناها أبو الحسن سنة (١٣٣٩ م) من أجمل المآذن المغربية ذات الطراز الأندلسى فى المغرب الأوسط .

وفى تلمسان - أيضاً - أنشأ السلطان المرينى أبو عنان فارس بن أبى الحسن على (١٣٥١ - ١٣٥٨ م) مسجد سيدى الحلوى ، وهو - أيضاً - زاهد أندلسى هاجر إلى المغرب ؛ وبيت الصلاة يمتاز بأعمدة قصار تبرز من الأرض دون قواعد ، تحمل عقوداً ضخمة عالية على هيئة حذوة الفرس .

* * *

مساجد مدينة الجزائر

(مجموعة جميلة تمثل طرزاً معمارية مختلفة في ثوب جزائري واحد)

مدينة الجزائر - عاصمة الجمهورية الجزائرية - تعتبر من أحفل عواصم الإسلام بالمساجد ، رغم ما مر عليها من مآسى عصر الاستعمار الفرنسى ، ومحاولات الفرنسيين طمس معالم الإسلام فيها ، حتى إنهم حوّلوا عدداً من أجمل مساجدها إلى كنائس ، وأراد ربك إلا أن تعود مساجد الله بعد الاستقلال فيذكر فيها اسمه تعالى ؛ لأن ذلك البلد - الذى سُمّي بالجزائر نسبة إلى مجموعات من الصخور تقوم فى البحر أمام موقعها تسمى « جزائر بنى مزغنا » - لم يصبح عاصمة القطر الجزائرى إلا فى العصر التركى ، عندما تحوّل مركز الحياة السياسية فى ذلك القطر من المغرب الأوسط إلى ناحية الشرق ، وأخذت مدينة الجزائر تحلّ محلّ تلمسان وتاهرت كمركز للحياة السياسية فى المغرب الأوسط ، وكان ذلك الموقع البحرى الحصين - قبل ذلك - ميناءً صغيراً للصيادين ومجاهدى البحر ، فجعله الأتراك العثمانيون عاصمة للإيالة - أو الولاية - التى أنشأوها وأعطوها حدود الدولة الجزائرية الحالية ، من الشرق والغرب على الأقل .

ولم يكن الأتراك العثمانيون أول من استلقت نظرهم موقع الجزائر وصلاحيته كعاصمة للإقليم الأوسط من المغرب ، فقد سبقهم إلى ذلك المرابطون ، وقد رأينا كيف أن يوسف بن تاشفين أنشأ فى الجزائر المسجد الكبير الذى أصبح - فيما بعد - المسجد الجامع الرئيسى لمدينة الجزائر ، وقد تحدثنا عن ذلك الجامع ، ووقفنا طويلاً عند خطوته البسيطة الواضحة التى تترك فى نفس زائره أثراً لا يمحى ، وكذلك عقودها المتوالية المتماثلة التى تجعل الواقف فى رواق من أروقتها يتصور وكأنه يقف بين مرآتين متقابلتين ، وأعجبنا كذلك بعقوده المدببة ذات الفصوص المستنة التى لا نعرف لها فى العمارة الإسلامية شبيهاً . وقد ترك المرابطون فى المغرب الأوسط مسجداً ثالثاً بين آخرين قريبين - فى الهيئة العامة - من مسجد الجزائر الكبير ، وهما مسجد ندرومة الكبير إلى الشمال الغربى من تلمسان ، ومسجد تلمسان الكبير الذى تحدثنا عنه .

وهذه الآثار البديعة الثلاثة هي أهم ما خَلَفَتْهُ في المغرب الأوسط هذه الجماعة
المجاهدة المباركة ، جماعة المرابطين ، أما ما خَلَقُوهُ من المنشآت في المغرب الأقصى فكثير
جداً ، ويكفي أن نشير هنا إلى أنهم هم الذين أنشأوا مدينة مراكش ، وجددوا معظم
مساجد المغرب الكبرى ، وأنشأوا مساجد بديعة مثل مسجد تازا في ممر تازا المشهور .

لقد اشتهرت مدينة الجزائر - على طول تاريخها - بمساجدها الصغيرة الجميلة ،
وكان أول من بنى فيها المساجد الكبيرة هم المرابطون ، عندما بنوا المسجد الجامع الكبير
سنة (٤٩٠هـ / ١٠٩٦م) - وهو المعروف اليوم بمسجد سيدي رمضان - وقد أشرنا
إليه ، أما بقية المساجد الكبيرة الجميلة التي تشتهر بها مدينة الجزائر فهي من العصر
التركي ، ولا يرجع ذلك إلى سياسة الأتراك في الإيالة الجزائرية بصفة عامة ، وإنما يرجع
إلى أن مدينة الجزائر أصبحت العاصمة السياسية الدائمة للإقليم ، والمساجد الكبرى
تقوم دائماً في العواصم ، وهذه قاعدة عامة تستطيع أن تتبين صدقها في كل بلد إسلامي
على حدة .

هذا بالإضافة إلى أن الأتراك العثمانيين أنفسهم كانوا مولعين بإنشاء المساجد ،
ولهذا فلا غرابة في أن نجدهم قد اهتموا اهتماماً كبيراً بتزيين الجزائر بالمساجد ؛ وقد ذكر
المؤرخ الفرنسي هلفيدو أن الفرنسيين وجدوا في مدينة الجزائر عند دخولهم سنة
(١٨٣٠م) مساجد كثيرة : منها [١٣ مسجداً جامعاً كبيراً ، و ١٠٩ مساجد صغيرة ،
و ٣٢ من مساجد الأحياء ، و ١٢ زاوية] ، فحرصوا على أن يدمروا أكبر عدد من هذه
المساجد ، لأن نيتهم كانت تحويل الجزائر كلها إلى بلد مسيحي ، وقد لجأوا إلى حيل
كثيرة للقضاء على المساجد ، فحولوا الجميل الكبير منها إلى كنائس أو متاحف ،
وهدموا الكثير بحجة أنها آيلة للسقوط ، أو أنها تعترض الطرق الجديدة ، أو تحول دون
مد أسلاك الهاتف أو التيار الكهربائي ، وما إلى ذلك .

وكانت المدينة مقسمة إلى قسمين كبيرين : القصبة والمدينة ، ويفصل بينهما نهج
الوادي ، وكانت المساجد الفنية الكبرى في المدينة فتعرضت للعدوان ، لأن هذه المدينة
هي التي تناولتها أيدي التغيير والتبديل ، وهي التي أرادوا تحويلها ومد نطاقها لتكون
مدينة أوربية وعاصمة لهم ؛ لهذا اختفت من مدينة الجزائر مساجد كثيرة ، طالما تحدث

الناس عن جمالها وما لها من قداسة عند الجزائريين ، من أمثال مسجد ستي مريم ، ومسجد السيدة ، ومسجد سيدى رابى ، وغيرها .

الفن المعماري التركي في الجزائر :

ومعظم هذه المساجد تركية الطراز ، وقد دخل الفن المعماري التركي الجزائر بعد تحولها إلى إيالة تركية وتوالى وفود الولاة ورجال الوجاقات إلى البلاد ؛ ومن حسن الحظ أن الكثيرين من الولاة كانوا أهل عناية بالإنشاء والتعمير ، فخلّفوا لنا مساجد كثيرة يختلط فيها الطراز التركي بعناصر من العمارة المحليّة الجزائرية .

جامع على بنّشين في مدينة الجزائر :

الراجع أن هذا المسجد بنى سنة (١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م) ، فهناك وثيقة أوقاف خاصة به حرّرت بمعرفة القاضي الحنفى فى ذلك التاريخ ؛ ومُنشئ المسجد - كما يتضح من تلك الوثيقة - رجل مسيحي هداه الله للإسلام وأصبح من كبار قواد الجيوش العثمانية .

والمسجد صغير الحجم نسبياً ، ولكن بيت صلاته ينطق بالآثر التركي فهنا نجد قبة عثمانية الطراز مثمّنة الأضلاع تقوم فوق قلب بيت الصلاة مرتكزة على أربع دعائم ضخمة ، وبيت الصلاة مقسّم إلى إيوانات تزين الجانبين منها عشرون قبة صغيرة .

وقد استولى الفرنسيون على هذا المسجد فى (٢٨ مارس سنة ١٨٤٢ م) وحولّوه إلى كاتدرائية سمّوها « سيدتنا مولاة الانتصارات » .

وقد أراد الله له أن يخرج من أسره فعاد مسجداً مطهراً بعد الاستقلال .

جامع الحوّاتين :

الحوّاتون هم صيادو السمك ، وهذا المسجد أنشئ فى منطقة تُنسب إليهم ، وهو مسجد جميل يطل على البحر بواجهة هى الغاية فى الجمال والرواء ، وهو أجمل نموذج للمساجد الجزائرية العثمانية الطراز .

ويفهم من وثيقة مؤرخة فى سنة (١٠٧٠ هـ / ١٦٦٠ م) أن الذى أنشأ هذا الجامع رجل يُسمّى الحاج حبيب ، أنشأه بأموال تبرّع بها الحوّاتون والجنود وأهل الخير .

والمسجد يتبع فى خطوطه العامة طريقة مسجد أياصوفيا ، أى : أن مركزه كله هى القبة التى تقوم فوق وسط بيت الصلاة ، وهى تقوم على أربع دعائم ضخمة من الحجر الملبس بالرخام ، وارتفاع القبة (٢٤ متراً) تحيط بها قباب أصغر تقوم على إيوانات بيت الصلاة .

أما مئذنة المسجد فمغربية الطراز ، وهذا هو وجه الجمال فى ذلك المسجد الذى يجمع بين طرازين مختلفين ، وهى مئذنة أنيقة ترتفع فى الجوَّ بيدنٍ منسرحٍ على هيئة مكعبٍ ينتهى عند شرفة الأذان ثم يكتمل بجوسق جميل .

مسجد كنشاة :

يقوم هذا المسجد المشهور فى حي «كنشاة» من أحياء مدينة الجزائر ، ويرجع تأسيسه إلى سنة (١٠٢١هـ / ١٦١٢م) ، ثم أعاد ترميمه وأكمله الباشا حسن سنة (١٢٠٩هـ / ١٧٩٤م) .

وبيت الصلاة فى هذا المسجد الصغير الأنيق مربع طول كل من أضلاعه (٢٤ متراً) وتقوم القبة الكبيرة فى وسط بيت الصلاة على أربع دعائم ضخمة تبعد كل منها عن الأخرى (١١,٥ متراً) ، وهذه الدعائم تحمل عقوداً مستديرة ترتفع فوقها قبة ذات ستة أضلاع ؛ وداخل المسجد كله مُبطنٌ بالرخام .

وهذا المسجد أيضاً كانت الكنيسة الفرنسية قد استولت عليه وحوَّلته إلى كنيسة ، وأدخلت عليه تحويرات شتى أفسدت هيئته ، وأضافت إليه أجزاء أخرى لاستكمال الشكل الكنسى ، وقد أعيد إلى الإسلام بعد الاستقلال .

مسجد صلاح باى فى عنابة :

يعتبر هذا المسجد من أجمل ما خلفه العصر التركى فى القطر الجزائرى ، وقد بناه الباي صلاح سنة (١٢٠٦هـ / ١٧٩١ - ١٧٩٢م) فى الناحية الجنوبية من بونة المعروفة اليوم بعنابة .

والرسم العام لبيت الصلاة عثمانى مغربى فى آن واحد ، فهو مكوّن من ثلاثة أروقة تتجه نحو جدار القبلة ، وفى وسط بيت الصلاة - فوق الرواق الأوسط - تقوم قبة كبيرة

تجاورها على اليمين والشمال قبتان أصغر حجماً ، وفي جدران بيت الصلاة نوافذ كبيرة مزينة بالزجاج الملون ، وبفضل هذه النوافذ يفيض داخل الجامع بالنور ، وعقود بيت الصلاة تقوم على أعمدة طويلة من الرخام .

وللجامع صحن تحيط به البوائك المستديرة ، وجدران المسجد مزينة في الداخل بالزليج (مربعات الخزف) المغربي الجميل .

مسجد سوق الغزال في قسنطينة :

وهذا مسجد آخر جميل خلفه العصر التركي في الجزائر ، وهو يزين مدينة قسنطينة وهو تركي الطراز ، ولكن بيت صلاته يتكون من سبعة أروقة ذاهبة نحو جدار القبلة ، وفي وسط كل رواق قبة مغربية ذات أربعة أضلاع في هيئة الهرم ، وهي مغطاة بالقرميد .

وبعد ؛ فإن المغرب قطر شاسع ذو حضارة مختلفة الأصول والأشكال ، وقد رأينا فيه من أشكال المساجد وطرزها ما يجعل الكلام عن « طراز مغربي » كلاماً عاماً لا يصدق إلا مع شيء من التجاوز .

فالحق أن العناصر المغربية الأصلية والأندلسية والعربية الشرقية والعثمانية لم يختلط بعضها ببعض اختلاطاً تاماً في عمائر المغرب ، بل وقف هذا الاختلاط عند نقطة ما ، وسار كل طراز بعد ذلك في طريقه ؛ ومن هنا كان هذا الفرق الشاسع بين مساجد مراكش والرباط وفاس ، ومساجد الإباضية في مزاب والزوايا البسيطة التي تروّع النفس بما تنطق به من إيمان عميق في فزان ؛ وهذا كله يزيد في سعة عالم المساجد وعمقه .

٢ . الطراز الأندلسي

وُلد هذا الطراز مع إنشاء الجزء الأول من مسجد قرطبة الجامع على يد عبد الرحمن الداخل وابنه هشام فيما بين سنتي (١٧٠ - ١٧٧ هـ / ٧٨٦ - ٧٩٣ م) ، ولهذا جعلناه تالياً - في الترتيب الزمني - للطراز المغربي الذي ولد بميلاد جامع عقبة في القيروان فيما بين سنتي (٥٠ - ٥٥ هـ) .

ويرى بعض العلماء أن الطرازين المغربي والأندلسي طراز واحد ، ويرون أنهما يتشابهان في الملامح والتطور التاريخي ، وهذا غير صحيح ، فقد وُلد كل منهما مستقلاً عن الآخر ، وكانت لكل منهما خصائصه المميزة وتطوره التاريخي الخاص به .

حقيقةً إنهما التقيا في أواخر عصر الطوائف قرب نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، ولكن ذلك الالتقاء لم يوحد بينهما دائماً توحيداً تاماً ، بل ظل كل منهما مستقلاً في نطاقه متطوراً في ميدانه ؛ ولهذا قلنا هنا إنهما طرازان مستقلان ، ويمكن أن نعتبر ما يُسمّى بالطراز الإسباني المغربي Hispano - Mauresque - وهو طراز وسط بينهما أخذ من كل منهما بطرف - طرازاً ثالثاً أيضاً .

والحقيقة أن الطراز الأندلسي - في تطوره - تولدت عنه طرز جديدة أندلسية خالصة كان لها أبعد الأثر في تاريخ العمارة العالمية ، وهي الطراز المستعربي Estilo Mozarabe والطراز المدجّن Estilo Mudejan الذي ينسب في بعض مظاهره إلى الموريسكيين Les Moriscos ، أي : العرب الصغار ونُسَمِّيهم في العادة بالعرب المستعجمين ، ونحدث عن تلك الطرز الأندلسية بإيجاز فنقول :

(أ) طراز الخلافة : (١) Estilo Del Lafifato :

يعتبر مسجد قرطبة الجامع - بمراحل بنائه الأربع - النموذج الرئيسي الذي تتجلى فيه خصائص هذا الطراز ؛ وقد تحدثنا عن هذا المسجد بتفصيل في كلامنا عن المساجد الألفية القديمة بما يغني عن وصفه هنا .

(١) حرصت في هذه الفقرة على ذكر المصطلحات الإسبانية أو الفرنسية إلى جانب صورتها العربية لتيسير المراجعة في الكتب غير العربية لمن يريد .

وأهم خصائص طراز الخلافة : رصانة البناء والاعتماد على الحجر المنحوت - فيما عداً بعض أغراض الزينة - واستعمال الأعمدة الرخامية الرفيعة الأبدان ، وتقويتها بقواعد صلبة من الحجر ، وتزيينها بتيجان رخامية مزخرفة تشبه الرؤوس المركبة للأعمدة الرومانية ، ثم رفع عقود مستديرة مفردة أو مزدوجة على هذه الأعمدة .

وقد ابتكر المعمارون - الذين صمّموا هذه العقود - طريقة المزاوجة في صنجات العقد بين الحجر المنحوت وقوالب الآجر ، توضع قائمة على ضلع سمكها فيكون لذلك التزاوج بين لون الحجر الأصفر والآجر الأحمر منظر خلّاب .

وقد أبدع المعمارون في إحكام توازن هذه العقود ، حتى إنهم عندما أرادوا تعلية السقف أقاموا فوق الأعمدة دعائم من الحجر ، ثم رفعوا عقوداً ثانية من نفس الطراز وأعلوا الجدر ثم وضعوا السقف ، وتعمّدوا أن يكون السقف خشبياً خفيفاً ، حتى لا يزيد الثقل على الأعمدة ؛ وزُيّنت الجدران في أعاليها بشماسات رخامية ، وزينت أبواب الجامع بشماسات حقيقية أو صمّاء ، وربما زُيّن الجدار أعلاها بأشكال أعمدة صمّاء ، ويعتبر الباب الرئيسى - فى الواجهة الغربية للمسجد - نموذجاً رائعاً لزينة الأبواب والجدران فى تاريخ العمارة الإسلامية كله ، ويزيده بهاء أنه ملون تختلط فيه حمرة الآجر بصفرة الحجر ؛ وينسب هذا الباب الجميل إلى الحكم المستنصر .

ونظراً لارتفاع الجدران جرت العادة بشدّها بدعائم سميكّة من الحجر ، وقد أتاح هذا الارتفاع للمعماريين الفرصة لابتكار صور شتى لزيتها وملء فراغها بتشكيلات زخرفية تنم عن إبداع واسع المدى .

وتجد فى كلامنا عن مسجد قرطبة الجامع تفصيلاً لبقية خصائص هذا الجامع ، ونضيف هنا أن هذه الخصائص هى التى تميز هذا الطراز بصفة عامة ، فنحن نجدّها كذلك فى جامع باب مردوم^(١) الصغير فى طليطلة وهو من أجمل المساجد الباقية فى الأندلس ، ونجدّها كذلك فى عمارة مدينة الزهراء ، وإن من ينظر إلى بهو عبد الرحمن الناصر فى الزهراء لا يشك فى أنه ثمرة أخرى من نفس شجرة طراز الخلافة .

(١) ويسمى أيضاً: الباب المردوم ، وقد حُوِّك إلى كنيسة صغيرة سُمّيت باسم كنيسة مسيح النور Cristo De La Luz ثم تركت هذه الكنيسة لصفر مساحتها ، وهو الآن مجرد أثر سياحى فى طليطلة .

وقد بقيت من آثار طراز الخلافة بقايا قليلة أهمها الجزء الأسفل من مثذنة مسجد إشبيلية الجامع القديم الذى يسمى باسم جامع ابن عديس ، وهذه المثذنة داخلية الآن فى برج النوايس فى كنيسة السلفادور ، وبقيت كذلك بقية فى بعض أجزاء من قصبة ماردة وقد أنشئت سنة (٨٣٥ م) ، وكذلك قنطرة حجرية على نهير فى الطريق من قرطبة إلى الزهراء ، وبضعة عقود فى مسجد قصبة المرية ، والجزء الأسفل من مثذنة مسجد غرناطة الجامع القديم ، وهو اليوم قاعدة برج النوايس فى كنيسة سان خوسيه .

(ب) الطراز المستعربى :

ظهر هذا الطراز وتطور أثناء عصر الخلافة ، ولكنه لم يظهر بخصائصه الكاملة إلا خلال القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ، وهو منسوب إلى المستعربين وهم أهل الأندلس الذين بقوا على دين آبائهم وإن استعربوا لساناً وفكراً وأصبحوا أندلسيين كغيرهم .

وقد اقتبس المستعربون هذا الطراز من طراز الخلافة واستخدموه - أولاً - فى إنشاء كنائسهم ومنشآتهم المدنية الأخرى ، وقد أبدعوا فى إنشاء هذه الكنائس ، حتى قبس هذا الطراز منهم أهل إسبانيا النصرانية ، وأنشأوا على غرارها أجمل ما بقى من كنائسهم التى أنشأوها فى عصر الخلافة ؛ وهى تتميز بصورة واضحة عن الكنائس الأخرى التى بنيت على الطراز الرومانى الذى ساد أوروبا كلها فى ذلك العصر .

ويمتاز هذا الطراز بالتفنن فى استعمال الآجر بدلاً من الحجر ، واستعمال العقود الدائرية ، وقد استعملوا أشكال هذه العقود لأغراض زخرفية .

ولن نتوسّع فى الكلام عن هذا الطراز لأنه ليس طرازاً مساجدياً ؛ ولكننا ذكرناه لأنه يُعَيِّن خطوة انتقال من طراز الخلافة إلى الطراز المدجنى الذى سنتحدث عنه ..

(ج) الطراز المدجنى :

ينسب هذا الطراز إلى المدجنين ، وهم الأندلسيون المسلمون الذين دُجنوا - أى : بقوا فى نواحي الأندلس التى سلبها النصارى - وخضعوا لحكمهم ، وقد تنصّر الكثيرون من أولئك المسلمين ، أو نشأ أولادهم نصارى وإن لم يتنصروا هم أنفسهم ، واشتغل

أهل البناء منهم فى إنشاء العمائر المسيحية ما بين كنائس وغير كنائس ، وقد بقيت لنا من هذا الطراز نماذج كثيرة جداً معظمها كنائس ، وهى لا تقتصر على إسبانيا بل انتشرت فى فرنسا أيضاً ؛ وهناك نصوص تدل على أنه كانت هناك مساجد بنيت على هذا الطراز ، أو أن بعض الكنائس المدجنية الحالية كانت فى الأصل مساجد ثم حُوت .

وقد دخلت فى هذا الطراز العقود المدببة وعقود حذوة الفرس ، والدعامات المبنية من الحجر أو الآجر ، واقتبس المعماريون العقود ذات الفصوص والشمسيات الرخامية أو الجصية ، وكذلك الشماسات الخشبية والشرافات ذات الأشكال المختلفة .

وأظهر ما يميز هذا الطراز استخدام الآجر والتفنن فى ذلك ، حتى استغنى المعماريون عن تخصيص المبنى من الخارج بعمل أشكال زخرفية جميلة ، بوضع صفوف الآجر فى أوضاع مختلفة : على بطنها أو قائمة على سَنِّها أو جانبها أو مائلة ، وما إلى ذلك .

وقد أشرنا إلى ابتكار العقود المدببة المتقاطعة المعروفة بالقوطية فى مسجد قرطبة الجامع أى : فى طراز الخلافة ، ونضيف هنا أن المعماريين ساروا بهذه العقود إلى نهايتها فى «الطراز المدجنى» ، واستخدموها فى عمل شبابيك قوطية الطراز زينوها بالزجاج الملون .

ودخل فى هذا الطراز استعمال مربعات الخزف الأندلسى والمغربى - المعروف بالزليج - واستعمل فى داخل الأبنية لتغطية الجدران إلى ارتفاعات كبيرة ، وفى محراب جامع الحمراء - الذى كان موجوداً إلى نهاية القرن الماضى - نجد نموذجاً جميلاً من استخدام الزليج فى زخرفة المساجد الأندلسية .

وقد تحولَ هذا الطراز - فى آخر صوره - إلى طراز زخرفى مشغل بالزخارف والمقرنصات والشماسات والقمريات ، على صورة تبهر العقول ولكنها لا توقع فى النفس ذلك الشعور بالجلال الذى تتركه آثار طراز الخلافة الرصين الأصيل . وهذا التطور الأخير - الذى يعتبر آخر فصل فى تاريخ العمارة الإسلامية فى الأندلس - يُسمى بطراز الحمراء أو الفن النصرى^(١) ، وهو يتجلى فيمابقى لنا من قصور الحمراء ؛ ومع أن قصر إشبيلية El Alcázar de Sevilla بنى فى نفس العصر إلا أنه إلى الطراز المدجنى

(١) نسبة إلى بنى نصر ، وهم بنو الأحمر ملوك غرناطة ، ويُسمى هذا الطراز فى تاريخ العمارة الإسبانية باسم El estilo nazari .

أقرب ، وهو فن جميل ولكنه حزين إذ إنه قام على أيدي صناع عرب أو أبناء عرب عاشوا وعملوا بعد نهاية عصور الإسلام وسيادته في شبه الجزيرة .

* * *

كانت بلاد الأندلس عامرة بالمساجد ، في قرطبة وحدها عدواً أكثر من ثلاثة آلاف مسجد ، وقد عمرت مدائن الأندلس الكثيرة بألوف المساجد تمتد من جبال ألبرت في الشمال إلى جبل طارق في الجنوب ، فأين ذهب ذلك كله ؟

لقد مضى إلى حال سبيله ، كأنه سفين ضخمة غرق في اليم ، ولم تبق منه إلا بقايا شبيهة بحطام السفين الغارق .

ولهذا فإن المتحدث عن الفن الأندلسي إنما يتحدث عن حطام وبقايا ولكنه حطام يروع النفس ويقف شاهداً على مجد معماري عظيم .

* * *

٣ - الطراز المصرى

هنا - أيضاً - كان ينبغى أن نقول : « الطرز المصرية » لأن فن البناء فى مصر خطأ منذ قيام مسجد عمرو بالقسطاط خطوات بلغ من اتساعها أن أطلعت أشكالا يمكن أن يُسمى كل منها طرازاً قائماً بذاته ، فإن الفرق بعيد بين جامع عمرو فى وصفه الأول ، وجامع عمرو نفسه كما وصفه لنا أبو عبد الله القضاعى فى القرن الرابع الهجرى بعد تجديده وإعادة بنائه عدة مرات ، والبون شاسع بين جامع عمرو جملةً وجامع أحمد بن طولون ، ثم بين هذا الأخير والمساجد الفاطمية (ونموذجها الكامل الباقي إلى اليوم المسجد الأحمر الذى بناه الحاكم بأمر الله) ، والمساجد المملوكية التى تطورت تطوراً بعيداً خلال القرون الثلاثة تقريباً التى عاشتها دولتنا المماليك .

ولكن ، على الرغم من اختلاف الأشكال اختلافاً يبيّننا نلاحظ أن هناك سلكاً رفيعاً يتنظم دُرر المعمار المصرى ، ويجعل منها عقداً واحداً على طول الطريق ، وأهم خصائص هذا السلك :

١ - رصانة البناء ومتانة تأسيسه :

وسواء أقام المسجد بالحجر المنجور أم بالآجر ، فإننا نجد المعمارى المصرى قد بنى عن علم وثقة ، فلست بواجد مثلاً جداراً يبلغ سُمكه مترين أو ثلاثة كما نجد فى أبنية بعض البلاد الأخرى ، لأن الإسراف فى السُمك - طلباً للمتانة - يدل على جهل بالصناعة برىء منه المعمارى المصرى فى كل عصر ومكان ، وإنما الشئ على قدره وبحسابه .

ومن دلائل المعرفة بأصول الصناعة عدم استعمال المواد الهشة أو القابلة للتلف فى المباني العامة أو مباني الفخامة مما يُسمى بالمباني التُصْبِيَّة Monumental فمع أن غالبية أهل الأرياف فى مصر يتخذون بيوتهم من اللبن ، لا نجد المعمارين المصريين بنوا مسجداً ذا شأن بهذه المادة ، ولا هم عملوا منها الجدران الخارجية أو الأسوار ، مع أن ذلك كان شائعاً مثلاً فى العراق ، ولم يتخذ المصريون فى مبانيهم الكبيرة جذوع النخل

ولا الحجر غير المنحوت ، واستعمالهم للملاط دقيق ، وهم - فى العادة - يستعملون الحد الأدنى منه ، ويفضّلون - لهذا - البناء بالحجارة الكبيرة المثقنة النحت ، مما يقلل الحاجة إلى الملاط .

٢ - المحافظة على وحدة فنية فى البناء :

وهذا واضح من نظرة على مسجد ابن طولون ، حيث تجد الهيئة العامة واحدة فى كل جزء من أجزاء المبنى : فالعقود فى كل المبنى مديبة ، والشبابيك فوقها موضوعة بنفس النسب ؛ وفى العصر الفاطمى ظهرت هذه الخاصة بصورة أوضح ، فإذا نظرت إلى الجامع الأقمر أو إلى جامع الصالح طلائع بن رزيك لاحظت هذه الوحدة الفنية بارزة بصورة لا تخطئها العين ، ولقد استعمل المعمارى هيئة المحارة فى الأبواب والنوافذ، ثم جعل على الجدار الخارجى كله إزاراً من نوافذ صماء على هيئة المحارة ، وجعل طاقية المحراب - أى : أعلاه - فى هيئة محارة ؛ أى أننا - بالفعل - نقف أمام عمل فنى ذى وحدة فنية لا شك فيها .

٣ - الحرص على توازن الهيئة العامة للمبنى :

وهذا التوازن لا يفتعل فى المساجد افتعالاً بصورة شكلية ، مثل بناء مئذنين على جانبى المدخل أو على ركنيه الأماميين ، بل يتأتى من التوازن العام للمبنى كله ، ومن أجمل مظاهر هذا التوازن فى المساجد المملوكية إنشاء القبة فى طرف من المبنى والمئذنة فى طرفه الآخر ، فتكون النتيجة توازناً ترتاح إليه النفس ، مع أن القبة مستديرة والمئذنة مستقيمة ، ولكنهما تتوازنان فى النظر والإحساس .

وهذا التوازن هو الصفة الأساسية التى حرص المعمارى المصرى على المحافظة عليها فى كل عمل قام به ، وإذا استثنينا الأزهر وجدنا أن كل مساجد مصر الأثرية تمتاز بهذا التوازن العام فى المبنى ، وهو توازن يدل على أن المعمارى كان يضع تصميم مبناه كله مرة واحدة قبل أن يشرع فى تنفيذه ، ويصل هذا التوازن إلى ذروته فى مساجد قايتباى وبرقوق والسلطان حسن ، وتستطيع أن تستبين ذلك إذا تأملتھا وأمعنت النظر فى توازن هيئة مبناها .

وقد استثنينا الأزهر لأن كثرة الإضافات إليه أضاعت وحدته المعمارية ، وقد رأيت فيما مضى كيف تنافس أمراء المماليك على الإضافة إلى هذا المسجد - التماساً للثواب أو حباً فى العلم - فتضخمت مساحة المسجد ولكن وحدته الفنية ضاعت .

وعنصر التوازن هذا يتجلى فى التفاصيل كما يتجلى فى المجموع .

وأنت إذا نظرت إلى مئذنة مصرية تبينت ذلك للوهلة الأولى ، فهذه المئذنة تعتبر أجمل وأرشق مآذن المساجد ، فهى متوازنة فى قُطر دائرتها وارتفاعها وعدد شرفات الأذان فيها ، والشرفات نفسها موضوعة على مسافات محسوبة بحساب دقيق ، ولا شك أن المئذنة المصرية - مثلها فى ذلك مثل المسلة المصرية القديمة - تعتبر من أجمل وأرشق الأشكال المعمارية التى ابتكرها الإنسان ، وكما غزت هيئة المسلة المصرية عالم المعمار فى الدنيا كلها ، فكذلك المئذنة المصرية انتقلت من مصر إلى بلاد إسلامية كثيرة ، ووصلت إلى أقصى جنوب السودان وإلى أمريكا اللاتينية .

ومثل ذلك يقال عن القبة المصرية ، فهى أيضاً آية فى التوازن والانسجام ، لا يعيبها طول رقبة - كما نجد فى بعض القباب السلجوقية - ولا إسراف فى انحناء العقود حتى تبدو وكأنها بصلة - كما نجد فى المساجد الهندية - وهى لا تعرف الانفراج الذى تفقد معه القبة وقعها كعمل معمارى ، وعلى الرغم من أن المصرى لم يحاول زخرفة القبة بتغطيتها بالقاشانى الملون أو بتلوينها أو بتذهيبها فإنه وصل بها إلى درجة من الجمال أصبحت معه من أجمل القباب وأكملها .

وإذا أذن لى القارئٍ أشرت هنا إلى الأذان المصرى وما يمتاز به من لحن جميل طويل النَّفَس ، يحتفظ فى نفس الوقت بوقار الدين وجلال الدعوة إلى الصلاة ، فهذا الأذان يعادل - فى عالم النغم - جمال المئذنة المصرية فى عالم المعمار .

وإذا كان الأذان المصرى ترجمة موسيقية للجمال العمارى فى المئذنة ، فإن قراءة القرآن التى نسمعها من كبار المقرئين اليوم إنما هى أيضاً صورة موسيقية صوتية لتوازن المسجد المصرى كله ؛ كلاهما عمل فنى يمتاز بالرصانة والاتزان والتناسق ، مع الخلاوة دون أن يمس ذلك وقار التَّقَى وصفاء الإيمان ؛ وهذه كلها مظاهر لتقليد فنى واحد نشأ على ضفاف النيل من آلاف السنين واحتفظ بشخصيته وخصائصه على مر العصور .

ومن أسف أن الجانب الأكبر من المساجد الفاطمية قد زال من الوجود ، وجزء كبير من الباقي قد تخرَّب واختفت معالمه الفنية ونواحي جماله ، وفي هذه الحالة لا بد أن نتنظر حتى يكشف لنا الأثريون عن تفاصيل المنشآت الفاطمية المتخرَّبة ، لكي نتبع الانتقال من الطراز الفاطمي إلى المملوكي ، فعلى الرغم من كثرة ما أُلِّفَ في العمارة المصرية ، فإن أحداً لم يدرس عملية الانتقال والتطور نفسها من طراز إلى طراز ؛ ولهذا فنحن - غير الأثريين - نرى التطور والانتقال ، ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق كيف تم كل منهما ، وإلى أن تتم هذه الدراسة فإننا نكتفى بأن نقرر أن الوحدة الفنية للمعمار المصري واضحة ، تتجلى في أبسط نظرة إلى مساجد مصر ، من أوائل العصر الفاطمي إلى اليوم ، ولكن تنقصنا دراسة الأثرى الفنان الذي ينظر إلى العمل المعماري على أنه إبداع فني ، لا مجرد مجموعة عناصر معمارية ذات أطوال ومقاييس .

وسنجتهد - على أي حال - في أن نختار من صور المساجد المصرية ما يبين هذه الوحدة الفنية وتطورها .

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن المساجد المصرية تنقصها - بصورة عامة - العناية والمحافظة ، فإن أكبر جانب من جمالها يضيعه الإهمال والتدهور والتهدُّم ، وتساقط الملاط وما فوقه من صبغ ونقوش ؛ وأسوأ من ذلك أننا في مصر نادراً ما نحيط الجامع بإطار يناسبه ، مثل مساحة مزروعة حوله يدور عليها سياج ، أو الفصل بين الدكاكين الشائثة المنظر وجدران المسجد ، وغير ذلك كثير .

وقد عرضنا - في فصل المساجد الألفية العتيقة - لمساجد عمرو بن العاص وأحمد ابن طولون والأزهر ، ولهذا فإننا لن نتحدث عنها هنا ، فيما خلا إشارة بسيرة إلى جامع ابن طولون يقتضيها المقام ، تكمل بعض ما فاتنا ذكره هناك .

ونظراً لكثرة ما أُلِّفَ المعماريون - من بين مصريين وغير مصريين - عن مساجد مصر ، فإننا سنكتفى هنا بكلمة يسيرة عن أهم المساجد المصرية التي تبين تطور الفن المعماري المساجدي المصري خلال تاريخه الطويل ، ونحيل القارئ المتطلب للتفاصيل إلى مؤلفات أكمل وأشمل ، كتبها متخصصون من أمثال: أحمد فكري وفريد شافعي والدكتورة سعاد ماهر .

مسجد ابن طولون (٢٦٥هـ / ٨٧٩ م) :

يعتبر الجامع الطولونى من المعالم الفاصلة فى تاريخ العمارة الإسلامية ، فقد اخْتُطَّ سنة (٢٦٥ هـ / ٨٧٩ م) أى : فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وهو مبنى كله بالآجر (الطوب الأحمر) بما فى ذلك دعاماته (الأعمدة المبنية) وعقوده (أقواسه) والكوَآت الزخرفية فى أعلى الحوائط ، وهى تتوالى فى صف طويل فوق العقود وفى أعلى الحوائط ، حتى لقد شَبَّهها لوى هوتكور Louis Hautecour برجال ممسك بعضهم بأيدي بعض .

المنظر الذى تراه هنا أخذ فى صحن الجامع فى اتجاه بيت الصلاة ، والمبنى الصغير الذى تراه فى مقدمة الصورة هو الميضأة القائمة فى وسط الصحن ، وهى أقل أجزاء المبنى جمالاً . مثدنة المسجد تعتبر ثمانية مثدنتين ذواتى سَلَم حلزونى خارج المثدنة : الأولى فى مسجد سامرا وهو شقيق مسجد ابن طولون ، وإن كان الأخير أكثر تناسقاً وانسجاماً بهيئته الهندسية المربعة ؛ وبيت الصلاة والمجنّبات الثلاث تحيط بالصحن كأنها جدار حصن واسع ، تشرف عليه المثدنة الفريدة التى بنيت عند الجدار الخلفى للمسجد كله .

مسجد الحاكم بأمر الله (٩٩٧هـ / ١٠٢١ م) :

هذا المسجد - الذى يعتبر علماً بارزاً فى تاريخ العمارة الإسلامية - يتداعى ويفقد بهجته منذ زمن طويل ، لأن الموكّلين بشئون الآثار الإسلامية لا يشعرون نحوها بالحب الكافى ؛ والحب حقيق بأن يعوّض نقص الاعتمادات المالية الذى طالما شكّوا منه ..

وهم ينسون أنه فى مسائل الفن يقوم الحب فى المكان الأول ثم يأتى دور المال ، فهناك قطعاً مالٌ كافٌ لصيانة هذه الجدران وتنظيفها وحمايتها ورَمِّ ما وهى منها ، ولكن الذى ينقص هو القلب .

مساجد العصر الفاطمى استمرار لتقاليد المساجد الطولونية من ناحية ، ومظهر من مظاهر الحضارة المغربية التى جلبها الفاطميون إلى مصر من ناحية أخرى ، فإن مساجد المغرب الأولى أقرب إلى الحصون ، وماآذنها أبراج ، ومسجد الحاكم نموذج لذلك ، والجدران التى تراها هناك شبيهة بأسوار بلد ، وكذلك المثدنة ، وكان نصفها الأعلى قد

سقط إثر زلزال ، فصنعوا لها هذا العوض على شكل قبة ، فبدت مثذنة قبة . هذا الطراز من المآذن المجبورة كثير فى القاهرة .

داخل جامع الحاكم يملأ النفس رهبة بمظهر الخراب الذى يسوده ، ودعاماته الضخمة المبنية بالآجر لتحمل العقود ، تدل على أن المعمارى لم يجرؤ بعد - فى مصر - على رفع السقف كله على عقود تقوم على دعائم .

مسجد الصالح طلائع بن رزيك (١١٦٠ م) :

يقوم هذا المسجد فى مواجهة باب زويلة ، وقد أنشأه هذا الوزير الفاطمى ليوضع فيه رأس الحسين بن على ربحانة أهل الجنة ، وكان الفاطميون قد نقلوه من دمشق إلى عسقلان ثم نقله الأفضل الجمالى بعد ذلك بحوالى ستين سنة إلى القاهرة .

المسجد يمتاز بواجهته التى تطل على الطريق بشرفة من خمسة عقود تقوم على أعمدة رخامية رفيعة . لاحظ الأقواس المدببة لهذه العقود الأنيقة . لاحظ أيضاً العقدين الأصميين الزخرفيين إلى يمين الواجهة ويسارها ؛ وزخرفة العقد الأصم تعطيه هيئة المحارة ، وهى منقولة عن محارات القبلات . هذا الشكل مقتبس من زخارف الجامع الأقمر الذى يعتبر درة العمارة الفاطمية .

جامع الجيوشى (١٠٨٥ م) :

يقوم هذا المسجد الحزين وحيداً فريداً فى طرف من أعلى جبل المقطم المطل على القاهرة . منشئ هذا المسجد هو أمير الجيوش^(١) بدر الجمالى ، منشئ بوابات القاهرة ومنقذ الدولة الفاطمية ، ولهذا يوصف جامع الجيوشى فى الكتابة التى وجدناها بداخله بأنه « مشهد » أى : ضريح شهيد ، ويظن أن بدرأ الجمالى أراد أن يجعل منه مشهداً للإمام على كرم الله وجهه .

المسجد صغير المساحة ، ولكن بيت صلاته يمتاز بزخارف جصية جميلة تتكون من ورق العنب وعنقوده .

المثذنة صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن القبة كثيراً والمسجد كله فى حاجة إلى ترميم كبير حتى يبدو فى جماله الحقيقى ؛ وهيئته اليوم أشبه بمقبرة فى الخلاء لا تؤنسها إلا هذه الشجرة المذعورة .

(١) فى العامية المصرية ينطق هذا اللقب «مرجوش» ، وفى حى الجمالية شارع يسمى مرجوش ، وهناك أسر تحمل لقب «الرجوشى» .

الجامع الأقمر (٥١٩ هـ / ١١٢٥ م) :

يعتبر هذا المسجد من أجمل مساجد العصر الفاطمى وأكملها من الناحية الفنية ، وهو كذلك ينطق بطابعه الفاطمى ، وخاصة إذا قارناً ببوائكه بيوائك صحن الجامع الأزهر ؛ وقد أمر بإنشائه الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله بن المستعلى سابع خلفاء الفاطميين فى مصر سنة (٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م) ، وهو فى شارع أمير الجيوش قرب باب الفتوح فى حى الجمالية بالقاهرة ، وقد كمل المسجد سنة (٥١٩ هـ / ١١٢٥ م) .

والجامع الأقمر بسيط فى تخطيطه ، فهو يتكون من بيت صلاة يشتمل على أربعة أروقة (أى : بلاطات) عمودية على جدار القبلة وأربعة موازية لجدار القبلة (أى : أساكيب) ، والرواق المجاور للقبلة فسيح ؛ وللمسجد صحن مكشوف مربع ، ويحيط بالمسجد كله سور عريض ومدخله الرئيسى معقد بعض الشيء تطل عليه الحنايا .

وأهم ما يميز المسجد - كما قلنا - وحدته الفنية التى تبدو من أية زاوية نظرنا إليه ، وقد أشرنا إلى ذلك بما فيه الكفاية فيما سبق من الكلام .

وكما قلنا فيما يتصل بكثير من المساجد المصرية ، يحتاج المسجد إلى ترميم كبير وعناية ورعاية حتى يتجلى جماله الحقيقى .

روضة أبى منصور إسماعيل بن ثعلب (١٢١٦ م) :

أثر مساجدى فريد فى الطريق إلى مسجد الإمام الشافعى ، وهو - كغيره من الأضرحة والروضات - مسجد صغير أو مصلى أنيق ، بناه هذا القائد الأيوبرى فى سنة (١٢١٦ م) فى عصر بقيت لنا منه آثار معمارية قليلة ؛ والحق أن العصر الأيوبرى كله فقير فى منشآته سواء فى مصر أو الشام ، خاصة إذا ذكرنا غنى العصر الذى سبقه (الفاطمى) واللاحق عليه (المملوكى) .

محراب المصلى ، مزين بكتابة على الخشب فيها اسم صاحب الضريح وتاريخ إنشائه . نصف هذه القطعة الخشبية فى متحف الفن الإسلامى فى القاهرة ونصفها الآخر فى متحف فيكتوريا وألبرت فى لندن ؛ والمحراب كله من الآجر ، وقد أبدى المعمارى مهارة فائقة فى استخدام هذه المادة فى البناء والزخرفة .

وقد لاحظ الأثريون أن المعمارى اقتبس هذه الزخرفة من المسجد الأقمر ، وخاصة أعلى حنية المحراب والكوات المعينة الشكل فوقها .

مسجد وروضة السلطان قايتباى بالقاهرة (١٤٧٢ - ١٤٧٤ م) :

يقوم هذا المبنى الجميل فى منطقة مقابر الخلفاء جنوب القاهرة ، وهو آخر ما أنشأه هذا السلطان وأكثره جمالاً .

أظهر ما يمتاز به هذا المسجد هو التناسق الرائع بين أجزائه : مثذنته الرفيعة السامقة تتوازن تماماً مع القبة العالية المزينة بالزخارف البديعة فى خارجها ؛ وطالما ترنم الأثرى الفرنسى چاستون ويت Gaston Wiet بجمال هذه القبة ونقوشها وقال إنها أنشودة من الخطوط والأشكال .

كل ما فى هذا المسجد يكاد أن يكون مقطّعات من نفس الأنشودة : البوابة العالية ، والسلالم الرخامية ، والأعمدة والأقواس التى تحملها ، وشبابيك الزجاج الملون ، وكل ما تقع عليه العين داخل هذا الأثر البديع .



مثالان من المجموعات المساجدية المصرية في العصر المملوكي



جامع قلاوون وجامع السلطان حسن :

إنشاء المساجد الكبرى على الأضرحة ، أو إقامة الأضرحة المساجدية تقليد قديم ترجع أصوله إلى ميل المصريين وغيرهم من أمم الإسلام إلى إنشاء المصلّيات إلى جانب القبور طلباً للرحمة للمتوفى .

وفى العادة تبنى الجماعة لمن ترى فيه الصلاح والتقى وترفعه إلى مرتبة الولاية مسجداً ويعتبرون الصلاة فيه بركة أو مزيداً من البركة ؛ ومن هذه الأضرحة المساجدية لدينا ألاف فى عالمنا الإسلامى ، ولكن الأتقياء من أهل العلم والدين والفضل كانوا لا يميلون إلى ذلك ، بل كانوا يفضلون أن يُدفنوا فى قبور بسيطة لا يميزها إلا شاهد قبر يحمل طلب الرحمة والثواب لهم مع بعض آى القرآن .

وأكبر مثال لذلك : قرافة مصر فى سفح المقطم ، حيث دُفن الكثيرون جداً من صلحاء مصر وعلمائها خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى ؛ وقد كانت القرافة نفسها محجاً للناس ، وكانت فى أيام عمارتها منشأة جميلة فيها الزروع والخضرة عند سفح المقطم .

وعندما توفى الإمام الشافعى أقيم له ضريح جميل ولكنه لم يكن مسجداً ؛ وقد أعيد بناء الضريح أكثر من مرة ، حتى إذا كان العصر الأيوبي وقوى الاتجاه إلى تدعيم مذهب السُّنة بعد زوال الحكم الفاطمى ، أقيم على قبر الإمام الشافعى سنة (١٢١١ م) مسجد كبير ذو قبة جميلة تحتل الجزء الأكبر من سقف بيت الصلاة ؛ ولم يكن قبرُ الإمام الكبير تحت القبة وإنما كان ولا يزال فى صحن المسجد وحوله سياج من حديد ؛ والمبنى الحالى جديد أنشئ فى عصرنا هذا على أساس من المبنى القديم .

وقد تطور طراز الأضرحة المساجدية تطوراً بعيد المدى خلال العصر المملوكى ابتداء من سنة (١٢٥٠ م) ، وتحول الضريح شيئاً فشيئاً إلى مجموعة مساجدية تضم مسجداً ضخماً وضريحاً صغيراً يكون فى الغالب فى صحن الجامع ، على أحد جانبيه الصحن ، ومدرسة ، وقد يضاف إليه مارستان أو مستشفى كما نرى فى المجموعة المساجدية البديعة التى أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، وفى معظم الحالات يضاف إلى المجموعة «سبيل» - أى: مبنى يزود بالماء لتشرب منه السابلة ، وكانت الأسبلة واسعة الانتشار فى

عالم الإسلام كله ، وفي مصر خاصة . وهي قطع معمارية تدخل ضمن نطاق العمارة الدينية ، ولم يبق من الأسبلة التاريخية في مصر إلا قليل أهمها «سبيل أم عباس» ، وهو مبنى حديث ما زال قائماً في الطريق من حى السيدة زينب إلى حى القلعة .

وجدير بالذكر أنه كانت تقوم - قرب هذا السبيل - دار المؤرخ المصرى المعروف أبى المحاسن بن تغرى بردى .

وفي أحيان أخرى كانت تلحق بالمجموعة خانقاه - أى : دار للصوفية والمتعبدين - وأول من بدأ بذلك - فيما يُظن - صلاح الدين الأيوبي ؛ إذ أقسم على تربته فى القلعة مسجد وألحق بها سبيل وخانقاه .

ثم تطور هذا الطراز من المجموعات المساجدية فى سنة (١٣١٠م) عندما أنشأ السلطان الظاهر بيبرس مسجده الباقى إلى اليوم ؛ فهنا نجد المسجد الفسيح الجميل^(١) وإلى جواره مدرسة لدراسة القرآن والحديث ، وتطور الأمر بعد ذلك حتى كان الكبار من أمراء المماليك يجعلون قبورهم على هيئة أضرحة تقوم فوقها قبة كبيرة ، ويلحق بالضريح كُتّاب لإراء القرآن وسبيل ماء .

ونجد أمثلة كثيرة لذلك فيما يعرف اليوم بمقابر الخلفاء التى تنتشر فى مساحة واسعة جنوب غربى جبل المقطم وتمتد إلى مشارف القسطاط . وكانت هذه الأرض - فى ذلك الحين - كلها صحراء خلاء لا تعمرها إلا هذه القبور .

وفى هذه المساحة أيضاً أنشأ السلطان برقوق مجموعته المساجدية فيما بين سنتي (١٤٠٠ - ١٤١٠م) وقد تحدثنا عن هذا المبنى الجميل الذى يضم مسجداً وضريحاً ومدرسة وسبيل ماء ومنظرة لجلوس السلطان خارج بيت الصلاة ، ومقعداً^(٢) فى الدور الأعلى يجلس فيه السلطان والأمراء والفقهاء بعد صلاة الجمعة والعديد من وقد أشرنا إلى ما وفق إليه المعمارى من إنشاء هذه المجموعة فى مبنى واحد هو الغاية فى التوازن والجمال .

(١) توفى الملك الظاهر بيبرس فى دمشق مطالع سنة ٦٧٦هـ ودفن فيها ، وقبره موجود اليوم فى البناء الأثرى الذى تقوم فيه اليوم دار الكتب الظاهرية .

(٢) المقعد فى مصطلح العمارة المصرية : غرفة ذات شرفة واسعة تنشأ فى الدور الثانى من الدار أو على سطح المسجد ، وتسمى فى العمارة الإيطالية : لوجيا Loggia .

وفى نفس هذا الموضع ، وفى اتجاه النيل - أى : إلى الغرب - تقوم مجموعة أصغر - وإن كانت آية فى الجمال - وهى مجموعة السلطان قايتباى ، وقد تحدثنا عنها .

ولكن أضخم هذه المجموعات هى التى أنشأها السلطان قلاوون فى حى الجمالية بالقاهرة ؛ وربما كانت هذه المجموعة أضخم ما أنشئ من هذا الطراز فى مصر ، فالمسجد فسيح وبيت صلاته رفيع الذرى تقوم فوقه قبة كبيرة تقوم على ست دعائم من الحجر تؤيدها ستة أعمدة من الرخام .

وهناك قبة أخرى تقوم على تربة قلاوون ، وهى قبة ضخمة أيضاً أنشئت على طراز قبة الصخرة ؛ أما المدرسة والمارستان فقد أنشئنا مكان قصر فاطمى قديم ؛ وقد استعملت أحجار هذا القصر وأعمدته وأخشابه فى إنشاء المدرسة والمارستان القلاوونى ، وهو من أضخم المستشفيات التى أقامها المسلمون فى العصور الوسطى ؛ وما زال جزء منها يستعمل إلى اليوم مستشفى للرمم ؛ وفى كتب مؤرخينا كلام كثير عن هذا اليمارستان الذى كان فى نفس الوقت مدرسة للطب والأدوية ، أى : الصيدلة .

والمجموعة تكون كلاً معمارياً واحداً تتشابه فيه العقود والدعائم والأعمدة ؛ ومعظم العقود مديبة ، وقد تحرر المعمارى اختيار هذا الطراز من العقود نظراً لصلابته وقوة تحمّله ، لأن مباني المجموعة كلها منشأة من الحجر المنجور ، ويتجلى ثقل وزنه للنّاظر إليه أول وهلة .

وتنطل على هذه المجموعة أضخم مثذنة بنيت فى مصر ، وهى وحدها مبنى قائم بذاته يضم ملامح كثيرة من المآذن المغربية ، فإن بدن المثذنة بناء ضخم مربع يرتفع فى الجو قرابة عشرين متراً حتى شرفة الأذان الأولى ، وهى شرفة واسعة أنيقة ؛ وبعد الشرفة يستمر بدن المثذنة صاعداً نحو ثمانية أمتار أخرى . وهنا نجد شرفة أذان ثانية يحيط بها سياج حديد ، وفوق ذلك كله يقوم جوسق ضخم ارتفاعه ستة أمتار من الحجر المزخرف وأعلى الجوسق مظلة من الحجر تقوم فوقها عمامة المثذنة .

وجدران المثذنة الأربعة مزينة بنوافذ كبيرة تقوم على عقود مديبة ، وهذه النوافذ تضىء داخل المثذنة وسلّمها العريض .

وواجهة المبنى كله آية فى الجمال ، وهى ذات أدوار يميز كلاً منها صفٌّ من الأبواب

والتوافذ فى الدور الأرضى ، ثم عقود ضخمة مدببة الرؤوس تغطى الواجهة كلها ،
وبداخلها صفوف من التوافذ مختلفة الأحجام والأشكال .

وقد جرى كثير من الممالك على هذا التقليد مع اختلاف تكوين المجموعة
وحجمها ، فدخل فى هذا الطراز مسجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى الجانب
الأسير الخلقى من القلعة ، وقد بنى سنة (١٣١٨ م) وأشرنا إليه آنفاً ، فهو يضم مسجداً
وروضة وكتّاباً ، وكذلك جامع السلطان المؤيد شيخ فى القاهرة (١٤١٦ - ١٤١٩ م)
المجاور لباب زويلة ، وهو مسجد فخم يمتاز ببيت صلاته الفسيح ذى الجدران العالية التى
وصل فيها فن البناء بالحجر الجيرى المنجور إلى أعلى ذروته .

ويمتاز هذا المسجد البديع بجدار قبلته الملبّس بالرخام ومحراه الذى يعتبر من أجمل
ما صنع المصريون من المحاريب المكونة من قطع الرخام المختلف الألوان يلبّس بعضها
فى بعض ؛ وأعمدة هذا المسجد بالغة الجمال والانسجام ، والرواق الأوسط أو الإيوان
المؤدى إلى القبلة يأخذ بالألباب ، وفوقه القبة العالية ، ومثنتا هذا الجامع تستلفتان نظر
كل داخل من باب زويلة ؛ أما المدرسة فتقع خلف المسجد ، ويدخل إليها من باب آخر ،
وفى المدرسة يقوم ضريح السلطان المؤيد .

ونظراً لحرص الممالك على إنشاء مساجدهم فى شارع المُعزّ ، الذى يفضى إليه
الداخل من باب زويلة - وكان يُسمى شارع الغورية نسبة إلى السلطان الغورى - فقد
اكتفى الكثير من الممالك بمساحات صغيرة لمجموعاتهم المساجدية التى تكونت من
مسجد وروضة ومدرسة واستغنوا عن الصحنون فى كثير من الحالات .

ولكن السلطان حسن (٧٤٨ - ٧٥٢ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٥١ م) ، وهو من صغار
أولاد الناصر محمد بن قلاوون (وهو السابع من أولاد الناصر قلاوون الذين تولّوا
السلطنة بعده واسمه الكامل : الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر ، وقد حكم مرتين ؛
وقد بدأ فى بناء مسجده فى سلطنته الأولى وأتمه فى سلطنته الثانية التى دامت أقل من
عام) فقد كان أسعد حظاً من كبار السلاطين الذين سبقوه ، فقد اختار لإنشاء مسجده
مساحة فسيحة تصل إلى ثمانية آلاف متر مربع عند سفح القلعة ، وهناك أنشأ له
المعماريون مسجداً من أجمل مساجد القاهرة ؛ وهو مجموعة كبيرة من المباني يتوسطها

مسجده الفسيح ويتكون من بيت صلاة أنيق مرتفع الجدران تزيينه الدعامات والأعمدة ، ترتفع فوقه قبة عميقة التجويف ، ويفضى بيت الصلاة إلى صحن فسيح فى وسطه ميضأة بديعة ، وتحيط بالمسجد أربع مدارس خُصّصت لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ؛ أما روضة السلطان فصغيرة تقع جنوب المسجد ، وكأنها امتداد لبيت الصلاة ، وهى - فى ذاتها - مسجد صغير ترتفع فوقه قبة صغيرة .

والجديد فى المدارس الأربعة الملحقة بالمسجد أن كلاً منها يتألف من رحبة صغيرة مكشوفة وقاعة للدرس ، وفى جوانب الرحبات وقاعات الدرس خلوات صغيرة ليستذكر فيها من يشاء أو يعتكف ليقراً القرآن ؛ ومن أجمل ما فى هذا المسجد واجهته العالية يزينها مدخل بديع يتكون من عقد واحد مرتفع ، وتعتبر هذه الواجهة من أجمل واجهات المساجد فى مصر .

أما مسجد الرفاعى - المقابل لمسجد السلطان حسن - فمبنى حديث أنشئ فى أيام أسرة محمد على ؛ ليكون مسجداً وضريحاً لأفراد الأسرة ، وقد روعى فى تصميم واجهته وأوضاع مآذنه أن يضاهى - فى الشكل والهيئة - واجهة جامع السلطان حسن المقابلة له ، والمسجد فى ذاته جميل مشرق - وخاصة صحنه الواسع - وقد اشترك فى تصميم هذا المسجد المهندس المعماري الإيطالى ماريو روسى ، الذى ستحدث عنه فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .

ولا يتسع المجال للحديث عن كل مساجد مصر المملوكية ، فقد اكتفينا بأهمها وما له من مكانة فى تاريخ العمارة الإسلامية فى مصر إلى نهاية العصر المملوكى فى (ذى الحجة ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م) وآخر المساجد المملوكية - التى نشير إليها - هو مسجد السلطان الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ) فهو قطعة فنية جمع فيها هذا السلطان السعّ الحظ أطرافاً من أجمل ما امتاز به العصر المملوكى من نهوض بفن المساجد ؛ وقد كان الغورى سلطاناً فقيراً تولّى السلطنة وهو شيخ مثقل بالمتاعب ، وذلك كله ظاهر فى مسجده الصغير نوعاً ما ، ولكن واجهته وبيت صلاته يمتازان بجمال باهر ؛ والمدرسة الملحقة به تستخدم اليوم مرسماً للفنانين ، وإلى جواره واحدة من الدور القليلة الباقية لنا من عصر المماليك ، وهى الآن أثر فنى يُسمى بالمسافر خانة .

٤ . الطراز التركي السلجوقي

إذا تركنا العراق وراءنا واتجهنا شرقاً وجدنا أنفسنا في مناطق شاسعة تترامى حتى غرب الصين ، هذه المناطق دخلها الإسلام في دفعته الأولى ووصل إلى أقصاها شرقاً وشمالاً قبل نهاية القرن الهجرى الأول ، واليوم تشغلها إيران وأفغانستان والباكستان وست جمهوريات سوفيتية ، ولكنها كانت - في عصور الإسلام - ميداناً واسعاً لا تهدأ فيه الحروب والفورات وقيام الدول وسقوطها وتغيرات الحدود ، وعلى الرغم من كثرة ما كتب الجغرافيون العرب عنها فقد كانت صورتها دائماً بعيدة جداً عن الوضوح في أذهان المسلمين ، وأسماء مثل « ما وراء النهر » و « خراسان » و « إيران شهر » تبدو لك وكأنها معروفة ، ولكنك إذا أردت التدقيق في التعرف عليها وجدت أن الأمر ليس كما ظننت ، فنحن لا نعرف أين تبدأ كل من هذه النواحي وأين تنتهى ، أو ما هى - على وجه التحديد - المدن الداخلة فيما وراء النهر أو خراسان أو خوارزم أو آذربيجان .

ويرجع هذا الاضطراب في المعلومات إلى أن الحوادث والتقلبات السياسية تابعت على هذه البلاد طوال العصور الإسلامية بصورة لا يسهل تتبعها في كثير من الأحيان ، وتنقلت العواصم السياسية من مدينة لمدينة بحسب قيام الدول وسقوطها ، وبعض المدن الكبرى التى نقرأ عنها فى هذه النواحي - مثل مرو ونيسابور والدامغان وطوس - تعاقب عليها العمار والخراب مرة بعد مرة فتغير مواقعها وشكلها ، والكثير جداً من الأقاليم التى تمر بها على خريطتها ما هى إلا صحراوات شاسعة لم يعمرها أحد بصورة مستمرة إلا فى العصور الحديثة .

وبصورة عامة نستطيع أن نقول إنه عند الفتح العربى كانت هذه البلاد تنقسم - بدون تحديد كبير - إلى إقليمين فسيحين : إقليم تسكنه الشعوب الإيرانية ، ويليها شرقاً إقليم تسكنه الشعوب التركية ..

والحد الفاصل بينهما - على وجه التقريب - يسير مع نهر جيحون ونهير آخر صغير يسير جنوبه يُسمى المرغاب . وإلى شرق بحر قزوين ، وبينه وبين بحيرة آرال : كان يقوم إقليم خوارزم ، وهو إقليم تختلط فيه العناصر التركية والإيرانية والقوقازية ، وإلى شرقه

وبعد أن نعبر نهر جيحون ؛ نجد أنفسنا فيما وراء النهر ، أو بتعبير أصح : فيما بين النهرين (سيحون وجيحون) ، بلاد المجد الإسلامى الفكرى العظيم ، وقواعده مثل سمرقند وبخارى وترمد وبلخ .

وعندما نعبر جيحون ندخل فعلاً فى بلاد التركستان ، وعندما نسير شرقاً ونعبر هضبة الهامير وجبال تياتشان ندخل الصين ؛ وعلى أميال شرق هذه الجبال نجد كاشغر ، آخر ما فتح القائد العظيم قتيبة بن مسلم ، وهى الآن فى مقاطعة سيكيانج غرب الصين .

بلاد شاسعة مترامية اقتحمها الفاتح العربى الأول بجرائه وشهامته وإيمانه بصورة ما زالت إلى الآن مثالاً لما يمكن أن تصنعه الجرأة والشهامة والإيمان ؛ فى كل هذه المناطق الواسعة أنشأ الإسلام حضارة ونشر علماً وأخرج إلى نور التاريخ شعباً .

وفى مدرسة الإسلام الكبرى تخرج هنا علماء ما زالت أسماؤهم تنير ماضيها العلمى بمصاييح لا يخبو ضياؤها : محمد بن إسماعيل البخارى ، وأبو عبد الله الترمذى ، وأبو زيد البلخى ، وأبو الريحان البيرونى ؛ وهنا أيضاً - فى طوس - مات ودفن هارون الرشيد وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى .

العلم الإسلامى الذى نبت فى هذه النواحي كلها يمتاز بخصائص يعرفها المطلعون على تراثنا الحضارى : الدقة والإتقان والعمق والشمول ؛ كل الأسماء التى ذكرتها لك تمتاز بهذه الصفات ، هذه الصفات نفسها ثمرات هذه الأقاليم الفسيحة الوعرة التى تتكون من هضاب وصحراوات وجبال وسهوب ، هنا لا يعيش إلا القوي ولا يبقى إلا من يستحق البقاء ؛ وليس من العسير أن تطلع هذه النواحي محموداً الغزنوى الذى يضاهى فى سعة فتوحه عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين وأمير الفاتحين .

هذه النواحي - التى حمت ظهر الإسلام قروناً متطاولة - تتميز بما ذكرناه من الوعورة وقسوة الجو والتعرض للأخطار . الجو هنا فى الصيف حار خانق وفى الشتاء تغطي الأرض بالثلوج . حكى أبو حامد الغرناطى - الذى طالما طوَّف فى هذه النواحي - أن الناس إذا مات لهم ميت فى شمال خوارزم فى الشتاء تركوه دون دفن حتى الربيع ، لأن الأرض تصلب بفعل الثلوج فلا يسهل حفر قبر فيها ، ثم إن الميت لا يتعفن ويستطيع أن ينتظر حتى يقبل الربيع ويذوب الثلج وتلين الأرض .

الخصائص الجغرافية ليست هي المميز الوحيد لهذه النواحي ، لأن هذه الطبيعة القاسية أخرجت رجالاً ذوي صلابة وقوة في ميدان الحرب والسياسة ، إلى جانب من أطلعتهم في ميدان العلم .

كان دخول أهل هذه النواحي في الإسلام إيذاناً بدخولهم في ميدان التاريخ ؛ كان تاريخ شعوب شرق إيران وخوارزم وما وراء النهر والتركستان وبلاد الترك قبل الإسلام فوضى وحروب قبلية محلية ، وكانت دول إيران القديمة - منذ أيام الأشفانيين - تجنّد منهم خيرة رجالها .

بعد الإسلام تعلّم أهل هذه النواحي إنشاء الدول ورسم السياسات ؛ هنا في سجستان قامت الدولة الصفارية ، وفي خوارزم وجنوب ما وراء النهر قامت الدولة السامانية ، ودولة بني الساج في آذربيجان ، وبنو زياد في طبرستان (جنوب بحر قزوين) وفي أفغانستان قامت دولة الغزنويين ؛ وهذه الدول كلها - وعدد آخر غيرها - كانت حصائد القرن (الرابع الهجري / العاشر الميلادي) وحده .

وبعد ذلك يتوالى قيام الدول وسقوطها في سرعة وعنف دموى ، وكل دولة منها تخلف وراءها سجلاً حافلاً بالفتوح في ميادين العلم والفن . وكانت موارد هذه النواحي لا تعين على بناء الدول الكبرى زمنياً طويلاً ، فما تكاد الواحدة منها تنهض حتى تسقط ، ولكن هذه الدول نفسها كانت تتيح الفرصة لأشجار العلم والفن أن تنمو وتزهر ، حتى إذا وصلنا إلى النصف الثاني من (القرن الخامس الهجري / الحادى عشر الميلادى) ظهر السلاجقة في الميدان - وهم أتراك من قبيل الطوقوز أو غوز أو الغز أو القره خانية - وانحدروا من بلاد تركستان فاجتاحوا بلاد ما وراء النهر ثم استقروا في إيران ؛ ثم دخلوا العراق وأزالوا دولة البويهيين وأصبحوا جند الخلافة ، ثم تصدّوا للدولة البيزنطية ، وكسب سلطانهم ألب أرسلان انتصار ملاذكرد سنة (١٠٧١ م) وفتحت أبواب آسيا الصغرى .

وهكذا ابتلعت هذه الدولة السُّنية الفتية الدول الإسلامية الأخرى من أقصى حدود بلاد الإسلام شرقاً حتى العراق ، وفتح رجالها أبواب التوغل الإسلامى في آسيا الصغرى . واستمرت دولة السلاجقة قائمة قوية تدافع عن كيائها في هذه النواحي كلها

فوق قرن ونصف ، فإن دولة السلاجقة قامت سنة (١٠٣٧ م) عندما احتل طغرل بك أول ملوكها مرو سنة (١٠٣٧ م) ، وظلوا يسودون شرق العراق وإقليم فارس - شرق الخليج العربي - إلى سنة (١١٩٤ م) .

ومن المعروف أن هذه النواحي الشاسعة كانت تشقها طرق التجارة ما بين آسيا وحوض البحر الأبيض المتوسط ، ومعظم المدن التي ذكرناها يرجع قيامها وازدهارها إلى أنها تقع على طرق التجارة الزاهية من الصين والهند إلى سواحل الشام على البحر الأبيض ، فإذا ساد الأمن نواحي البلاد أزهرت المدن واتسعت وكثر سكانها ، وإذا قامت الحروب انقطعت الطرق وختلت من السابلة ، وتدهورت المدن وخفّ سكانها وربما خربت تماماً .

وكانت طرق التجارة هذه طرق غزو وحملات أيضاً ، فكثر مرور الجيوش في هذه الطرق غازية أو منهزمة ، وهكذا كانت طرق التجارة والرخاء والحضارة طرق خراب ودمار أيضاً ، وهذه العبارة توجز تاريخ تلك البلاد : ما بين استقرار وأمن وانتظام في طرق التجارة وازدهار في المدن ، وبين اضطرابات وحروب وانقطاع في التجارة وما ينجم عن ذلك من خراب وفقر وفوضى .

خلال هذا العصر الطويل أصبحت تلك الأقاليم الشاسعة دولة واحدة يحكمها السلطان السلجوقي وخلفاؤه . للمرة الأولى منذ أيام المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢ هـ) عاد شرق الدولة الإسلامية دولة واحدة قوية يستتب الأمن في نواحيها فتزهر شجرات العلم والفن من جديد ؛ وإذا كان الإزهار العلمي لإيران وما وراء النهر والتركستان - في ظل الأمويين والعباسيين - قد تجلّى في أشخاص علماء أعلام ، فإن الحروب الطويلة التي لم تهدأ نيرانها بين الدول الصغيرة التي قامت على الأرض العباسية خربت الكثير من معالم العمران فيها .

وعندما قام السلاجقة كان الخراب قد حلّ ببلاد زاهرة ، مثل : سمرقند وبخارى ومرو وطوس والرى ونيسابور ، بل كانت بغداد نفسها قد أصبحت فريسة الخراب والفوضى في ظل الحكم البويهى ، واحتاج الأمر إلى إعادة بناء هذه المدن وتعميرها بالناس .

النهضة العمرانية فى عصر السلاجقة :

اقرن قيام دولة السلاجقة بنهضة عمرانية معمارية فكثرت الإنشاء والبناء ، وزاد هذه الحركة نشاطاً أن السلاجقة - وكانوا من أهل السُّنة والجماعة - جاءوا بعد نحو قرن من سلطان البويهيين المتشيعين الذين كان حكمهم من أكبر أسباب اضمحلال هذه النواحي كلها ، فلما جاء السلاجقة اجتهدوا فى إنشاء المدارس فى نواحي بلادهم ليدرّس الناس فيها أصول الإسلام على مذاهب السُّنة .

والرأى السائد عند أهل التاريخ أن حركة إنشاء المدارس بدأت على يد الوزير أبى على الحسن بن على المعروف بـ « نظام الملك » وزير السلطان ألب أرسلان ، وذلك عندما أنشأ المدرسة النظامية فى بغداد فيما بين سنتى (١٠٦٥ - ١٠٦٧ م) ثم أخذها المسمّاة النظامية أيضاً فى نيسابور .

وقد أصبحت المدارس طابع العصر ، وانتشرت فى كل نواحي عالم الإسلام الشرقى ، ثم امتدت إلى الشام ومصر بعد أن أزال صلاح الدين الدولة الفاطمية سنة (١١٧١ م) ، وعمد إلى محو آثار المذهب الشيعى الإسماعيلى فاجتهد فى إنشاء المدارس السُّنية لهذا الغرض .

المدارس والروضات والمساجد :

كانت المدارس فى تلك العصور تدخل ضمن المنشآت الدينية ، فقد كانت تنشأ لخدمة الدين أولاً وقبل كل شىء ، وفى العادة تكون المدرسة جامعاً فى نفس الوقت .

وقد رأينا أن « النظامية » نُسبت إلى صاحبها وهو نظام الملك ، وبعد ذلك - سنة (١٢٣٤ م) - عندما قام الخليفة العباسى المستنصر بإنشاء مدرسة فى بغداد أدخل فى مدرسته تلك المدرسة النظامية وسمّاها كلها « المستنصرية » أى : أن المدارس كانت تُبنى حسبةً لله ورجاء الثواب وتخليداً لذكرى صاحبها ، وبعضها كانت تُتخذ روضات - أى : مدافن تذكارية لمنشئها - إذا جاز هذا الاستعمال .

من هنا أيضاً ظهر وذاع إنشاء الروضات ، ولهذا كله قامت فى هذه النواحي كلها حركة معمارية إنشائية واسعة المدى ، تمثلت فى إنشاء المساجد والمدارس والروضات ، وفى غمار هذه الحركة نشأ طراز معمارى إسلامى ذو شخصية ظاهرة متميزة بخصائصها

وهو الطراز السلجوقي الذى يعتبر أساساً للطرز الإيرانية - سواء أكانت مغولية أو صفوية - ويعتبر أيضاً أساساً للطراز العثمانى .

ومن حسن الحظ أن المنطقة - التى نشأ فيها هذا الطراز وتطور - منطقة شاسعة تشمل كل المناطق التى ذكرناها : تركستان وما وراء النهر وإيران وبلاد الجزيرة (شمال العراق) وتمتد فى آسيا الصغرى حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط ؛ وهذه أقاليم عديدة لكل منها تقاليده الحضارية والمعمارية ، فمن غير المنتظر أن يتخذ نشاط الإنشاء المعمارى فيها كلها طرازاً واحداً ذا هيئة واحدة متميزة بخصائص واضحة - كما رأينا فى الطرز المغربية والأندلسية والمصرية - وإنما الرابطة هنا تتمثل فى خصائص تفصيلية تتصل بالمواد المستعملة والطرق الفنية التى لجأ إليها المعماريون فى علاج المشكلات المعمارية وكذلك فى أنواع معينة من الزخارف سادت فيها ، وسنعرض هنا لأهم هذه الخصائص ، كما وردت فى كتب العمارة الإسلامية وزخرفتها ، تأليف ديريك هيل وأوليج جرابار^(١) ، وهما فى رأينا أحسن من كتب عن هذا الطراز السلجوقي :

١ - حسن استخدام الأحجار :

فإن هذه النواحي كلها غنية بأنواع ممتازة من الأحجار ، ما بين حجرية ورملية وجرانيتية ورخام ومرمر وما إلى ذلك . لقد قال برنارد بيترسون Bernard Peterson فى خطاب إلى جون ديريك : إن طبيعة الصخور هناك تمكّن المعمارى من إنشاء مباني تشبه الجواهر فى دقتها وإحكامها . وبالفعل فإن خامات الصخور التى أنشئت منها المباني السلجوقية بديعة فى صلابتها واستجابتها للنحت والزخرفة فى آن واحد .

والنتيجة أن الصخور وحدها مكّنت المعمارى من إنشاء أعمال ذات متانة وجمال ، فالجدران والبوابات والأعمدة والعقود تقوم متينة محكمة والمزخرف ينقش فيها ما يشاء فى إحكام ودقة ؛ وألوان هذه الأحجار طبيعية متنوعة ، تكفى وحدها لإخراج صور فنية جميلة ذات ألوان ؛ وقد كان ذلك معيناً للبناء والمزخرف على ابتكار « صنعة خاصة » Technique وصل بها إلى ذروة حقيقية من ذرى الإبداع المعمارى على مر العصور .

(1) Derek Hill and Oleg Grabar, Islamic Architecture and its Decoration; Faber & Faber, London 1967 .

٢ - جودة الآجر الذى استخدمه المعمارى هناك لا تقل عن جودة الحجارة :

فهنا وجد صنّاع الآجر أتربة وربما لامتازة أجادوا حرقها ومزجها وإخراج أشكال وألوان منها فى غاية المتانة والصفاء ، حتى إنك إذا أخذت فى يدك آجرة منها أدهشك صفاءها ، وإذا نقرت عليها سمعت لها رنين المعدن ؛ وقد أبدع المعمارى فى استخدام هذا الآجر فى البناء والزخرفة على نحو لا يضارعه فيه إلا الفنانون الأندلسيون ، الذين استخدموا الآجر فى بناء منشآت الطرازين المستعربى والمدجنّى الأندلسيين ، وقد تحدثنا عنهما .

ولقد فاق الفينيون الذين عملوا فى تطوير الطراز السلجوقى غيرهم فى استخدام الآجر فى كل جزء من أجزاء المبنى بمهارة لا توصف ، فعملوا منه الواجهات والعقود والعمد والأزُر والمثلثات الكروية والقباب والمآذن ، وهذا إلى جانب تفتُّنهم فى ابتكار أشكال زخرفية من مجرد تشكيل أوضاع الآجر ، أو من استخدام حشوات رقيقة من الملاط أو من الحجر أو آجر ذى لون آخر لإحداث أثر زخرفى .

لقد شاع استعمال «الآجر» بهذه الصنعة فى كل المناطق التى امتد إليها الطراز السلجوقى ، ولكن الإيرانيين وأهل التركستان أبدعوا فيه أكثر من غيرهم ، وما زالت غرر هذه الصنعة قائمة فى المناطق الإيرانية .

٣- تتميز مبانى هذا الطراز فى الطريقة التى استخدم الجصّ بها :

واستعمال الجصّ معروف فى الفن الإسلامى منذ العصر الأموى ، وكل الطرز الإسلامية عرفته واستخدمته على درجات متفاوتة من الإتقان، ولكن الجصّ هنا يستخدم بطريقة مبتكرة؛ فهو ليس مجرد مادة تغطى بها الجدران لتخفى هيئة الآجر أو اللّبن وتسدّ شقوقها ، وهو لا يستعمل فقط كأرضية لعمل بعض الزخارف ، بل هو هنا يستخدم لتغطية مساحات صغيرة وسط زخارف الآجر لإضافة زخارف من ألوان أخرى ، وقد يُنقش الجصّ على هيئة الآجر نفسه ، وقد يوضع داخل إطارات ويغطى بكتابات .

أى أن الجصّ يستخدم هنا كعنصر أساسى لإكمال هيئة العناصر المعمارية نفسها ، فنحن نجد مساحات صغيرة مغطاة بالجصّ المنقوش فى أفاريز الجدران داخل المساجد أو على بطانات العقود أو بطون القباب .

وقد تطور استعمال الجصّ على هذه الصورة في أشكال العمارة الإيرانية التي نشأت على أساس من الطراز السلجوقي .

٤- برع أصحاب هذا الطراز في استخدام الفخار Terra Cota والخزف Ceramic وابتكروا منه نوعاً بالغ الجمال والرقّة يسمى بخزف الفسيفساء Masaic : Jaunce

وواضح أن استعمال الخزف لتغطية الجدران أو أجزاء منها كان يقصد منه إدخال نوع جديد من التلوين على زينة المباني ، فإن الجصّ لا يقبل الألوان إلا إلى حد معين ، ولكن ألوان الخزف تمتاز بالصفاء والعمق والثبات ؛ ويقال : إن الخزف دخل العمارة في القرن الرابع عشر الميلادي عندما فقد الجصّ طلاوته واحتاج المعمارون إلى مادة جديدة .

وعلى أي حال فقد أحدث الخزف انقلاباً واسع المدى في العمارة في تركستان وما وراء النهر وإيران ، وأقدم نماذجه الممتازة توجد في سمرقند ومشهد ؛ وسيصل الخزف إلى أوج استعماله كمعصر معماري في الطرازين الصفوي والتركي العثماني .

ويعتبر استعمال الخزف على هذه الصورة من الخصائص التي تميزت بها العمارة الإسلامية على غيرها ، ومن الواضح أن الذي دعا إلى استخدامه هو شعور الفنان بالرغبة في استخدام الألوان والرسوم في المباني ، وبينما اتجه الفنان الغربي إلى تغطية أجزاء معينة من جدران الكنائس وسقوفها بالتصاوير الدينية نجد أن الفنان المسلم لجأ إلى استخدام الخزف ومربعات القاشاني لنفس الغرض .

وعندما توسّع الناس في استعمال الخزف تحوّل الأمر إلى فن قائم بذاته ، فأصبح المعمارى يعرف - مقدّماً - المساحات التي يريد تغطيتها بالخزف وأوضاعها ، فهي أحياناً تكون مربعة أو مستديرة أو بيضوية أو منحنية أو مقببة أو مقعرة ، ويصنعها من الفخار في هيتها وحجمها الذي ستكون به في المبنى ، ويعمل لها قالباً يصب عليه مادة الخزف ثم يغطيها باللون الذي يريد وينقش عليها الزخرفة المطلوبة ثم يقطعها مربعات صغيرة ، ويرفعها في حذر شديد ويدخلها الفرن ، ويحمي عليها حتى تتخزف ، ثم يخرجها قطعاً

ويضعها واحدة واحدة في مواضعها في المبنى نفسه ؛ وتستطيع أن تتصور مقدار العمل الذى كان ذلك يتطلبه ، إذا كان المراد تخريف قبة كاملة - ظاهرها وباطنها - كما ترى فى بعض قباب المساجد الصفوية .

٥ - وكذلك استخدم المعماريون فى العصر السلجوقى التصوير على الخشب أو المعدن والزجاج والرخام والمرمر ، ورسموا أشكالاً نباتية وحيوانية هى الغاية فى الرواء ، وإن كان استعمال ذلك فى نطاق ضيق وخاصة فى عمارة المساجد .

٦ - ومن ناحية الخصائص المعمارية نجد أن منشآت هذا الطراز تمتاز بالبوابات الضخمة ذات العقود العالية المدببة :

وقد خلف لنا المعماريون بوابات حجرية مثقلة بالزخارف فى مساجد سمرقند وطشقند وبخارى وغزنة وآذربيجان والجزيرة والأناضول ؛ ولجأوا - أحياناً - إلى تزيين الأبواب بإنشاء مآذن عالية على جانبى المدخل ، أو على أركان جدار المدخل .

وجدران المساجد عالية كأنها الأسوار ، تتوسطها الأبواب وتزينها - أحياناً - فتحات فى شكل نوافذ ذات عقود ، فإذا دخلت من الباب وجدت نفسك فى صحن واسع شبيه بالفناء تحيط به البوائك ذوات العقد المدببة . أما بيت الصلاة فهو - فى الغالب - عميق يتكون من أروقة تتجه نحو جدار القبلة ، وتقوم هذه الأروقة على دعائم من الحجر - قصيرة فى الغالب - تحمل عقوداً ثقيلة مدببة . وجدار القبلة - فى الغالب - مزين بالخزف أو القاشانى ، أما المحراب نفسه فيكون - فى الغالب - قطعة زخرفية بدیعة من الرخام ، وقد يكون من الحجر أو الآجر المغطى بالخزف ؛ وتزين الجدران فى بعض الأحيان بأزُر من الخزف المزین بآيات القرآن الكريم .

أما مآذن هذا الطراز فغالبيتها مستدير ، ومنها ما هو مضلّع ذو ستة أو ثمانية أضلاع ، وأحياناً يتفنن المعماريون فى التضليع ؛ ولا يكون للمئذنة فى معظم الأحيان إلا شرفة أذان واحدة فى نهايتها . أما القباب فغالبيتها مرفوعة على رقاب عالية ، وهى ذات عقود مدببة .

وكل المآذن والقباب قد تكون من الحجر المنقوش بالزخارف ، أو من الآجر الزخرفى من ألوان متعددة ، وقد تُزَيَّن أو تُغَطَّى تماماً بالخزف أو بمربعات القاشانى أو فسيفساء الخزف .

وتوجد نماذج هذا الطراز البديع فى خط يبدأ من طشقند وأوزغند فى التركستان ، ويمتد إلى سمرقند وبخارى وشهرى باز وترمز فيما وراء النهر ، وبلخ وكابل وغزنة وهرات فى أفغانستان ، وطوس ومشهد ونيسابور والدامغان وقزوين وهمدان ويزد وسلطانية والمراغة وتبريز فى إيران ، ثم فى أرز روم (أرض الروم) وسيواس وملطية وتوقات ووآن وديار بكر وماردين وقونية وغيرها فى تركيا .

وفى إيران أخذ هذا الطراز يتطور فى خط وصل به إلى الطراز الصفوى ، أما فى آسيا الصغرى فقد أصبح بداية للطراز التركى العثمانى .

وستحدث - فيما يلى ، بغاية الإيجاز - عن بعض المساجد والروضات الباقية من هذا الطراز .

جامع ومدرسة إنچى فى دفرىچى بالأناضول :

قبل أن نتحدث عن هذا الأثر الجميل ، لابد أن نقول كلمة عن الأتراك السلاجقة ومساهماتهم فى بناء الصرح السياسى الحضارى لدولة الإسلام .

بدأت مساهمة الأتراك فى العمل الحضارى الإسلامى العام فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، عندما تغلبوا على العنصر الإيرانى الذى ساد الدولة فى العصر البويهى (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) دون أن يؤدى لها فى الحقيقة أية خدمة حضارية حقيقية ، بل أخرها سياسياً واجتماعياً بسبب ما نشر فى الدولة والمجتمع من آراء ضارة فى الحكم وعادات مجافية للعرف الإسلامى العام ، وهذا ظاهر فى المجتمع العباسى العراقى خلال العصر البويهى الذى امتد أكثر من قرن من الزمان .

والسلاجقة فرع من ذلك المجموع الكبير فى الشعوب التى تعرف باسم الأتراك أو الترك ، وهم ليسوا شعباً أو جنساً واحداً ، بل شعوب وأجناس مختلفة ، كانت تسكن المساحة الشاسعة الممتدة من نهر المرفاب ، الذى يسير من الشمال إلى الجنوب ، جنوب نهر جيحون حتى بلاد الصين شرقاً .

وقد عرف العرب الترك من عصر الفتوح الأولى أيام الأمويين ، فقد حاربهم وتغلب عليهم قتية بن مسلم الباهلى ، وبعد حروب طويلة تبادل الجانبان فيها النصر والهزيمة ، انتهى الأمر إلى سيادة العرب على ما قرب من شرق إيران من بلاد الأتراك ،

فأسلموا ودخلوا فى خدمة الدولة الإسلامية مرتزقين أو حالفوا دولة الإسلام وأدوا إليها الجزية .

والسلاجقة قَبِيلٌ من أولئك الأتراك ينتسبون إلى جدّ لهم يسمى « سلجوق » ، وقد بدأ أمرهم يظهر فيما يعرف الآن بأفغانستان ابتداء من سنة (٣٥١ هـ / ٩٦٢ م) وهى السنة التى تولى فيها ألب تكين الغزنوى الحكم فى هرات ، مستقلاً عن نوح بن منصور السامانى الذى أقامه والياً عليها ، وقد بلغت دولة خلفاء ألب تكين - وهم الذين عرفوا بالغزنويين - أوجها فى عصر يمين الدولة محمود بن سبكتكين (٣٨٨ - ٤٢١ هـ / ٩٩٨ - ١٠٣٠ م) الفاتح العظيم ، وهذا الرجل هو الذى فتح للعناصر التركية أبواب القيادة الفعلية والمساهمة فى بناء الحضارة الإسلامية ، فقد فتح شمال الهند وبذلك أتاح الفرصة لتيارات الحضارة الآسيوية لتدخل عالم الإسلام .

ومن ذلك الحين أخذت التقاليد المعمارية والفنية لآسيا الوسطى وشمال الهند تندرج فى التيار العام للحضارة الإسلامية ، وقد تأكد هذا عندما ظهر الأتراك السلاجقة على مسرح السياسة الإسلامية ، وكانوا أول الأمر فى خدمة الغزنويين ثم استقلوا عنهم وبسطوا سلطانهم على شرق إيران ، ثم مدوا سلطانهم حتى شمل إيران كلها ، واتصلوا بالخلافة العباسية وعرضوا مساعدتها فى التخلص من البويهيين ؛ وتمكن أول سلاطينهم طغرل بك (٤٢٢ - ٤٥٥ هـ / ١٠٣١ - ١٠٦٣ م) من دخول بغداد والقضاء على البويهيين وأصبح السلاجقة القوة السياسية والعسكرية الحقيقية فى بغداد والعراق .

وبعد أن انتصر ابنه ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٤ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) على الدولة البيزنطية فى ملاذكرد ، أقام سليمان بن قطلمش (٤٧٠ - ٤٧٩ هـ / ١٠٧٧ - ١٠٨٦ م) حاكماً على الأناضول ، فكانت تلك بداية دخول آسيا الصغرى فى دولة الإسلام ؛ وقد أنشأ سليمان دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى .

وفى ظل سلاطين هذه الدولة ظهر وأبنع الطراز التركى فى العمارة الإسلامية ، وهو طراز استمر يتطور حتى وصل إلى ذروته فى الطراز التركى العثمانى المعروف .

وأقدم ما يحدثنا عنه المؤرخون من عمائر هذا الطراز يرجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى ، ولكن الباقي لنا منه يرجع إلى القرن الثالث عشر ومن ذلك : أولو جامع - أى : جامع أولو - والمارستان الملحق به فى بلدة دفرىجى فى الأناضول ، وقد أمر ببنائه

سنة (٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ - ١٢٢٩ م) أحمد شاه الأمير الإقطاعي لهذا البلد .

وضع تصميم هذا المسجد المعلم خرم شاه الأخلاطى ، وهو مبنى بالحجر المصقول المتقن الرصف ، وسقفه محمول على عقود حجرية متشابكة ، وعقد البلاطة الثالثة فى رواق القبلة يقوم فوق حوض رخامى تصب فيه نافورة ، وهذه البلاطة ذات النافورة رمز على الصحن الذى استغنى عنه المعمارى فى ذلك المسجد بسبب برودة الجو ؛ والباب الشمالى لهذا المسجد مشهور بزينتة الجصية المثقلة وزخارفه ، وهى تذكرنا بالزخارف المحفورة على الخشب . أما المارستان فمقتبس من المارستان النورى فى دمشق ، وسقفه يقوم على عقود حجرية تقوم على دعائم وأعمدة ، وهنا أيضاً نجد نافورة تشبه التى ذكرناها فى وسط المسجد .

قبة ضريح أولجايتو خُدايَنْدَه فى سُلْطَانِيَّة :

كان هجوم التتار على بغداد سنة (١٢٥٨ م) وقضاؤهم على الخلافة العباسية من أكبر الكوارث التى حَلَّتْ بالعالم الإسلامى ، فقد زالت من الوجود خلافة بنى العباس التى ظلت فوق خمسة قرون رمزاً لوحدة العالم الإسلامى ، وعاملاً إيجابياً ملموساً فى تحريك سياسة العالم الفسيح الذى يدين بالإسلام وتطله حضارته . وبعد سقوط بغداد ، تحولت العاصمة الجليلة العزيزة إلى مجموعة من الأطلال والأحياء الخربة ، يعيش فيها ناس كأنهم الأشباح لفترة طويلة من الزمن بعد ذلك . وخضعت إيران والعراق لسلطان إيلخان المغول ، الذى جعل عاصمته المختارة فى المِراغة ، وإن كان دائم التنقل فى عواصم ملكه مثل : مرو ونيسابور وتبريز والرى ، ولكن عاصمته المفضلة كانت المِراغة .

و« إيل » معناها القبيلة ، و« خان » : سيد أو رئيس ، فالإيلخان - إذن - سيد القبيلة ، وإيلخان فارس : هو ملك الجناح الغربى لإمبراطورية المغول ، التى يحكمها الخاقان أى : رئيس الرؤساء ، وكانت عاصمته فى صحراء جوبى ثم انتقلت إلى بكين .

وقد تحولت دولة إيلخانات إيران إلى دولة إسلامية ، عندما اعتنق ملكها غازان - حفيد هولاكو - الإسلام وأصبح من المتحمسين المخلصين لعقيدة التوحيد .

وقد حطمت غارة المغول الحوائل بين الحضارات الآسيوية فى قلب آسيا وعالم الإسلام ، فأخذ تراث الفن المغولى الآسيوى يصب فى بحر الحضارة الإسلامية الواسع ،

حاملًا معه صوراً وتقاليد فنية جديدة ظهرت ملامحها في ميدانى العمارة والتصوير فى عالم الإسلام .

فى عمارة المساجد والروضات ظهر ذلك الأثر المغولى فى القباب العالية ، التى تقوم على رقاب دائرية أو مئمنة الشكل عالية كأنها رقبة زجاجة ، ويظهر ذلك فى ضريح أولجايتو خدا بنده إيلخان مغول فارس (١٣٠٤ - ١٣١٦ م) وقبة هذا الضريح تستوقف النظر بطرافتها لا بجمالها ، وهى تقوم فى بلدة صغيرة أنشأها لتكون مقرًا له وسماها «سلطانية» وهى اليوم أطلال ، وهذه القبة تُعَيِّن لنا بداية تأثر العمارة الإسلامية الدينية بتقاليد الفن المغولى المقبل من الشرق الأقصى .

جامع ومنارة إنجى فى قونية :

أنشأ هذا المسجد الوزير « فخر الدين صاحب عطا » فى سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) ووضع تصميمه المعلم قبلوق بن عبد الله ، ويتكون المبنى من بهو مدرسة ذى إيوان وحيد يقوم خلف جدار القبلة للجامع ومئذنة كانا قائمين وقت إنشاء المدرسة ، وترتفع فوق صحن ذلك المسجد قبة تقوم على أكتاف مثلثة الهيئة ، وتحت القبة حوض نافورة مستطيل .

ويمتاز الجامع بشريطين عريضين من الزخارف يتلاقيان فى صورة عقدة ، وقد اقتبس المزهرفون الذين قاموا بالعمل فى جامع قلاوون هذا الشكل وكرروه فى جامعهم بعد تحويره على الطريقة المصرية ؛ ووحدات الزخارف معقدة متشابكة تبدو وكأنها أشكال حيوانية لانهائية ، وبالفعل نجد بينها صور حيوانات ، وربما كانت هذه الحيوانات بقايا من عقيدة الأتراك السابقة على الإسلام ، وهى السامانية التى تؤمن بأن الدنيا حافلة بالأرواح الشريرة والعفاريت ، وأنه لابد من استعمال رموز حيوانات لدفع ضررها .

جامع چوك ومدرسته فى سيواس :

هذا نموذج كان من مساجد العمارة التركية فى القرن الثالث عشر ، أمر ببنائه الوزير فخر الدين عطا منشئ جامع ومدرسة إنجى ، وهما أيضاً من تصميم المعلم قبلوق بن عبد الله ، وقد تم بناؤه سنة (٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م) .

وتصميم هذا المبنى غاية فى التوازن والتناسق ، فالصحن تنوسطه نافورة تصب فى حوض رخامى ، وترتفع فوقه قبة جميلة ، والرواقان الجانبيان مقسمان إلى مقاصير صغيرة غاية فى الجمال .

وداخل هذه المدرسة والجامع يذكرنا بالببوت العربية - الشامية على الخصوص - ذات الصحن الداخلى المكشوف تتوسطه نافورة .

وبوابة المبنى فخمة رائعة مثقلة بالزينة ، وهى تتألف من عقد واسع مستدير تزينه ستارة من الرخام المنقوش ؛ وعلى جانبيه المدخل مئذنتان من الطراز التركى الأول ، وهذه المآذن المزدوجة كثيرة الظهور فى مساجد ذلك الطراز .

عندما نتأمل هاتين المئذنتين نرى بداية المآذن التركية ذات شرفة الأذان الواحدة ، والتى تنتهى من أعلى بهيئة تشبه قلم رصاص مسنون ، وتلك خاصة المآذن التركية العثمانية التى تطورت عنها على مر الزمن .

ضريح تيمور - المسمى چور أمير - فى سمرقند :

كان تيمور الأعرج - أو تيمورلنك - (١٣٣٦ - ١٤٠٤ م) إعصاراً مخرباً اجتاح عالم الإسلام الشرقى حاملاً معه الخراب والدمار ، من كاشغر فى غرب الصين إلى دمشق وآسيا الصغرى ؛ وفى إحدى مغامراته كاد يقضى على الدولة العثمانية الناشئة إذ ذاك ، وقد كان هذا الرجل مسلماً - ولكن على طريقته الخاصة - وقد عرف مؤرخنا ابن عربشاه كيف يسخر منه فى كتابه اللطيف المسمى بـ « عجائب المقدور فى وقائع تيمور » .

وقد اتخذ تيمور سمرقند عاصمة له وكذلك فعل خلفاؤه ، وقد أكثروا فيها من الأضرحة والقبور حتى أصبحت من أكبر المدن الجنائزية فى التاريخ ، وفى ذلك البلد أنشأ له خلفاؤه ضريحاً - أو مسجداً وروضة - فيما بين سنتى (١٤٩٠ - ١٥٠٤ م) ، وهنا نجد القبة العالية القائمة على جدران مستديرة تبدو فى أحسن صورها ، وتقوم رقبة القبة على برج ذى ثمانية أضلاع مزينة بالقاشانى والرخام ، ورقبة القبة محززة بأشرطة زخرفية ، أما القبة نفسها فمزينة من الخارج بما يشبه الفصوص .

وتبدو هذه الفصوص من داخل تجويف القبة بصورة أجمل ، فإن أقسامها مثقلة بالزينة والمقرنصات ذات الأشكال البديعة ؛ وتحت القبة يقوم القبر وإلى جانبه بيت صلاة صغير ، وتحت ذلك كله سرداب يقوم على عقود قرية جداً من قباب الفن القوطى .

ضريح چوچوق بيكا فى سمرقند :

خلال ذلك العصر المغولى فى إيران وصلت صناعة القاشانى الملون إلى أعلى مستوى وصلت إليه فى بلاد الإسلام ، لأن « الزليج » الأندلسى والمغربى وقف تقدمه بعد المستوى الرفيع الذى نراه فى قصور الحمراء وقصر إشبيلية - المعروف فى الكتب السياحية باسم الكاثار - وأصبح فناً تقليدياً محكوماً بقواعد وقواعد .

أما الخزف فى إيران فقد انطلق فى طريقه حتى بلغ شأواً لا يضارع ، خلال العصر التيمورى أثناء القرن الخامس عشر ، ولم يقتصر الأمر على مربعات القاشانى ، بل صنعوا طوباً ذا وجه من القاشانى المزخرف ، وصنعت كذلك مكعبات خزفية شبيهة بالفسيفساء ذات بريق أخاذ وألوان رائعة ، واستحدثت قطع كبيرة من الخزف لتغطية القباب وجنابات المداخل .

والنموذج الذى اخترناه لتصوير هذا الأوج الذى وصل إليه الخزف فى العمارة هو ضريح چوچوق بيكا فى سمرقند ، وبوابته آية من آيات ذلك الفن ، فقد غُطى كل جزء من أجزائها بما يناسبه من قطع الخزف البراق الملون . وتتجلى مهارة الصانع والفنان فى صباغة القطع الخاصة بتجاويف حنية السقف فى المدخل ، والألوان مزيج جميل من الأزرق والفيروزى والأبيض والأصفر والبني والرمادى والأسود .

والضريح نفسه قطعة هندسية جميلة أنيقة ، أنشئت حوالى سنة (٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م) ، وما فيه من زخارف الخزف رسم الطريق للمعماريين الذين أنشأوا المساجد الكبرى فى أصفهان - فيما بعد .

أرض تعوت فيها المساجد :

وقد مرت على هذه المناطق الواسعة - منذ ظهور السلاجقة على مسرح السياسة الإسلامية فى القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر - خطوب وزلازل سياسية تعرضت لها بلادها كلها فجلبت لها الخراب على درجات متفاوتة مرة بعد مرة .

أما فى بلاد التركستان وما وراء النهر وإيران ، فقد تخرّبت البلاد أثناء غارات

المغول خلال القرن الثالث عشر الميلادي ، وكانت هذه الغارات قاصمة الظهر للإزهار الحضارى الإسلامى فى تركستان وما وراء النهر .

ومن أسف أنه لم تقم فى هذه النواحي - بعد ذلك - دول إسلامية عظيمة تعيد البناء والإنشاء ، فظلت مدائنها ودررها المعمارية - فى سمرقند وبخارى وطشقند وأوزغند وشهرى باز - خرائب لم تظفر بمن يعيد إليها عمرانها .

وظلت تلك المدن كأنها بقايا أمم بادت وزالت ، حتى استولى الروس على تركستان وما وراء النهر وخوارزم فى تقدمهم الاستعماري خلال القرن السادس عشر وما بعده ، فأما المدن فعمروا بعضها ، وأما المساجد والمدارس والروضات فقد تركوها تنعى من بناها ، ثم جاء الانقلاب الماركسى الذى شمل روسيا كلها ، فقصى على كل أمل فى إعادة مساجد الإسلام فى هذه النواحي إلى روائها السابق ، لأن الخطة التى رسمت تلخص فى اعتبار المساجد آثاراً ، ربما امتدت إليها يد الترميم أو تركت حتى تموت فى مكانها ، وهذا حال معظم درر الفن الإسلامى فى كل بلاد الجمهوريات السوفيتية : ترك نهباً للبللى ، ويصرف الناس عن الإيمان صرفاً ، فتحول المساجد والمنشآت الدينية إلى شواهد قبور تزول من تلقاء نفسها بفعل الزمن .

وإنه لمن المحزن حقاً أن يمر الإنسان بهذه الذخائر فيجدها قائمة فى فلوات بعيدة عن المدن الحديثة ، بلا راع يرعاها أو نفس تعمرها ؛ وهذا حالها اليوم رغم ما يقال فى نشرات الدعاية ، وإليك سطوراً من رحلة قام بها أحد إخواننا من مسلمى الباكستان فى بعض نواحي تركستان وما وراء النهر القديمتين ، يصف فيها حالة الإسلام وبلاده وعمائره فى هذه النواحي ، نورد هنا فقرات منها دون تعليق منا ولا زيادة ، فهى - كما يرى القارئ - أبلغ من كل وصف وبيان .

علماء بخارى وسمرقند^(١) « على قبر الإمام البخارى » :

يعيش الآن فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى - حسب المعلومات التى استمدتها المجلس اليوغسلافى الإسلامى من المصادر الموثوق بها - ثمانية وثلاثون مليوناً من

(١) نقلاً عن مجلة اليقين التى تنشر بالإنجليزية والعربية فى «كراتشى» بالباكستان (مطبعة دار التصنيف المحدودة) السنة ٢١ ، عدد (صفر ١٣٩٣ هـ / مارس - أبريل ١٩٧٣ م) .

المسلمين ، موزعين على مختلف الجمهوريات هناك ، مثل : جمهورية تاجكستان وجمهورية قازاقستان وجمهورية أوزبكستان وجمهورية أذربيجان وقيرغيزيا ، وغيرها من الجمهوريات التى تحتضن عدداً كبيراً من المسلمين .

ومعلوم أن بعض مدن هذه الجمهوريات كانت فى العهود الماضية - قبل البلشفية أو الشيوعية - مراكز إسلامية وعلمية لها أهمية عظمى ، وقد قامت بتأدية رسالة الإسلام وخدمته على أحسن وجه ... وكان لعلمائها أفضل نصيب فى نشر العلوم الإسلامية فى ربوع آسيا الوسطى ، ومن تلك المدن « سمرقند » ويكفى لفخرها وفضلها أن نذكر أنه نشأ فيها كثير من العلماء الفحول ، أمثال : ابن الحاجى السمرقندى (١٣٥١ - ١٣٩٧ م) وهو من كبار الفقهاء ، ألّف كتابه المشهور بـ « الفتاوى الكافورية » ؛ وأبو الليث السمرقندى الذى توفى سنة (٩٨٥ هـ / ١٥٧٧ م) ومن مؤلفاته « تنبيه الغافلين » ؛ وشمس الدين السمرقندى ، وهو فيلسوف وأديب توفى سنة (١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م) ، وألّف رسالة فى علم آداب البحث المعروفة بـ « آداب السمرقندى » ، وهى من أشهر ما كتب فى هذا الفن ، و « قسطاس الميزان فى المنطق » ؛ وعلاء الدين السمرقندى وهو فقيه تشقفت عليه ابنته فاطمة ، وكانت الفتوى تخرج وعليها خط أبيها ؛ ونجيب الدين السمرقندى ؛ وهو طبيب عاصر فخر الدين الرازى وألّف فى الطب كتاب « الأسباب والعلامات فى الطب » .

ونذكر كذلك مدينة بخارى ، ويكفيها فخراً أنه ولد فيها محمد الجعفى (البخارى) من أعظم علماء الحديث، وقد اشتهر بكتابه « الجامع الصحيح » أخرجه من ستمائة ألف حديث وقد شرحه ابن حجر العسقلانى ومحمود العينى وأحمد القسطلانى وأبو زيد الفاسى ، وله أيضاً « التاريخ الكبير فى تراجم رجال السند » .

ومن المدن التى كان لها أثر كبير فى تاريخ الإسلام والمسلمين مدينة ترمذ .. ومن علمائها أبو عبد الله الترمذى وهو متكلم سُنّى ومتصوّف ومحدّث وفقه حنفى له ثلاثون مؤلفاً ؛ منها : « نواذر الأصول » و « ختم الولاية » ؛ وأبو عيسى الترمذى ، وكانت له جولات واسعة فى خراسان والعراق والحجاز فى طلب الحديث وله فى ذلك كتاب « الصحيح » ؛ والسيد برهان الدين من مريدى مولانا بهاء الدين ولد معلّم مولانا جلال الدين الرومى .

وهناك مدن أخرى فى أواسط آسيا كان لها الفضل الكبير فى نشر العلوم الإسلامية وحضارة الإسلام فى الأزمنة السابقة .

قبر الإمام البخارى :

ذكر الأستاذ عبد المنعم العدوى - صاحب مجلة « العرب » الباكستانية ، فى عدد خاص عن رحلته مع وفد العلماء فى الاتحاد السوفيتى (فى عدد ذى القعدة - ذى الحجة سنة ١٣٧٦ هـ) زيارته لقبر الإمام البخارى ، فقال : وتوجَّهنا - بعد ذلك - فى سيارة خاصة إلى قبر الإمام الحجة ، صاحب كتاب « صحيح البخارى » أصحَّ كتاب بعد كتاب الله الكريم ، أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ... وكان يعتقد البعض أنه مدفون فى بخارى ، ولكن الواقع غير ذلك ، فقد انتقل إلى رحمة الله - وهو فى طريقه من بخارى إلى سمرقند فى رحلته الأخيرة - فى قرية تُعرف الآن بقرية خاجاه صاحب ، وتقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من سمرقند ويصل إليها نصف الطريق مُعبداً وهو طريق سمرقند بخارى ، وينفصل فى نصفه الثانى - أو جزئه الأخير - بطريق ريفى زراعى ملىء بالطين لم تمتد إليه يد الإصلاح والترصيف وتخرقه السيارة بصعوبة .

ووصلنا إلى ضريح هذا الإمام العظيم الكبير ، فإذا به يقع فى بقعة من بستان كان رباطاً لأهل العلم والفضل ، فأهمل شأنه وجفَّت بحيرته وتحطمت أكثر جذُره ، ويقطن فى غرفه الآيلة للسقوط بعض فقراء القرية ومتولَّى هذا الضريح الشريف وأبنائه ، ويعملون كمزارعين فى المزارع السوفيتية الحكومية التعاونية .

وتوجَّهنا إلى الردهة الخارجية للمسجد فرأيناهم قد فرشوها بالحصير وقطع من قماش البفتة إكراماً لنا ، فصلَّينا فيها ركعتين تحية للمسجد ، وشكرنا الله تعالى على نيلنا هذا الشرف الرفيع بزيارة قبر هذا الإمام العظيم ، ثم لاحظت منا التفاتة نحو باب هذه الردهة المؤدى إلى داخل المسجد الكبير الأصى - وكان مغلقاً قليلاً ، ولم يُفتح ولم يُسمح لنا بدخوله - فإذا هو مهجور ، وبعض جذُره عليها أثر حريق وأرضه يعلوها التراب وقد اقتلعت حجارته ، فذرفت من عيني دمعة سخينة .

ثم أخذونا إلى حيث مقر الضريح نفسه ، فدخلنا وقرأنا السلام على هذا الإمام العظيم الذى لم يأكل إداماً مع الخبز عشرين عاماً ، لا عن فقر وقلة وعسر ، بل عن زهد

وورع وتقوى ، فقد كان من ذوى اليسار ، ترك له والده مالاً كثيراً أنفقه على أهل العلم والطلبة والمدارس وحَبَّسَهُ على الأربطة ، وكان تاجراً ، جاءه جماعة من التجار ليشتروا منه تجارة وصلت إليه فأعطوه ربحاً خمسة آلاف دينار ، فقال : اصبروا حتى أرى ؛ فجاءه آخرون وزادوا الخمسة إلى عشرة ، فقال : اصبروا حتى أرى ، ثم أعطى الذين أربحوه خمسة آلاف قائلاً : « لقد استقر رأيى على بيعها لكم أولاً ولن أُغَيِّرَ هذا الرأى » ولما مرض وفحصه الأطباء قالوا : « إن هذا الرجل لم يأكل إداماً منذ عشرين عاماً » ، ونصحوه بتناول الإدام مع الخبز فصار يتناول قطعة من السكر ؛ وكان يصلى مرة فلسعه زنبور لسعات مؤلمة فلم يتحرك من صلاته ، ولما فرغ قال : « انظروا ما هذا الذى كان يؤلمنى فى صلاتى » .

إن سرد تاريخ هذا الإمام العظيم ، فى خدمته لحديث سيد المرسلين وإمام الأنبياء والمتقين ، وجمعه لصحيحه بأسانيده ورواته لمفخرة وإثمه لمعجزة ونفحة من أبى الزهراء ، وقد انبرى أربعة من شيوخ المسلمين لشرح صحيحه ؛ فكان تراثاً خالداً من تراث المسلمين ، وهم : الإمام القسطلانى ، وابن حجر العسقلانى صاحب « فتح البارى » ، والإمام العيني ، والشيخ حسن العدوى الكبير صاحب « النور السارى فى شرح صحيح البخارى » الذى أتمه فى عشرة مجلدات ؛ وقد بلغ مجموع أحاديث صحيحه كلها (٣٧٦١) حديثاً ، أمضى فى جمعها بضع عشرة سنة .

إن تاريخ هذا الإمام العظيم تزر به بطون المكتبات الإسلامية ، ولن تتسع صفحات هذا العدد كله لسرد جزء من هذا التاريخ الحافل المجيد .

هذا هو قبر الإمام البخارى قد اختفى رونق بنائه ، وهدم فناء ضريحه وترك على قطعة الأرض ، وقد أحسنها تربة من تحت الحصار الذى جلسنا عليه والذى فرشوه لنا خاصة بقطع من قماش البفتة علت القبر ، واختفى ذلك القبر الأصلى كله وحلَّ محلَّه قبر كأنه بنى من جديد بالطين كأيَّ قبر عادى ، واختفت مع القبر الأصلى تلك الآيات الكريمة التى كانت عليه ، وتاريخه ، وهو فى العراء الآن كأيَّ قبر عادى لآى إنسان مجهول .

ويقول البعض : إن الفناء ظل بلا قبر مدة ، إلى أن حل القبر الحالى مكان القبر القديم .

وكان تاريخ وفاة هذا الإمام العظيم فى ليلة عيد الأضحى المبارك سنة (٢٥٦ هـ) - لا ليلة عيد الفطر كما ذكر ذلك بعض المؤرخين ، وكما نبأنا بذلك من صحبنا من العلماء - وكانت زيارتنا له اتفاقاً ليلة عيد الأضحى المبارك هذا العام (١٣٧٦ هـ) ؛ وذكروا لنا أيضاً أن تاريخ وفاته كان بحساب الجُمْل كَلِمَة (نور) وولادته كلمة (صدق) بحساب الجُمْل ، كما كان مرقوماً على القبر الأصلي الذى اختفى .

على قبر تيمورلنك فى سمرقند :

لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ

إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانٌ

قالوا لنا : إن عدد سكان مدينة سمرقند هذه - بعد أن حولها الروس إلى مدينة روسية حديثة - يبلغ الآن حوالى (٩٠ ألفاً من المسلمين) ، أى : أن هذا العدد - فقط - من المسلمين هو الذىبقى من ذُرِّيَّاتِ مليون مسلم من الأسلاف والأجداد الذين كانوا فى عهد تيمورلنك .

وعدنا بعد ذلك إلى استراحة حضرة سيدنا القثم بن العباس عليه السلام ، فصلينا المغرب وقرأنا الفاتحة ، وصلينا ركعتين تحية للمسجد الذى تهدم ، ودعونا الله طويلاً بدموع سخينة . وزرنا ضريح القثم بن العباس عليه السلام ، فألفينا قبته علاها البلى وتساقط من فوقها جميع فاشانها أو اقتلع عنوة ، ورأينا رتاج بابها فى حالة يؤسف لها ، وشاهدنا على الباب هذا الحديث الشريف : قال النبى العربى الهاشمى القرشى المكى المدنى عليه السلام : « الْقَثْمُ بْنُ الْعَبَّاسِ أَشْبَهَ النَّاسَ بِى خُلُقًا وَخُلُقًا » ؛ وَكُتِبَ عَلَى الْمَسْجِدِ تَارِيخُ بَنَائِهِ بِشَكْلِهِ الْحَالِى فِي سَنَةِ (٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م) .

والقثم - عليه السلام - هو الذى استشهد على رأس جيش المسلمين عند فتح بلاد ما وراء النهرين سنة (٥٧ هـ / ٦٧٧ م) ؛ ودخلنا ضريحه الشريف بعد أن أدبنا ركعتين شكراً

لله ، وتضمُّه غرفة صغيرة اقتحمها المصورون الروس من غير المسلمين بأحذيتهم وعدساتهم وأفلامهم ولم يمنعهم أحد ..

وسمرقند مشهورة بجودة هوائها وعذوبة مائها وفواكهها الحلوة ، وينزل فيها المطر بكثرة فى الربيع والخريف ، وتكسو قمم جبالها المحيطة بها الثلوج فى الشتاء .

قُمنا فجرَ هذا اليوم - الأحد ٧ يوليو ١٩٥٧م - فأدبنا الفريضة ، وبعد تناول طعام الفطور توجهنا إلى مدرسة شيردار لزيارتها ، وهذه هى المدرسة الإسلامية الكبرى الثانية فى سمرقند بعد مدرسة بى بى خانم ، والقلم يقصر عن وصفها ، فهى فى كبرها واتساعها تبلغ مساحتها أربعة أضعاف مساحة الأزهر الشريف ، ورتاج بابها الداخلى المكسو بالقاشانى لا يرتفع بصرك إليه إلا إذا أمسكت غطاء رأسك بيدك حتى لا يسقط من عظم ارتفاعه ، وعرضه أكثر من خمسين قدماً ، وقد نُقشَ على كل جانب منه بالقاشانى صورة أسد ضخم علامة القوة والبأس ، وعلى جانبى هذا الباب الداخلى مئذنتان طويلتان بطنَّتا بالقاشانى أيضاً .

وقد قيل إن المئذنة التى تقع على اليمين كانت على وشك السقوط فأعادوا ترميمها كآثر تاريخى ، وأما المئذنة التى تقع على اليسار فقد رأيناها وكأنها فُصلت أو بُترت من قاعدتها دون أن تتفتت أجزاؤها ، فأسرعوا بربطها بالسلاسل القوية حتى لا تسقط ..

وقيل أيضاً إنه كانت هناك مئذنة ثالثة اختفت ، ورأينا أكثر جدران المدرسة محطمة ولكن بعضها ما زال قوياً ؛ وقد أصبحت الآن متحفاً .

وجاءتنا سيدة أذربكية عجوز أخذت تشرح لنا ما كان لهذه المدرسة من عظمة وشأن فى عهود الإسلام الزاهرة ، وقد شُرع فى بنائها سنة (١٦١٩م) على يد المهندس المسلم الأذربكى عبد الجبار الذى أتم بناءها سنة (١٦٣٦م) .

وداخل هذه المدرسة مدرسة أخرى هى المدرسة الأصلية التى بناها ميرزا أولوغ بك - لتدريس علم الفلك والرياضيات - فى سنة (١٤١٢م) ، وأتم بناءها فى (١١ سنة) ، ولمدرسة أولوغ بك هذه أربع منارات دقيقة الصنع مبطنة بالقاشانى أيضاً ، وفيها غرف منسقة ومساكن مريحة للطلبة والأساتذة وحمامات ودور مياه وغيرها ..

ولم يبقَ من ذلك كله شيء الآن إلا الآثار فقط ؛ وقد دُفِنَ تيمور لنك في مقبرة هذه المدرسة وبجواره أستاذه إيشايخان مير بك وميرزا أولوغ بك ووالده شاه رخ ، وهذه القبور التى زرناها - التى مُيّز من بينها قبر تيمور لنك المبنى بالمرمر الأسود - هى قبور تقليدية ، أما القبور الأصلية فتقع تحت هذه القبور ، فى قُبُورِ نزلنا إلى أسفله بواسطة درج من الحجر ، وفيه سلك كهربائى امتد إليه من الخارج فأثاروا لنا مصباحه وبعد أن قرأنا الفاتحة وترجَّنا ، خرجنا آسفين على تراث هذه المدرسة الخالد الذى عُيِّثَ به واختفت معه كل سُرِّهِ وفُرْشِهِ ومصابيحهِ الأثرية ، ومكتبته الإسلامية التى كانت تحوى أكبر مجموعة من الكتب النادرة والموسوعات التى لا يعلم إلا الله وحده أين ذهبت وأين تسرَّبت وكيف اختفت؟!

مسجد الخضر عليه السلام :

وتوجَّهنا - بعد ذلك - إلى مسجد الخضر عليه السلام - قبل مغادرتنا سمرقند عائدين إلى طشقند - وكان من أشهر مساجد سمرقند ، عامراً زاهراً بالعلماء والمدرسين والطلبة ، فألفيناه مهجوراً وجدراناه مهذَّمة وأبوابه مهشَّمة على أنقاضه .

وتوجَّهنا - بعد ذلك - إلى زيارة قبر حضرة خاجاه عبيد الله أحرار ، خليفة حضرة خاجاه بهاء الدين النقشبندى مؤسس الطريقة النقشبندية المدفون فى بخارى ، فقرأنا عليه الفاتحة . وتقع مقبرته على ارتفاع متر ونصف متر تقريباً عن الأرض ، فى العراء فوق قطعة أرض مربعة ، ومدفون معه بعض مريديه وأحفاده .

ويقال إن هذه البقعة كانت تضم مسجداً جميلاً له قبة عالية عامراً بالمصلِّين ولكن ذلك اختفى الآن وأصبح أثراً بعد عين .

وأخذنا متولِّى الضريح إلى غرفته الخاصة - وهى قديمة ليس فيها ما يلفت النظر أو يغرى بهدمها وتحطيمها كما فعلوا بالمسجد - فاحتفى بنا فيها وقَدَّم لنا مائدة حافلة بالفواكه والحلوى والطعام والشاى ، ورأينا فى غرفته لوحة قديمة كُتبت عليها هذه الجملة :

« أَفْضَلُ مَا يُبَدَّلُ لِلضَّيْفِ الْوَجْهُ الطَّلَقُ وَالْقَوْلُ الْجَمِيلُ »

وتذكرنا هذه المأدبة والمآدب التي قُدِّمت لنا فى الأماكن التى زرناها قول ابن بطوطة
عند زيارته ربوع هذه الديار :

« وَفِي كُلِّ مَسْجِدٍ طَعَامٌ لِلصَّادِرِ وَالْوَارِدِ »

ثم زرنا - بعد ذلك - مقبرة « عبدى بيرون وعبدى درون » ، والأول كان ولياً مشهوراً يقيم خارج مدينة سمرقند ؛ والثانى كان مثله أيضاً ولياً مشهوراً يقيم داخل سمرقند . وبعد أن قرأنا عندهما الفاتحة وترحمنا عليهما غادرناهما والله يعلم أننا أحق بالرحمة منهما ، فإن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والخوف كل الخوف هو علينا ؛ فليس لنا من العمل ما يصلح للعرض على الله تعالى ولا على رسوله » .

إلى هنا ينتهى ما نقلناه - بتصرف يسير - عن مجلة « يقين » .

وأما ما كان من هذه العمائر فى أفغانستان وإيران وتركيا فقد ظل فى بلاد الإسلام . وتناولت معظمه يد الرعاية والتجديد والحفاظ ، ومرت به طفرة النهضة الصفوية فدخل الكثير من عمائره فى دور من الشباب جديد .

* * *

٥ - الطراز الهندى

وصل المسلمون أطراف السند فى دفعة فتوحهم الأولى أيام الراشدين وبنى أمية ، وقد دخل المسلمون تلك الأطراف من البر والبحر معاً ، وما زال اسم الفاتح العظيم محمد بن القاسم مقترناً فى أذهاننا - إلى اليوم - بفتوح السند ، أى : ما يعرف اليوم بـ « باكستان » .

ولكن فتح المسلمين للهند - على نطاق واسع - يقترن باسم سبك تكين الغزنوى (٩٧٧ - ٩٩٧ م) ، وابنه محمود بن سبك تكين (وهذا الاسم الأخير يكتب فى العادة فى كتبنا : سبكتكين) وهو أول من أعلن سيادة الإسلام السياسية على جزء كبير من شمال الهند ، ومن ذلك الحين (أى : سنة ٩٧٧ م) إلى أول يناير سنة (١٨٧٧ م) - وهو اليوم الذى قضى فيه الإنجليز على آخر أعمال المقاومة الهندية ، لاحتلالهم للهند ، وأعلنوا فيه ملكتهم فيكتوريا إمبراطورة على الهند - لم تعرف الهند كلها دولا ذات نظام وحضارة ومجد غير دول المسلمين ، ولقد عرف الإسلام فى الهند عصور مدّ وعصور جَزُر ، وعصور سعود وعصور نحوس ، وظل ثمانية قرون قوة حضارية سياسية عظمت فى ذلك البلد العتيق ..

وإذا لاحظنا أن هذه المدة تقارب مدة سيادة الإسلام فى شبه الجزيرة الأيبيرية (ما بين سعود ونحوس أيضاً) رأينا أن مجد الإسلام فى الهند لا يقل عن مجده السياسى والحضارى فى الأندلس ، بل يزيد عليه زيادة كبرى ؛ ذلك أن الإسلام ما زال فى الهند قوة عظيمة ، فإلى جانب دولته الجلييلة باكستان فإن بقية الهند تضم نحو سبعين مليوناً من خيرة المسلمين .

ومع ذلك فإن الأندلس الإسلامى يشغل من ذهن المسلم وعواطفه حيزاً هو أوسع بكثير مما يشغله إسلام الهند ، والسبب فى ذلك - فيما نظن - هو أن شبه الجزيرة الأيبيرية استعرب خلال عصوره العربية ، وغير صحيح أن المسلمين فرضوا الإسلام على أهل الأندلس ، أو أنهم كانوا أقلية إسلامية تحكم بلداً معظم سكانه مسيحيون ، لأن الحقيقة هى أن الشعوب التى كانت تسكن شبه الجزيرة ما بين أيبيريين رومان وقوط وسوف

والآن وبشكونس (وهو تعريب Vascones أى : الباسك) أخذت تدخل فى الإسلام وتستعرب ويصبح بلداً إسلامياً تزايدت فيه نسبة المسلمين إلى غير المسلمين شيئاً فشيئاً ، ولهذا فإن الأندلس - الذى نتحدث عنه صحف التاريخ - بلد عربى إسلامى ، ومن ثم فهو فى إحساس العربى جزء من عالم العروبة والإسلام وعضو فى أسرته ، أهله يتكلمون العربية ، وأهل الفكر والأدب فيه يكتبون وينظمون بالعربية ، فهو بلد شقيق - إذا جاز هذا التعبير - أما شبه الجزيرة الهندية فقد كان الذين قاموا بالفتح الحاسم فيها غير عرب ، فهى أسلمت دون أن تستعرب ، فظل بينها وبين أمة العرب - دائماً - ستار اللغة والأصل والاتجاه الفكرى ، ولهذا فقد ظل المسلمون فى الهند دائماً - بالنسبة للإحساس العربى - فى مرتبة ابن العم البعيد ، وأرجو أن يكون هذا التعبير مقبولاً .

أقول هذا وأنا أعلم أن الجماعات الإسلامية فى الهند جماعات ذات إسلام صحيح متين فى غالبيتها ، ولقد بذل الهنود أنفسهم جهوداً ضخمة فى نشر الإسلام فى شبه جزيرتهم وخارجها ، واشتغل رجالهم بالعلم على صورة لا تقل عما فعل غيرهم من أعضاء الجماعة الإسلامية الكبرى ، وسواء فى الهند أو باكستان فإن مراكز الدراسات الإسلامية تعتبر من مفاخر المنشآت العلمية الإسلامية ، وفى علماء باكستان والهند من تفخر بهم أمة الإسلام والعروبة على مر العصور .

والهند ليست بلداً واحداً وإنما هى فى الحقيقة مجموعة بلاد ، ولهذا فهى تُسمى فى الجغرافية «شبه قارة» ، وتُسمى فى السياسة «الهند وباكستان» .

والهند فى ذاتها دول صغيرة ؛ ولهذا فلا يعقل أن يكون الإنتاج الفنى الإسلامى للمسلمين فى شبه الجزيرة الهندية واحداً ، ولا بد أن تكون له أشكال شتى ، أضف إلى ذلك أن الإسلام دخل شبه الجزيرة الهندية كقوة سائدة من تسعمائة سنة ، وما زال أمره فى زيادة والحمد لله ، وفى خلال هذه الحقب الطويلة لا بد أن الفن الإسلامى فى الهند مرَّ فى أطوار متعددة ، ومن هنا فقد كان حقاً أن نجعل عنوان هذه الفقرة «الطرز» الهندية لا «الطراز» .

وقد ظهرت العمارة الإسلامية الهندية فى تاريخها الطويل بصور شتى ، وتميزت بخصائص واضحة جعلت لها طوابع مميزة تنطق بشخصيتها للوهلة الأولى ، وأهم هذه الصور والخصائص ما يلى :

١ - كان أكبر ما اهتم به الفاتحون الغزنويون هو إزالة المعابد البوذية والهندوكية التي وجدوها في البلاد التي دخلوها ، وكانوا يُسمونها « بودخانة » ، فاهتم سبكتكين وابنه محمود ورجالهما بتحطيم كل بودخانة قامت في طريقهم ، واستخدام أعمدتها وأحجارها في إنشاء مسجد إسلامي ؛ ولم يكن هدفهم من إقامة المسجد مجرد إيجاد مكان للعبادة ، بل إنشاء حصن تحتمي خلف أسواره الجماعة الإسلامية الناشئة في ساعة الخطر ، وكان هدفهم - كذلك - إقامة صروح معمارية ضخمة تبهر أنظار الهنود وتجذبهم إلى العقيدة الجديدة .

٢ - ولهذا كانت المساجد الأولى في الهند حصوناً ، أى : مجرد مساحات مسورة بأسوار عالية ، يقام فيها بيت صلاة له قبلة ومحراب ، ومئذنة تستعمل - فى الغالب - برجاً للحراسة والمراقبة ؛ وقد زالت كل هذه المساجد الحصينة الأولى .

٣ - وقد تطورت هذه المساجد مع الزمن حتى أخذت هيئة مساجدية صريحة - وإن لم تفقد طابعها العسكرى - ويتضح ذلك بصورة خاصة فى مسجد « قوة الإسلام » فى دلهى ، وهو مشهور بمئذنته التى تُعرف بقطب منار ، نسبة إلى قطب الدين أيبك أول سلاطين ممالك الهند ، وهو الذى أنشأ الجزء الأول من ذلك المسجد ، وقد استغرق إنشاؤه - حتى أخذ صورته الحالية نيفاً ومائة سنة ، ومرّ بالأدوار التالية :

* سنة ١٢٠٠ م : أنشئ الجزء الأول من المسجد ، وكان عبارة عن مساحة مسورة مستطيلة يتجه جدار القبلة فيها نحو الكعبة ، وكانت الجدران عالية تقويها من الداخل مجنّبات ، يتكون كل منها من رواقين فى الجانبين ، وثلاثة أروقة فى الخلف وبيت صلاة عميق بعض الشيء يقوم على أعمدة ضخمة ، وفى نفس الوقت أنشئت المئذنة المعروفة بالقطب .

* سنة ١٢١٠ - ١٢٢٠ م : زيدَ الجامع زيادة ضخمة ضاعفت مساحته أكثر من ثلاث مرات .

* سنة ١٢٩٥ - ١٣١٣ م : زيدت مساحة الجامع مرة ثانية فأصبح طول ضلعه [٢٢٥ × ١٥٠] متراً .

* سنة ١٢٣٦ م : أنشأ السلطان إيلتوتميش قبره ، أى : روضته .

* سنة ١٣٠٥ م : فُتحت فى جدران السور الجديد أبواب ، جعل كل منها فى صورة مصلى صغير تقوم فوقه قبة ، وتُسمى هذه المصلّيات باسم الألى علانى دروازة (وجمعها : دروازات - أى : بوابات علاء الدين - وهو لقب إيلتوتميش) ، وعدد الدروازات أربع : اثنتان فى الجدار المقابل لجدار القبلة وواحدة فى شرق الجدار الأيمن وواحدة فى الأيسر .

* سنة ١٣١٠ م : أنشئت فى جانب من الصحن الفسيح مئذنة لم تتم .

وأهم ما يمتاز به المسجد تلك المئذنة الهائلة التى تُسمى بالقطب منار ، وهى أشبه بنصب تذكارى رفيع الذرى ، ارتفاعه (٥ ، ٧٢ متراً) وقطر قاعدته يزيد على (١٥ متراً) ، ثم تضيق المئذنة فى صعودها شيئاً فشيئاً حتى يصل قطر أعلاها (٣ أمتار) ، والمئذنة مضلعة ، تبدو أضلاعها وكأنها أعمدة متلاصقة ، وللمنار ثلاث شرفات للأذان ، تقوم كل شرفة منها على مقرنصات بالغة الجمال ؛ وهذه أضخم مئذنة فى عالم المساجد .

ويتصل بمسجد قوة الإسلام هذا مسجد صغير يقع إلى شماله هو فى الحقيقة روضة (أى : ضريح) للسلطان إيلتوتميش المنشئ الفعلى لدولة الغوريين فى الهند .

وهذا المسجد - الروضة - هو أول المنشآت من نوعه فى الهند ، وستطور المساجد والروضات تطوراً بعيد المدى ، كما سنرى .

وروضة إيلتوتميش مبنى صغير أنيق تقوم فوقه قبة ؛ وهو مبنى - كله - من الحجر الجيرى والرخام ، وقبته تقوم على مثلثات كروية غاية فى الجمال ، والقبة مسدسة الأضلاع تقوم على رقة فيها أربع قمرّيات .

٤ - وبينما كان هذا الطراز من المساجد - ذات الصحن الواسعة والجدران العالية والمآذن البرجية - يسير فى طريقه ظهر طراز جديد من المساجد فى مدينة جوليارجا التى أصبحت سلطنة مستقلة أكثر من مرة ، وهذا الطراز تتلاشى فيه الصحن تماماً ، ويصبح المسجد بناءً واسعاً مغطى كله ، يقوم سقفه على أعمدة قصيرة وعقود ضخمة مدببة ، وتقوم فوق كل بلاطة داخل المسجد قبة صغيرة ، وتنشأ فوق البلاطات السابقة على القبلة قبة كبيرة ، وتضاف كذلك أربع قباب متوسطة الحجم فى أركان المسجد .

وفى العادة يحيط بالمسجد المسقوف فضيل^(١) واسع غير مسقوف ، ثم يدور السور على ذلك كله . وقد لقي هذا الطراز إقبالا واسعا فى الهند وتعددت صورته وأشكاله .

٥ - وفى جاونبور Gaunpur على مقربة من بنارس جنوب نهر الكنج وعلى أبواب البنغال ، ظهر فى الهند طراز المساجد الجامعة المعروف فى الهند من بلاد الإسلام ، أى : المساجد ذات بيوت الصلاة والصحن تحيط بها الأروقة .

ولكن المسجد الجامع هنا يحمل طابعا هندية خالصا ، فيبدو من خارجه من ناحية الواجهة وكأنه معبد هندي ، فالواجهة ضخمة عالية تتكون من خمسة طوابق ، كل طابق منها قاعة فسيحة تستعمل للصلاة والعبادة والاعتكاف ، ويصعد إليها بسلم داخلي .

وفى وسط الواجهة بوابة ضخمة ذات عقد يصل ارتفاعه إلى (٤٠ مترا) ويلي الواجهة القبة الرئيسية تقوم فوق بلاطة المحراب ، وقد أنشئ مسجد جاونبور سنة (١٤٧٠م) فى عصر السلطان غياث الدين ؛ ومن أجمل مساجد هذا الطراز مسجد أحمد آباد .

٦ - وفى عهد السلطان أكبر ، ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يبتكر عقيدة تجمع بين الإسلام والنصرانية واليهودية وغيرها ، ظهر طراز غريب من المساجد يضم بقايا من العقيدة البوذية ويحاول التأليف بينها وبين عمارة المساجد ، ويتلخص هذا الطراز فى بناء من صحن واسع مستطيل ، تحيط بثلاث من جهاته مجنّبات من رواق واحد ، أما بيت الصلاة فهو مبنى من ثلاثة إيوانات ، الأوسط منها هو إيوان القبلة وإلى يمينه وشماله إيوانان أصغر حجما ، وتقوم فوق إيوان القبلة قبة عالية ، وفوق الآخرين قبتان صغيرتان .

والنموذج المشهور لهذا الطراز هو جامع فاتح - بور - سيكرى ، وهى مدينة صغيرة تقع جنوب «دلهى» ، وقد كانت عاصمة للسلطان أكبر ؛ وقد بنى المسجد فى سنة (١٥٧١م) ، ويقال إن الإيوانات الثلاثة بقية من معابد البوذيين ، حيث تقام مقصورة لكل من أقانيم الثالوث البوذى وهى : فيشنو وتشيغا وبراهما .

(١) أى : خندق .

وقد أمر السلطان أكبر بإنشاء هذا المسجد البديع شكراً لله على انتصار الحملة التي أرسلها على الدكن ، وقرر في نفس الوقت أن يكون المسجد جامعة إسلامية تدرس فيها علوم الإسلام ، ومن هنا فإن جامع فاتح - بور - سيكري ، يعد في المساجد الجامعات ، وله فضل كبير في انتشار العلم الإسلامى فى شبه القارة الهندية ، وقد أقيم - فيما بعد - وسط صحن هذا الجامع ضريح للولى العلامة سليم شيستى ، وكان ذلك فى أيام السلطان جاهنجير .

٧ - ومن أجمل مساجد الهند بعد ذلك المسجد الجامع فى أجرا ، وقد بدأه السلطان أكبر وأتمه ابنه جاهنجير ، وهذا السلطان الأخير هو الذى أنشأ المسجد الجامع فى لاهور .

أما مسجد دلهى الجامع (إلى جانب القطب) فهو مسجد شاه جاهان ، ويمتاز بواجهته العريضة تتوسطها بوابته الضخمة التى تتكون من ثلاث طبقات . وبعد أن يلج الداخل تلك البوابة يجد نفسه أمام مبنى المسجد ، وبیت صلاته يتكون من ثلاثة إيوانات فوق كل منها قبة بصلية الهيئة .

وأجمل ما بنى شاه جاهان من المساجد هو مسجد اللؤلؤة فى أجرا (بنى فيما بين سنتى ١٦٤٨ - ١٦٥٥ م) ، وهو مسجد هندى الطراز جدرانه الخارجية من الحجر الرملى الأحمر ، أما داخله فملبس بالواح من الرخام المختلف الألوان ، وأجمل ما فى بیت الصلاة عقود ذات الفصوص البديعة .

وإلى شاه جاهان أيضاً ينسب مسجد موتى - الذى يُسمى أحياناً جامع معطى - وهو من روائع المساجد الهندية ذات الطراز الذى ذكرناه .

٨ - وهذا يؤدى بنا إلى الكلام على المسجد الجامع الذى أنشأه السلطان شاه جاهان فى دلهى .

كان شاه جاهان (١٦٢٧ - ١٦٥٨ م) - كما ذكرنا - من أعظم البنّائين فى تاريخ الإسلام ، وهو لا يقارن فى هذا المجال إلا بالوليد بن عبد الملك وعبد الرحمن الناصر وأبى يعقوب يوسف الموحدى وسليمان القانونى العثمانى ، فإن منشآته فى الهند تعتبر

من آيات الفن ، لا فى تاريخ العمارة الإسلامية فحسب ؛ بل فى العمارة العالمية عامة .
وستقف الآن عند مسجده الكبير الذى يُسمى باسم مسجد دلهى الجامع ، وهو أكبر
مساجدها وأكبر مساجد الهند قاطبة .

يعتبر هذا المسجد الذى بنى فيما بين سنتى (١٦٤٤ - ١٦٥٨ م) خطوة بعد مسجد
فاتح - بور - سيكرى ، أى : محاولة ثانية لإنشاء مساجد ذات طابع هندى محلى ،
يجمع بين طريقة بناء المعابد البوذية والهندوكية قبل الإسلام والتقليد الإسلامى المعروف
فى إنشاء المساجد من بيت صلاة وصحن فسيح تحيط به المجنّبات .

فى مسجد فاتح - بور - سيكرى ، رأينا كيف جعل المعمارى بيت الصلاة فى صورة
ثلاثة إيوانات موروثّة عن عمارة المعابد البوذية ، وهنا فى مسجد شاه جاهان الكبير نجد
أن بيت الصلاة أصبح مبنى كاملاً يكاد ينفصل عن الصحن ، فهو فى الحقيقة مسجد
ضخم يتكون من ثلاثة أواوين متجاورة : الأوسط منها إيوان المدخل ، والمدخل هنا
لا يراد به مدخل الجامع من الطريق بل من الصحن ، وهذا المدخل - الذى يقوم داخل
صحن الجامع فعلاً - مدخل فخّم تزينه بوابة ذات عقد مدبب ، وإذا أفضينا من هذا
المدخل وجدنا أنفسنا فى بيت الصلاة ذى الأواوين الثلاثة : الإيوان الأوسط صغير وهو
إيوان القبلة ، وأمامنا محراب المسجد الجميل ، وعلى اليمين واليسار يقوم الإيوانان
الثانى والثالث ، وهما قاعتان فخمتان تقومان على دعائم حجرية وعقود مدبية ، وفوق
الإيوان الأوسط تقوم القبة الرئيسية للجامع ، وهى بصليّة الشكل ، وعلى يمينها
ويسارها فوق الإيوانين الجانبيين تقوم قبتان بصليتان أصغر من القبة الوسطى .

وللمسجد مثذنتان على طرفى واجهة المسجد التى تطلُّ على الصحن ، وهذا - فى
ذاته - وضع فى غاية الغرابة للمآذن ، والمثذنتان رفيعتا الذرى ، ترتفعان فى الجو نيفاً
وأربعين متراً ، وتُختَم كل منهما بجوسق ثم عمامة بصليّة الشكل أيضاً .

أما الصحن فمساحة شاسعة تحيط بها البوائك من كل ناحية ، والبوائك هنا طبقتان
إحدهما فوق الأخرى ، وللصحن مدخل رائع مرتفع عن الأرض بسُلّم عظيم ينتهى

بمنصة يقوم عليها الجامع ، والمدخل يقوم فى الجانب الشرقى أى : فى الجدار المقابل لجدار القبلة وهو مبنى مربع ذو ثلاثة أذوار تزيينه النوافذ الزخرفية ذوات العقود المدببة .

وللصحن بوابتان أخريان تتوسطان الجانبين الشمالى والجنوبى ، وهما تشبهان بوابة المدخل ولكنهما أصغر حجماً ، وعلى أركان الصحن وجدار المسجد كله تقوم أبراج أربعة على هيئة جواسق هى الغاية فى الجمال والإبداع .

هنا - دون شك - نجد أمامنا طرازاً مبتكراً حقاً للمساجد ، يختلف كل الاختلاف عما رأينا من طرزها ، وهذا هو الطراز الهندى فى أجمل صورته وأكملها ، وإنه لمن روائع المعمار أن المهندسين الهنود المسلمين استطاعوا أن يجمعوا - على نحو يدعو إلى الإعجاب حقاً - بين تقاليد بلادهم فى الهندسة والمعمار وبين نظام مساجد الإسلام .

ويطول بنا الكلام لو مضينا نستعرض روائع المساجد الهندية التى أقامها سلاطين المغول العظام ، وتكفى هذه الوقفة عند السلطان البناء شاه جاهان الذى ملأ شمال الهند خلال السنوات الثلاثين التى حكمها (١٦٢٧ - ١٦٥٨ م) بروائع الفن والمعمار ، ولقد بلغ من ولعه بالإنشاء أن بنى لنفسه مدينة ملكية كاملة - هى شاه جاهان أباد فى أجرا - تضم القصور والمصليات والمسجد والروضة . وكما وصلت عمارة المساجد الهندية على يديه إلى ذروتها ، فكذلك وصل فن بناء الروضات على يديه إلى ذروته فى صورة التاج محل - أى : دار التاج - الذى بناه لتخليد ذكرى زوجته « ممتاز محل » التى غالتها المنون وهى - بعد - فى ريعان الشباب .

الروضات

وهذا يأذن لنا فى أن نتحدث عن الروضات الهندية ..

عرفت بلاد الإسلام كلها الروضات ، أى : الأضرحة التى تنشأ فوق القبور . ولفظ الروضة مشتق من حديث نبوى شريف يقول : « إِنَّ الْقَبْرَ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ قِطْعَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ » . وقد اختار رسول الله ﷺ المكان الذى سيُدفن فيه - وهو حجرة عائشة رضي الله عنها - وسَمَّاهُ روضة وقال : « وَضِعَ مِنْبَرِي عَلَى ثُرْعَةٍ مِنْ ثُرَعَاتِ الْجَنَّةِ ، وَمَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ » .

وأكثر المسلمون من إنشاء الرياض ، وفى بعض الأحيان تكون الروضة مكاناً طاهراً فسيحاً يُدفن فيه الأولياء والصالحون دون مبان أو منشآت ضخمة ، كما هو الحال فى روضة القرافة على سفح جبل المقطم شمال القسطة فى مصر ، فهناك يرقد العشرات من الصحابة والتابعين وأهل الصلاح والخير ، وروضة القرافة كما يقول السيوطى :

«روضة إسلام شجرها الإيمان وزهرها التقى وثمرها الخير ، تُسبَّح فيها الملائكة ليل نهار ، يراها أبناء الدنيا تراباً وحصى ، ويرaha أهل الآخرة - بعين القلب - بساتين ذات خضرة تريح القلب والبصر ... » .

وفى تونس كان باب سَلَمُ روضة الصالحين ، وفى جنوب قرطبة أنشأ أمراء الأمويين روضتهم الشهيرة برياض بنى مروان . وفى المغرب أنشأ خلفاء الموحدين روضة المهدي المعروفة فى « تينملل » ؛ وكذلك أنشأ بنو مرين لأنفسهم روضة رائعة فى مراكش ، تعتبر من روائع الرياض وأعمال الفن المعمارى المشهور فى تاريخ الفن الإسلامى . وقد لقيت الروضات قبولا عظيماً عند الأتراك منذ أيام السلاجقة ، وهم الذين ابتكروا فى الإسلام إنشاء مبنى جنازى تذكارى كبير فوق القبر ، يتكون من بهو - واسع أو ضيق - تقوم عليه قبة فوق القبر ، وهذه الروضات التركية تمتد فى خط واحد من سمرقند إلى بروسة على ضفاف البوسفور .

وعن الأتراك أخذ الفرس هذه الروضات ، ومن ثم انتقلت إلى الهند ضمن ما انتقل إليها من صور الحضارة الإيرانية الإسلامية ، ولكنهم زادوها فخامة وضخامة حتى أصبحت عنصراً جديداً من عناصر العمارة الإسلامية التي تميزت بها بين الفنون المعمارية في العالم ، وما نظن أحداً في الدنيا يجهل أمر التاج محل ، تلك الدرّة المعمارية العالمية . والتاج محل ذروة فن إنشاء الروضات عند المسلمين ، وقد سبقتها روضات هندية أخرى كنا نستطيع أن نتبعها لو كان المجال يتسع هنا لدراسة تاريخية مطوّلة ، ولكننا سنكتفى هنا بمثلين أو ثلاثة تُعين أهم مراحل تطور فن الروضات .

وبديهيٌّ أن الروضة - في نفس الوقت - مسجد ، فإن منشئها يقيمها حتى يصلّي الناس فيها ، ويسألوا الرحمة لصاحبها الراقد تحت قبتها ، ولهذا فلكل روضة قبلة ومحراب ، ويضاف إليهما منبر إذا كانت من السعة بحيث تصبح مسجداً .

أول روضة هندية نذكرها هي القائمة في مسجد قوة الإسلام في دلهي ، وما منارة قطب الدين أيك إلا نصب تذكاري هائل إلى جانب هذه الروضة المسجد .

وتتحدث - بعد ذلك - عن روضة غياث الدين طغلق ، ثاني أمراء هذه الدولة التي انفصلت عن الغوريين ، وكان السلطان علاء الدين إيلتوتيمش قد أنشأ لنفسه روضة صغيرة سنة (١٢٣٥ م) ، فلما استقل الأمير غياث الدين طغلق أنشأ لنفسه قلعة ضخمة جنوب دلهي سُميت باسم طغلق آباد ، وبعد وفاة غياث الدين أنشأ ابنه في تلك القلعة روضة لذكرى أبيه هي في الحقيقة حصن ذو أسوار عالية يرتفع فوق الأرض ثلاثة طوابق .

أنشئت روضة غياث الدين طغلق سنة (١٣٢٥ م) ، وهي النموذج الذي سيتطور حتى يصل ذروته في صورة روضة التاج محل ؛ فهي مساحة واسعة يدور حولها سور على ركنيه قبتان ، وتنفذ من باب مفتوح في هذا السور إلى مبنى الروضة نفسها فتجد واجهة رائعة ذات بوابة ضخمة لها ثلاثة أبواب ، الأوسط منها ذو عقد مدبب .

فإذا أفضيت داخل الروضة وجدت نفسك في ساحة فسيحة ، هي في الحقيقة بيت صلاة يقوم في وسطه قبر غياث الدين ، وعلى أعمدة وسط بيت الصلاة يقوم جدار ثان تزينه قباب زخرفية من الخارج ، وفوق ذلك كله تقوم القبة الكبرى .

والمبنى كله ذو طراز هندي خالص بارتفاعه وتعقيد تركيبه والقباب الزخرفية الكثيرة التي تنتشر فوقه محيطة بالقبة الكبرى .

ومن هذه الروضة نتقل إلى روضة السلطان همايون ثانياً بأبطرة مغول الهند ، وهي تسير في نفس الاتجاه - وإن كانت أكثر تعقيداً - وأجمل ما فيها أنها تقوم على تل مشرف على نهر صغير .

ثم تلى ذلك روضة السلطان أكبر ، وقد أنشأها هذا السلطان الفيلسوف على تلى ذى درجات ؛ وهي فى الحقيقة نُصِبْ تذكارى هائل .

وعندما نصل إلى روضة تاج محل نجد أنفسنا أمام عمل هندسى رائع ، يقوم على فكرة الروضة الإسلامية ، ولكنه يرجع - فى الأصل البعيد - إلى نظرة الهندى القديمة إلى الموت ، وهى أنه ليس نهاية الحياة بل بداية مرحلة أخرى منها ، مرحلة سعادة أبدية أو شقاء أبدى ، لأن الهندى القديم لا يؤمن بيعث أو حساب أو نشور ، وإنما بانتقال الروح رأساً من عالم الأحياء الظاهر إلى عالم الأحياء المستور ، عالم الموت فى الظاهر وسعادة الروح أو شقائها فى الباطن .

لهذا اتجه المعمارى الهندى إلى أن يجعل الروضة قبراً وقصراً فى آن واحد ، وإذا كان عقله الواعى قد جعلها مسجداً لله ، فقد جعلها عقله غير الواعى قصراً للمتوفى .

وعندما توفيت ممتاز محل زوجة شاه جاهان الشابة فى سنة (١٦٣٠م) دفنت فى قبر عادى مؤقت فى برهان - بور ، على ضفة نهر التابتي ، وخلال العامين التاليين كان المهندسون يرسمون خطة روضتها ويتأفقون فى تصميمها حتى تكون قصراً وروضة فى آن واحد .

وقد اختلفت الآراء حول صاحب خطة المبنى ، فمن مؤرخى الفن الهندى من ينسبها إلى مرشد الشيرازى - وهو مهندس إيرانى كان فى خدمة شاه جاهان - أو مير عبد الكريم ، أو عبد الكريم معمورى ، أو إلى لطف الله أحمد ، أو إلى حفيده عطاء الله ابن أحمد بن لطف الله ، ولكن أصح الآراء أن صاحب الخطة كان شاه جاهان نفسه ، مستعيناً فى ذلك بمهندسيه هؤلاء أو ببعضهم ، وكان آصاف خان وزير شاه جاهان هو الذى تولَّى العمل وأوصل أوامر سيده إلى المهندسين والعمال .

وهناك خلاف - أيضاً - حول أصل خطة المبنى ، فهناك من يقولون إنها هندية صرفة أو إيرانية .

والحقيقة - فيما نرى - أنها ثمرة من ثمرات شجرة الفن المعماري الإسلامي البعيدة الجذور ، فإن الجزء الرئيسى من المبنى ، وهو الذى يقوم فيه قبر ممتاز محل والمسجد وما يعرف بقاعة الزوار - إنما هو فى الحقيقة بيت صلاة مسجد قُسم إلى أوابين ثلاثة : الأول - وهو الأيسر - هو المسجد وفيه القبلة المتجهة نحو مكة ، والثانى فى الوسط وفيه القبر ، والثالث - بقية بيت الصلاة - ويقع إلى يمين القبر ، وهذا الجزء من المبنى مسجد دون جدال : مدخله مدخل مسجد ومحرابه محراب مسجد ، وهذا هو الشئ الرئيسى فى المبنى وما عدا ذلك تفاصيل وزيادات .

حقاً .. لقد أخذ هذا المسجد صورة هندية ، وصاغه المعماريون - الهنود أو الإيرانيون - على طريقتهم ، ولكنهم صاغوه بروح إسلامية خالصة ، فالعناصر المعمارية رصينة ذات وقار ، والجدران قطع من الرخام الأملس الصافى الذى لا يعرف من الرسم إلا الزخارف أحياناً ، والحدائق تصور تخيلات الفنان المسلم لرياض الجنة ، ونهر الهمنا الذى يقوم المبنى على ضفافه ربما كان - فى تصور الفنان - رمزاً على الكوثر الذى أفضل الله به على رسوله عليه أذكى السلام .

مثل هذا المبنى لا تصوّره الكلمات بل الرسوم ، فانظر فيها ترّ عجباً من الجمال والإيمان ، واذكر أنك أمام ورقة صغيرة من أوراق شجرة المساجد الزاهرة ، التى غرسها - بأكرم يدين وأظهر قلب - نبينا صلوات الله عليه فى قلب المدينة عندما أنشأ مسجده فكان شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار .

* * *

٦ - الطراز الإيراني الصفوي

رأينا كيف أن هضبة إيران كانت إحدى مهد الطراز السلجوقي البديع ، الذي يعتبر بحق أساساً للطرازين الإيراني الصفوي والتركي العثماني ، وهو يعتبر - كذلك - من الأسس الواضحة للفن المعماري الإسلامي في الهند .

ذلك أن أهل المعمار في إيران أتقنوا فن البناء المتين المحكم بالآجر والحجر - كما رأينا - واكتشفوا في بلادهم من أنواع الأحجار ولبن الآجر ما مكّنهم من إنشاء العمائر السلجوقية التي تحدثنا عنها ، وقد تأصل فن البناء المتين في إيران من ذلك العصر ، وبدأت عواصمها الكبرى تزدان بالمساجد الجميلة والروضات البديعة إلى جانب القصور والحصون وما إليها من المنشآت .

وكانت إصفهان (أصفهان) - من أيام السلاجقة - قد أصبحت عاصمة إيران ، فقد دخلها طغرل بك في (يونيو سنة ١٠٥١م) واتخذها عاصمة له ، فأزهرت في عصره وعصور خلفائه ، حتى قال ناصري خسرو - الرحالة المشهور - إنها أجمل مدائن الإسلام على أيامه ، ووصف مبانيها ومساجدها وأسوارها في إسهاب كبير .

ولم يقل اهتمام السلطان ألب أرسلان والسلطان ملك شاه بأصفهان عن اهتمام طغرل بك ، فازداد إزهار البلد واتصل عمرانه وأخذت تنمو فيه - على مهل - خصائص إيران الحديثة التي نعرفها اليوم بطوابعها القومية والسياسية والحضارية .

وقد خلّد السلاجقة حكمهم في إيران بمنشآت بديعة - خاصة في إصفهان ، من أهمها : المسجد الجامع أو مسجد الجمعة .

المسجد الجامع - أو مسجد الجمعة - في إصفهان :

وهذا المسجد الجامع في إصفهان يحكي تاريخ إيران بما مر عليه من أحداث وصروف ، وقد رأينا أن كثيراً من المساجد الجامعة تحكي تاريخ البلاد التي قامت فيها ، فقد أنشأه الفاتحون المسلمون سنة (٦٤٤هـ) في موضع معبد للنار المجوسية عندما دخلوا البلد ، وكان بطبيعة الحال - في أول أمره - مسجداً صغيراً بسيطاً ككل المساجد

الإسلامية الأولى ، ثم هُدم وبنى مراراً حتى جاء السلاجقة فأعادوا بناءه على الصورة التى ظل عليها إلى اليوم ، رغم التعديلات الكثيرة التى أدخلت عليه .

وصاحب الفضل فى بناء المسجد الحالى هو السلطان ملكشاه السلجوقى .

ولم يبقَ من المسجد الجامع السلجوقى فى إصفاهان إلا جدرانه ، أما القاشانى والقباب والمآذن التى تزين المسجد فترجع إلى العصور التالية ، فقد مرّت بإصفاهان - كما مرّت بإيران كلها - دول التيموريين وإيلخانات فارس ثم الصفويين والقاجاريين ، وأخيراً البهلويين قبل الثورة الأخيرة .

والمسجد مبنى من الآجر والحجر ، وبيت صلاته ينقسم إلى أربعة أواوين ، لأن الكثير من المساجد الإيرانية استغنت عن تكوين بيت الصلاة من أروقة تقوم على صفوف من أعمدة تنتهى بجدار القبلة ، واتخذت الأواوين ، وهى قاعات فسيحة تقوم سقوفها على عقود واسعة مستديرة ، وتتصل الإيوانات بعضها ببعض عن طريق عقود مدببة ، وقد سارت المساجد الإيرانية والعثمانية والهندية على هذا الطراز ، ويقوم المحراب - فى العادة - فى الإيوان الأوسط .

والمبنى الحالى يرجع إلى عصر السلطان ملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢ م) وهو الذى أنشأ قبة البديعة سنة (١٠٨٠ م) ، وقد اجتهد خلفاء ملكشاه فى تزيين هذا المسجد بالقاشانى الملون ، وأضافوا إليه زيادات كثيرة حتى أصبح وكأنه متحف للفن الإيرانى .

وقد أضاف إليه السلطان أوجايتو محمد خدابنده - من سلاطين إيلخانات إيران - قسماً كبيراً فيما بين سنتى (١٣٠٣ - ١٣١٦ م) ، وعهد إلى وزيره محمد صافى بعمل محراب جميل يعتبر من أجمل المحاريب الإيرانية ، وهو قطعة من فن التزيين بالخزف والقاشانى .

وإنما بدأنا بالحديث عن إصفاهان ومسجدها الجامع ، لنستلفت نظر القارئ إلى أن الفن الإيرانى - فى أكمل صورته - إنما هو خلاصة تقاليد فنية كثيرة تلاقت على أرض إيران ، وصاغها الفنان الإيرانى بما أوتيته من ذوق وملكة فنية فى صورة عمل فنى يحمل طابع الشعب الإيرانى ويعبّر عن شخصيته .

وإيران - كغيرها من البلاد ذات التاريخ السياسى والحضارى الطويل - تحتفظ دائماً بشخصيتها الفنية ، مهما كان الشكل السياسى الذى يغلب عليها فى هذه الفترة أو تلك ، وتنطبق عليها - كذلك - الحقيقة الناصعة التى تقول إن الدول التى انتهى بها المطاف إلى أن تصبح أحد أعضاء الأسرة الإسلامية تصل فى ظلال الإسلام إلى أكمل صورها الحضارية ، وذلك لأن الإسلام يضعها فى نطاق حضارى واسع تجتمع فيه تجارب أمم كثيرة ، ويزيل الحواجز بينها وبين جاراتها من أمم الإسلام ، فيقوى تيار الحضارة وينشط أهل الابتكار والتجديد فى الاقتباس والابتكار .

ولقد خلّفت عصور ما قبل الإسلام فى إيران آثاراً كثيرة ، ولكنها - فى مجموعها - لا تعدل فى الأصالة والجمال أثراً واحداً من آثارها الإسلامية ، ولقد أطلوا الحديث عن برسو پوليس (لفظ يونانى معناه : مدينة الفرس) ولكن كل ما فى «برسو پوليس» هى أعمدة أو بقاياها قائمة فى القفر تنعى من بناها ، وهى لا تعدل من الناحية الفنية واجهة المسجد الجامع فى «إصفاهان» وحدها ؛ فالفن الإيرانى الحقيقى هو فننا فى عصر الإسلام .

النهضة الإيرانية فى عصر الصفويين :

وقد بلغت إيران ذروة اكمال شخصيتها السياسية على أيدي الصفويين فى العصر الحديث .

حقاً لقد سبقت الصفويين دول إيرانية كثيرة ذات أعمال سياسية وحضارية جليلة ، مثل دولة السامانيين ثم الأتراك السلاجقة ودولة إيلخانات فارس وما إليها ، ولكن الصفويين هم الذين أعطوا إيران طابعها المميز لها عن أخواتها فى عالم الإسلام .

وقد قامت «الدولة الصفوية» فى إيران فى (المحرم سنة ٨٩٨ هـ / يوليو سنة ١٥٠٦م) ، أنشأها رجل مجيد من رجال السياسة والحرب هو إسماعيل بن الشيخ حيدر ابن الشيخ إبراهيم بن الخواجا على رئيس الجماعة الصوفية التى أنشأها صفى الدين الأربيلى (٦٥٠ - ٧٤٤ هـ / ١٢٥٢ - ١٣٤٣ م) ، وهى جماعة دينية تراوحت بين

السُّنية والشيعة حتى استقرت أخيراً على المذهب الشيعي الإسماعيلي . وعندما وصلت رياستها إلى إسماعيل الذي ذكرناه ، وجد حوله من الأعوان والقوة ما مكَّنه من إعلان نفسه شاهاً لإيران - في التاريخ الذي ذكرناه - وتلقَّب بإسماعيل الصفوى نسبة إلى الشيخ صفى الدين الأردبيلي مشيئ المذهب .

والتفَّ الشعب الإيراني حول إسماعيل ، لأن الأتراك العثمانيين - في ذلك الحين - كانوا في أوج حركة اتساعهم ، وكانت فتوحهم قد امتدت إلى غرب إيران وشمالها ، فنهض إسماعيل يرُدُّهم عن بلاده ، مستعيناً - في ذلك - بحماس الشيعة الإيرانيين الذين كرهوا الخضوع للسُّنَّيين الأتراك .

وهكذا أخذت حركة إسماعيل الصفوى مظهراً شيعياً ، وكان هو شيعياً متحمساً ، فجعل من الصراع مع تركيا صراعاً مذهبياً للشيعة ضد السنة ، وتمكَّن بالفعل من إيقاف تقدُّم الأتراك العثمانيين في بلاده .

وقد بلغت الدولة الصفوية ذروة قوتها في عصر الشاه عباس (٩٩٦ - ١٠٣٨ هـ / ١٥٨٧ - ١٦٢٩ م) الذي يعتبر من أعظم رجال السياسة والحرب في عالم الإسلام في العصور الحديثة ، فقد تصدَّى لطرده البرتغاليين من هرمز وسواحل بلاده ، وفي حماسه للتخلص من خطر الأتراك تحالف مع الإنجليز وفتح أبواب بلاده للحضارة الحديثة ، وزاد صلات بلاده مع الهند والصين وبقية آسيا .

وصاحبت النهضة السياسية نهضة حضارية وفنية ، وكان مركز هذه النهضة إصفاهان عاصمة الدولة ، وقد اجتهد إسماعيل الصفوى وخلفاؤه في تزيينها بالمنشآت الجميلة - وخاصة المساجد - والشعب الإيراني بطبعه متدين صادق الإسلام ، فظهرت في إصفاهان وتبريز ومشهد - وغيرها - مساجد هي الغاية في الجمال .

وستكتفى - فيما يلي - ببعض الأمثلة ، فإن مساجد إيران الجميلة لا يحصيها هذا العرض العام :

مسجدى شاه فى إصفاهان :

يعتبر هذا المسجد أعظم منشآت الشاه عباس الأكبر ، وقد وضع تصميمه المعماري النابه أستاذ على أكبرى إصفاهانى . يقوم ذلك المسجد الفسيح جنوب ميدان بخشى

جاهان ، وهذا المسجد الجليل يعتبر مجموعة مبان فى مبنى واحد ، فإن بوابته وحدها - التى تقوم على جانبيها مئذنتان - تعتبر أثراً فنياً كاملاً قائماً بذاته ، وصحنه الفسيح تطلُّ عليه البوائك ذات العقود المدببة المزدوجة تبعث فى النفس إحساساً عميقاً بالإيمان .

أما بيت صلاته فأية من آيات الفن ، وأروقته الرصينة ذات العقود المدببة وقبلته المزينة بالقاشانى الأزرق التقليدى فى إيران الصفويين ، ثم محرابه الذى يعتبر آية من آيات الفن ، كل هذه تبدو لناظرها وكأنها معرض للفن المعمارى لا تشيع العين من استجلاء محاسنه .

أما قُبَّتُهُ الزرقاء السامقة فتقوم على رقبة دائرية مُحَلَّاةً بالنقوش والكتابات ، والقبة - نفسها - مغطاة بالقاشانى الأزرق الضارب إلى الخضرة ومحلاة بنقوش ورسوم تعتبر قمة من قمم فن الزخرفة الإسلامية .

ويظفر الإنسان فى هذا المسجد كله بنماذج زخرفية هى الغاية فى حسن الذوق والانسجام ؛ وهذه الزخارف تقوم فى كل جزء من أجزاء الجامع تقريباً ، من البوابة الرائعة إلى قمة القبة الفريدة فى بابها .

فى بعض الأحيان يشعر الإنسان أن الزخارف تجاوز الحدَّ فى التألق ، لأن المسجد الإسلامى - بطبعه - لا يحتمل كل هذا التزيق ، ولكن الذى يتأمل زخارف مسجد الشاه فى إصفاهان لا يكاد يشعر بهذا الإغراق فى الزخرفة ، لأن هناك روحاً من التقى والتدين تتماشى فى كل ما تقع عليه العين فى ذلك الأثر الجليل .

وبيت صلاة هذا المسجد يقوم على نظام الإيوانات - لا الأروقة - والواقف فيه لا يجد نفسه فى غابة من الأعمدة وإنما فى أبهاء فسيحة تقوم سقوفها على دعائم ضخمة تحمل عقوداً مدببة ؛ والإيوان الأوسط هو إيوان القبلة والمحراب ، وكل ما فى الرواق مُلبَّس بالخزف والقاشانى والرخام ، وأنت تشعر بأن المسجد كله - على ضخامته - عمل فنى واحد متكامل ، كأنما صاغه فنان واحد فى وقت واحد .

وصحن الجامع فسيح تطلُّ عليه البوائك من كل ناحية ، وبيت الصلاة يطلُّ على الصحن بواجهة جميلة ملبَّسة بالقاشانى ، وهى وحدها عمل فنى كامل ، وتزين واجهة الجامع مئذنتان جميلتان مستديرتان ، تنتهى كل منهما بجوسق تعلوه أسطوانة وعمامة .

مسجد الشيخ لطف الله :

ولا يستطيع الإنسان مغادرة إصفهان الجميلة دون أن يزور جامع الشيخ لطف الله ، الذى تأتق المعمارى الإيرانى فى إنشائه وزينته ، حتى يبدو وكأنه تحفة فنية فى كل جزء من أجزائه .

ولا غرابة - إذن - فى أن مؤرخى الفن الإيرانى يرون أن مسجد الشيخ لطف الله أجمل أثر معمارى صفوى ، وقد أمر بإنشائه الشاه عباس - قبالة قصره الكبير المسمى على قبو - وقد استمر بناؤه من (١٦٠٢ إلى ١٦١٨ م) .

ويسمى هذا المسجد بالمسجد الشاهانى ، لأنه فى الحقيقة ليس مسجداً جامعاً وإنما هو مسجد خاص للمناسبات الرسمية ، ولهذا فإننا لا نجد فيه صحناً ولا مأذن ، وكان الشيخ لطف الله كبير شيوخ المذهب الشيعى فى عصر الشاه عباس ، وأصله من جبل عامل فى لبنان ، ثم استقدمه الشاه عباس وأحاطه بكرامة عظيمة وأنشأ له هذا المسجد .

وأجمل ما فى هذا المسجد الخزف ذو البريق المعدنى الذى يزين جدرانه وكل جزء فيه ، وبينما نجد الخزف فى مسجدى شاه أزرق أخضر نجد خزف مسجد الشيخ لطف الله وردياً ، ويتجلى ذلك - بصفة خاصة - فى قبته ، ويحيط بالمسجد روض بديع تزينه زهور وردية تزيد من جمال المسجد كله ، أما بوابة الجامع فتزدان بالخزف الأزرق .

ومن جلائل أعمال الفن فى إصفهان مدرسة شهرباق - وهى مسجد فى نفس الوقت - وهى مدرسة سلطانية أنشأها الشاه حسين الصفوى سنة (١٧٢٢ م) ، ونحن نذكرها هنا لأن قبته ومئذنتها تعتبران من أروع ما خلّفه المعمارىون المسلمون من أعمال تليس المنشآت بالقاشانى والخزف المزين بالزخارف والكتابات .

ونترك إصفهان لأن استيفاء الكلام عن مشاهدتها يحتاج إلى مجلد كامل ، فهى - فى الحقيقة - مدينة فن وجمال جمع الفنانون الإيرانيون فيها أجمل ما أبدعوا من روائع الأعمال ، وننتقل إلى بلد آخر هو «كرمان» فتحدث عن جامعها .

محراب مسجدى جامع فى كرمان :

بنى هذا المسجد سنة (١٣٤٩ م) ، وهو يعتبر من أجمل نماذج العمارة الإيرانية فى عصر إيلخانات المغول فى إيران ، وأجمل ما يميزه هو محرابه الفريد فى بابته - إذ هو

يحتل كل جدار القبلة - وقد صمّمه المعماري الفنان قطعة واحدة ؛ فجاء رائعة من روائع الأعمال الفنية فى تاريخ الفن الإسلامى .

إن هذا المحراب يقف - جنباً إلى جنب مع محراب مسجد قرطبة الجامع - فى الصف الأول من محاريب المساجد ، ولكن بينما نجد أن محراب مسجد قرطبة عمل معمارى مركّب - فهو أشبه بمقصورة مدخلها بوابة رائعة وسقفها قطعة واحدة من الرخام نُحتت فى صورة محارة - نجد أن محراب المسجد الجامع فى كرمان جدار هائل مسطّح ، وفى وسطه تقوم الحنية ؛ فكأن الجدار كله إطار للمحراب ، وهو مكوّن من إزارات تحيط بالمحراب بعضها مزين بالكتابة الجميلة ، وبعضها مزين بالزخارف البديعة من كل نوع ، ويسود فيها اللون الأزرق الضارب إلى الخضرة وهو اللون التقليدى فى المنشآت الإيرانية عموماً .

ولابد - لكى نقدرّ جمال هذا المحراب - من أن نأخذ كل قطعة منه على حدة ونتأمل تصميمها الزخرفى ، فإن وصف ذلك الجدار - إذا نُشر - كان كتاباً كاملاً فى فن الزخرفة الإسلامية الإيرانية ؛ أضف إلى ذلك أن كل تلك الزخارف عُمِلت على قطع من القاشانى الإيرانية البديع ثم وضعت فى أماكنها بدقة وحساب كبيرين .

الدور الأخير للفن الإيراني الصفوى :

خلال القرن التاسع عشر وصل الطراز الصفوى فى إيران إلى قمته من حيث الجمال والانسجام والابتكار ، وبدأ - كذلك - اضمحلاله بالإسراف فى الزينة والتركيز على التزييق بالذهب والفضة والألوان ، فظهرت مساجد ومدارس وروضات كثيرة تبهر الأبصار ، ولكنها لا تخدع عين الخبير العارف بالفن الإسلامى وخصائصه وروحه .

فمن مساجد الطراز الصفوى الأصيلة التى بنيت فى القرن الثامن عشر المسجد الصغير فى «إريفان» ، وهو يستوقف النظر بقبته السامقة التى تقوم فوق بيت صلاته الفسيح ، والصحن مربع تقريباً تطلُّ عليه البوائك ، أما المجنبة الخلفية فتقوم عليها قبتان صغيرتان .

وحوالى سنة (١٦٠٠ م) بنى فى إصفاهان جامع شاه سلطان حسين المعروف بـ « نادر شاه » ، وهو مسجد ومدرسة من أجمل ما أنشأ المعماريون الإيرانيون ، فإن بيت الصلاة أشبه بقاعة كبرى تقوم فوق معظم سقفها قبة ضخمة تُعدُّ من أجمل قباب المساجد الإسلامية ، وتحيط بالصحن المستطيل مجنّبات فى هيئة إيوانات ذات طابقين ، ومنظر تلك البوائك التى تشرف على الصحن آية فى الجمال ، وتتصل بإيوانات المجنّبات أفنية صغيرة مربعة ومستطيلة على جوانبها حجرات للسكن وخلوات للصلاة .

ومن أجمل منشآت هذا القرن : الأضرحة (أو الروضات) الفخمة التى أقيمت لأئمة الشيعة فى كربلاء والنجف وسامرا وغيرها فى العراق ، وهى عمائر ذات أشكال معمارية معقدة مثقلة بالزينة والزخارف وأشغال الذهب والفضة والفسيفساء الملونة التى تحيّر النظر بأشكالها التى لا تخلو - بين الحين والحين - من مبتكرات أصيلة .

وقد توالى الترميم والتجديد والإضافة إلى هذه المنشآت إلى أوائل القرن العشرين ، ودخلتها أشكال زخرفية حديثة أوربية مما يجعل مؤرخ الفن الإسلامى يتردد فى التسليم بأصالة الكثير من العناصر الزخرفية فى تلك العمائر ، أو إصدار حكم نهائى عليها . وربما كانت أجمل العناصر الزخرفية فى هذه المنشآت : الكتابات التى تزينها ، فهى من أروع ما ابتكرته العبقريّة الإسلامية فى ذلك المجال ، وخاصة تلك التى كتبت بماء الذهب على قاعدة زرقاء سماوية .

المسجد الجامع العتيق فى شیراز :

ولا تقلُّ شیراز عن إصفاهان كمركز من مراكز الفن الإيرانى - وربما كان مكانها فى عالم الفكر أعظم - فهى مدينة الشعاعين العظمين : مسلم بن عبده السعدى الشيرازى (١٢٠٧ - ١٢٩١ م) الشاعر المبدع صاحب ديوان « چلستان » أى : حديقة الورد ، وديوان « پستان » ؛ وحافظ الشيرازى - وهو خامس شعراء إيران العظام - : (الفردوسى ، وعمر الخيام ، والسعدى ، ونظامى ، وحافظ الشيرازى) .

وكانت « شیراز » من أقدم عواصم إيران ، فقد اتخذها يعقوب بن الليث الصفار

عاصمة له ، عندما استقل عن الدولة العباسية سنة (٨٢٧ م) ، فكان منشئ أول دولة مستقلة فى ذلك القطر ذى التاريخ الطويل .

وقد خلد يعقوب بن الليث الصفار استقلاله عن الخلافة العباسية وانتصاره على جيوشها فى سنة (٢٨١هـ / ٨٩٤ م) بإنشاء ذلك المسجد الجامع فى شيراز ، ويلقب بالجامع العتيق ، وكما هو الحال مع المساجد العتيقة ؛ أعيد بناء هذا الجامع وترميمه - مرة بعد مرة - حتى فقد شكله الأصلى وأصبح شيئاً جديداً ، وصورته الحالية تمت فى أيامنا هذه .

والمسجد مبنى على أساس الإيوانات - لا الأروقة - فبيت صلاته يتكون من عدد من «الشاهستانات» أى : الإيوانات ، أما صحنه ففسيح مبلط كله بالرخام ، تحيط به البوائك من كل جهة .

ويمتاز هذا الجامع ببواباته البديعة التى يبلغ عددها ستاً ، موزعة على جوانبه الأربعة والبوابات ضخمة مبنية بالآجر أو الحجر الرملى ، ومزينة بالقاشانى ، تحف بكل منها مثذنتان قصيرتان ، لكل واحدة منهما جوسق وعمامة .

روضة شاهى سراج :

ربما كانت هذه أجمل روضة فى إيران ، ولهذا سُميت بسراج الملوك (شاهى سراج) وقد أنشئت لتكون قبراً للسيد مير أحمد بن الإمام موسى الكاظم ، الإمام السابع فى سلسلة الأئمة الاثنى عشرية ؛ ومير أحمد هو الأخ الأكبر^(١) للإمام على الرضا ، ثامن الأئمة ، وروضته فى مشهد هى أجل وأقدس مزارات الشيعة فى إيران .

وسبب إقامة الروضة فى ذلك الموضع تقصه حكاية يرويها الجنيد الشيرازى المؤرخ ، يقول : إن بستانياً رأى ومضات من نور تخرج من تل ، فأمر أمير الناحية بحفر التل ، وهناك عثروا على رفات الإمام الجليل ، وقد عرفوه من الخاتم الذى كان فى إصبعه ، فأمر بإنشاء تلك الروضة البديعة التى تمتاز بواجهتها الرائعة الملبسة بالخزف الزخرفى ، تزينها الآيات القرآنية ، وتطل عليها قبة لا نظير لرخارفها الخزفية البديعة .

(١) كان للإمام موسى الكاظم من الأبناء : أحمد ، وعلى ، وزيد النار ، وإبراهيم .

مسجد الوكيل فى شيراز :

ونختم هذا الكلام - عن عمائر شيراز - بالكلام عن مسجد الوكيل ، وقد أنشأه كريم خان زند مُنشى أسرة زند (١٧٥٨ - ١٧٧٩ م) ، فهو من عصر الدولة القاجارية التى أنشأها نادر شاه ؛ ويُسمى هذا المسجد - أيضاً - بالمسجد السلطانى .

وأروع ما فى هذا المسجد بيت صلاته الذى تزدهم فيه عقود حجرية مدببة تقوم على دعائم مزخرفة بخطوط حلزونية ، ومنبر المسجد - إلى جوار المحراب - يقوم على أربع عشرة درجة ترمز - فى رأى منشئها - إلى رسول الله ﷺ وابنته فاطمة الزهراء والأئمة الاثنى عشر .

وقد صُنِعَ هذا المنبر فى المراغة فى آذربيجان ، ثم نُقل إلى شيراز بأمر كريم خان زند .

هنا نقف بالكلام عن الطراز الإيرانى ، فإنه من أجمل ما ابتكرته العبقريّة الإسلامية فى إنشاء المساجد ، وهو يمتاز على غيره بتعدد أشكاله ؛ فالفرق جسيم بين مساجد إصفهان وشيراز ومشهد وكرمان وطهران - وغيرها من بلاد إيران - وبين مساجد العالم الإسلامى الأخرى ، ولكن مساجد إيران كلها تقوم على تقاليد فنية إيرانية واضحة المعالم ، فهى مساجد ذات إيوانات ، وصحونها فسيحة تطل عليها البوائك من كل ناحية وبواباتها فخمة ضخمة تروع النفس .

ويستوقف الإنسان فى مساجد إيران خاصّتان رئيسيتان : التلييس بالحزف والقاشانى الملونين على صورة فريدة فى بابها حقاً ، ثم الغنى الذى تتميز به هذه المساجد ؛ فهى منشأة من أنبل المواد وأغلاها : الحجر النفيس والأجر المتقن والرخام والمرمر والخشب الغالى وزينة الذهب والفضة ؛ وكل هذه تنطق بإيمان منشئها ؛ إيمانهم الذى جعلهم يفرغون عليها الأموال الجلييلة دون حساب ؛ فأهدوا بذلك للفن العالمى كله هدية من أغلى ما يعتزُّ به تاريخ الحضارات .



الفصل الحادى عشر

مساجد اليوم والغد



بعد هذه الرحلة القصيرة فى عالم المساجد وتاريخها وتطورها وطرزها والعناصر الجمالية فيها جملةً ، لا نجد ما نختمها به إلا بفصل عن مساجد اليوم وطرزها وأشكالها ومدارسها ، ثم نلقى نظرة إلى الأفق البعيد نستطلع مساجد الغد كيف ستكون وكيف ينبغى أن تكون ، وذلك استقراء مما نرى اليوم من اتجاهات فى إنشاء المساجد فى عالم الإسلام وخارجه ؛ أى : تلك المساجد التى تُبنى فى العواصم الغربية وغيرها مما يقع خارج نطاق دار الإسلام لخدمة من يكون فيها من جاليات إسلامية ؛ ونحاول كذلك أن نستشف الوظائف التى يمكن أن تقوم بها المساجد فى عالم الغد وخاصة فى بلاد الطليعة أى : فى مواطن تلك الجماعات الإسلامية الزاحفة فى آسيا وإفريقية وغيرها .

ومن البديهي أن نجد كل بلد إسلامى يجرى اليوم فى إنشاء مساجده على تقاليده الحضارية المتوارثة ، فمساجد مصر اليوم - مثلاً ، إلى حدٍّ ما - استمرار لتطور المساجد المملوكية ومساجد إيران اليوم تتحرى السير فى آثار مساجدها فى العصر الصفوى وهكذا ، ولكن عصرنا الحديث استحدث أساليب جديدة فى الإنشاء ومواد جديدة للبناء وآلات وأدوات تستخدم فى أعمال العمارة غيرت مفهوم الفن المعمارى ، ففتحت أمام المعمارين أبواباً واسعة للتجديد والابتكار لم تكن ميسورة بالأمس أو كانت ممكنة ولكنها كانت ثقيلة المثونة غالية التكاليف بحيث كانت تُعدُّ فى الماضى من الأعاجيب فإذا أردت الإنشاء على منوالها اليوم لم تجد إلا جزءاً يسيراً من المشقة الماضية ، وانظر مثلاً ما تكلفه إنشاء « قطب منار » فى دلهى من الجهد والفن والمال والزمان ، فلو أردت أن تُنشئ مثلها اليوم ، فعندك الأسمت المسلَّح وغيره من المواد الجديدة التى تُغنى عن تكلف نحت الحجر الرملى الصلد ، لأنها خلَّاتُ جديدة تُصبُّ صبّاً ، وهناك آلات البناء من مصاعد وروافع وسلالم تحمل المعمارى إلى أى ارتفاع أراد وسقالات معدنية تحمل مواد البناء عشرات الأمتار فى الهواء ، وغير ذلك .

وأهم تطور حدث فى فن البناء هو « مواد الجديدة » التى ابتدعها أهل الصناعة والكيمياء ، فهناك حجر صناعى ورخام صناعى وخشب يصنع من اللدائن وهياكل حديدية من كل شكل ، تقيهما ثم تصبُّ عليها الأسمت كما يحدث فى إقامة القباب

اليوم ، ثم هناك الدهانات الحديثة بألوانها البديعة التى لا تؤثر فيها عوامل الجو ، ثم أدوات الزخرفة وصياغة المعادن واستعمالاتها المختلفة فى العمارة ، وهذا كله من شأنه أن يُيسّر الإنشاء والبناء ويفتح الطريق أمام المعمارى ليفتقن فى الأشكال المعمارية والحلول الهندسية كيف شاء ؛ إضافة إلى التقدم العظيم فى ميادين الرياضيات وحسابات المنشآت واقتصادياتها .

وهذه الأساليب الجديدة خلقت أشكالاً معمارية جديدة اجتذبت أهل الهندسة والعمارة فى العالم كله وفتحت لهم أبواباً واسعة فى التجديد والابتكار ، والعلم اليوم عالمى ، لأن المتخصصين - فى كل فرع من فروع المعرفة - يدرسون فى معاهد متشابهة ويتكلمون على نحو خاص ، ومناهج الدراسة فى المعاهد الهندسية - فى العالم كله - متقاربة .

ومن ثم فإن الفن المعمارى مثله - فى ذلك - مثل الطب والزراعة والصيدلة أصبح له طابع عام عالمى وقواعد مقررة تفرض نفسها على كل معمارى ، وهذا ما أردت بقولى : « إن العلم وتطبيقاته - وهى الفن - عالمية اليوم » فالمعماريون فى مصر أو العراق أو الكويت أو إنجلترا أو فرنسا يقيمون أعمالهم الفنية على نفس القواعد والأصول ، والبيت الحديث يتشابه فى هذه البلاد كلها ، وإن اختلفت الأشكال تبعاً للذوق المحلى أو ذوق المهندس المعمارى والمواد المتاحة له والمال الذى يتصرف به ، ومهما حاول المعمارى أن يخترع وابتكر ويجدد فهو مقيد بنفس القواعد وملزم بنفس الأصول العلمية والفنية التى يلتزم بها أى معمارى آخر ، ونستثنى من ذلك تلك المنشآت التى يقصد إلى أن تكون لها هيئة معينة ، إما لخاصة وظائفها أو طلباً للمظهر أو رغبة فى إعطاء المبنى شكلاً متميزاً بنفسه يُعرف به كما ترى مثلاً فى مبنى الأمم المتحدة فى نيويورك أو مبنى منظمة اليونسكو فى باريس ، وهناك لا يحسب للنفقة أى حساب فهذه منشآت بنفق عليها - دون حساب - لكى تكون على غير مثال .

ونتيجة لهذه التطورات الواسعة فى الفن المعمارى كان لا بد أن تتأثر عمارة المساجد ، فتحلّ فى تشييدها الأساليب العلمية والفنية والمواد واستخداماتها المختلفة محل أساليب الإنشاء القديمة ، هذا إلى ما لم يكن منه بدٌ من إدخال تغيير عام شامل فى

تصوّر هيئة المسجد ووضع مخطط إنشائه وتقسيمه وترتيبه دون أن تمسّ - بطبيعة الحال - روحه الأصيلة التي لا يمكن أن تتغير .

وفيما يتصل بتغيير مخطط تقسيم المسجد وترتيبه نلاحظ - مثلاً - أن المسجد أصبح في معظم المنشآت الجديدة مسجداً - فحسب - لأن معظم الدول الحديثة لم تعد تحتاج إلى استخدام المسجد مدرسة أو جامعة أو محكمة لأن لهذه كلها اليوم منشآت تتبع هيئات أخرى غير الهيئة التي تتبعها المساجد في الدول الإسلامية الحديثة ، ولم يعد من الممكن استخدام المسجد لإيواء الغرباء والعابرين وأبناء السبيل أو موضعاً للتجمع للتماس الأُنس وتجاذب أطراف الحديث فيما بين الصلوات .

ومع أن النوم في المسجد فيما بين صلاتي الظهر والعصر لا يزال يُمارَس - دون حرج - في كثير من المساجد إلا أن استخدام المساجد لنوم أبناء السبيل لم يعد مقبولاً ، بل وضعت قوانين لتنظيم الوظيفة الدينية للمساجد وأصبح قَوْمَتُها وأئمتُّها موظفين تابعين لهم رواتب ومسؤوليات ، من بينها المحافظة على سلامة مبانيها وما فيها من أثاث وقصر عملها على إقامة الصلوات وإعطاء بعض الدروس الدينية في أوقات معينة ، وهي تُغلق - مثلاً - بعد صلاة الصبح فلا تُفتح إلا لصلاة الظهر وتظل بعد ذلك مفتوحة إلى نهاية صلاة العشاء ثم تُنظَّف وتُقفَل بعد أن تُخَلَّى من الناس إذ لا يحقُّ لأحد أن يبيت في المسجد .

وقد صُمِّمَت بعض المساجد على هيئة تضم قاعات للدروس وأخرى لمكتبة عامة وما إلى ذلك ، ولكن هذا إذا نجح بعض الوقت فهو لن ينجح على طول الزمن .

وبالفعل نجد أن مكتبات المساجد لا يستفيد منها إلا القليل وقاعات المحاضرات لا تُستخدم ، لأن المسجد في رأي يرفض أن يُستخدم لهذه الأغراض التي تمسّ - رغم نبيلها - نظافة المسجد وطهارته ، لأن الطهارة لا تُشترط فيمن يحضر في المكتبة أو يسمع درساً في قاعة الدروس ، ثم إن هذا كله يتخلله - ولا بد - شيء من لغو الحديث لا يليق بالمسجد .

ولكن المساجد - رغم بعض الاتجاهات التي تترأى لبعض من بيدهم أمور المساجد من ذوى الطموح إلى التجديد - عرفت كيف تحافظ على هيئتها العامة من الداخل

والخارج فقد حدثت تجديدات لطيفة وجديرة بالتقدير فى هياات المساجد كما نرى فى بعض الصور المرافقة لهذه السطور ؛ ولكن هذه المساجد الجديدة ستظل طريقة وسط ألوف المساجد التى ستظل محافظة على هيتها وشخصيتها .

ففى مصر مثلاً - وهى اليوم : القاعة الكبرى لفن بناء المساجد؛ لأسباب سنذكرها فيما بعد - لا يميل المعماريون فيها إلى الإسراف فى التجديد أو فى الخروج خروجاً ظاهراً عن الطريق التقليدى .

وحتى فى الحالات التى استخدمت فيها أشياء مثل إنشاء صحن إضافى ملحق بالمسجد أو الاستكثار من القباب الصغيرة المزخرفة أو إطالة جوسق المئذنة طلباً لإعلانها على البيوت المجاورة ؛ كل هذا جرى بحسب دقيق ، لأن الفكرة الرئيسية فى مصر - فيما نعتقد - هى المحافظة على طراز العمارة المساجدية المصرى فى نفس الخطوط التى انتهى إليها المعماريون فى العصور المملوكية ، مع تقبُّل بعض ما أدخله العثمانيون فى مصر فى هياات المآذن وتعدُّد القباب - مثلاً - والاقتصاد فى استخدامات المساجد لغير الصلاة ، وفى جانب معقول من التدريس والتوجيه الدينى .

الحاجة إلى وضع خطة إنشائية مساجدية عامة :

وما زلنا - إلى الآن - بعبدين عن إحصاء أشكال ما ينشأ من المساجد فى عالم الإسلام ، فقد اتسع هذا العالم وترامى فى الأعصر الحديثة من المحيط الهادى إلى الأطلسى ، ومدَّ أذرعاً طويلة فى أوربا والأمريكتين وأستراليا ، وفى كل موضع فيه جماعات إسلامية - كبيرة أو صغيرة - يبنى الناس مساجد ويتأنقون فيها .

ومن طريف ما يلاحظ أن التأنق فى إنشاء المساجد يزداد فى مساجد الأطراف مثل سلطنتى بربونى (بروناي) وصباح فى جزيرة بورنيو أى : فى مملكة ماليزيا، وفى إندونيسيا ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية، وفى بعض بلاد الخليج العربى، وفى مساجد المدن الأوربية - وخاصة فى إنجلترا - حيث أصبح الإسلام ديانة من الديانات الرئيسية ، وفى تركيا اليوم - وفيها طلائع نهضة إسلامية جديدة - لمحات من التجديد فى الفن المساجدى ، ولو أننا ما زلنا فى حاجة إلى وقت حتى تخفَّ «نزعة العلمانية العنيفة» التى صاحبت قيام الجمهورية التركية على أنقاض خلافة آل عثمان .

وفى المغرب - حيث ظل الفن الإسلامى الأصيل محتفظاً بأرضه كاملة - نشهد فى المسجد والروضات الجديدة قوالب فن إسلامى أندلسى مغربى فائق الحسن كما نرى فى روضة الملك المجاهد محمد الخامس ؛ وهى من أجمل ما بنى فى تاريخ الإسلام من روضات .

ومن أسف أن أحداً لم يُعَنَ - إلى الآن - بدراسة الفن المعمارى المساجدى الحديث سواء بصورة عامة أو فى أى قطر من الأقطار الإسلامية على حدة ؛ مع أن الموضوع فى ذاته مهم ويلقى قبولاً من كثير من الناس - لا من أهل المعمار فحسب - لأن المساجد ملكٌ للناس وكل ما يتعلق بها يهمهم .

ولم يهتم أحد من الأثريين الغربيين بالكتابة فى هذا الموضوع ما عدا مقالات قليلة - لا تزيد على الثلاث - جمعناها بمشقة ، ولهذا فإن كلامنا فى هذا الفصل سيكون شبيهاً بمقدمة أو مدخل لدراسة هذا الفن المساجدى فى طوره الحديث والمعاصر ؛ ونتيجة لهذا سيكون كلامنا عن مساجد اليوم والغد دراسة عامة لأوضاع المساجد اليوم وما نظن أنها ستكون عليه فى الغد ، مع ملاحظات وآراء عن وظائف مساجد اليوم والغد يقيمها رجل أحبَّ الله وبيوت الله ، ويرجو أن تكون هذه البيوت على أحسن صورة ترجوها العيون والقلوب .

وأول ما نلاحظ : هو اتساع مجالات المساجد على خريطة هذا الكوكب ، ثم ازدياد كثافتها يوماً بعد يوم .

فإن المساجد تمتد رقعتها - اليوم - بصورة لم يسبق لها مثيل ، ذلك أن دول الإسلام تبنى فى عواصمها ومدنها من ناحية ، وأمم الإسلام تبنى - من ناحية أخرى - فى بلاد ذات أقلبيات إسلامية تنمو يوماً بعد يوم .

ومن الواضح أن تنبه المسلمين إلى أن مجرد بناء مسجد فى بقعة غير إسلامية فى أية ناحية من النواحي التى يتقدم فيها الإسلام فى القارات الست يمكن أن يكون خطوة حاسمة فى ذاتها تؤدى إلى سرعة انتشار الإسلام بين أهل هذه البقعة . ومثال ذلك : أن إندونيسيا وأستراليا اتفقتا على تقاسم جزيرة غينيا الجديدة وهى من أكبر جزر الأرض ، فأخذت إندونيسيا نصفها الغربى المعروف باسم إيريان الغربية ، وأخذت أستراليا نصفها

الشرقي ، فأما أستراليا فقد أسرعت الهيئات التبشيرية فيها بإرسال المبشرين والدعاة واهتموا بإنشاء الكنائس في حين تراخت إندونيسيا في ذلك ، ربما لأن مشاكلها كثيرة وضخمة ، فنهض بالأمر نفر من مسلمي إندونيسيا والهند وباكستان ، فأنشأوا مسجداً في عاصمة إيريان الغربية وأقاموا فيه إماماً وداعيتين ، ثم ذهبوا يبحثون عن معلّمين ودعاة وفي أثناء ذلك تنبهوا إلى أن ذلك المسجد الصغير قد عمل - من تلقاء نفسه - على اجتذاب رجال القبائل إلى الإسلام ، فدخلوا فيه بالآلاف ، ومن ثم فقد تشجّع الناس وزادوا عدد الدعاة وشرعوا في إنشاء مسجد آخر ، وقد اهتمت بالأمر حكومة ماليزيا - وهي من أكثر أمم الأرض تمسكاً بالإسلام وحماسة له - فتولّت إنشاء مسجدين آخرين في الجزء الشرقي من إيريان الغربية قرب حدودها مع الجزء التابع لأستراليا ، وكما هي العادة تحوّلت المساجد الصغيرة البسيطة التي أنشئت هناك إلى مراكز لنشر الإسلام .

ولكن هناك تراخياً في هذا الاتجاه في البلاد الإفريقية التي استقلت من أمثال: الجابون والكاميرون وكينيا وتنزانيا ، فإن المشاكل الضخمة التي تثقل كواهل حكومات هذه البلاد الجديدة تحول بينها وبين بذل الاهتمام الكافي بمساندة الإسلام فيها حتى يصبح دين الأغلبية ، والخطوة الأولى في ذلك - في رأينا - هي معاونة المسلمين من أهل هذه البلاد على إنشاء المساجد - وخاصة في منازل القبائل وفي أطراف النواحي الإسلامية - وقد كنا نتمنى أن تكون بين توصيات مؤتمر المساجد (الذي عُقد في جدة سنة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م) توصية بإنشاء لجنة إسلامية عامة - خاصة بالمساجد - تُعنى بمشاكل المساجد في العصر الحديث ووضع خريطة للمساجد - اليوم - في أطراف دار الإسلام وفي جماعته المتناثرة وسط جماعات غير إسلامية ، ثم وضع خطة إسلامية عامة لإنشاء المساجد على هذه الجبهات .

ونحن - بالفعل - نرى أنها جبهات لأن غير المسلمين ينظرون إليها هذه النظرة ، وعلى هدى من هذه الخطة نسير في إنشاء المساجد داخل العالم الإسلامي وعلى حدوده وفي خارجه .

ومن الواضح - بادئ ذي بدء - أن إنشاء المساجد في الكاميرون والجابون وساحل العاج وغانا وكينيا وتنزانيا وموزمبيق وأنجولا وزامبيا ثم في الفلبين وإندونيسيا أهم - اليوم - من إنشائها في عواصم الإسلام العريقة الكبرى ، فهذه أهلها مسلمون ولا خوف عليهم ، والصلاة - كما نعرف - تؤدى في كل مكان ، ومن ثم فإن لجنة مساجدية إسلامية عليا يمكن أن توجه الجهد والأموال إلى إنشاء المساجد في المواضع التي يدور فيها صراع على مصير الإسلام أو على مستقبل تقدمه ، ولا نخفى سرّاً أن للإسلام خصوماً يجرون في حربه على خطط مقررّة ، ونحن في عصر لا بد أن يجرى فيه كل عمل من أعمالنا على خطة مرسومة ؛ فإن حاجتنا إلى المزيد من المساجد - اليوم - شديدة وإنشاؤها يتطلب أموالاً طائلة ؛ ولهذا فلا بد أن تكون هناك أولويّات ، وعنايتنا ينبغي أن توجّه أولاً إلى مراكز الصراع بين الإسلام وخصومه ، لأن نتيجة هذا الصراع هي التي ستقرر - على المدى البعيد - مصير الإسلام والمسلمين في هذه النواحي ، ثم ينعكس مصير ذلك على مصير عالم الإسلام كله .

ونعود إلى ما استطرّدنا عنه فنقول : إن رقعة المساجد تتسع وكثافتها تزيد ، ولكن هذه الكثافة تزيد في قلب بلاد العروبة والإسلام ، وتقلّ كلما اتجهنا إلى أطراف عالم الإسلام ، والحقيقة أن هذا هو عكس «المطلوب» إذا أردنا أن نحافظ على قوة الدفع الإسلامى ومواجهة أخطار التيارات المضادة التي تريد أن تسدّ على الإسلام طريق الانتشار ، بل هي تعمل على أن تتخطى ذلك إلى غزو الإسلام في دياره ، والأمثلة - على ذلك - كثيرة واضحة للناس بحيث لا نحتاج إلى ضرب الأمثلة .

ومع ذلك فإننا نقرر أن كثافة المساجد في عواصم الإسلام ومدنه تنطوى على خير كثير ، فإن المدن تتسع وسكانها يزدون ، ولا بد - تبعاً لذلك - من زيادة عدد المساجد ؛ ومن الواضح أن إنشاء هذه المساجد يؤدى إلى مزيد من الإيمان وتعميقه ، وهو لهذا عمل مشكور في ذاته لأن قيام المساجد حافز إلى الصلاة وتنمية للقلوب ، وفيه كذلك تقدّم لفن بناء المساجد ؛ ومن حسن الحظ أن هناك - على الجملة - اهتماماً بالتأنيق في إنشاء المساجد والتفنن في عمارتها .

الاتجاهات الحديثة فى عمارة المساجد :

هذا الاندفاع الكبير نحو إنشاء المساجد فى عواصم الإسلام الحالية أدى - دون شك - إلى تطور كبير فى فن إنشاء المساجد ، فكثر أشكالها وتعددت صورها ، وافتنَّ المعمارىون فى ابتكار أشكال جديدة مع المحافظة على التقليد الأصلى العام للمساجد - من ناحية - والتقاليد المحلية فى عمارتها فى كل بلد إسلامى - من ناحية أخرى - ومن أمثلة ذلك : مسجد الزمالك فى القاهرة فى نهاية شارع ٢٦ يوليو ، ومسجد عمر مكرم فى ميدان التحرير ، ثم مسجد صلاح الدين على شاطئ النيل فى حى المنيل ، أما فى الإسكندرية فلدينا مسجد أبى العباس المرسى ، ومسجد محمد كُريّم ، ومسجد محطة الرمل - وسنتحدث عنها كلها بشىء من التفصيل فيما بعد - وكلها مساجد تمثل الطراز المصرى أصدق تمثيل مع تحسينات وزيادات تستحق الدراسة ، وحذا لو أُلِّفَتْ كتب عن التفاصيل المعمارية لهذه المساجد وغيرها حتى تتضح للناس حقائق هذه الطرز المعمارية الجديدة ، ومنها - كذلك - الطراز المصرى الجديد الذى يعتبر طرازاً قائداً فى عمارة المساجد الإسلامية اليوم .

ونقطة البداية فى هذا الطراز المصرى الحديث ترجع إلى أوائل العشرينات من هذا القرن عندما أرادت وزارة الأوقاف المصرية تجديد جامع عمرو بن العاص فى مصر القديمة ، أى : مدينة الفسطاط جنوب القاهرة الحالية ؛ فقد تبينَّ المعمارىون أن هذا المسجد قد أُسِىءَ إليه إساءات بالغة نظراً لإسراف الناس فى استعماله لأغراض أخرى غير الصلاة ، وقد استخدموه - قبل العصر الحديث ، وقبل وضع النظم الحالية لاستخدام المساجد - للنوم أو للتلاقى وتبادل الأخبار .

وهذا النقد لاستخدام الناس لجامع عمرو ورد عند ابن حوقل فى كتاب « صورة الأرض » وكذلك فى « خطط المقرئى » ؛ ونتيجة لذلك فإن المسجد كان لا يكاد يُرمَّم ويُجدَّد حتى يُسرَّع إليه التداعى والتهدم ؛ ف يأخذون فى ترميمه من جديد ، وفى أحيان كثيرة كان ذلك الترميم يجرى دون دراسة لعمارة المسجد الأصلية للتعمير على أساسها وانتهى الأمر إلى أن هذا المسجد الجليل خَفَّ شكله وهيئته جملةً ، وأصبح اليوم مسجداً جديداً حظه من الجمال قليل .

وفى رأينا أن يُعهد إلى عدد من الأثريين من أهل العلم والمعمار أن يدرسوا أصول هذا الجامع ويرسموا خطة لإعادة بنائه جملة مع مراعاة ما ينبغي أن يدخل عليه من تطور ؛ ليصبح أعظم وأضخم مساجد مصر ، ثم يُزال المبنى الحالى كله وينشأ محله « مسجد عمرو » جديد جدير بأول مسجد بنى فى مصر . وهو - فى نفس الوقت - رابع المساجد التى بُنيت فى الإسلام ؛ وبدون ذلك لا أظن أننا نستطيع أن نردّ إلى هذا المسجد هيئته ورونقه وجلاله الجدير بمكانته ومكانة مصر قاعدة كبرى من قواعد الإسلام وحضارته .

نقول : إن التفكير فى ترميم هذا المسجد العتيق أو إعادة إنشائه كان نقطة البداية فى نشوء الطراز المعمارى العربى المصرى الحديث ، إذ تنبه المعمارىون إلى التراث المعمارى القديم ، وعادوا إليه يدرسونه ويسترجعون كنوزه ؛ لينشئوا لمصر مساجد جديدة تجرى على التقليد التاريخى القديم .

ويبدو أن نهضة العمارة المساجدية الإسلامية الحديثة بدأت فى مصر لسبب واضح ؛ وهو أن مصر بدأت نهضتها العامة من أوائل القرن التاسع عشر واستقرت فيها حكومة محلية مستقلة منذ بداية القرن الماضى .

ومهما كان رأى فى حكومة محمد على وأسرته فقد أتاح حركه محمد على لشعب مصر الفرصة لتستقر أحواله ويستعيد ملامح شخصيته ويحاول أن يتلمس طريقه بعد أن أضلته عن هذا الطريق - قروناً طويلة - حكومات كثيرة قامت فيه وهى غريبة عن طبعه .

وخلال القرن التاسع عشر كانت أمور المدن والقرى تستقر - شيئاً فشيئاً - وأخذ السكان فى النمو من جديد ، ونشأت الطبقة الوسطى من المساتير والمياسير ، ومن هؤلاء ظهرت وتكونت أسر الأعيان فى الريف والمدن ، بينما كانت القاهرة تتحوّل - شيئاً فشيئاً - ورغم انتكاسات كثيرة - إلى عاصمة كبيرة تقوم فيها دولة قومية عربية مستقرة .

وهذا هو الذى يعيننا هنا ؛ لأن له نتيجة مباشرة تتصل بموضوعنا ، وهى أن استقرار الأمور وقيام نظام سياسى مستقر محدّد السلطات والمسؤوليات ، ثم قيام أسر الأعيان فى الريف ونمو الطبقة الوسطى واتساع رقعة الرخاء فى البلاد وتحوّل القاهرة والإسكندرية إلى عاصمتين كبيرتين وقاعدتين للنهوض الحضارى العربى العام فى ذلك الوقت المبكر .. كل ذلك أتاح المجال للناس للتفكير فى إنشاء المساجد .

وإذا كان محمد على قد تَوَجَّ أعماله الإنشائية الكبيرة بإنشاء مسجده المشهور فوق القلعة ، وهو مسجد من طراز تركى خالص ، فإن ذلك - فى رأينا - رمز على النهضة الإسلامية العامة فى مصر ، ومن حسن الطالع أن محمد على وُفِّق فى إنشاء مسجده توفيقاً عظيماً ، كما وُفِّق فى معظم ما تولاه من أمور ، ويدخل هذا تحت ما يُسمى بالطالع السعيد الذى صاحب هذا الرجل حياته - إلا سنواتها الأخيرة .

ومسجده بالغ الفخامة والجمال ، وقد استعان محمد على - فى إنشائه - بمهندسين من الإيطاليين والفرنسيين عرفوا كيف يتخلصون من طابع الكنائس الذى لا يفارق الأوربيين عند إنشائهم أى منشأة دينية .

ولقد أنشأ المهندسون الفرنسيون فى الهند الصينية معابد بوذية ولكنها فى الحقيقة كنائس لا يربطها بالفن الصينى إلا تعاقب السقوف البارزة كالشماسات ، مما يميز باجورات المعابد البوذية أو البدخانات - كما يقول مؤرخونا القدماء .

وأعظم ما وُفِّق فيه أولئك المهندسون الذين أنشأوا مسجد محمد على بالقلعة هو اختيار موقع الجامع فى موضع فريد بأعلى مرتفع القلعة مشرف على القاهرة على نحو يتغير معه منظر قلعة الجبل تماماً ، ومن الصعب أن نتصور موقعاً أحسن من هذا فى القاهرة كلها لبناء مسجد جامع عظيم .

وعلى صغر هذا المسجد بالنسبة للمساجد التركية فى عواصم الدولة العثمانية ، إلا أنه لا يقل روعة عن أكابرها ؛ وذلك نظراً للتوازن النادر الذى يمتاز به بمئذنتيه الرشيقتين تحصران بينهما تصاعداً من القباب ينتهى بالقبة الرئيسية .

وتحت هذه القبة يقوم بيت صلاة المسجد الفسيح الأنيق ذو الجدران العالية بقمرياتها ذات الزجاج الملون والدعامات الملبسة بالرخام الموزعة توزيعاً لا يشوب سعة الصحن ولا يقلل من رحابته ؛ وإلى جانب هذه الدعامات التى تحمل المنصة الرئيسية يزدان المسجد بأعمدته الرخامية الرشيقة التى تحمل السقف والقباب الصغرى .

ومن لطائف هذا المسجد نظام الإنارة فيه ، وهنا نلمس اللمحة الفرنسية الإيطالية ، فإن المسجد مُنَارٌ بُرِّيًّا ضخمة فى الوسط ، ثم إطار واسع من القناديل الكهربائية تحيط بكل منها كرة من البلّور هى آية فى الرقة والجمال .

وداخل المسجد باروكي الطراز ، أى : من طراز ما بعد عصر النهضة الأوروبية المتأخر الذى تميز بإسراف الفنان فى الزخارف والزينة حتى حجبته هذه الزينة - فى كثير من الأحيان - جمال البناء الأصيل ، ولكن الزخارف المثقلة لم تفسد - لحسن الحظ - جمال داخل هذا المسجد الفريد فى نوعه فى مصر .

وتقوم القبة الرئيسية - كما قلنا - على دعائم قوية من الحجر المنجور الملبس بالمرمر والعقود داخل بيت الصلاة تروع النفس باتساعها وارتفاعها ، ثم بتجويف القبة الرائعة التى تحملها ، وعندما تُضاء ثرياً هذا المسجد وقناديله الكثيرة المحيطة ببيت الصلاة الفسيح يتجلى الجامع فى بهاء لا يقارن إلا ببهاء أجمل مساجد الآستانة من ذلك الطراز .

وكل شئ فى هذا المسجد غال ونبيل : الخشب والنحاس والبرونز والزجاج الملون والسجادات البديعة ، ومنبر المسجد آية فى الجمال ، رغم زخارفه الباروكية المسرفة بعض الشيء ، ولكن المحراب يروع النفس بحسن هيئته وفتنة نقوشه ، وذلك كله يجعل هذا المسجد - دائماً - درة فى عقد الجواهر المعمارية المصرية النفيس ، وهو نقطة النهاية لتقاليد الطراز المعماري ؛ إذاناً بميلاد طراز العمارة الإسلامية الجديد فى مصر .

وفى مواجهة مدخل المسجد تقوم ساعة القلعة ، والمفروض أنها تتبع المسجد ، تشرف على الرحبة الواسعة أمام مدخله الجميل ، وهى هدية من لوى فيليب ملك فرنسا إلى مصر ، وهى ساعة فريدة فى بابها تزيد فى جمال المسجد ؛ وكان لها - دائماً - فنى متخصص فى أعمالها وإصلاحها .

ومسجد محمد على بالقلعة - أو « مسجد المرمر » ؛ كما يُسمى فى الكتب غير المصرية بسبب تلبس جدرانها كلها ظاهراً وباطناً بالرخام - ليس أول مسجد تركى الطراز يقام فى مصر ، بل سبقه مساجد تركية الطراز أخرى أقيمت خلال العصر التركى ، وكلها صغيرة تهدمت مع الزمن ، ولكن بقى لنا من العصر التركى مسجد بديع هو « مسجد الست صفية » فى شارع محمد على قرب ميدان القلعة ، وقد أنشأته جارية يونانية كانت للسلطان مراد الثالث تُسمى « صوفى » فلما أسلمت تسمت باسم « صفية » وقد حسن إسلامها وصححت نيتها ، ولكنها سقطت فريسة دسائس الحريم فى

القصور السلطانية وكادت تفقد حياتها ، ثم عفا عنها السلطان - شريطة أن تخرج من الآستانة - فاختارت مصر وسعدت فيها وأمنت وبنّت من مالها هذا المسجد البديع الذى يمتاز بأنه يقوم على منصة عالية يصعد إليها على سلّم نصف دائرى هو الغاية فى الجمال والمسجد صغير أنيق يمتاز بيت صلاته بصف شبابيكه العالية التى يزينها الزجاج الملون وقبته البديعة ونوافذه الكبيرة السفلية المغطاة بسيارات الحديد .

وقد تأثر الطراز المصرى - فى كثير من الأحيان - بالمآذن العثمانية فانتشرت فى كثير من المساجد التى أنشئت فى العصر التركى والتى لا تزال تنشأ إلى اليوم ، ولكن هذا الأثر لم يلبث أن تلاشى ؛ وعادت المساجد المصرية إلى طرازها التقليدى المعروف ، وقد أبدع فيه المعمارىون وطوّروه تطويراً بعيد المدى خلال القرن التاسع عشر كله ثم - وبصفة خاصة - خلال القرن العشرين .

ومعظم مساجد كبار الأولياء المصريين الباقية إلى اليوم من أمثال مسجد السيد البدوى فى طنطا ، والسيد إبراهيم الدسوقي فى دسوق ، وعبد الرحيم القنائى فى قنا بُنيت على الطراز المصرى المملوكى القديم .

* * *

تكشف لنا المساجد التى بنيت منذ أوائل هذا القرن عن تحرك مشكور نحو تجديد طراز العمارة المساجدية على أساس متين من تقاليد المدرسة المصرية التى تقررت قواعدها خلال العصر المملوكى على ما رأيناه ، وقد كانت مدرسة المهندسين قد أنشئت من حوالى قرن من الزمان وأخرجت مهندسين ذوى قدرة ومعرفة ؛ ولكن جُلَّ اجتهداتهم كان موجّهاً نحو المنشآت المعمارية الحكومية والمدنية .

وكانت مصر - من أوائل القرن - باباً مفتوحاً على مصراعيه للمهندسين الأوربيين الذين كثر توافدهم على البلاد ، والمتأمل للمنشآت التى أقيمت فى القاهرة والإسكندرية منذ أوائل القرن يرى - بوضوح - آثار المعمار الإيطالى واضحاً كل الوضوح فى منشآت وسط القاهرة والإسكندرية ؛ لأن أعداد المهندسين الإيطاليين كانت كثيرة ، ثم إن الإنجليز فى سياستهم التى رسموها لأنفسهم فى هذه البلاد كانوا يوزعون خيرات مصر

والأعمال فيها على الأوربيين بنسب قرروها وراعوا فيها إرخاء الدول الأوربية فى مقابل اعتراف هذه الدول بمركز بريطانيا فى مصر ، وهو موقف احتلال غير قانونى ، فللإيطاليين أعمال المنشآت والمعمار ومصانع إصلاح السيارات ، وللفرنسيين الأعمال المالية كالمصارف والبورصة ، ولليونانيين تجارة القطن وصناعات التقطير ، وهكذا ...

ومهما يكن الرأى فى هذا التقسيم فإنه فى النهاية كان ذا فائدة ، فقد وفدت على البلاد جماعات من خيرة أهل العلم والخبرة فى كل فن ؛ فأنشأت المصانع والصناعات والمباني ، وعلى أيدي هذه الجماعات تدرَّب المصريون على الفنون والصناعات الحديثة .

ومن بين المهندسين الذين استقدمتهم الحكومة إلى مصر مهندس معمارى إيطالى موهوب يُسمى ماريو روسى Mario Rossi الذى ولد فى روما سنة (١٨٩٧ م) ، وقد رحل إلى مصر فى مستهل شبابه فى أوائل العشرينات ، استقدمه الملك فؤاد ليعمل فى وزارة الأشغال وفى القصور الملكية ، وقد تجلَّى هذا الرجل عن عبقرية فذة وعن استعداد كبير للاندماج فى الحياة المصرية ، وتظهر التقاليد الحضارية المصرية الإسلامية فى ميدانه وهو ميدان العمارة ، واستغرق فى ذلك الميدان استغراقاً شاملاً فأنفق فيه عمره كله واعتنق الإسلام وتوفى فى القاهرة سنة (١٩٦١ م) مخلفاً وراءه تراثاً علمياً ومعمارياً لا يُضارَع ، وترك تلاميذ موهوبين فى فن المعمار الإسلامى ، نذكر منهم المهندسين النَّابِهَيْن «على ثابت ، وعلى خيرت » اللذين كتبنا صفحات زاهرة فى تاريخ العمارة المساجدية فى مصر المعاصرة .

وكان لابد أن تصاحب النهضة العربية الإسلامية نهضة معمارية ، فنفض عن نشاط الإنشاء المساجدى فى بلاد الدولة العثمانية تراب القرون ، لأن الإنشاء المعمارى الضخم توقف فى مصر والشام والعراق أثناء العصر العثمانى ، وتوقفت الطرز المحلية عن التقدم لسببين ؛ الأول : فقر هذه الولايات أيام العثمانيين . والثانى : غلبة الطراز العثمانى على ما أنشئ فى كل بلاد الدولة خلال هذه الحقبة التى استمرت من أوائل القرن السادس عشر الميلادى إلى بداية القرن التاسع عشر ، ما عدا ترميمات وإصلاحات وإضافات صغيرة أنشئت فى مزارات الشيعة فى النجف وكربلاء ، أما بقية ما أنشئ فى تلك الأقطار - أثناء ذلك العصر - فصغير الحجم خالٍ من التجديد والفخامة والجلال ،

ومعظمه على الطراز العباسي ، ونستثنى من ذلك منشآت العثمانيين في مكة والمدينة والبقاع الإسلامية المقدسة جملةً ، فتلك كانت على الطراز المملوكي ؛ لأن المماريين الذين قاموا بتلك الأعمال في الحجاز كانوا مصريين ، وهم أيضاً الذين قاموا بها في الشام مثل تجديد قبة الصخرة ومسجد محيى الدين بن عربي في جبل قاسيون في الشام ، وقد ابتنى نفر من ولاية العثمانيين مساجد في مصر والشام والعراق ، وخاصة كبار الممالك من ولاية الأتراك في العراق مثل سليمان باشا وداد باشا ، ولكن مساجدهم عثمانية الطراز أولاً ، ثم هي لم تُضَفْ إلى العمارة الإسلامية المحليّة شيئاً جديداً .

المدرسة المصرية - المعماري ماريو روسي :

وقد اقتصر التشييد المساجدي في مصر والشام إلى منتصف القرن التاسع عشر على الضروري من المساجد ؛ وذلك بسبب الفقر من ناحية ، ثم بسبب تناقص السكان في هذين القطرين فلم يشعر الناس بالحاجة إلى إنشاء مساجد كبيرة جديدة .

ومما يستلفت النظر أن أحداً من خلفاء محمد علي لم يفكر في اتباع خطى منشئ أسرتهم في إنشاء المساجد ، فلم يؤثر عنهم - إلى أيام الملك فؤاد - شيء يذكر ؛ وفي أيام فؤاد كان شعب مصر قد استرد عافيته وعمرت القرى والمدن ونهضت الطبقة الوسطى وظهرت جماعات الأعيان فتجددت الرغبة في الإنشاء المساجدي ، وظهر ذلك في العناية بإنشاء مسجد الرفاعي القديم ليكون روضة للبيت الحاكم ، وقد شارك روسي في العمل ؛ وإلى ذلك يرجع الفضل فيما نراه في هذا المسجد من جمال وثناء .

ثم ظهرت مواهب روسي في إنشائه مسجد أبي العباس المرسى في الإسكندرية ، وقد تم بناؤه ، وأقيمت فيه الصلاة سنة (١٩٤٥ م) لا (١٩٤٣ م) ، كما يقول حسن عبد الوهاب في كتابه القيم عن مساجد مصر ، وقد استغرق إنشاء هذا المسجد ست عشرة سنة ، وأقيم في موضع جامع قديم ، أنشئ على ضريح هذا العربي الأندلسي الأصل ؛ إذ هو منسوب إلى « مُرْسِيَّة » في شرق الأندلس خلال القرن الثامن عشر ، واحترق - فيما يقال - نتيجة لضربة من البرق .

وقد أقدم روسي على إنشاء هذا المسجد بعد سنوات كثيرة قضائها في دراسة العمارة الإسلامية المصرية واستيعابها ، وفي أثناء هذه الدراسة عمل أطلسه الشهير

للعِمارة والزخارف الإسلامية وقد جمع مادته من عمارة المساجد وأشكالها وزخارفها ، ولا يزال ذلك الذخر فى وزارة الأوقاف المصرية مرجعاً يقتبس منه كل معمارى ، وقد آن أن يُنشر هذا الأطلس الضخم ليستفيد منه أهل العمارة فى كل مكان .

أنشأ روسى ذلك المسجد على هيئة منحنى ، وقد قبس هذه الهيئة عن المعمارى العثمانى سنان بن عبد المنان بن عبد الله الذى اتخذ الشكل المثلث أو المسدس فى إنشاء عمارته ، ولكن بينما كان سنان يتحرى هذا الشكل لكى يقيم قبابه الكبرى على أضلاع المسدس أو المثلث مباشرة نجد روسى يدع مجالاً واسعاً للسقف ثم يُنشئ قبة فى الوسط قائمة على دعائم حجرية ملبسة بالرخام ، وترك روسى خارج المثلث رواقاً يدور مع بيت الصلاة ، والمسجد كله بيت صلاة ، أى : أن روسى استغنى عن الصحن فى مسجد أبى العباس واعتاض عنه فى مسجد آخر بناه (وهو مسجد محطة الرمل) ببيت صلاة مستقل وملحق بالجامع - ستحدث عنه بعد ذلك - والقبة عالية الذرى يبلغ ارتفاعها عن الأرض ستاً وعشرين متراً ، وهى من داخلها قطعة فنية رائعة تندلى منها ثُرياً ضخمة تضاهى ثُرياً مسجد محمد على فى القلعة ، ولكى تحمل القبة هذه الثُرياً التى تزن بضعة أطنان من البرونز والنحاس والبلّور دعمَ روسى قاعدة القبة بثمانية أعمدة من الجرانيت الوردى نُحِتت فى إيطاليا ، وأتى بها من هناك .

والقبة من الخارج مزخرفة بزينة منحوتة فى الحجر ، وهى - فى رأى - أجمل قبة أقيمت فى مصر ، وعلى هذه الأعمدة تقوم عقود بالغة الارتفاع مدببة ، وهذا الطراز من العقود من ابتكار روسى ، وقد اقتبست مساجد أخرى كثيرة من ذلك ، ونرى ذلك بوضوح فى القسم المُجدّد من مسجد الرسول فى المدينة المنورة ، وهو من أعمال الملك الراحل عبد العزيز آل سعود ، طيب الله ثراه . ومن مبتكرات روسى - التى كثر اقتباسها بعد ذلك - تلييس تيجان الأعمدة وقواعدها بالبرونز .

ومحراب هذا المسجد يعتبر - دون شك - من أجمل محاريب المساجد فارتفاعه يزيد على ارتفاع المنبر إلى جواره ، وله إطار من الرخام المزين بالفسيفساء ، وتجويفه فريد فى بابه .

ومثذنة المسجد تعتبر طفرة جديدة من ناحية الارتفاع ، وقد استعان روسى فى وضع

رسمها بجعل الجزء الأسفل من المئذنة ذا أربعة أضلاع ، ثم استمرت المئذنة - بعد ذلك - مستديرة .

وقد وضع ذلك المسجد نقطاً أساسية حددت - فيما بعد - مسيرة العمارة المساجدية فى مصر ؛ منها إلغاء صحن الجامع بسبب صغر مساحات الأراضى المخصصة للبناء ولم يؤد ذلك إلى التقليل من عدد المصلين ، فالحقيقة هى أن الصحن كانت تستعمل فى أيام صلوات الجمع والأعياد ، وتجربى العادة الآن بأنه إذا امتلأ المسجد امتدت صفوف المصلين خارجه وربما حواليه ، ومنها حسن استعمال المساحة المخصصة للمسجد ؛ فهنا - وربما للمرة الأولى فى تاريخ العمارة الإسلامية المساجدية - نجد أن المعمارى عرف كيف يستفيد من المساحة المتاحة له على أحسن صورة ممكنة ، ثم إن خطة المسجد وضعت بإتقان تام بحيث إنك لا تستطيع الزيادة فى أبنيته كما كان الحال فى معظم المنشآت المساجدية الماضية .

ومن النقط الرئيسية التى بدأت مع هذا المسجد العناية بالتوريق أو الأرابسك من جديد فى مساجد مصر ، ولنذكر هنا أن مسجد محمد على بالقلعة قليل الزخارف جداً ، وقد أبدع روسى فى استخدام التوريق فى مسجد أبى العباس فى داخل المسجد وخارجه واستخدمه فى تصميم النوافذ ، وفى مسجد عمر مكرم فى القاهرة استخدمه فى تحويل جزء من جدران المسجد إلى ستارة من البناء المخرم الذى يشبه الدانتل ، وقد انتشرت هذه المساحات المخرمة بعد ذلك فى المساجد المصرية انتشاراً واسعاً بلغ مبلغ الإسراف ومجاوزة الحد فى بعض الأحيان .

كذلك استخدم روسى « القباب الزخرفية » - وهو شئ عرفه الأتراك فى فنهم المساجدى - ولكن روسى ابتدع استخدام هيئات قباب كاملة وصغيرة الحجم فى أركان سقف المسجد .

وفيما بين سنتى (١٩٤٨ - ١٩٥١ م) أتم روسى بناء مسجد ثان فى الإسكندرية يعتبر - هو الآخر - فناً فى عالم المساجد المعاصرة وهو مسجد محطة الرمل الذى أنشئ وسط مبان عالية ، وكان من الممكن أن يخفى - بعض الشئ - عن العيون بسببها ، ولكن روسى تعمّد أن يجعل ارتفاع المسجد قليلاً لهذا السبب حتى تستقر عليه العين

وسط هذه المباني السوامق ، ثم فجأة - ومن منتصف جدار القبلة - تطفو مثذنة نحيلة أنيقة وتمضى فى الجو حتى تشرف عمامتها على كل المباني المجاورة ، ومهدّ روسى لهذه الطفرة العالية بصفوف من النخيل نجد مثلها تحيط بجوامع أبى العباس ، وقد توصّل روسى إلى تحقيق هذا الارتفاع بإطالة المسافة بين شرفة الأذان الأولى وشرفته الثانية ، واستمر بمد المثذنة صعوداً جاوز المألوف ، ثم أنشأ الجوسق وتوجّه بعمامة بيضية الهيئة ، ويعتبر تحقيق هذه المثذنة نوعاً من الجرأة القائمة على حساب علمى معمارى دقيق ، أو هى فى هيئتها وحسن استخدام الرجل لكل ما تيسّر له من عناصر المعمار والزخرفة المصرية وأشكالها وهيئاتها .

ولكن داخل المسجد مظلم بعض الشيء وهذا الظلام يشغل على النفس ، وخاصة عندما تنتقل من النور الباهر خارج المسجد إلى داخله ؛ من هنا لا نستطيع تبيين جمال القبلة أو المنبر ؛ ولكن روسى عوّض عن ذلك بقبة هى فى ذاتها درة معمارية ، إنها ليست عميقة الجوف فهى شبيهة بصحن عميق مقلوب ، وتلك القبة تركز على أربع محارات فى الأركان ، ومن مركزها فى الوسط تمتد الزخارف فى هيئة أشعة صادرة من مركز القبة ذات ألوان حمراء وسوداء وذهبية ، وفى أرضيتها قمریات جميلة تتيح من الضوء ما يأذن لنا فى تأمل جمال هذه القبة الفريدة التى تغطى سقف بيت الصلاة كله .

ومحراب المسجد بديع تستوقف النظر طاقيته ذات العقد المدبب ، وإذا أطلنا تأمل هذه القبة تبيّن أن روسى قبسها من بعض مساجد شارع المعزّ وهو شارع المساجد الأثرية.. وإنه لما يزيد من قدر هذا المعمارى الأصيل براعته فى اقتباس الأصول ثم تحويلها وإعطائها هيئات جديدة .

وثالث المساجد التى أنشأها روسى فى الإسكندرية وفتح بها باباً واسعاً فى التجديد هو مسجد محمد كُرم القائم على مرتفع قرب قصر رأس التين ، وكان معتبراً لهذا مُصلّى القصر . هنا استخدم روسى مهارته فى الاستفادة على أحسن هيئة من المساحة المتاحة له فجعل للمسجد مدخلاً بديعاً بارزاً فيه ثلاثة أبواب ، ورفع جدران المسجد المستطيل الهيئة وجعل القباب الزخرفية على أركان السطح الأربعة قباباً حقيقية ذات أجواف ، وهى العين بذلك لرؤية القبة الكبرى التى تقوم فوق بيت الصلاة وهى قبة ذات

رقبة على هيئة عقود وأعمدة ، وإذا نظرنا إلى هذه القبة من داخل المسجد رأينا عجباً ، فقد فتح فى أعلاها شبابيك وفتحات تجعلها فى هيئة زهرة أو نجمة ذات ثمانية أذرع تحيط بدائرة كأنها قرص الشمس ، ولا نظن أنه يوجد فى مساجد الإسلام ما يشبه هذه القبة .

أما المئذنة فهى أيضاً ابتكار جديد فى شكلها ، ولهذا قصة لا بأس بروايتها هنا فقد كان مشروع روسى أن تكون مئذنته طويلة منسرحة مثل مئذنة جامع إبراهيم الفاتح ، ولكن مصلحة المنائر والفنارات اعترضت على ذلك لأن وضع المئذنة على هذه الصورة ربما أدى إلى اختلاط الأمر على السفن الداخلة إلى الميناء لأن منارة الإسكندرية مجاورة لموضع المسجد ورأت أنه لابد من تقصير المئذنة حتى لا تكون فى طول المنارة فاستغنى روسى عما كان قد أزمع عمله فوق شرفة الأذان وأنشأ بدلاً من ذلك جوسقاً مغطى أشبه بالخميلة فوق شرفة الأذان ، وقد قبس هذه الهيئة من العمارة الهندية ، فكان هذا الحل ابتكاراً فريداً جعل تلك المئذنة علماً من أعلام عمارة المآذن فى مصر ، وفوق ذلك الجوسق وضع العمامة فى هيئة قبة ؛ وقد كثر اقتباس المعمارين لهذه الهيئة فيما بعد .

ولروسى مسجدان آخران وضع رسمهما فى القاهرة : الأول هو جامع عمر مكرم فى ميدان التحرير ، والثانى مسجد الزمالك على ضفاف النيل ، وقد أنشأهما فى سن متأخرة ، ويبدو فيهما أن عبقريته أخذت فى النضوب ، وربما كان مسجد الزمالك أقرب إلى فحولته الأولى من مسجد عمر مكرم ، ففيه تجديد فى وضع المساجد على قاعدة مرتفعة يصعد إليه بواسطة سلالم عريضة من الرخام ، والواجهة فسيحة مشرقة ذات عقود وأعمدة ، وداخل هذا المسجد يعتبر من أجمل بيوت الصلاة فى القاهرة ففيه صفاء وانسجام وتوازن ، والإيوان الأوسط المؤدى إلى المحراب يمثل محوراً معمارياً .. أما مسجد عمر مكرم فالشيء الذى يميزه بين مبتكرات روسى هو استخدامه للستائر الجصية ذات الزخارف العربية ، وقد أشرنا إليه .

فى هذه الخطوط يسير فن المعمار المساجدى فى مصر المعاصرة ، وقد ظهر فيها من تلاميذ روسى وغيرهم معماريون بارزون أنشأوا مساجد فى الغاية من الجمال والتوازن مثل : مسجد عبد الرحمن لطفى فى بورسعيد ، ومسجد الفولى فى المنيا ، ومسجد

عبد الرحيم القنائى فى قنا ، ومسجد صلاح الدين فى حىّ المنيل بالقاهرة ، على ضفة النيل عند مبتدأ كوبرى الجامعة ، وهو قطعة معمارية بالغة الجمال ، وضع تصميمها المهندس على خيرت تلميذ روسى واستخدم فيه الكثير من مبتكرات روسى مثل حسن استخدام المسافة وتوازن جميع أجزاء المبنى واستخدام القباب الزخرفية إلى جانب القبة الوسطى الرئيسية ، وهى فى هذا المسجد تنشأ على نفس خطوط القباب المملوكية التقليدية بعد تجديدها على يد روسى .

والآن نفيض القاهرة والإسكندرية وبقية مدن مصر بمساجد حديثة من هذا الطراز ، نخص بالذكر منها مسجد أحمد يحيى باشا قرب فندق سان ستيفان غير بعيد عن قصر الأمير محمد على - الذى كان ولياً لعهد فاروق سنوات طويلة - ومن أجمل ما يميز هذا المسجد واجهته المزينة بزخارف جصية ذات ألوان هادئة قريبة من ألوان الباستل ، وداخل المسجد فسيح مشرق تقوم فوقه قبة تقوم على أعمدة من الرخام المصرى منحوتة على مثال الحمراء فى غرناطة لا تنسجم مع الطابع التركى الذى يتسع فى بيت الصلاة ، ومن أجمل ما نراه داخل هذا المسجد ثريتان من البلّور والخزف تحفّان بالمحراب من الجانبين .

وهناك مسجد سليمان شيخ فى حىّ محرّم بك بالإسكندرية ، ومسجد رمضان شحاتة فى المنشية ، ومسجد باسيلي فى الورديان ، ومسجد سيدى جابر الحديد وهو يعتبر من أجمل ما أنشأته وزارة الأوقاف والمساجد خارج القاهرة .

وينشئون فى القاهرة اليوم مسجداً ضخماً يُسمى مسجد الفتح فى مكان «مسجد أولاد عنان» القديم قرب ميدان محطة مصر .

وهذا النشاط الضخم ينبئ بازدهار هذه النهضة المعمارية المساجدية فى مصر ، ولكن الذى نلاحظه أن معظم المساجد تجرى على وتيرة واحدة دون ابتكار جديد ؛ فمعظمها جميل يمتاز بما تمتاز به مساجد المدرسة المصرية من توازن ورشاقة ولكن الابتكار قليل ، وفى أحيان كثيرة نلاحظ إدخال بعض عناصر معمارية غير عربية فى البناء ، وخاصة فيما يتعلق بالمآذن .

ولا شك أن هذه الحركة تحتاج اليوم إلى مجدّدين يخرجونها من هذا القالب الذى صمّموا عليه جميعاً واقتصر ابتكارهم على التصرف فى إطاره .

الحرم المكي الجديد والمسجد النبوي في المدينة :

وقد تحدثنا - فيما سبق - عن التجديدات التي أُدخلت على الحرم المكي ، وهو أوسع وأقدس مسجد في الدنيا ؛ وأشرنا - كذلك - إلى تجديد مسجد الرسول ﷺ ، ونضيف هنا أن المسجد النبوي الجديد يعتبر من ثمرات هذه النهضة المعمارية المساجدية التي نحن بصدددها ، لأن معظم المعمارين والفنيين والعمال الذين قاموا بها كانوا من أبناء مدرسة مصر هذه ، ولكن السخاء الذي أنفقت به المملكة السعودية على ذلك المسجد ؛ أعطى المعمارين الفرصة ليظهروا أحسن ما عندهم ، خاصة وقد أتاح لهم ذلك إنشاء عقود طويلة مدببة تنتهي بحذوة فرس مدببة هي الغاية في الجمال ، وقد رأينا أن بداية هذه العقود في مسجد أبي العباس ، والجديد هنا هو تلبسها مع الجدران بالمرمر المختلف الألوان وفرش الأرضية بأجمل ما في الأرض من الرخام فأصبحت كالمرآة تنعكس فيها صورة هذه العقود مما جعل الجزء المجدد من المسجد النبوي الكريم من أجمل ما بنى من المساجد الحديثة في عالم الإسلام ، وتستطيع أن تقضى ما شئت من الساعات وعينك تنتقل بين تفاصيل جماله التي لا تنتهي : العقود والأعمدة والدعامات والقبلة والمنبر والأروقة والأرضية ، وإذا وقفت خارجه وتأملت القبة والمآذن البديعة ثم المدخل الجليل لم تتمالك نفسك إلا بالدعاء لمن بذلوا ما يستطيعون ليصبح مسجد المصطفى آية من آيات الفن والجمال والإيمان .

ونعتقد أن هذا الطراز المصرى الجديد سيستمر لمدى طويل لأنه قائم على أسس معمارية إسلامية عريقة ويسير في خطوط إسلامية صرفة ، وإن كنا نلاحظ طلائع تجديدات تقوم على تفكير معمارى جديد يخرج عن إطار الخطوط المملوكية كما نرى مثلاً في تخطيط مسجد الفتح الذى يبنى حالياً فى القاهرة ، ولم تجتمع لدينا الآن صورته الكاملة لتحدث عنه ؛ فهو لهذا يدخل فى عداد مساجد الغد المشرق بإذن الله .

* * *

المدرسة المغربية الحديثة :

وتسير - موازية لهذه المدرسة - المدرسة المغربية الحديثة ومركزها هو المملكة المغربية ، وهذه مدرسة تمتاز بفن إسلامى تقليدى مجدّد بديع وجمال فائق وفخامة ورواء ، إنها

تعتمد اعتماداً أساسياً على التقاليد المعمارية المغربية الأندلسية التي تحدثنا عنها في فصل مضى ، ولكنها تجددت وأخذت اتجاههاً جديداً إلى حد كبير بسبب الاهتمام الشديد الذي بذله الفرنسيون في المحافظة على التقاليد الفنية المغربية أثناء فترة سيطرتهم على بلاد المغرب ، وهذه ناحية من الخير ينبغي أن نذكرها للفرنسيين ، وما من شر إلا وفيه جانب من الخير . ثم إنهم - أى : الفرنسيين - درسوا الفنون المعمارية المغربية الإسلامية دراسة مستفيضة وكتبوا فيها كثيراً جداً من الأبحاث ولا يخلو عدد من مجلة « هسبريس » - وهى مجلة الاستشراق الفرنسى المغربى - من مقال أو أكثر عن العمارة والفنون المغربية^(١) .

وفى أيام الاستعمار كان «المعمار والآثار» تحت إشراف الفرنسيين ، فلما جاء الاستقلال وانطلق أهل المغرب وشبابه يجددون بلادهم فى كل ميدان ، نجمت مدرسة المعمارين المغاربة الشبان ، ومعظم أفرادها تكونوا فى مدارس العمارة والآثار الفرنسية . وهى مدرسة جلييلة تقف فى طليعة مدارس المعمار والآثار؛ فسار أولئك الشبان المغاربة على نفس الخطوط المغربية التقليدية وعلى أساس جديد من الفن المعمارى الفرنسى ، فأبدعت فيما ابتكرت من أشكال وصور تجمع بين القديم والجديد فى صورة جميلة حقاً ، ويتجلى فى كل هيئات المنشآت المعمارية فى الرباط وفاس ومراكش - خاصة - ولا نزاع أن «مدن المغرب» هى أكثر المدن الإسلامية محافظة على الطابع المعمارى الإسلامى؛ مع مسايرتها للزمن فى نفس الوقت؛ وهذه مَحْمَدَةٌ تُذكر لأهل المغرب بالخير .

وتعني هنا المساجد والروضات معاً فأما المساجد فقد حافظت على صفاء الطراز المغربى الأندلسى فى هيئاته وخطوطه وروحه ، وإذا كنت تعرف المسجد المصرى الحديث لأول نظرة بشكل مثبته ووضع قبته وشرافات السقف فذلك أيضاً يصدق على الفن المغربى ، وخصائصه الرئيسية التى تستلفت النظر هى - كما قلنا فى فصل سابق - هيئات المآذن على هيئة منارات ذات أبدان ضخمة فى جزئها السفلى ثم يعلو البدن الأساسى

(١) أصبحت هذه المجلة مجلة أبحاث مغربية بعد أن اندمجت فيها مجلة تموده (Tamuda) التى كانت مخصصة لأبحاث الإسبان فى تاريخ المغرب وحضارته .

بدن أصغر تاركاً مساحة واسعة لشرفة الأذان وفوق البدن الثاني يكون الجوسق تعلوه فى الغالب قبة صغيرة تحمل محل العمامة، وهناك الأبواب والعقود على هيئة حذوة فرس مدببة الرأس معقوفة إلى الداخل عند قواعدھا ، وهى حذوة حصان مدببة الرأس امتاز بها أهل المغرب منذ العصر الموحّدی ، وقد بلغت ذروتها من الإنقان على أيام المرينيين ؛ وأسوار مكنّاس وأبراجها ثم مساجدها التى أنشأوها تنطق بذلك بأجلى بيان .

ونماذج الفن المغربى الإسلامى الحديث تُظهر إبداع المعماریین المغاربة المحدثین فى أقطار المغرب كله من الحدود المشرقية لليبيا إلى المحيط الأطلسى ، ونرى أعمالاً فنية جديرة بالإعجاب ومساجد بنيت اليوم ولكنها تحمل طابع قرون طويلة من العمل المعمارى الإسلامى ، ولكن ذروة جمال الفن المغربى توجد فى المغرب الأقصى وطلائع الفن المساجدى المغربى الحديث توجد فى المغرب الأقصى أيضاً فى حين زحفت ملامح الطراز المصرى على ليبيا وربما وصلت إلى تونس .

وقد بذل المعماریون المغاربة جهداً كبيراً فى تطوير طرازهم المغربى محافظین - فى نفس الوقت - على تقالیدهم المعمارية الجليلية ، وتضم مدائن المغرب من الرباط إلى فاس إلى مكنّاس ومشیخة وتطوان والعرائش ثم مراکش فى الجنوب مساجد تلمس فيها يد التجديد والابتكار ، وتلمح فيها أيضاً أثر العمارة الفرنسية فى تنوع المواد الداخلة فى بناء المسجد وخاصة الزجاج الملون الذى اشتهرت به العمائر الدينية الفرنسية نراه هنا فى كل مسجد حديث تقريباً .

وتجارى هاتین المدرستین المعماريتين الجديديتين (المصرية، والمغربية) مدرسة المعمار الإیرانى الحديث ، وهى كذلك استمرار للتقاليد الإیرانية المساجدية التى تحدثنا عنها وخاصة مدرستى إصفاهان وتبريز ، ولكننا نحس هنا جرأة أكثر فى الجديد .

ولقد درس الجيل الأول من المعماریین الإیرانيين المحدثین فنون العمارة فى فرنسا وأخذوا عن الفرنسيين ذلك الذوق الرفيع الذى امتازوا به مع ميلهم إلى التجديد والابتكار ، وإن كان الفرنسيون أقل اندفاعاً فى هذا الميدان من الألمان - مثلاً - ربما لأن غالبيتهم كاثوليك بينما غالبية الألمان بروتستانت ؛ ولهذا نجد المساجد الإیرانية الحديثة محتفظة بطابع الفن الإیرانى وتقاليده وخاصة فيما يتعلق باستعمالات القاشانى والخزف

والزجاج الملون فى كل أجزاء المسجد تقريباً، ومع هذا فهناك فقرات من التجديد فى بعض المساجد الحديثة فى طهران وغيرها من المدن الإيرانية تتجاوز حدود الفن الإسلامى وتفضى إلى متاهات الفن الحديث البعيد أو ما يُسمى بالسوبر مودرن .

ومع أننا مع التجديد - دائماً - إلا أننا نؤثر التجديد الرزين الذى يسير ولا يطير والذى يجرى وتظل قدماء فى الأرض ، لأن الفن شخصية وروح وإذا فهمنا تجاوز الحد فى إنشاء مدرسة أو مصنع أو متحف فإننا نرى أن تظل للمساجد قواعدها الدراسية لأن هذه القواعد تحمل حقائق الشخصية ، وفى كل ما يتصل بالأعمال الفنية الشخصية الشيء المهم والمفيد .

* * *

مدرسة جنوب شرق آسيا (ماليزيا وإندونيسيا) :

وليس لدينا مادة كافية عن عمارة المساجد الحديثة فى باكستان والهند وبنجلاديش تعيننا على أن نستخرج منها فكرة صحيحة عن مسار العمارة المساجدية فى هذه البلاد الإسلامية أو التى تضم جماعات إسلامية ضخمة ، ولكننا - على أى حال - أوردنا مع هذا الكلام عدداً من صور المساجد الحديثة هناك تعطى القارئ فكرة عن فنون العمارة الإسلامية فى شبه الجزيرة الهندية فى العصر الحديث ، وبصورة عامة نجد الإنشاء المساجدى هناك قليلاً نسبياً ربما لأن البلاد غاصة بالمساجد وخاصة لاهور وكراتشى ودكا فالحاجة إلى إنشاء مساجد حديثة قليلة ، ولكن إسلام آباد سترى فى القريب مسجداً جديداً فخماً سيبنى على نفقة جلالة الملك خالد ملك المملكة العربية السعودية .

وتعتبر ماليزيا من طليعة أمم العالم اليوم فى حركة تجديد العمارة المساجدية ، والتجديد هنا يسير فى خطوط مبتكرة فعلاً غير متأثرة بالتقاليد المعمارية الصينية أو الهندية ، ويبدو أن المعمارين فيها يرون أن الإسلام ديانة تختلف فى طبعها وجوهرها عن الأديان السائدة هناك ، ومن ثم فلا مجال للاقتباس من الماضى ، ولابد من ابتداع خطوط جديدة ، وذلك التفكير يُبنى بخير كثير فعلاً ، ونلاحظ ذلك فى مساجد ماليزيا التى تبنى اليوم فى مدنها من كوالا لومبور إلى بريونى وسلطنة صباح ، ونلاحظ أشكال هندسة معمارية تروغ النفس بجراتها الفنية ومحافظتها على الخط الإسلامى للمساجد

فى آن معاً ؛ هنا لا نجد تقيداً بتقليد معمارى سابق ، وإنما نجد انطلاقاً حراً فى تطوير كل الأشكال الهندسية والمواد المعمارية لمطالب المساجد فبيت الصلاة شبيه بقاعة من قاعات الموسيقى أو المعارض الفنية الحديثة ، والصحن فسيح ، تحيط به أسوار مستطيلية الهيئة وتزيدها أبواب المسجد جمالاً ، أما المثذنة فهى - فى الغالب - شىء جديد لم نشهد له من قبل مثيلاً - فيما نعرف - من أشكال المآذن .

ومن أجمل ما تمتاز به هذه المدرسة الجديدة من مدارس العمارة المساجدية الحديثة هو التفنن فى استخدام المواد الحديثة فى تجميل داخل المسجد - لا عن طريق الزخارف العربية الإسلامية فحسب ، بل عن طريق الاستعمال الذكى للمواد ما بين قديمة وجديدة فالأبنوس والعاج والأخشاب الغالية والمرمر الطبيعى والصناعى وقوالب الزجاج وألواحها تستعمل كلها فى توافق بديع حقاً .

ونودُّ لو أَلَفَ أحد المعمارين الماليزيين كتاباً خاصاً عن فن العمارة الإسلامية الحديث فى تلك البلاد الجديدة الزاهرة . وهناك ميل إلى إدماج سقف الجامع مع قبته فى هيئة واحدة على شكل الخيمة ، وفى هذه الحالة نجد الخيمة تعتمد على مثلثات رؤوسها إلى أسفل وهذه الهيئة رمز وتقدير لطُّب الخيمة .

وفى نفس الاتجاه تسير حركة التجديد فى إنشاء المساجد فى إندونيسيا فالاندفاع نحو التجديد المساجدى فى هذا البلد الذى يعتبر أضخم بلد إسلامى فى الدنيا يسير بخطى توازى ما نراه فى ماليزيا ، ولكن الهيئات المعنية بالمساجد هناك فى حاجة إلى مزيد من الحماسة فى إنشاء المساجد ، لأن ما نراه هناك من المنشآت لا يتماشى قط مع ما لهذا البلد الكبير من مكانة فى عالم الإسلام والعالم جملةً ، وعلى أىِّ حال فإن المعنيين بمستقبل الإسلام حريون بأن يصرفوا عناية أكبر إلى مستقبل الإسلام فى إندونيسيا بوجه عام ، خاصة أنه ما زالت هناك جيوب غير إسلامية كبيرة ، كما نرى فى جزيرة بالى حيث ما زالت الديانة البوذية غالبة ، وجزر تيمور حيث عمل البرتغاليون على إيجاد أقلية كاثوليكية ، بالإضافة إلى أن حركة التبشير نشيطة وخطيرة المدى فى إندونيسيا ، والمساجد من أقوى الوسائل فى نشر الدعوة الإسلامية وتثبيت الإيمان فى القلوب .

الحاجة إلى إنشاء المساجد فى الفلبين :

ونريد أن نقول : إن مصير الإسلام فى الفلبين مسئولية إندونيسية ، لأن كل بلد عضو فى أمة الإسلام مسؤول عن مصير الإسلام فى أطرافه وما يليه من بلاد الكفر ، فإسلام إفريقيا المدارية والاستوائية مسئولية البلاد الإسلامية فى الشمال الإفريقى ووادى النيل وشواطئ البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وليس من المعقول - مثلاً - أن تراجع قوة الإسلام فى بلاد مثل تنزانيا وماليزيا وهى أخرى أن تتقدم وتزيد ، فهذه بلاد كان مقدراً لها أن تصبح إسلامية خالصة .

وما دام هذا الكتاب خاصاً بالمساجد؛ فإننا نقول : إن إنشاء المساجد أبعد أثراً مما يُسمى بالمراكز الثقافية الإسلامية ، فليست هناك قاعدة لتفسير الإسلام هى أعظم من مسجد فيه إمام وخطيب ، ولا بأس فى قاعات المحاضرات أو المطبوعات فهذه تفعل فعلها حيث يقرأ الناس ويكتبون ، أما حيث الأغلبية لا تكتب ولا تقرأ فإن المسجد نفسه يخاطب الناس بأبلغ لسان .

وقد بينّا - فى أكثر من موضع من مواضع هذا الكتاب - أن المسجد بذاته منارة ينبعث منها نور الإسلام وتجذب الناس إليه ، فإذا كان فى المسجد إمامٌ تقىٌّ عالمٌ كان ذلك أعون للمسجد على أداء رسالته ، لأن الدعوة تتم على أحسن صورة إذا عرفنا كيف نربى الدعاة الصالحين المكونين تكويناً سليماً للقيام بتلك الإمامة الكبرى .

ومعظم المسلمين - فيما بلى الهند شرقاً وما بلى الصحراء الإفريقية جنوباً - أدخلهم فى الإسلام أناسٌ كانوا مؤمنين صادقين ، وإيمانهم الصادق هذا فتح للإسلام هذه الأبواب كلها ؛ وقد كان أول ما تصنعه الجماعة منهم - عندما تحط فى موضع - هو إنشاء مسجد ، والمسجد بنفسه يتولّى الجانب الأكبر من عمل نشر الإسلام .

مساجد إفريقية المدارية والاستوائية :

وفيما يتصل بالمساجد التى تبنى فى إفريقية وجنوب الصحراء الكبرى - اليوم - نقول : إنها بصفة عامة كثيرة ، ولكنها صغيرة الحجم باستثناء بعض المساجد الكبرى فى

السنغال وغينيا ونيجيريا ، وهى - مع صغر حجمها - جميلة ، تبعث فى النفس الخشوع ببساطتها ، ولكن هذه البساطة تصل إلى حدٍّ يدعو إلى الأسف ، وخاصة فى البلاد التى اشتدت عليها وطأة الاستعمار مثل : موزمبيق وغينيا البرتغالية سابقاً ، فإن مساجد هذه البلاد بنيت من مال جماعات إسلامية فقيرة فى جملتها ، ولم تلقَ من الدولة أىَّ معاونة ؛ ولكن الإنسان يدهش إذ يرى صغر المساجد فى تنزانيا مثلاً وسواحلها ، وجزء كبير من داخلها الإسلامى ، وحكومتها مسؤولة عن العناية بشؤون الإسلام ومساجده ، ومثل ذلك يقال عن زامبيا ، ونحن جديرون بأن نستلفت نظر الحكومات القائمة فى هذه البلاد إلى أن الإسلام يهمنى وأنها ينبغى أن تُولى المساجد عناية أكبر ، ولا بد أن يثبت فى الأذهان أن ما يربطنا بهذه البلاد من روابط الكفاح المشترك ضد الاستعمار الجديد وضد طغيان الدول الكبرى لابد أن يؤيدها تعاطف روحى دينى ، وإننا ننتظر من رجال هذه الدول تأييداً أكبر للإسلام فى دولهم وإذا كان كبار رجال الدولة هناك على غير الإسلام نتيجة لتخطيط رسمه «الاستعمار» فى هذه البلاد ، فليس معنى ذلك أن تمنع الدولة مساعدتها للجماعات الإسلامية فى بلادها ، فلا بد أن تنفق هذه الدول على بيوت الإسلام لأن الإسلام أصل من أصول حضارتها ، بل إن معظم هذه الدول لم يكن لديها من مقومات الحضارة والعمران الحقيقى قبل عصر الاستعمار إلا ما جلبه إليها المسلمون ، وفى تنزانيا مثلاً جاء حينٌ من الدهر لم يكن لأهلها ثقافة غير الإسلام .

ومن واجبنا - نحن أيضاً - أن ننظر فى ذلك ، وأن نتعاون فيما بيننا لبناء المساجد فى هذه البلاد ، ولنا أسوة بما تفعله المملكة العربية السعودية والكويت وليبيا والمملكة المغربية من إنشاء المساجد فى بلاد إفريقية المدارية والاستوائية ، والأمر هنا لا ينبغى أن يُقصر على المساجد الجامعة الكبرى فى العواصم ، وإنما لأصغر المساجد أيضاً والمصلّيات الصغيرة أو الزوايا التى تنثر فى الأرياف والداخل أيضاً فهى مصابيح هدى للجماهير الإفريقية الباحثة عن النور ، وفى إحساسى أنه من أعظم القربات التى يمكن أن يتقرَّب بها إلى الله سبحانه أصحابُ الإيمان والمال فى بلادنا هو إنشاء مساجد فى المدائن التى يتقدم فيها الإسلام فى القارة الإفريقية ؛ فهذا خير ألف مرة من ابتناء نفر من أولئك الذين بسط الله لهم فى الرزق مساجد مجاورة لدورهم ، ومن حول هذه المساجد وعلى مسافات قليلة منها مساجد أخرى تسدُّ حاجة المصلّين .

ولو أنصفنا لاتخذنا قراراً عاماً بإنشاء نصف ما يبنى فى بلادنا من المساجد اليوم خارج هذه البلاد ، أى : فى مواقع الجاليات الإسلامية فى إفريقية وآسيا وخاصة فى الفلبين وتنزانيا وزامبيا وملاوى والسنگال والكاميرون وغانا وما إليها ، ولا أدرى إن كنت متطرفاً إذا قلت إن علاقاتنا ببلاد إفريقية المدارية والاستوائية وبلاد آسيا التى تناهض الإسلام - مثل الفلبين وكمبوديا والصين نفسها - ينبغى أن تقوم على أساس إسلامى ، بمعنى أن نرتب هذه البلاد من حيث الصداقة والتأييد والتعاون واستثمار الأموال بحسب ما فيها من إسلام وموقعها من الإسلام ؛ فكلما كثر المسلمون فيها وحسنت سياستها مع الجماعات الإسلامية فيها كانت أدنى إلى صداقتنا وتعاوننا .

نشاط واسع فى بناء المساجد :

وفى العالم كله اليوم تبنى المساجد ، فأما فى بلاد الإسلام فما نحسب أنه فى تاريخ الإسلام عصر كثر فيه بناء المساجد كما هو الحال فى أيامنا هذه ؛ وهذا شىء محمود ، بل ضرورى ، وإلى جانب أهميته الدينية فإن لهذه الظاهرة نتيجة جانبية جمالية ، فإن المساجد هى أجمل ما فى بلاد الإسلام من منشآت ، ولا يزين مقطع الأفق فى بلادنا شىء مثل منظر المسجد بقبته ومئذنته ، غير أننا نرى أنه ينبغى أن يكون فى قاعدة كل قطر عربى أو إسلامى مسجد جامع عظيم يبرز المساجد كلها فخامة ورواء ؛ فيكون أبا المساجد فى البلاد وعنوان التقدم المعمارى المساجدى فى عصرنا وما يليه ، ومن ثم فينبغى أن ينظر كل بلد فى أن يكون مسجده الأب مسجد اليوم والغد ، أى : أن هيئته وخطوط عمارته يجب أن تحدد مسيرة العمارة المساجدية فى ذلك القطر لأحقاب قادمة .

ومن ناحية أخرى فإننا نرى أن العناية قليلة بمساجد القرى ، فهى فى كل بلادنا صغيرة لا تناسب مقامها أو الرسالة التى تقوم بها ؛ والرأى أن القرى بمبانيها الصغيرة المتواضعة أحق بالمساجد الكبيرة حتى يتوازن المنظر العام فيها بعض الشىء ، وهى أحق بأن يقيم فيها كبار الأئمة والخطباء ، ولا شك أن أهل قرية صغيرة أحق بالإمام الكبير الواسع العلم القادر على القيادة والتوجيه من مساجد المدينة الكبيرة حيث العلم وافر والعلماء كثيرون والحاجة إلى التوعية والتوجيه أقل .

المساجد مسؤولية الجماعات المحلية :

وقد آن الأوان فى كل قطر إسلامى لأن تنقل مسؤولية المساجد إلى الجماعات ؛ فتنشأ فى كل قرية - وفى كل حى من أحياء المدن - لجنة أهلية تُسمى «لجنة المساجد» وظيفتها رعاية المساجد فى القرية أو الحى والإشراف على العناية بها ونظافتها وعمارتها فإنه لمن المؤسف أن نرى بعض المساجد وقد قلَّ حظها من العناية والنظافة ؛ حتى فقد الكثير من بهائه ، وإذا كان الناس عندنا يتبارون فى إظهار التُّقى حتى إن الواحد منهم يحج بدل الحجة حجَّات ويعتمر المرة بعد المرة ، فإن أمثال هؤلاء يحسن أن تقوم من بينهم لجنة مساجد الخير وحرىُّ بهم أن ينفقوا مالهم على مساجد حيَّهم بقدر ما ينفقون على حجَّاتهم وعُمَراتهم وهم الراحون على أىِّ حال فإن عمارة مسجد الحىِّ وحسن رعايته لها ثوابها الكبير .

ومهما بذلت وزارات الأوقاف من جهد فإنها لن تستطيع رعاية المساجد كلها حقَّ الرعاية ؛ فحبَّذا لو وكَّلتُ هذا الشأن للأمة وضميرها ، وأرصدت لكل قرية وحي من أحياء المدن نصيباً من مال الأوقاف ، ثم يقوم أهل الحىِّ باستكمال مطالب المساجد من مالهم على اعتبار أن ذلك قرينة إلى الله تعالى وتطهير وزكاة عن أنفسهم وأموالهم إن كانوا ذوى مال ، وتطهير لنفوسهم وزكاة عن أبدانهم وأبدان من يتولَّون أمورهم إذا لم يكونوا أصحاب مال .

حركة إنشاء المساجد فى الغرب الأوروبى والأمريكى وفى أستراليا :

وفى أوروبا وبلاد القارتين الأمريكيتين وأستراليا نشاط واسع لإنشاء المساجد ، وهذه المساجد تقوم بإنشائها والعناية بها الجماعات الإسلامية فى كل ناحية من نواحي الأقطار التى ذكرناها ، بأموال يجمعها أفرادها فيما بينهم مع مساعدات من الدول العربية والإسلامية - فى بعض الأحيان - ومساعدات من السلطات المحليَّة لا تخرج - فى الغالب - عن إعطاء الجماعة قطعة أرض تُنشئ عليها مسجدُها .

وأكبر عدد من هذه المساجد يوجد فى إنجلترا نظراً لكثرة عدد المسلمين فيها وقد قارب المليون ، وهذا العدد من المسلمين منتشر فى معظم نواحي إنجلترا وخاصة فى لندن

وفى الموانئ الكبرى من أمثال سوهامبتون وبريستول وليفربول وبلايماوث ، وما إليها ، وبعض المدن الصناعية الكبرى فى الداخل من أمثال مانشستر وبرمنجهام ولنوكن .

وإذا استثنينا مسجد لندن الرئيسى فإن بقية المساجد فى إنجلترا صغيرة وفقيرة وبعضها فى الموانئ - خاصة - مُهملة وبالغة الفقر إلى درجة تدعو إلى الأسى .

وإذا كان عدد المسلمين فى إنجلترا فى زيادة فإننا جدىرون بأن نُولى موضوع المساجد هناك جانباً كبيراً من العناية ، إذ ليس من المقبول - أصلاً - أن تكون المنشآت الدينية لغير المسلمين هناك فى جملتها أحسن حالاً من مساجدنا .

مسجد لندن الجديد ومسجدها القديم :

وينشئون الآن فى لندن مسجداً جديداً اشتركت فى إنشائه كل البلاد الإسلامية ، وأقيمت لوضع تصميمه مسابقة عالمية اشترك فيها خمسون مهندساً معمارياً من سبع عشرة دولة ، ووقع الاختيار على المشروع الذى تقدم به المعمارى الانجليزى الكبير سير فردريك جيبارد وشركاؤه فى مكتبه الهندسى الكبير فى لندن ، ولهذا المسجد قصة جديرة بأن تحكى ، وما أكثر ما حكينا من قصص المساجد والروضات فى هذا الكتاب .

والقصة ترجع إلى سنة (١٩٤٤ م) عندما استجابت إنجلترا لطلب الجالية الإسلامية الكبيرة فى لندن لإنشاء مسجد جامع يلحق به مركز ثقافى إسلامى فى عاصمة بريطانيا ، فقدم ملك بريطانيا إذ ذاك جورج السادس قصراً من قصوره تحيط به أرض مساحتها فدانان انجليزيان فى حى ريجنت فى لندن ، فاجتهد المسلمون فى تحويل القصر القديم إلى مسجد وتم ذلك وأخذ ذلك المسجد صورة هندسية تتجلى فى مدخله ، وأقاموا إلى جانبه المركز الثقافى الإسلامى الذى يعرفه كل زوار لندن من المسلمين .

ثم زاد حجم الجالية الإسلامية زيادة كبيرة فى إنجلترا - وفى لندن بصفة خاصة - وفى نفس الوقت زاد مركز بلاد الإسلام قوة فى العالم نتيجة لاستقلالها وتقدمها فى ميدان الحضارة ، ثم زادت ثروات بلاد الإسلام - وبخاصة المنتجة للنفط منها ، وهى كثيرة - مما زاد فى وزن العالم الإسلامى كله ، وأعطى الجاليات الإسلامية فى إنجلترا قوة وأهمية ، وزادت أعداد المسلمين هناك زيادة كبيرة بسبب هجرة الكثيرين من الهكستانيين

والمسلمين الهنود والأفارقة إلى بريطانيا للعمل فيها ، وفي أواخر الخمسينات كان عدد المسلمين في إنجلترا قد ناهز ستمائة ألف مسلم (وعددهم الآن قرابة مليون نسمة) في حين أن عدد المسلمين في فرنسا زاد على المليون نسمة (منهم ٩٠٠,٠٠٠ جزائري) ، وظهر بوضوح أن المركز الإسلامي ومسجده في لندن لم يعودا كافيين لتقديم الخدمات الدينية الضرورية لمثل هذا العدد الضخم من المسلمين وتبين أنه لابد من إنشاء مسجد أصيل بدلاً من الاكتفاء بتحويل مبنى قديم .

وأخذ سفراء الدول العربية والإسلامية يعملون على تحقيق الفكرة لإنشاء ذلك المسجد ، ووافقت الحكومة البريطانية على ذلك ، وسرعان ما وضعت مشروعات لمبنى المسجد والمركز الثقافي تقوم على الأصول المعمارية المساجدية التقليدية .

وعندما عرضت هذه المشروعات على اللجنة الملكية للفنون الجميلة - ومن اختصاصاتها المحافظة على الهيئة العامة لمدينة لندن - رأت أن المسجد (بشكله العربي الإسلامي الخالص) لا يتألف مع المباني المحيطة به في حي ريجنت ، وخاصة مجموعة البيوت ذات الطراز الإغريقي التي تُسمى باسم « شرفات ناش » ، وكلها أنشئت سنة (١٨٠٠ م) لتعطي هذا الحي الخاص من أحياء لندن طابعاً مميزاً يتفق مع قصور الوصي على العرش التي تقع فيه .

وانقضت سنوات ثم عادت لجنة أوصياء المسجد فطرح مشروع بنائه على صورة تتفق مع مباني حي ريجنت وشرفات ناش ، فتقدمت مشروعات كثيرة فاز من بينها المشروع الذي تقدم به السير فردريك جيبارد ، وهو مشروع أنيق بديع يتألف من بيت صلاة صغير بعض الشيء تعلوه قبة مغطاة بالنحاس تقوم على رقبة ذات قمريات ، وقد قصد المعمارى إلى مجارة قبة الصخرة بهذه القبة النحاسية ، ويفتح بيت الصلاة على صحن الجامع بصف من البوائك التي لا تمتاز بأى جمال وليس فيها أى طابع عربى إسلامى . وصحن المسجد فسيح مغطى بمربعات من الرخام الصناعى والمفروض أنه يغطى بالسجاد فى مناسبات الصلوات العامة ، وبدلاً من المجنبتين وضع المصممون مبنيين ذوى طابع حديث صرّف ، واحد للمكتبة ، والثانى للمركز الثقافى .

أما المثذنة فأنبوية طويلة تعلوها شرفة أذان ، وهى أقرب إلى العمود التذكارى منها إلى المثذنة ، وبالفعل سيكون بداخلها مصعد يصعد فيه من يريد أن يلقى نظرة على الجامع كله وعلى ما حوله من المباني .

والمسجد أتيق فى جملته ، ولكنه يخلو من الطابع العربى الإسلامى غاماً ، ولأمر ما يبدو للنناظر فقيراً رغم المبالغ الكبيرة المرصودة من أجله ، وإذا كانت شركة السير جيارد هيئة معمارية ذات شهرة عالمية فإن مشروع المسجد الذى وضعته غير موفق ، وقد اعترض عليه الكثيرون ، وكنا نرجو أن يكون مبنى هذا المسجد معرضاً للفن الإسلامى المعمارى الجميل ، لا مجرد مبنى حديث تعلوه قبة ومثذنة ، وقد تنبه السير جيارد لذلك فقرر أن تكون كل زينة المسجد الداخلية شرقية إسلامية ، فسيجلب مربعات القاشانى المحلّى بالفسيفساء من تركيا ، والسجاجيد من إيران ، أما أعمال الزخرفة على الجدران والأخشاب فسيقوم بها فنانون متخصصون من مصر والمملكة المغربية والجزائر وتونس .

ويتسع بيت الصلاة لألف مُصَلٍّ ، وهو عدد قليل - فيما نحسب - ولكنهم يقولون إن الصحن يتسع لأربعة آلاف من المصلّين ، وبداخل بيت الصلاة شرفة أنيقة لصلوات النساء .

مسجد باريس :

ولكن آتق مساجد أوربا - دون شك - هو المسجد الجامع فى باريس ، وهو مؤسسة ذات تاريخ طويل حافل بالمتاعب ، فقد كان أول من فكّر فى إنشاء مسجد فى باريس هو السلطان عبد الحميد ، فكّر فيه جزءاً من سياسته الإسلامية العربية التى انتهجها عندما أحسّ بأن الأرض غير ثابتة تحت قدميه ، وأن الثورة عليه وعلى نظامه قادمة - بلا ريب - على يد الأحرار والشباب من أبناء تركيا والعالم العربى ، فأفضى برغبته تلك إلى حكومة فرنسا ، ووضعتها فرنسا موضع الاعتبار ، وكان يرى فى ذلك وسيلة لإظهار اهتمامه بأمور العقيدة الإسلامية فى صورة ملموسة فى عاصمة من أكبر عواصم الدنيا .

وعُزل السلطان عبد الحميد - بعد ذلك - سنة (١٩٠٩ م) ، وخلفه محمد (رشاد) الخامس ، ثم محمد السادس - وهو المعروف عندنا بالسلطان عبد المجيد (١٩١٨ - ١٩٢٢ م) - ثم عُزل السلطان وحيد الدين وأُلغيت الخلافة العثمانية فى سنة (١٩٢٤ م) وأصبحت تركيا دولة علمانية ، ونام المشروع .

وبعد الحرب العالمية الأولى فكَّر نفر من الفرنسيين فى إنشاء مسجد فى باريس تذكراً للآلاف من الجزائريين الذين ماتوا خلال الحرب مدافعين عن فرنسا ، وفى (١٩٠٨ أغسطس ١٩٢٠ م) وبناء على اقتراح مقدَّم من إدوارد هيو عمدة مدينة ليون الشهير وعضو مجلس شيوخ فرنسا - فى ذلك الحين - وافقت السلطات الفرنسية على إنشاء مؤسسة إسلامية فى باريس واعتمدت الحكومة للمشروع ما قيمته (١٥٠ مليوناً) من الفرنكات ؛ وعلى أثر ذلك تبرعت بلدية باريس بمبلغ (١٦ مليون فرنك) للمشروع مع قطعة أرض مساحتها هكتار (أى : عشرة آلاف متر) فى حيّ چوسيو ، وهو جزء من الحىّ اللاتينى ، وكان فى موضع هذه الأرض مبنى لمستشفى قديم مهجور يُسمّى مستشفى الرحمة ، وشُرع فى إنشاء المسجد ومجموعة المباني الملحقة به وهى معهد للدراسات الإسلامية ومطعم وسوق وحديقة جميلة .

والمسجد وملحقاته يعتبر هيئة مستقلة تديرها هيئة خاصة بها يرأسها مدير جزائرى باسم بلدية باريس .

ولتلك الهيئة - والحق يقال - الفضل فى حسن إدارة هذه المجموعة الدينية الثقافية المعمارية فى قلب العاصمة الفرنسية ، فالمسجد دائماً فى أحسن حال من النظافة والرعاية والصلوات تقام فيه بنظام تام ، والأئمة والخطباء - دائماً - من خيرة الناس .

والمسجد - وهو الذى يعيننا هنا - قطعة فنية بديعة من الفن المغربى الأندلسى وقد عُنِيَ المعماري الذى وضع الرسم بإظهار أجمل ما فى الفن المغربى الأندلسى من رقة وجمال وأناقة وإشراق واستعمال حسن لعوامل الطبيعة من خضرة وماء كأجزاء من عمارة المسجد ، وسواء أكنّا فى بيت الصلاة أو فى الصحن أو تحت المجنّبات التى تتألّف من عقود أندلسية فإن كل ما تقع عليه عينك يذكرك بمباني الحمراء الأندلسية ، وبذكرك ببدايع الفن المغربى فى (فاس ، ومكنّاس ، ومراكش) وتفتح هذه العقود على أبهاء مكشوفة ، فى وسطها نوافير ماء ، ويغضى حوائطها الزليج الجميل ، والخضرة تراها فى كل مكان ، أما المنبر فقد صنّع فى مصر ، وهو هدية من «الملك أحمد فؤاد» لمسجد باريس .

من الناحية الفنية الإسلامية الصّرفة يفوق هذا المسجد مسجد لندن الجديد بمراحل ،

فأنت هنا - فى مسجد باريس - فى جو عربى إسلامى خالص ، أما فى مسجد السير
جيارد فأنت فى مبنى المجلزى من طراز شرفات ناش ، وعليه قبة ومئذنة هما شبيهتان
بمئذنة مصنع .

وقبل أن نترك هذا المسجد إلى غيره نقرر أننا مدينون فى المعلومات التى أوردناها
عن هذا المسجد لمدير مؤسسة المسجد الحالى ، وهو السيد حمزة أبو بكر القائم بأعمال
إدارة المسجد والمركز الإسلامى وتوابع المسجد الأخرى بكفاءة مشكورة .

مساجد يوغوسلافيا :

ونتقل إلى منطقة مساجد أخرى فى أوربا وهى يوغوسلافيا ، وهذا البلد - بعد
تركيا وألبانيا - هو البلد الأوروبى الذى يضم جالية إسلامية كبرى تصل إلى مليونين
ونصف المليون موزعين هناك بين ولايات سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك فى
الشمال ، وأكبر قواعد الإسلام هناك : زغرب كرواتيا وسراجيفو وسكوبى ودرافنك
وموستان ، وكل نواحي الولايات التى ذكرناها حافلة بالقرى والمدن ذات الغالبية
الإسلامية ، وهى تزدان بالمساجد ومعظمها صغيرة من الطراز التركى ولكنها كلها جميلة
تبعث فى النفس أمناً ومسرةً ، وليس هناك أجمل من مشاهد هذه المساجد البديعة وهى
تطلُّ عليك وأنت مترحِّل فى يوغوسلافيا من القرى المعلقة على سفوح الجبال أو
تستدعيك للصلاة وهى صافنة فى حقول الوديان ، ويكفى هذه النواحي الإسلامية فخراً
أنها ظفرت بأحد المساجد التى أبدعتها عبقرية الفنان المعماري التركى سنان بن عبد المنان
ابن عبد الله فى بريتشينو ، وقد بنى فى سنة (١٥٧٠ م) ، وما زال محتفظاً برونقه وبهائه
إلى اليوم ، ولا ينسى الإنسان أبداً مئذنته المنسرحة السامقة الذاهبة نحو السماء على نحو
يروع النفس .

ولكن المعماريين اليوغوسلافيين المسلمين يتجهون اليوم إلى ابتكار أشكال جديدة
للمساجد التى ينشئونها فى بلادهم ، وهم ينحون - فى هذا - منحى المهندسين المعماريين
فى الغرب كله فى التجديد فى مباني الكنائس ، والحق أن هذه المعابد المسيحية تعتبر فى
نظر المعماريين الغربيين - والبروتستانت منهم خاصة - ميداناً رحباً للتجديد والابتكار ،
ولو أنك رأيت أحد الكتب الكثيرة التى ينشرونها فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا عن العمارة

الكنسية لحسبت نفسك تأمل صور دور سينما أو مسارح ، ومن أغرب ما رأينا - من ذلك - كنيسة برازيليا فى وسط البرازيل ، حيث نرى الكنيسة فى هيئة ورقة مطوية موضوعة رأسياً ، وفى أعلاها الصليب ، وأنت تدخل هذه الكنيسة - الورقة - من تلافيفها ، فتجد نفسك فى داخل مبنى فسيح جميل تدور بداخله المقاعد كأنها سطور على القرطاس ، وفى الصدر يقوم مذبح الكنيسة ومن خلفه الهيكل كأنهما تصويران زخرفيان فى أعلى الصفحة .

أقول : إن بعض المهندسين اليوغوسلافيين يتجه هذا الاتجاه ، ومن أبدع ما أنشأوه مسجد ومركز إسلامى فى مدينة فيسوكو فى البوسنة ، هنا نجد المثانة فى هيئة صاروخ من تلك التى يرسلونها إلى الكواكب وهو رمز جميل ، وخاصة إذا ذكرنا وجه الشبه بين المثانة التركية والصاروخ الصاعد إلى السماء . ويدخل الإنسان إلى المسجد من باب مستطيل من البلور يفضى إلى بيت صلاة باهر الضوء ، ومصادر الضوء غير منظورة ، والمحراب أشبه بنصف شبك مدبب العقد مغطى بالزجاج الملون ؛ ومن خلفه يشع ضوء أخضر لطيف ، والمنبر شرفة بارزة من الحائط على مبنى المحراب ؛ ويصعد الخطيب إلى الشرفة بسُلَّم خارجي ؛ والسقف كله زخارف حديثة تتخللها خيوط زخارف عربية، أما القبة فهى هيئة حديثة جداً يدخل الضوء من ثنايا فيها ، ويتصل بمبنى المسجد مبنى المركز الإسلامى وهو مبنى بالغ الطموح فى ابتكاره وتجديده ، وترى - مع هذا كله - صورتين : إحداهما لواجهة المسجد والمركز الإسلامى ترى فيها المثانة ، والأخرى للمجموعة المعمارية كلها .

وهذا المسجد يعتبر - ولا شك - من مساجد الغد .

المساجد فى ألمانيا :

وفى بقية بلاد أوربا - وخاصة ألمانيا - مساجد كثيرة ، ولكنها كلها تقليدية الطابع : إما على الطراز التركى - وهو الغالب - أو الإيراني أو المصرى ، وكلها صغيرة الحجم ، ولكنها أنيقة تتألق نظافة وبهاء ؛ وهذا كله فى ألمانيا الغربية - طبعاً - أما فى ألمانيا الأخرى

(الشرقية) ^(١) فلا أثر للمساجد فيها .

ومسجد برلين - وهو مسجد قديم - يقع في برلين الغربية ، ولكنه لا يتناسب مع ضخامة بلد مثل برلين ، ومن بين هذه المساجد يبدو لنا مسجد ميونيخ الجديد ، وهو مسجد حديث في طرازه . وهذه المساجد الألمانية كلها بنتها وتبنيها جماعات المسلمين الكثيرين من العاملين في ألمانيا من الأتراك واليوغوسلافيين والجزائريين والمغاربة والأفارقة بالتعاون مع المسلمين الألمان وهم كثيرون ، ومن أكثر ما يسرُّ المسلم أن الإسلام يجد طريقه إلى قلوب الكثيرين من الألمان - والبروتستانت منهم خاصة - لأن العقيدة هناك تزعزعت وفقد الناس الإيمان بها ؛ واتجهت قلوب الكثيرين والكثيرات من الألمان إلى الإسلام بقلب مفتوح ، وهؤلاء جميعاً يؤدون صلواتهم ويحفظون من القرآن ما يقيم هذه الصلوات ؛ أما بقية القرآن فيقرؤونه مترجماً إلى الألمانية في ترجمات شتى .

بقية المساجد الأوروبية :

وفي بقية بلاد أوروبا مساجد ، ولكنها صغيرة لا تناسب المقام ؛ مثل : مسجد جنيف وهو ديرة صغيرة اشتراها لأهل الإسلام - وينفق على إقامة الشعائر فيها - رجال خيرون من أهل الخليج .

وقد كنا نسعى لإنشاء مسجد جليل في مدريد عاصمة إسبانيا وحصلنا على أرض طيبة ، وسرنا في التنفيذ ، ثم أراد الله أن نترك هذا البلد فتوقف العمل ، ونرجو أن يتجدد المسعى ويتحقق ذلك الأمل الذي سعينا جاهدين في تحقيقه ، بل كنا على وشك أن نحصل من الحكومة الإسبانية على مسجد الباب المردوم في طليطلة ، وهو مسجد صغير من طراز الخلافة ، وكان قد حُوِّك إلى كنيسة باسم كريستو دي لا لوث - أى : مسيح الأنوار - ثم هُجر بعد ذلك واعتُبر أثراً ، ولو تحرَّك المسلمون في إسبانيا حركة يسيرة لأعيد مسجداً كما كان ، ومثل هذا يقال عن مسجد غرناطة الصغير المجاور للكاتدرائية ، وكان مخفياً وراء حائط كبير ، وقد كشفناه ونحدثنا إلى السلطات في أمر إعادته مسجداً ، ووجدنا قبولاً ؛ إذ عزَّ علينا أن نجد المسلمين هناك - وفيهم الكثيرون من الطلاب - يتخذون شقةً في بيتٍ مسجداً ؛ ومع هذا فلم تدم لهم حتى هذه .

(١) كان ذلك قبل إعادة توحيد البلدين .

مسجد واشنطن :

وكما كان لكل من مسجدي لندن القديم والجديد ومسجد باريس قصة ، فلنقفُ
بمسجد واشنطن الجامع ، وهو أكبر مساجد العالم الجديد - هنية - نقصُ فيها خبره .

ففى الولايات المتحدة الأمريكية - اليوم - قرابة خمسة وأربعين ألف مسلم - ما بين
أمريكيين ومهاجرين من الهند وباكستان والبلاد العربية وبعض بلاد إفريقيا وآسيا - هذا
عدا المسلمين السود - وعددهم كبير جداً فى العاصمة الأمريكية - ولكنه عسير على
التحديد ؛ لأن جماعة المسلمين الأمريكيين المسمين بالسود أشبه بالجمعية المغلقة ، وقد
اضطرتْ إلى التزام مذهب الكتمان النسبى بعد الأخطار التى تعرضت لها بعد مقتل
مالكولم إيكس ، وكان من أكبر زعمائها وأقواهم ، وإن كان مدى معرفته بالإسلام
وتعاليمه على وجه الصحة غير معروف ، والإسلام الذى يؤمن به ويدعو إليه يبعد
مسافات طويلة عن الإسلام القديم ، ولكن جماعة المسلمين الأمريكيين - هذه - سريعة
التقبل للإسلام الصحيح ، وإذا بذلنا مجهوداً جاداً فى هذا السبيل وصلنا إلى تصحيح
إسلامهم وتمكناً من إحداث تغيير حاسم فى وضع الإسلام والمسلمين فى أمريكا .

كان فى واشنطن وغيرها من كبريات بلاد الولايات المتحدة وكندا وأمريكا
الوسطى والجنوبية مساجد صغيرة ، هى - فى الغالب - شقة فى بيت أو قاعة فى مطعم
أو مخزناً أو « جراجاً » ، تؤجر لهذا الغرض ، وقد رأيت من هذه المساجد أو المصلّيات
كثيراً فى تجوالى فى بلاد العالم الجديد ؛ وفى العادة تلجأ الجاليات الإسلامية الكبيرة
الحجم إلى استئجار قاعة واسعة فى أحد المطاعم أو المنشآت المخصصة للحفلات لتقيم
فيها صلاة الجمعة ، وخاصة صلاة العيدين .

ولكن حادثاً وقع فى سنة (١٩٤٥ م) نبّه مسلمى واشنطن إلى ضرورة إنشاء
مسجد فى العاصمة الأمريكية ، فقد توفى السفير التركى فجأةً وتحير المسلمون فى أمر
إقامة صلاة الجنازة عليه وتقبلُ العزاء فيه ، فتحرك محمود حسن - سفير مصر فى
واشنطن إذ ذاك - واتصل بمقاول مسلم أمريكى من أصل لبنانى هو أحمد يوسف حوار
واتفقا على ضرورة تحقيق مشروع المسجد ، ووعد السيد « حوار » بتحمل جانب كبير

من نفقات البناء ، وجرت اتصالات كثيرة بين سفراء البلاد الإسلامية التي كانت ممثلة في واشنطن - في ذلك الحين - وعددها إحدى وعشرون .

وتبرعت الحكومة الأمريكية بقطعة أرض واسعة في شارع ماساتشوستس - وهو من أجمل شوارعها - لكي يقام عليها مسجد ومركز إسلامي يليق بمقام الجماعة الإسلامية والعاصمة الأمريكية في آن واحد .

وتسارعت البلاد الإسلامية في التبرع والعمل لإنشاء هذا المسجد ، وقام المكتب الهندسي للسيد « حوار » بوضع الرسوم على نحو إسلامي خالص ومتفق مع الشكل العام للعمارة الأمريكية في نفس الوقت .

ففي معظم الكنائس الأمريكية - وخاصة البروتستانتية - يجعل برج الكنيسة فوق المدخل ، وهو - في العادة - يقام من الخشب يعلوه هرم خشبي مرتفع ، أما الأجراس فتوضع على هيكل حديدي قائم من الأرض ، لأن المنشآت الخشبية لا تحمل وزن النواقيس وذئبة أصواتها العالية .

وفي واشنطن يميلون إلى إنشاء المداخل الواسعة ذات الأعمدة الرفيعة الذرى محاكاة لطراز العمارة الإغريقية .

وقد أدخل المعماري الذي وضع رسم ذلك المسجد هذين العنصرين في بنائه ؛ فأقام المثانة في وضع تبدو معه وكأنها فوق المدخل وبنائها على الطراز المصري ذي البدن المربع ، وجعل مدخل المسجد واسعاً يرقى إليه الداخل على سلال من رخام ، وجعل المدخل نفسه خمسة عقود تقوم على أربعة أعمدة من الرخام .

والمسجد كله بيت صلاة فسيح رفيع الذرى يقوم سقفه على أعمدة ضخمة من الرخام ، تحمل فوقها بوائك عالية من الطراز الذي استحدثه ماريو روسي في جامع أبي العباس ، وتكرر - بعد ذلك - كثيراً في مساجد عديدة أعظمها المسجد النبوي المكرم في المدينة .

وقد شاع استعمال هذا الطراز الجميل من العقود لأنه يتيح للمعماري رفع السقف إلى أعلى مستوى يستطيعه عن طريق تلك العقود المرتفعة التجويف السمكة الطبقات

تبعاً لذلك ، وتمتاز عقود داخل مسجد واشنطن بأنها مفصّصة كبيرة الفصوص ، والمحراب من الرخام شبيه بمحراب مسجد الرفاعي في القاهرة ، وقد صنّع المنبر في القاهرة على طراز منبر جامع محمد على .

وقد احتاج المسجد إلى أربع سنوات لوضع رسمه ، وأشرف على العمل السيد يوسف حوار ، وشاركت في عمارته وزخرفته معظم بلاد الإسلام فالقاشاني من تركيا وهو من طراز بديع أزرق وأبيض ، وقدمت إيران السجاجيد ، ومن بينها سجادة رائعة لا تُقدَّر بثمن ، مقاييسها (٢٠ قدماً في أربعين) ، والثريا الكبرى - وتزن طنّين من النحاس - صنعت في مصر ، وكذلك المنبر ، واستقدمت هيئة الإنشاء عشرات العمال الفنيين من مصر وتركيا وإيران والسعودية ، وبلغ عدد القطع التي يتألف منها المنبر اثني عشر ألف قطعة من الأبنوس ، كلها صنعت في مصر ثم رُكِّبت على الهيكل الخشبي ؛ وقدمت السعودية أموالاً جزيلة ، وكذلك ساهمت في النفقات شركة أرامكو وشركات بترولية أخرى . وقدّم السيد يوسف حوار هدايا كثيرة للمسجد منها النافورة الرخامية التي تتوسط ردهة المبنى ، وإلى يمينها ويسارها مبني المركز الإسلامي الثقافي وبيت الصلاة أمامها : وقد قام بتحديد اتجاه القبلة فلكى متخصّص من أعضاء الجمعية الجغرافية الأمريكية يُسمّى هلمان تشيمبرلين .

أما حجارة المسجد فقد قُطعت من جبال ألباما ذات الحجارة البيضاء الصافية ، وقد قام بعملية القطع والصقل فنيون أتوا من مصر والشام خاصة .

وقد بلغت تكاليف البناء وحده (٢٥٠,٠٠٠ دولار) بخلاف القطع الفنية الكثيرة التي أشرنا إليها ، واستغرق إنشاؤه سبع سنوات ، وتم افتتاحه في (٢٨ يونيو ١٩٥٧ م) وحضر حفل الافتتاح الرئيس دوايت أيزنهاور .

وبيت صلاة المسجد يتسع لثلاثة آلاف من المصلّين ؛ ويزيد في بهاء المسجد قيامه وسط خضرة جميلة تحيط به من كل جانب ، والمركز الإسلامي الملحق بالمسجد يعتبر من أعظم المراكز الإسلامية من هذا النوع خارج عالم الإسلام ؛ وفيه مكتبة إسلامية يبلغ عدد مجلداتها ستة آلاف مجلد إلى الآن .

وقد رأينا الكثير من المساجد في الولايات المتحدة الأمريكية في مثل ديترويت وسان فرانسيسكو ولوس آنجلوس وكلها صغيرة ، وينفرد من بينها المسجد والمركز الإسلامي

فى واشنتون ، وحبذا لو أنشأنا مثله فى نيويورك وشيكاجو ولوس آنجلوس وغيرها من مراكز تجمع المسلمين الأمريكیین الذین یسمونهم - بتحريف من اليهود - « المسلمين السود » ، وهم ليسوا سوداً فى جملتهم إذ فیهم الكثیرون من البیض ، ولو أن السواد فى نفسه لیس فیه من وجهة نظر الإسلام والمسلمین إلا كل ما یشرّف الإنسان ، ولكن أعداء الإسلام هم أعداء السود فى كل مكان ، وهم یحسبون أنهم یهینون المسلمین إذ یسمون المسلمین الأمريكیین « المسلمین السود » .

ونحن لا یعیننا أن یسموهم سوداً أو بیضاً لأن الإسلام لا یعترف بفروق الألوان بین البشر ، لأنهم - بالنسبة لنا - هم مسلمون ، ولكنهم مسلمون فى حاجة إلى معاونة إسلامیة ، فإن إسلامهم غیر قویم ، ومناهی الإسلام الحقیقیة لیست بین أیدیهم ؛ وإذا كانوا لا یستطیعون - بداهةً - قراءة القرآن بالعربیة فلا أقلّ من أن نضع بین أیدیهم تفسیراً باللغة الإنجلیزیة ، وقد رضیت الجهات الدینیة عندنا عن الترجمة التى قام بها محمد بكتول وسمّاها: « معانى القرآن الکریم The Meanings of the Holy Koran » .. فلیعمّم بینهم ، ولیرسلّ إلیهم من یعلّمونهم أمور دینهم .

أما كان هذا أول ما فعله الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون بعده ؟ أرسلوا معلّمین إلى الجماعات حدیثة العهد بالإسلام لتعلیمهم أمور دینهم ؟ فما لنا لا نفعل ذلك ؟ .. ثم - وهذا عمل أساسی - فلماذا لا نعیّنهم على إنشاء المساجد ؟ .. لماذا لا نرسم خطة لتزوید كل جماعة إسلامیة من هذه الجماعات المتفرقة فى أوربا والعالم الجدید وأستراليا بمسجد لائق بمقام الإسلام ؟

إن معظم جهدنا منصبٌ على إنشاء المساجد فى عواصم الإسلام ، وهذا أمر لا مندوحة عنه ؛ ولكن هذه الجماعات الإسلامیة المفردة فى حاجة إلى عملیات نقل دم ، دم إسلامی أقصد .

لابد من إنشاء مساجد لهذه الجماعات لتعیش وتنمو ، وما دام الإسلام بنفسه وقوته الذاتية قد فتح لنفسه طریقاً فى أمريكا ، فمن العیب ألا نعمل نحن على المسیر فى الطرق التى فتحتها الإسلام وتعبدها وتوسیعها حتى تصیر طرقاً واسعة للهدى ، معالمها المساجد .

وهذا الكلام ينطبق أيضاً على جماعات المسلمين فى أمريكا اللاتينية - وهى كثيرة وافرة الأعداد والحمد لله - وقد زرت معظمها ووجدت المسلمين فيها عامرة قلوبهم بالإيمان بالإسلام ، ولكنهم يعيشون وسط بحر من غير المسلمين ، وهذا البحر لابد أن يجرفهم فى مياهه فى يوم ما ، والخطر يأتى من أولادهم الذين يعيشون فى ذلك الوسط غير المسلم ، ويعيشون فى جو غير مسلم ، ويتزوجون من غير مسلمات - فى الغالب - وينتهى الأمر بأن يتركوا الإسلام ، هذا رأيتُه يحدث فى شيلي وفى الأرجنتين وفى بيرو ، وفى كل مكان آخر زرته من نواحي أمريكا اللاتينية ؛ ولو أن هناك مسجداً فيه إمام لما حدث ذلك .

أقولها فى غير تردد : المساجد ، أنشئوا للجماعات الإسلامية مساجد ، وأنشئوا مساجد فى البلاد التى يفتح الإسلام لنفسه فيها طريقاً ؛ هذه النواحي - نواحي الأطراف والحدود - أولى بالمساجد من عواصم الإسلام . وعلى الحدود - لا فى داخل البلاد - تُبنى الحصون .

وعلى هذه الصفحات صور لبعض هذه الحصون فى جماعات الأطراف والحدود وجماعات المسلمين الذين يعيشون بعيداً فى عالم الإسلام حتى أستراليا ونيوزيلاندا ؛ إنها تبعث على الإشفاق ، وهى تعيش فريدة وحيدة لا يذكرها أحد من المسلمين ، إنها تعيش من زاد يسير من جيل هاجر بدينه الإسلامى ، ثم لن يلبث - هذا الجيل - أن ينقرض ؛ ويتلاشى الإسلام بانقراضه .

فى أول إنشائها كانت المساجد أماكن للصلاة ومعاهد للتعليم والتعلم ومراكز اجتماعية وإنسانية للجماعة ودوراً للقضاء ؛ وفى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين كانت مركزاً للحكم ؛ وكذلك فى المسجد كان الرسول ﷺ يجلس ويدير جماعته ؛ ومن المسجد كان الخلفاء الراشدون يديرون أمور الجماعة ؛ من أراد أن يلقى أباً بكر أو عمر ذهب إلى الجامع .

فى العصور التالية - وعلى طول العصور الوسطى ، وبسبب عجز الحكام والنظم عن إقامة حكومات صالحة تفى بمطالب الجماعة - تحولت المساجد إلى مراكز للجماعة ، كانت المساجد - دائماً - ملك الجماعات ، إنها بيوت الله وبيوت أمة الإسلام كذلك ؛

حتى المساجد السلطانية التى يبنها أهل الحكم كانت تؤول - بمجرد الفراغ من بنائها - إلى ملكية الجماعة ، كانت المكان العام الوحيد الذى تملكه الأمة ، لهذا أقامت فيها محاكمها ومدارسها وجامعاتها .

هنا كان الناس يجتمعون للصلاة والذكر أو للدرس أو للعدل أو لمجرد الاجتماع بالناس .

وفى بعض الأحيان أسرف الناس فى استخدام المساجد لأغراض اجتماعية حتى ضاعت هيئتها ، واضمحلت مبانيها ، وفُقد شكلها ورسمها لكثرة الترميم .

واجبنا حيال المساجد : آراء ومقترحات :

وفى العصور الحديثة - ومنذ قيام وزارات الأوقاف وقيامها بالعناية بشئون المساجد - وضعت الأنظمة التى تنظم أمور المساجد وتقتصر عملها على الوظيفتين الرئيسيتين الخاصتين بها : الصلاة والتعليم ؛ وقُيدَ هذا الأخير على نحو يضمن سلامة المساجد ؛ فاقْتُصر على دروس دينية تُلقى بعد الجمعةات أو بعد موعد أى صلاة وسمحت القواعد بالتوسع فى استخدام المساجد فى شهر رمضان .

وهذا كله طبيعى ؛ لأن الخدمات الأخرى - التى كانت المساجد تقوم بها - انتقلت عنها إلى هيئات متخصصة أخرى : القضاء أصبح له دوره ، وكذلك التعليم ؛ حتى الجامعة الأزهرية أصبحت شيئاً آخر غير الجامع الأزهر .

وكل هذا طيّب وطبيعى فيما يتصل بمساجد المدن - كبيرة وصغيرة - فى عالم الإسلام ، أى : فى البلاد ذات الكثافة الإسلامية العالية ؛ ولكننا نعتقد أنه ينبغى التفكير فى طراز آخر من المساجد للقرى والجماعات الإسلامية خارج عالم الإسلام ، بحيث لا يصبح المسجد مكاناً للصلاة وبعض الدروس الدينية فحسب ، بل يعود إلى بعض وظائفه التى كان يقوم بها فى العصور الإسلامية الأولى : يصبح مركزاً ثقافياً واجتماعياً ولا بأس من أن يضاف إلى مبانيه جزء يمكنه من أن يقوم ببعض الوظائف الضرورية للجماعة الإسلامية الصغيرة المتفردة بنفسها فى وسط غير مسلم مثل إجراءات إعلان الدخول فى الإسلام وتسجيل الزواج بين المسلمين ، وتسجيل المواليد لرعايتهم إسلامياً

عندما يبلغون سن الإدراك ؛ وهذا سيقضى بقيام منشآت معمارية إسلامية من طراز جديد يقوم عليها رجال مكوّنون تكويناً جديداً يمكنهم من القيام بدور الإمام الدينى والاجتماعى للجماعة .

ويمكننا اعتماداً على مخطط مسجد لندن أن نتصور هيئة هذه المجموعات المساجدية - أو الكليّات كما يقول الأتراك - فهناك بيت الصلاة والصحن ، وعلى جانبى الصحن - بدلاً من المنيّبات - يمكن إنشاء المركز الثقافى والمركز الاجتماعى ، ومن الممكن أن يتضمن أى من المبنيين قسماً خاصاً بالأطفال والصبيان فيه قاعتان أو أكثر لدروس الدين واللغة العربية التى يتلقونها ، وقاعة واسعة لاجتماع الصغار ولعبهم حتى يألفوا مبنى المسجد ويحبوه وتعتاد أقدامهم التردد عليه .

ولابد أن تكون الواجهة إسلامية الطابع ، وفى الغالب ستكون هذه الواجهة مقابلة لبيت الصلاة فى الطرف الآخر من المسجد ، ويمكن استخدام هذه الواجهة لأغراض الجماعة إذا أنشئت على هيئة مبنى فيه غرف وقاعات ؛ وهنا يمكن أن يكون مكان الوضوء ، وإذا أردنا أننشأنا مستشفى أو عيادة خارجية فى مساجد البلاد الإفريقية والآسيوية أو أمريكا اللاتينية .

ولابد - مع كثرة نفقات المساجد ونظافتها وصيانتها - من أن يكون المسجد قائماً بنفسه اقتصادياً ، أو قائماً - على الأقل - بجانب كبير من هذه النفقات ، وقد رأيت من سوء أحوال بعض المساجد فى الجهات النائية ما جعلنى أتجه بفكرى نحو هذه المسائل التى لابد أن يحسب حسابها فى نفس الوقت الذى نفكر فيه فى إنشاء مساجد الغد فى أماكن الجماعات الإسلامية النائية ، وليس من المأمون أن نكل أمر هذه المساجد لمكارم الناس ؛ إذ فى حالات كثيرة جداً لا تيسر رواتب القائمين بالعمل فى المسجد بصورة منتظمة ؛ وليس من اللائق أن نكلهم فى ذلك إلى ما يشبه الصدقات .

خاتمة

وموضوع مساجد اليوم والغد موضوع كبير ، وعلى أكبر جانب من الأهمية ؛ والرأى : أن يُوضع موضع الدرس من جانب المسئولين عن شئون الإسلام والمساجد وانتشار الإسلام والجماعات الإسلامية الصغيرة المتفرقة وسط جماعات كبيرة غير إسلامية .

وقد آن - فيما نحسب - أوان التخطيط البعيد المدى لمستقبل المساجد فى البلاد الإسلامية أو ذات الكثافة الإسلامية العالية ، ومستقبل الأقليات الإسلامية فى البلاد ذات الأكثرية غير الإسلامية ؛ لأن الأمر محتاج فعلاً إلى سياسة مرسومة قائمة على حساب دقيق لشئون المساجد - جملةً - بمختلف أنواعها ومواقعها وأحجامها ، حساب يقوم على أسس واقعية واقتصادية واجتماعية ، فليس يكفى أن نقول إن مساجد المدن الكبرى ينبغي أن تكون مراكز للتثقيف والتوجيه الدينى والإنسانى ، بل لابد أن نُبين كيف يتم ذلك .

وعندما نتحدث عن مساجد الأقليات الإسلامية لا يكفى أن ننصح أفراد هذه الجماعات بأن يكونوا على إيمان وأريحية ليقوموا بشأن مسجدهم ، بل لابد أن نرسم لهم السبيل إلى ذلك ، وعندما نفكر فى أن يكون المسجد قائماً بنفسه بصورة مستمرة نعالج مسألة من أهم مسائل المساجد ومصائرها ، فليس المهم أن ننشئ المسجد ولكن المهم أن يعيش هذا المسجد ويزدهر - السنوات بعد السنوات - ونُجدد نشاطه من موارده ومما يتأتى من مكرمات الجماعات الإسلامية الكبرى وأهل الخير القادرين من أفراد الجماعة ، ثم إن المسجد لابد أن يتطور مع الزمن وأن يزداد جمالاً وبهاءً ونظافة وفخامة حتى يلقى «الهيبة» فى نفوس الناس ، ولابد - كذلك - أن يكون قادراً على مواجهة «التحديات» التى يواجهها من الاتجاه العام إلى ضعف الروح الدينى فى بعض

المجتمعات ، ومن هجوم أفكار الملحدین و غیر المسلمین ؛ وهو هجوم یتزايد يوماً بعد یوم ؛ وعلى المساجد - حصون الإيمان - أن تصمد لهذه التحديات .

وإذا كانت هناك نهضة معمارية مساجدية فی بلاد الإسلام الكبرى فینبغی أن تستمر هذه النهضة بأن یوجَّه المهندسون والمعماريون نحو ضرورة العمل المستمر فی إنشاء أشكال معمارية جديدة وإنشاء مجموعات مساجدية من طرز جديدة تلبي مطالب العصور المقبلة ؛ لأن المساجد حصون الإسلام ، ولا مستقبل لجماعة إسلامية بدون مساجد ، والمساجد هی - أيضاً - واجهات الإسلام وظاهره المادی المحسوس ؛ فینبغی أن تكون لها من الهیئات والأشكال ما یوقع الإجلال فی النفوس .

وبعد ؛ فقد أن نختتم هذا الحديث عن المساجد ، فقد طوفنا طويلاً فی عالمها فی الزمان والمكان ، ولو استرسلنا مع الحديث كما تشتبهی النفس لما كانت له نهاية ، لأن المساجد بیوت الله وتربط الإنسان بالخالق الحی الباقي سبحانه ، فهی مواضع للخلوة ومجالات للفکر السابح یمضی فی تأملاته معها إلى ما لا نهاية ، وحديثها صلاة صامئة بلا نهاية أيضاً ، ولكن لابد لكل حديث من نهاية ، فلنقف عند هذا الحد تاركين بقية الحديث للقلب الیقظان والعیون التي تحسُّ الجمال وتحبه وتكمل ما لم یتیسر لنا رسمه من جوانب الصورة ، بین دفتی هذا الكتاب .

وقد قلنا - فیما أحسب - كثيراً ، ولكن ما بقى أكثر ؛ ولأصحاب التخصُّص فی العمارة حديث آخر طويل ، ولأصحاب القلوب أحاديث أطول وأطول .

وما فعلنا هنا لیس أكثر من أن وصلنا القارئ بهؤلاء وأولئك وأخذنا قبساً من نور المساجد یسرِّناه للقارئ لیمضی وحده على ضوئه فی عالم كله نور وجمال وإيمان ، عالم المساجد ، عالم القلوب ، وعالم العیون التي تحسُّ الجمال .

وقدِّمتُ أن الجمال والإيمان واحد ، ورمزهما واحد ، والله سبحانه وتعالى هو المؤمن یحبُّ المؤمنین ، وهو الجمیل یحبُّ الجمال .

* * *



مراجع الكتاب



أولاً: مراجع عربية :

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- صحيح البخارى .
- ٣- سنن أبى داود .
- ٤- الروض الأثف فى شرح سيرة ابن هشام - لأبى زيد السهيلي .
- ٥- السيرة الحلبية - لبرهان الدين الحلبي .
- ٦- الخميس فى سيرة أنفـس نفـيس - للديار بكري .
- ٧- أُنـد الغابة فى معرفة الصحابة - لابن الأثير .
- ٨- الكامل - لابن الأثير .
- ٩- الاستذكار - للذَّارمى .
- ١٠- بلبل الروض - للذهبي .
- ١١- مسالك الأبصار - للعمرى .
- ١٢- التنبيه والإشراف - للمسعودى .
- ١٣- نهاية الأرب - للنويرى .
- ١٤- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - لابن بطوطة .
- ١٥- رحلة ابن جبیر .
- ١٦- الفتوحات المكية - لابن عربى .
- ١٧- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - للمقريزى .
- ١٨- صورة الأرض - لابن حوقل .
- ١٩- عجائب المقدور فى وقائع تيمور - لابن عريشاه .
- ٢٠- الإحاطة فى أخبار غرناطة - للسان الدين بن الخطيب .
- ٢١- تاريخ السودان - للناصرى السعدى .

- ٢٢- إعلام الساجد بأحكام المساجد - لمحمد بن بهادر بن عبد الله الزركشى .
- ٢٣- الخطط التوفيقية - لعلى مبارك .
- ٢٤- فنون الإسلام - لإيرنست كونل ، ترجمة : أحمد موسى .
- ٢٥- أطلس العمارة والزخارف الإسلامية - لمايورو روسى .
- ٢٦- العمارة العربية في مصر الإسلامية - للدكتور فريد شافعى .
- ٢٧- المساجد المصرية - لحسن عبد الوهاب .
- ٢٨- مساجد مصر ومدارسها - للدكتور أحمد فكرى .
- ٢٩- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - للدكتورة سعاد ماهر .
- ٣٠- لسان العرب - لابن منظور .
- ٣١- ألف ليلة وليلة .
- ٣٢- مجلة « العرب » - باكستان .
- ٣٣- مجلة « اليقين » - باكستان .

* * *

ثانياً: مراجع أجنبية :

- (1) K. A. C. , Creswell : A Short Account of Early Muslim Architecture : pelican Books , 1958.
- (2) Gaston Wiet : The Mosques of Cairo , Paris , 1966 , pp. 10 - 12 .
- (3) Theodor Noldecke : Neve Beiträge. für Semitischen Sprachen , 1910 , p. 40
- (4) J . Horowitz : Islam , VL , 1937.
- (5) Ernst Kuhnel : Die Kunst des Islam .
- (6) Gorge Marçais : Précis d' Art Musulman .
- (7) Henri Basset et Henri Terasse : Fortresses et Sanctuaires Almahades , Hespéris 1924 - 1926.
- (8) Henri Bergson :Les Deux Sources de la Morale et la Réligion , 1932.
- (9) Derek Hill and Oleg Grabar : Islamic Architecture and its Decoration ; Faber & Faber , London , 1967 .

* * *



فهارس الكتاب



فهرس الآيات القرآنية

السورة ورقمها	رقم الآية	أرقام الصفحات
البقرة (٢)	١١٤	٢٤
	١١٥	٨٢، ٢٤
	١٢٥ - ١٢٨	٢٨، ٢٧
	١٤٤، ١٥٠	٢٥
	١٥٨	٢٨
	١٨٧	٢٥
	١٩١	٢٦، ٢٥
	١٩٦، ٢١٧	٢٦
	٢٤٨	٨١
	(السورة)	٢٠٤
آل عمران (٣)	٩٦، ٩٧	٢٨
	(السورة)	٢٠٤
المائدة (٥)	٢	٢٨، ٢٦
	٩٧	٢٨
الأعراف (٧)	٢٩	٢٤
	٣١	٥٣، ٢٤
الأنفال (٨)	٣٤	٢٦
	٣٥	٢٨، ٢٦
التوبة (٩)	٧	٢٦
	١٧، ١٨	٢٣
	١٠٧	٢٤
	١٠٨	٦٥، ٢٤، ٩
	١٠٩	٢٤
إبراهيم (١٤)	٣٧	٢٩

السورة ورقمها	رقم الآية	أرقام الصفحات
الإسراء (١٧)	١ ٧	٢٧ ٢٣
الكهف (١٨)	٢١	٢٣
مريم (١٩)	١١	٨٥
الحج (٢٢)	٣٣ - ٢٥ ٤٠	٢٩، ٢٨، ٢٧ ٢٥
النور (٢٤)	٣٨ - ٣٦	٢٩
سبأ (٣٤)	١٣	٨٥
الطور (٥٢)	٥ - ١	٢٩
الرحمن (٥٥)	٢٢	١٥٧
الجن (٧٢)	١٨	٢٥
العلق (٩٦)	٥ - ١	١٦٦
قريش (١٠٦)	٤ - ١	٢٩

* * *

فهرس الأحاديث الشريفة

(أ)

- ٣٣ أحب البلاد إلى الله مساجدها .
- ٣٣ إذا أردت أن تصلّي في البيت فصلّ في الحجر .
- ٣٤ إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فليركع ركعتين ، وليتجوّز فيها .
- ٣٣ إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلّي ركعتين .
- ٣٣ إذا دخل أحدكم المسجد فليسلّم على النبي .
- ٣٣ أعطوا المساجد حقها .
- ٣٣ أعلنوا النكاح في المسجد .
- ٣٣ أمر رسول الله ﷺ أن تتخذ المساجد في الدّور ، وأن تُطهّر وتُطَيّب .
- ٣٥ أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدّور ، وأن تُنظّف وتُطَيّب .
- ٣٣ أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد .
- ٣٣ إن الجنة تحنّ شوقاً إلى بيت المقدس .
- ٣٣ إن صلاة في مسجدكم هذا تعدل ألف صلاة .
- ٢٣١ إن العزّ معقود بنواصيها (الخيل) إلى يوم القيامة .
- ٢٩٥ إن القبر روضة من رياض الجنة ، أو قطعة من الجحيم .
- ٣٣ إن الله ضمن - لمن كانت المساجد بيته - الأمن .
- ٣٤ إن النبي ﷺ خرج على ناسٍ من أصحابه وهم رقود في المسجد ، فقال : فإن هذا ليس للمرأة بمرقد .
- ٣٥ إن النبي ﷺ نهى أن يضع الرجل إحدى رجله على الأخرى وهو مستلقٍ على ظهره (في المسجد) .
- ٣٤ إنما أمرتم بالطواف ، ولم تؤمروا بدخوله (البيت الحرام - الكعبة) .
- ٣٤ إنما مثل منّي كالرحم ، إذا حملت وسّعها الله .
- ٣٤ إنما المدينة كالكير ، تنفى خبثها .

(ب)

- ٨٤ بعث النبي ﷺ عروة بن مسعود إلى قومه بالطائف ، فأتاهم ، ودخل محراباً له ، فأشرف عليهم عند الفجر ، ثم أذن للصلاة .

(ت)

- تذهب الأرضون كلها يوم القيامة إلا المساجد .
تُفتح أبواب السماء ويستجاب الدعاء في أربعة مواطن : عند التقاء الصفوف ،
ونزول الغيث ، وإقامة الصلاة ، ورؤية الكعبة .

(ج)

- جَنَّبُوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم .

(ح)

- حَرَّمَ رسول الله ﷺ ما بين لابتي المدينة .
حَرَّمَ رسول الله ﷺ المدينة بريداً من نواحيها .
هى رسول الله ﷺ كل ناحية في المدينة .

(خ)

- خصال لا تنبغي في المسجد : لا يُتخذ طريقاً ، ولا يُشهر فيه سلاح ، ولا يُنبض فيه بقوس ، ولا يُشر فيه نبل ، ولا يُمرّ فيه بلحم نئى ، ولا يُضرب فيه حدٌ ، ولا يُقتَصَّ فيه من أحد ، ولا يُتخذ سوقاً .
خيرُ مساجد النساء قعرُ بيوتهن .

(د)

- دخل رسول الله ﷺ الكعبة ، ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها .

(س)

- سبعة يُظللهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه : الإمام العادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل قلبه معلقٌ في المساجد ، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

(ط)

- طَيِّت (عائشة - رضى الله عنها -) رسولَ الله ﷺ لحله حين يريد أن يزور البيت .

(ق)

- القثم بن العباس أشبه الناس بى خُلُقاً وخُلُقاً .
قد ترى ما أقرب بيتي من المسجد ؟ فلأن أُصلّى في بيتي أحبُّ إلى من أن أُصلّى في المسجد ، إلا أن تكون المكتوبة .

(ك)

- كان (رسول الله ﷺ) يتبع غبار المسجد بجريدة .

كان النبي ﷺ يصلي على منبره .

كُنَّ الْمُعْتَكِفَات - إِذَا حَضَرَ - أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِإِخْرَاجِهِنَّ مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَأَنْ يَضْرِبَنَّ الْأَخْيَةَ فِي رَحْبَةِ الْمَسْجِدِ حَتَّى يَطْهَرَنَّ .

(ج)

- ٣٦ لَا أُحِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلَا لَجُنُبٍ .
 ٣٦ لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِى مَسْجِداً .
 ٣٥ لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِى هَذَا ، وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى .
 ٣٦ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ .
 ٣٦ لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ .
 ٣٦ لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ ، وَيُوتِهِنَّ خَيْرٌ لهنَّ .
 ٣٦ لِأَنَّ تَصَلَّى الْمَرْأَةَ فِي مَخْدَعِهَا أَعْظَمُ لِأَجْرِهَا .
 ٣٦ لَتَزْخَرُ قُنُوتُهَا (الْمَسَاجِدِ) كَمَا زَخَرَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى .
 ٦٨ اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ .

(م)

- ٣٦ مَا أَمَرْتُ بِتَشْيِيدِ الْمَسَاجِدِ .
 ٣٧ الْمَسَاجِدُ بِيُوتِ الْمُتَّقِينَ ، فَمَنْ يَكُنِ الْمَسْجِدَ بَيْتَهُ يَضْمَنُ اللَّهُ لَهُ الرُّوحَ وَالرَّحْمَةَ وَالْجَوَازَ عَلَى الصَّرَاطِ إِلَى الْجَنَّةِ .
 ٣٧ مَنْ أَحْدَثَ فِي مَسْجِدِنَا حَدَثًا ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ .
 ٣٥ مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِداً - وَلَوْ كَمَفْحَصِ قِطَاعٍ - بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ .
 ٣٣ مَنْ بَنَى مَسْجِداً يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ .
 ٣٧، ٣٦ مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يُنْشِدُ شِعْراً فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا لَهُ : قَضَى اللَّهُ فَالَكِ (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) ، وَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَنْشُدُ ضَالَةً فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا لَهُ : لَا وَجَدْتَهَا (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) ، وَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا لَهُ : لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ .
 ٣٧ مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نَزْلاً إِذَا غَدَا أَوْ رَاحَ .

(و)

- ٣٣ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً .
 ٣٣، وَضِعَ مَنْبَرِي عَلَى تَرَعَةٍ مِنْ تَرَاعَاتِ الْجَنَّةِ ، وَمَا بَيْنَ بَيْتِي وَمَنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ،
 ٢٩٥ وَمَا بَيْنَ قَبْرِي وَمَنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ قَوَّامِ مَنْبَرِي هَذَا رَوَاتِبُ فِي الْجَنَّةِ .

(ي)

- ٣٤ يَا أَبَا ذَرٍّ ، صَلَّيْتُ ؟ قُلْتُ : لَا . قَالَ : فَقُمْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ .



فهرس الماثورات والأقوال

(أ)

- ٣٤ إذا كان رجل على سفر أو ما أشبهه فلا بأس ، فأما أن تتخذ (المسجد) بيتاً أو مقبلاً ؛ فلا .
- ٢٨٦ أفضل ما يُبذل للضيف الوجه الطلق والقول الجميل .
- ٣٦ أكنّ الناس من المطر ، وإياك أن تحمّر أو تصفر فتفتن الناس .
- ٣٤ أما الغرباء الذين يأتون فيمن يريد الصلاة فإنى أراه (المسجد) واسعاً ، وأما رجل حاضر فلا أرى له ذلك .
- ١٣٣ إن الابتكار في الفن والفكر لا يظل حيّاً إلا إذا ظل الفكر أو الفن متصلاً بحياة الجماهير اتصالاً مباشراً ودائماً ، فإذا انقطع عنها جف ومات .
- ٣٥٤ إن الجمال والإيمان واحد ، ورمزهما واحد ، والله سبحانه وتعالى هو المؤمن يجب المؤمنين ، وهو الجميل يجب الجمال .
- ٦٣ ، ٦٢ إن خطة بناء المسجد ذات شخصية تدعو إلى الدهشة .. وإذا كانت درجة الأصالة في أى طراز معمارى تقاس بالنسبة للأهمية التى تعطى للمساحة التى يشغلها ؛ فإننا ينبغي أن نسلّم بأننا نجد في المسجد استعمالاً إسلاميّاً للمساحة .
- ٦٢ إن الخطة العامة للمساجد تتماشى تماماً مع وضوح العقيدة الإسلامية وبساطة أركانها وخلوها تماماً من الأسرار ومن أى نوع من التعقيد في طقوس العبادات ؛ ويبدو هذا مثيراً للدهشة بصورة أوضح إذا ذكرنا أن قدس الأقداس في معابد مصر القديمة كان يقوم في خدر مظلم لا يدخله إلا الملك وعدد قليل من رجال الدين المختارين ليتأملوا إلههم في جلاله .
- ١٥ إن سماع القرآن في بيت الله مشهد جليل يقتضى من المؤمن سكوناً وخشوعاً وصلاة بالروح دون الجوارح .
- ١٣٤ إن الفكر كالشجرة ؛ لا بد أن تظل متصلة بالأرض - أى : بالزمان والمكان - لكى تظل حية ، فإذا أنت قطعتها فقد فصلتها عن الزمان والمكان ؛ فتبدأ في الجفاف والموت .
- ٦٢ ، ٦١ إن الفن الدينى لا تكون له قيمة تاريخية إلا إذا صدر عن إخلاص ، وعن طريق الإخلاص يخاطب ضمير المؤمن .. إن ديناً جديداً - هو الإسلام - قد أخذ ينمو في مصر ؛ ولا بد أن تتبع ذلك حضارة كاملة ، وينشأ عن ذلك ظهور فن جديد مبتكر تماماً ؛ والعمل الأساسى في ذلك الفن الجديد هو المسجد ..

- ٣٤ إن كنت تنام فيه (في المسجد) للصلاة ؛ فلا بأس .
 ٣٥٤ إن المساجد بيوت الله وتربط الإنسان بالخالق الحى الباقي سبحانه ، فهى مواضع للخلاوة ومجالات للفكر السابح يمضى فى تأملاته معها إلى ما لا نهاية ، وحديثها صلاة صامئة بلا نهاية أيضاً .

(د)

- ٢٩٥ روضة القرافة : روضة إسلام شجرها الإيمان وزهرها التقى وثمرها الخير ، تسبّح فيها الملائكة ليل نهار ، يراها أبناء الدنيا تراباً وحصى ، ويراهم أهل الآخرة - بعين القلب - بساتين ذات خضرة تريح القلب والبصر .

(ش)

- ٥٨ ، ٥٧ الشعر ديوان العرب ، والمساجد ديوان أمم الإسلام .

(ع)

- ٣٥٤ عالم المساجد عالم كله نور وجمال وإيمان ، إنه عالم القلوب ، وعالم العيون التى تحس الجمال .
 ٣٥٠ على الحدود - لا فى داخل البلاد - تُبنى الحصون .

(ف)

- ١٣٤ الفكر المتكلف المصنوع المنمق إنها هو كقطعة أثاث جميلة ، لا تزيد فى جواهرها على قطعة خشب ميتة ، وأفضل منها جذع شجرة صغيرة نابتة فى الأرض غير أنيق ولا مهذب ، ولكنه حى ينمو ويتطور ؛ لأنه متصل بالأرض ، متصل بالزمان والمكان .
 ٢٨٦ فى كل مسجد طعام للصادر والوارد .

(ل)

- ١٣٤ لابد أن يظل الفن على اتصال بالناس ، نابعاً منهم ، آخذاً من حياتهم ، صابئاً فى مجتمعاتهم .
 ٣٤ لا تُتخذ المساجد مرقدأ .
 ٥٤ لا جماعة إسلامية بلا مسجد ، أو بتعبير أدق : لا بقاء للجماعة إسلامية بلا مسجد... ولهذا نبهنا إلى ضرورة إنشاء المساجد على أطراف العالم الإسلامى ، وفى خطوط امتداد الإسلام خارجه .

(م)

- ٤٩ ما يحرق المساجد إلا الجبار العنيد .
 ٥٨ ، ٥٧ المساجد ديوان أمم الإسلام ؛ فمساجد الأمة تعرض جوانب كبيرة من تاريخها .



فهرس المساجد

الحرم القدسي ١٨٢، ١٩٠
قبة الصخرة ٤٣، ٧٥، ٨٨، ٨٩، ٩٨،
١٠٥، ١١٣، ١١٥، ١٤٧، ١٧٥، ١٧٩،
١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٠، ٢٦١، ٣٢٤،
٣٤٠

* * *

المسجد الحرام ١٠، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧،
٣٥، ١٦٥، ١٦٦
المسجد النبوي ٩، ١٠، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٥١،
٥٨، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠،
٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٨٨،
٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٤، ٩٥، ١٠٥، ١١٥،
١١٦، ١١٧، ١٢٤، ١٢٩، ١٣٠، ١٦٥،
١٦٩، ١٧٥، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٨، ١٨٩،
٢١٣، ٢٣١، ٢٩٨، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٤٧،
المسجد الأقصى ٢٣، ٢٧، ٣٥، ٧٥، ٨٩،
١٠٥، ١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٧٥، ١٧٦،
١٧٩، ١٨٢، ١٩٠، ١٩١
المسجد الأزرق ١٠٧
المسجد الأقمر ٨٧، ٢٤٩
المسجد الأموي ٧٥، ٨٩، ١٠٥، ١٠٧،
١١٥، ١١٨، ١٣٨، ١٤٦، ١٧٦، ١٧٩،
١٨٧، ١٩٥، ١٩٧
المسجد الجامع ١٣٨، ٢٠٢، ٢٣٩
المسجد الجامع السلجوقي ٣٠٠
المسجد الجامع العتيق ٣٠٦
المسجد الجامع الكبير ٢٤٠
المسجد السلطاني ٣٠٨
المسجد الشاهاني ٣٠٤

بيت الله الحرام (المسجد الحرام) ١٨٣
البيت الحرام (المسجد الحرام) ٢٦، ٢٧،
٢٨، ٢٩، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٨٠
البيت العتيق (المسجد الحرام) ٢٧، ٢٩
البيت المحرم (المسجد الحرام) ٢٩
البيت المعمور (المسجد الحرام) ٢٩
البيت المكرم (المسجد الحرام) ١٦٨
مقام إبراهيم (المسجد الحرام) ٢٣، ٢٧
الحرم المكي ٩٢، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧،
١٦٨، ١٦٩، ١٧٨، ١٨٣، ٣٣٠
الكعبة المشرفة ٢٨، ٣٤، ٣٥، ٨٠، ٨٣،
٨٩، ٩٠، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٨٢،
١٨٣، ٢٨٩
الحجر الأسود (في الكعبة المشرفة) ١٦٨،
١٨٢
الميزاب (في الكعبة المشرفة) ١٦٨
الشاذروان (قاعدة الكعبة المشرفة) ١٦٨
الحِجْر (في الحرم المكي) ٣٣
ممرات المسعى (في الحرم المكي) ١٦٩
الحرم المدني (الحرم النبوي) (المسجد
النبوي) ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١،
١٧٥، ١٧٨
القبة الخضراء (في المسجد النبوي) ١٧٠
باب الرحمة (من أبواب المسجد النبوي)
٦٨
باب السلام (من أبواب المسجد النبوي)
١٦٩
بيت المقدس ٣٣، ٦٨، ٨٠، ٨٣، ٨٩،
١١٥، ١١٨

مسجد العتيق ١٨١
 المسجد العثماني ١١٣، ١٤٢
 المسجد الفاطمي ١٢٧
 المسجد المرابطي الكبير ٢٣٦، ٢٣٩
 المسجد المملوكي ١٢٧
 المسجد الوردي ١٧٠
 المسجد والمركز الإسلامي في باريس ٣٤٣
 مسجد الأبواب الثلاثة ١١٦
 مسجد أجرا الجامع ٢٩٢
 مسجد أحمد آباد ٢٩١
 مسجد أحمد بن طولون ١٠، ٩٠، ١٠٦،
 ١٢٢، ٢٥٢، ٢٥٣
 مسجد أحمد يحيى باشا ٣٢٩
 مسجد إريقان ٣٠٥
 مسجد إسلام آباد ٣٣٣
 مسجد الإسلام الأول (غار حراء) ١٦٥،
 ١٦٦
 مسجد إشبيلية الجامع ١١١، ١٤٣، ٢١٩،
 ٢٢٤، ٢٤٦
 مسجد الأشياخ ١٩٢، ١٩٥
 مسجد أصفهان الجامع ١٠٦، ٢٩٩، ٣٠٠،
 ٣٠١
 مسجد أغادير ٢٣٦
 مسجد الإمام الشافعي ٩٠، ٢٥٥
 مسجد أولاد عنان (الفتح) ٣٢٩، ٣٣٠
 مسجد «أولو جامع» ١٠٦، ١١١
 مسجد أيا صوفيا ٢٤٢
 مسجد إيلياء ٩٠
 مسجد الباب المردوم ٣٤٥
 مسجد باريس الجامع ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣،
 ٣٤٦

مسجد باسيلي ٣٢٩
 مسجد برلين ٣٤٥
 مسجد بروسة ١١١
 مسجد بريشينو ٣٤٣
 مسجد البصرة ٧٤، ٨٩، ١٠٥، ١١٨،
 ١٧٥، ١٨٠
 مسجد بغداد ١٠٦
 مسجد أبي بكر (رضي الله عنه) ١٧١
 مسجد بيشابور الجامع ١١٠
 مسجد تازا ٢٤٠
 مسجد التقوى ٢٤
 مسجد تلمسان الجامع ٢٣٦، ٢٣٩
 مسجد تيمور لنك الجامع ١٠٧
 مسجد جاوونور ٢٩١
 مسجد الجزائر الجامع ٢٠٢
 مسجد الجعفرية ٩٨
 مسجد الجمعة ٢٩٩
 مسجد جنيف ٣٤٥
 مسجد جوهر شاه ١٠٧
 مسجد الحاكم بأمر الله ٢٥٣
 مسجد حران الكبير ١١٥
 مسجد حسان ٢١٩، ٢٢٤
 مسجد الحسين ١٣٢
 مسجد حلب ١٧٦
 مسجد الخضر ٢٨٥
 مسجد أبي دلف ١٠٦، ١١٦
 مسجد دلهي الجامع ١١٠، ٢٩٢، ٢٩٣
 مسجد الرفاعي ٢٦٣، ٣٢٤، ٣٤٨
 مسجد الرقة الكبير ١١٥، ١١٨
 مسجد رمضان شحاتة ٣٢٩
 مسجد الزمالك ٣١٨، ٣٢٨

مسجد الزيتونة ٩٢، ٢٠٢
 مسجد سامرا الجامع ١٠٦، ١١٦، ١١٨،
 ١٢٢، ١٢٧، ١٣٢، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤،
 ٢٥٣، ٢٥٥
 مسجد الست صفية ٣٢١، ٣٢٢
 مسجد ستي مريم ٢٤١
 مسجد السلطان (في بغداد) ١٠٦
 مسجد السلطان الأشرف قانصوه الغوري
 ٢٦٣
 مسجد السلطان بايزيد ١١٣، ١٣٤
 مسجد السلطان برقوق ٢٥٠، ٢٦٠
 مسجد السلطان حسن ٤٢، ٢٥٠، ٢٦٢،
 ٢٦٣
 مسجد السلطان قايتباي ٢٥٠، ٢٥٦
 مسجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون
 ٢٦٢
 مسجد بني سلمة ٨٠
 مسجد سليمان شيخ ٣٢٩
 مسجد السليمانية ٤٢
 مسجد السليمية ١١٤
 مسجد سوسة الجامع ٩٣، ١١٦، ١١٩،
 ١٢٧، ١٧٥، ٢٠١
 مسجد سوق الغزال (في قسنطينة) ٢٤٣
 مسجد السيد إبراهيم الدسوقي ٣٢٢
 مسجد السيد أحمد البدوي ٣٢٢
 مسجد السيدة (في الجزائر) ٢٤١
 مسجد سيدي جابر الجديد ٣٢٩
 مسجد سيدي أبي الحسن ٢٣٦
 مسجد سيدي الحلوي ٢٣٨
 مسجد سيدي رابي ٢٤١
 مسجد سيدي رمضان ٢٤٠
 مسجد سيدي عقبة ٢٣٠

مسجد سيواس ١٠٦
 مسجد الشاه ٣٠٣
 مسجد شاه جاهان الكبير ٢٩٢، ٢٩٣
 مسجد شاه زادة ١١٤
 مسجد شهرباق ٣٠٤
 مسجد الشيخ لطف الله ٣٠٤
 مسجد شيراز الجامع ٣٠٦، ٣٠٧
 مسجد الصالح طلائع بن رزيك ٢٥٤
 مسجد صلاح باي ٢٤٢
 مسجد صلاح الدين ٣١٨، ٣٢٩
 مسجد الضرار ٢٤
 مسجد الظاهر بيرس ١٠٧، ٢٦٠
 مسجد أبي العباس المرسى ٣١٨، ٣٢٤،
 ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٤٧
 مسجد عبد الرحمن لطفى ٣٢٨
 مسجد عبد الرحيم القنائي ٣٢٢، ٣٢٨،
 ٣٢٩
 مسجد عثمان (رضي الله عنه) ١٧١
 مسجد عقبة بن نافع ٤٣، ٨٤، ٩٠، ١٠٥،
 ١٠٧، ١١٥، ١١٦، ١٤٨، ١٧٥، ١٧٧،
 ١٧٩، ١٩٦، ٢١٩، ٢٣٠، ٢٣٢
 مسجد علي (رضي الله عنه) ١٧١
 مسجد عمر (رضي الله عنه) ١١٨، ١٧١،
 ١٩٠
 مسجد عمر مكرم ٣١٨، ٣٢٦
 مسجد عمرو بن العاص ٨٩، ١٠٥، ١٥٠،
 ١٥٣، ١٧٥، ١٧٧، ١٨٠، ٢٤٩، ٢٥٢
 مسجد غرناطة الجامع ٢٤٦، ٣٤٥
 مسجد فاتح بور سيكري ٢٩٣
 مسجد فاس ١٤٣
 مسجد الفتح (أولاد عنان) ٣٢٩، ٣٣٠
 مسجد الفسطاط ٧٤

مسجد الفولى ٣٢٨
 مسجد قبالان ١٠٧
 مسجد قباء ٩، ٥١، ٦٤، ٦٥، ٨٩، ١٧١
 مسجد القيلتين ٨٠، ٨١
 مسجد قرطبة الجامع ٤٢، ٤٣، ٥٨، ٨٤،
 ٨٧، ٩٠، ٩٢، ٩٦، ٩٧، ١١٣، ١١٤،
 ١١٥، ١١٩، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٤، ١٤٣،
 ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٧٥،
 ١٧٦، ١٧٩، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٠، ٢١٥،
 ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٤،
 ٢٤٥، ٢٤٧، ٣٠٥
 مسجد القرويين ١٤٣، ١٧٥، ١٧٧، ٢١٩
 مسجد قرية تماسين ٢٣٢
 مسجد قصبة الجامع ٢٢٥
 مسجد قصبة المرية ٢٤٦
 مسجد القطب منار ٤٢، ٢٩٢
 مسجد قلعة بنى حماد ٢٣٧
 مسجد قونية ١٠٦
 مسجد قوة الإسلام ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٦
 مسجد القيروان الجامع ٩٠، ١٠٦، ١١٥،
 ١١٦، ١١٨، ١٢٧، ١٢٨، ١٨٤
 مسجد الكاظمين ١٠٩
 مسجد كانو ٢٣٤
 مسجد الكتبية ٤٢، ٩٣، ٢١٩
 مسجد كشاوة ٢٤٢
 مسجد الكوفة ٧٤، ٨٩، ٩٠، ١٠٥،
 ١١٨، ١٧٥، ١٨٠
 مسجد لاهور الجامع ١١٠، ٢٩٢
 مسجد لندن ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢،
 ٣٤٦، ٣٥٢
 مسجد اللؤلؤة ٢٩٢
 مسجد محطة الرمل ٣١٨، ٣٢٥، ٣٢٦

مسجد محمد على ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٦
 مسجد محمد كريم ٣١٨، ٣٢٧، ٣٢٨
 مسجد محيى الدين بن عربى ٣٢٤
 مسجد أبى مدين ٢٣٧
 مسجد مدينة عانى ١٠٦
 مسجد المرمر (= مسجد محمد على)
 مسجد المنصورة الجامع ٢٣٧
 مسجد المؤيد ٢١٠
 مسجد موتى (جامع معطى) ٢٩٢
 مسجد ميونخ ٣٤٥
 مسجد الناصر ١٠٧
 مسجد ندرومة الكبير ٢٣٩
 مسجد نور الدين ١٠٦
 مسجد واسط ١٠٦
 مسجد واشنطون الجامع ٣٤٦، ٣٤٧،
 ٣٤٨، ٣٤٩
 مسجد الوكيل ٣٠٨
 مسجد شاه ١٠٧، ١٠٩
 مسجدى شاه ٤٢، ٣٠٢، ٣٠٤
 المساجد الإسلامية الأولى ١١٥، ١٧٢
 المساجد الاستوائية ٩٨
 المساجد الإفريقية ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧
 المساجد الألفية ٢١٠، ٢١٩، ٢٤٤، ٢٥٢
 المساجد الألمانية ١١، ٣٤٤، ٣٤٥
 المساجد الأمريكية ١١، ٣٣٨، ٣٤٦،
 ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩
 المساجد الإنجليزية ١١
 المساجد الأندلسية ١١٦، ٢٤٧
 المساجد الأوربية ٣١٤، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠،
 ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥
 المساجد الإيرانية ١٤٢، ١٥٣، ٢٢٩،
 ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٨، ٣١١

المساجد الملكية ١٣١
 المساجد المملوكية ٤٢، ١٢٢، ١٣٢، ١٤٨،
 ١٥٣، ٢٠٤، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦٣، ٣١١،
 المساجد الهندية ٢٢٩، ٢٥١، ٢٩٢، ٢٩٣،
 ٢٩٤، ٣٠٠
 مساجد آذربيجان ٢٧٢
 مساجد الآستانة ٣٢١
 مساجد الإيباضية ٢٣٣، ٢٤٣
 مساجد أستراليا ٣٣٨
 مساجد أصفهان ٢٧٨، ٣٠٨
 مساجد إفريقية الاستوائية ٣٣٥، ٣٣٦،
 ٣٣٧
 مساجد إفريقية المدارية ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧
 مساجد الأقليات الإسلامية ٣٥٣
 مساجد الأناضول ٢٧٢
 مساجد الأولياء ٣٢٢
 مساجد بخارى ٢٧٢
 مساجد البصرة ١١٦
 مساجد تنزانيا ٣٣٦
 مساجد الجزيرة ٢٧٢
 مساجد الحزام الصحراوي ٢٣٣
 مساجد الرباط ٢٤٣
 مساجد زامبيا ٣٣٦
 مساجد سمرقند ٢٧٢، ٢٨٥
 مساجد السنغال ٣٣٦
 مساجد شارع المعز ٣٢٧
 مساجد الشام ١٣٩
 مساجد الشام السلجوقية ١٠٦
 مساجد الشرق العربي ١١٦
 مساجد طشقند ٢٧٢
 مساجد طهران ٣٠٨
 مساجد بني عبد الواد ٢٣٥

المساجد الإيرانية الحديثة ٣٣٢، ٣٣٣
 المساجد التركية ١٣٢، ١٥٣، ٢٢٩، ٣٢٠
 المساجد الجامعة ١٥٣، ١٩٣، ٢٩١، ٢٩٩،
 ٣٣٩، ٣٤١
 المساجد الجامعة الأولى ١١٥، ١١٦
 المساجد الجامعة الضخمة ١٢٩
 المساجد الجامعة الكبرى ٣٣٦
 المساجد الجامعات ٢٩٢
 المساجد الجزائرية ٢١٤، ٢٣١، ٢٤٠،
 ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣
 المساجد الحديثة ٣٣٣
 المساجد السلطانية ٣٥١
 المساجد السلطانية الكبرى ١٥٥
 المساجد السلجوقية ١٠٦
 المساجد الشعبية الصغيرة ٢٢٦
 المساجد الصفوية ١٠٨، ١٢٤، ٢٧٢،
 ٣٠٢، ٣٠٥
 المساجد الضخمة المتعددة الطبقات ١٢٤
 المساجد العتيقة ٢٠١، ٢١٠، ٢١٩، ٢٥٢،
 ٣٠٦، ٣٠٧
 المساجد العثمانية ١١٢، ٣٠٠
 المساجد الفاطمية ١٢٢، ٢٤٩، ٢٥٢،
 ٢٥٣، ٢٥٥
 المساجد الفرنسية ١١
 المساجد المرابطة ٢٣٤، ٢٣٥
 المساجد المصرية ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٥٠،
 ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٣، ٣١١، ٣١٩،
 ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٣١
 المساجد المغربية ١١٦، ٢١٨، ٢٢٩، ٢٣١،
 ٢٣٤، ٢٤٠، ٢٥٣
 المساجد المغربية العتيقة ٢٣٢
 المساجد المغولية ١٠٩

جامع باب مردوم ٢٤٥
 جامع بالس ١٠٦
 جامع البصرة ١٣٧
 جامع بوفاته ١١٦
 جامع تلمسان ٢٢٠، ٢٣٤
 جامع تينملل ٢٢١، ٢٢٣
 جامع جوك ٢٧٦، ٢٧٧
 جامع الجيوشي ٢٥٤
 جامع الحاكم بأمر الله ١٠٦، ٢٥٤
 جامع حسن ١١١، ٢٣٧
 جامع حلب القديم ١٣٩
 جامع الحمراء ٢٤٧
 جامع الحوآتين ٢٤١
 جامع أبي دلف ١٢٠
 جامع دمشق ٩٩
 جامع رايشيل ١١٢
 جامع السلطان أكبر ١١٠
 جامع السلطان برقوق ١٠٧، ١٢٧
 جامع السلطان حسن ١٠٧، ٢٥٩
 جامع السلطان حسين (مادري شاه) ١٠٩، ٣٠٦
 جامع السلطان الغوري ١٠٧
 جامع السلطان قلاوون ١٠٧، ٢٥٩، ٢٧٦
 جامع السلطان المؤيد شيخ ١٠٧، ٢٦٢
 جامع السليمانية ١١٤
 جامع سوق الغزل (في بغداد) ١٠٦
 جامع سيدى عقبة ٢٣١
 جامع الشرفاء ١٩٣
 جامع الشيخ صفى الدين ١٠٩
 جامع الشيخ لطف الله ٣٠٤
 جامع الصالح طلائع بن رزيك ١٠٦، ٢٥٠، ١٢٢

مساجد العصر الأموى ١١٦
 مساجد الغرب الإسلامى ٩٠، ١٥٥،
 ١٨٧، ١٨٦
 مساجد غزنة ٢٧٢
 مساجد غينيا ٣٣٦
 مساجد غينيا البرتغالية ٣٣٦
 مساجد فاس ٢٤٣
 مساجد القسوط ١١٦، ١١٨
 مساجد القاهرة ٤٢، ١١٦، ٢٦٢
 مساجد قرية سؤف ٢٣٣
 مساجد كرمان ٣٠٨
 مساجد الكوفة ١١٦
 مساجد ماليزيا ٣٣٣
 مساجد مراکش ٢٤٣
 مساجد مشهد ٣٠٨
 مساجد المغرب الأقصى ١٤٣
 مساجد المغرب الأوسط ١٤٣
 مساجد المغرب الأولى ٢٥٣
 مساجد الموحدين ١٠٨
 مساجد موزمبيق ٣٣٦
 مساجد نيجيريا ٣٣٦
 مساجد يوغوسلافيا ٣٤٣
 * * *
 جامع إبراهيم الفاتح ٣٢٨
 جامع أحمد بن طولون ٤٢، ٩٢، ٩٦، ١١٦،
 ١١٨، ١٤٨، ١٧٦، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥،
 ٢١٤، ٢٤٩، ٢٥٠
 جامع الأشراف ١٩٣
 جامع الأشياخ ١٩٣
 جامع إنجي ٢٧٣، ٢٧٦
 جامع الأندلس ١٩٥
 جامع أولو (أولو جامع) ٢٧٤

جامع عتيق على باشا ١١٢

جامع ابن عديس ٢٤٦

جامع عقبة بن نافع ٥٨، ٧٥، ١٢٧، ١٢٨،
١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٥٠، ١٨٤، ٢١٤،

٢٤٤

جامع على بنشين ٢٤١

جامع عمر مكرم ٣٢٨

جامع عمرو بن العاص ٥٨، ٩٠، ٩٣،
٩٤، ١١٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٧٥، ١٧٨،

١٨١، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢١٤، ٣١٨، ٣١٩،

جامع فاتح بور سيكري ١١٠، ٢٩١، ٢٩٢،

جامع فاس ١٩٣

جامع فاس الأول ١٩٢

جامع قايتباي ١٠٧

جامع قايد بك ١٤٨

جامع قرطبة ١٩٨، ٢٠١،

جامع القرويين ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥،

جامع قصير الخلاصات ١١٥

جامع قطب الدين ١٠٦

جامع القيروان ١١٩، ١٤٨، ١٨٦، ١٩٥،

جامع القيروان الأول ١١٦

جامع الكاظمين ١٣٢

جامع الكتبية ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦،

جامع كرمان ٣٠٤

جامع اللؤلؤة (موتى - مسجد) ١١٠

جامع محمد على ١٤٢، ٣٤٨،

جامع المحمدية ١١٢، ١١٣، ١١٤،

جامع المنصور ٢٢٥

جامع بنى وليدى ١١٤

الجامع الأحمر ١٠٦، ١٢٢،

الجامع الأزهر ٥٨، ١٠٦، ١٣٢، ١٧٥،

١٧٦، ١٧٧، ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٥،

٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٥٠،

٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٨٤، ٣٥١،

الجامع الأصفر (كيوك جامع) ١٠٩

الجامع الأقمر ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٥،

الجامع الأموى ٤٣، ٨٨، ٩٩، ١١٣،

١٢٨، ١٣٢، ١٣٩، ١٥٤، ١٧٥، ١٧٨،

١٨٨، ٢٠٤،

الجامع العتيق ١٧٥، ٣٠٦، ٣٠٧،

الجامع المرباطى ٢٢٠

* * *

الزوايا ١٠١، ٢٢٩، ٢٤٣، ٣٣٦،

زاوية بنى خالد ٢٣٢

مصلّى الجنائز ١٠٠

مصلّى الربض ١٠٠

مصلّى قرطبة ١٠٠

المصلّى الصغير ١٨٨، ٢٩٠،

المصلّى الكبير ١٢٥

المصلّيات ١٠٠، ١٨٧، ٢٥٩، ٢٩٤، ٣٤٦،

مصلّيات الجنائز ١٠١

المصلّيات الصغيرة ١٠٨، ١٠٩، ١٢٥،

٢٩٠، ٣٣٦،

مصلّيات صغيرة (ألاء علائى دروازة) ٢٩٠

* * *

فهرس المنشآت المعمارية

(أ)

الآثار الإسلامية ٣٠١
الآثار المعمارية الصفوية ٣٠٤
الآثار المعمارية الموحّدية ٢٢٣
الأبراج ٢٥٣
الأربطة ١٥٠، ٢٨٢
الأسبلة ١١٤، ٢٥٩، ٢٦٠
الأسقفيات ١٢٥
الأضرحة ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٥٤،
٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٧، ٢٨٥، ٢٩٠،
٢٩٥، ٣٠٦

(ب)

باب البريد ١٨٩
باب الجوهريّة ٢٠٦
باب جيرون ١٨٩
باب زويلة ٢٥٤، ٢٦٢
باب سلم (روضة) ٢٩٥
باب الصعايدة ٢١٠
باب الفتوح ٢٥٥
باب المزيّنين ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٠
باب الشّاعين ١٩٤
باب الفخّارين ١٩٤
برج بابل ١٢٢، ١٢٧، ٢٠٣
برج الخيرالدا ١١١
برج الدوّارة ٢١٩
برج النواقيس ١٤٣، ١٩٧، ٢٢٥، ٢٣٢، ٢٤٦
برسو بوليس (مدينة الفرس) ٣٠١
البواذك المغربية ٢٣٨

بوابات علاء الدين ٢٩٠

بوابات القاهرة ٢٥٤

البيع اليهودية ٦٤، ٨١

البيارسنان ٢٦١

البيوت العربية الشامية ٢٧٧

(ت)

التاج محل (= روضة التاج محل = روضة
ممتاز محل = دار التاج)

(ج)

الجوسق الخاقاني ١١٦، ٢٠٣

(ح)

الحصون ١٢٧، ١٢٨، ٢٥٣، ٢٩٦، ٢٩٩
الحصون البربرية ١٢٧
حمام السرح ١١٥
حمامات تيتس ١٥٩
الحمامات العامة ١٥٦
الحمراء (= قصور الحمراء)

(خ)

الخانقاوات ١١٧، ١٢٠
الخيرالدا (مئذنة - منارة - برج) ١١١،
١٤٣، ٢١٩، ٢٢٥

(د)

دار التاج (= روضة التاج محل = روضة ممتاز
محل = التاج محل)
دور سامرا ١١٦

(د)

رباط تازا ٢٢٣

رباط سوسة ١١٥

الرُّبُط ٢٢٩

رواق الأكراد ٢٠٧

رواق البحاروة ٢٠٧

رواق البرنية ٢٠٧

رواق البغداديين ٢٠٧

رواق الجاوية ٢٠٧

رواق الجبرية ٢٠٧

رواق الحنابلة ٢٠٧

رواق الحنفية ٢٠٧

رواق السَّارِية ٢٠٧

رواق الشارقة ٢٠٧

رواق الشفوانية ٢٠٧

رواق الشوام ٢٠٧

رواق الصعايدة ٢٠٧

رواق الفيومية ٢٠٧

رواق الهنود ٢٠٧

رواق اليمينية ٢٠٧

الرواق العباسي ٢٠٧

الروضات ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ،

٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،

٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣١٥ ،

٣٢٤ ، ٣٣١

الروضات التركية ٢٩٥

الروضات الهندية ٢٩٥ ، ٢٩٦

روضة الإمام على الرضا ١٠٧ ، ٣٠٧

روضة باب سلم ٢٩٥

روضة التاج محل (روضة ممتاز محل - دار
التاج) ١١٠ ، ١٢٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
٢٩٨

روضة أبي الحسن ٢٣٨

روضة سراج الملوك ٣٠٧

روضة السلطان اعتماد الدولة ١١٠

روضة السلطان أكبر ١١٠ ، ٢٩٧

روضة السلطان إيلتوتيش (علاء الدين)

٢٩٦ ، ٢٩٠

روضة السلطان حسن ٢٦٣

روضة السلطان قايتباي ٢٥٦

روضة السلطان قلاوون ١٠٧ ، ٢٦١

روضة السلطان همايون ٢٩٧

روضة السيدة فاطمة الزهراء (رضى الله

عنها) ١٧٠

روضة الشاه ١٠٨

روضة شاهي سراج ٣٠٧

الروضة الشريفة (قبر الرسول ﷺ) ٣٦ ،

١٧٠

روضة الشيخ إمام زادة ١٠٨

روضة شير - شاه ١١٠

روضة الصالحين ٢٩٥

روضة عقبة ٢٣٠

روضة غياث الدين طغلق ٢٩٦

روضة القرافة ٢٩٥

روضة محمود عادل شاه ١١٠

روضة أبي مدين ٢٣٧

روضة بنى مرين ٢٩٥

روضة الملك محمد الخامس ٣١٥

روضة أبي منصور إسماعيل بن ثعلب ٢٥٥

روضة المهدي ٢٩٥

رياض بنى مروان ٢٩٥

(س)

سبيل أم عباس ٢٦٠
سراج الملوك (روضة) ٣٠٧
سقايات شقوية ١٢٨، ١٩٧
سور الصين ٤١

(ش)

شاه جاهان آباد (مدينة ملكية) ٢٩٤

(ص)

صهريج الرملة ١١٥

(ض)

ضريح الإمام البخاري ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢
ضريح الإمام الشافعي ٢٥٩
ضريح أولجايتو خدابنده ٢٧٥، ٢٧٦
ضريح تيمور (جور أمير) ٢٧٧
ضريح جوجوق بيكا ٢٧٨
ضريح السلطان برقوق ٢٦٠
ضريح السلطان المؤيد شيخ ٢٦٢
ضريح سليم شيستي ٢٩٢
ضريح أبي العباس المرسى ٣٢٤
ضريح القثم بن العباس ٢٨٣، ٢٨٤

(ط)

طغلق آباد (قلعة علاء الدين) ٢٩٦

(ع)

عالي قبو (قصر الشاه عباس) ٣٠٤
العقد الإيراني ١٤٥
عقود الأزهر ٢١٠
العقود الأندلسية ٣٤٢

العقود الرومانية ١٤٦

العقود العثمانية ١٤٨

العقود القوطية ١٤٧، ٢٤٧

عقود المسجد الأموي ١٤٦

عقود مسجد قرطبة الجامع ١٤٨

العماير الإسلامية ١٢١، ١٤٧

عماير الحديد والأسمنت المسلح ١٥١

العماير الدينية الفرنسية ٣٣٢

العماير السلجوقية ٢٩٩

عماير شيراز ٣٠٨

العماير المسيحية ٢٤٧

العمود التذكاري ٣٤١

(ف)

فندق سان ستيفان ٣٢٩

(ق)

القباب السلجوقية ٢٥١

القباب المملوكية ٣٢٩

القباب الهندية ٢٥١

القبة العثمانية ٢٤١

القبة المصرية ٢٥١

القبة المغربية ٢٤٣

قبة النسر ١٨٩

قبر تيمور لنگ ٢٨٣، ٢٨٥

قبر حضرة خاجاه عبيد الله أحرار ٢٨٥

القرافة ٢٥٩

القرى البربرية ١٨٧

القرى البربرية الجبلية ٢٣٢

قصر أخضر ١١٥، ١٤٠

قصر إشبيلية ١٥٥، ٢٤٧، ٢٧٨

قصر الأمير محمد على ٣٢٩

قصر بلكوارا ٢٠٣

قصر الحير الشرقى ١١٥ ، ١٤٠

قصر رأس التين ٣٢٧

قصر الطوبى ١١٥

قصر عطشان ١١٥

قصر المشتى ١١٥

قصر المنصور ١١٥

قصر المنية ١١٥

القصور ١٢٧ ، ١٣٣ ، ٢٢٨ ، ٢٦١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩

قصور الآستانة ١٧٠

القصور البربرية القديمة ٢٣٢

قصور البنستير ٢٢٨

قصور تونس ٢٢٨

قصور الحمراء ١٠٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٢٧٨ ، ٣٤٢ ، ٣٢٩

القصور السلطانية ٣٢٢

قصور سوسة ٢٢٨

قصور العبّاد ٢٢٨

القصور المغربية ١٢٧ ، ١٨٧

القصور الملكية ٣٢٣

قصير عمره (قصر) ١١٥

قطب منار (مئذنة - منارة) ١٠٦ ، ١٤١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣١١

القلعة (قلعة الجبل) ١٠٧ ، ١٤٢ ، ٢٦٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦

قلعة بنى حمّاد ٢٣٧

قلعة المنصورة ٢٣٧

(ك)

الكاتدرائية ١٢٥ ، ١٨٧ ، ١٩٩ ، ٢٢٥ ، ٣٤٥

كاتدرائية إشبيلية ٢١٩

كاتدرائية «سيدتنا مولاة الانتصارات» ٢٤١

الكاثار (= قصر إشبيلية)

الكرنك (مجموعة معمارية) ١٤٩

الكنائس ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٧١ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٤٣

الكنائس الأمريكية ٣٤٧

الكنائس الأوروبية ١٢٦

الكنائس الأولى ٨١ ، ٨٢ ، ١٢٥

الكنائس الحديثة ١٢٦

كنائس عصر النهضة ١٣٤

الكنائس القبطية المصرية ٨٨

الكنائس الكبرى ١٢٦ ، ١٣٤

الكنائس المدجّنة ٢٤٧

الكنيسة ٣٤٤

كنيسة أيا صوفيا ١١٢

كنيسة برازيليا ٣٤٤

كنيسة الدوم ٤٢

كنيسة روما ١٢٥

كنيسة سان خوسيه ٢٤٦

كنيسة السلفادور ٢٤٦

كنيسة سماركو ٢٤٦

الكنيسة الفرنسية ٢٤٢

كنيسة القديس بطرس ٤٢

كنيسة القديس دومنيكو ١٥٩

كنيسة القديس فرنسيس ١٥٩

كنيسة القديس ميخائيل ١٥٩

كنيسة القديس يوحنا ١٨٧ ، ١٨٨

الكنيسة الكاثوليكية ١٢٥

كنيسة كانتربري ٤٢

الكنيسة المحلية ١٢٥

كنيسة مسيح النور (أو مسيح الأنوار)
٢٤٥، ٣٤٥
كنيسة النوتردام ٤٢

(م)

المآذن الأندلسية ٢٣٦، ٢٣٧
مآذن إندونيسيا ١٤٢
المآذن التركية ١٤٢، ٢٧٧
مآذن الجامع الأزهر ١٤٢، ٢١٠
مآذن الجامع الأموي ١٨٩
مآذن جامع محمد علي ١٤٢
مآذن الشام ١٤١
المآذن العثمانية ١٤٢، ٢٧٧، ٣٢٢
مآذن العراق ١٤٠، ١٤١
مآذن الغرب الإسلامي ١٤٢، ١٤٣
المآذن الفاطمية ١٤٠
مآذن ماليزيا ١٤٢
مآذن المساجد الأولى ١٣٨
مآذن مصر ١٤٠
المآذن المغربية ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٦١
المآذن المملوكية ١٤٠
المآذن الهندية ١٤١
المآذن التركية ٣٤٤
مآذن جامع إبراهيم الفاتح ٣٢٨
مآذن جامع بالس ١٠٦
مآذن جامع سوق الغزل ١٠٦
مآذن جامع عقبة ١٣٩
مآذن جامع الكتبية ٢٢٤
مآذن جامع المنصور ٢٢٥
مآذن الخليفة (في المسجد الحرام) ١٦٧
مآذن الطابية ١٤٠
المآذن العثمانية ١١٣

مآذن الغوري ٢١٠
مآذن قايتباي ٢١٠
مآذن قطب منار ١٠٦، ١٤١، ٢٨٩
٢٩٠، ٢٩٦، ٣١١
مآذن مسجد إشبيلية الجامع ١٤٣، ٢٢٥
٢٢٦
مآذن مسجد حسان ٢٢٥
مآذن مسجد سامراء ١٢٧
مآذن مسجد أبي العباس المرسى ٣٢٥
٣٢٦
مآذن مسجد فاس ١٤٣
مآذن مسجد قرطبة الجامع ١٤٣
مآذن مسجد القرويين ١٤٣
مآذن مسجد القصبة الجامع ٢٢٥، ٢٢٦
مآذن مسجد محطة الرمل ٣٢٧
مآذن مسجد محمد كريم ٣٢٨
مآذن المشهد البحري ١٤٠
المآذن المصرية ١٤١، ٢٥١، ٣٣١
المآذن المغربية ١٢٧
مآذن عبد الرحمن كتنخدا ٢١٠
المارستان ١٢٠، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٧٤
٢٧٥
مارستان السلطان قلاوون ١٠٧
المارستان النوري ٢٧٥
المباني الأوربية ١٥١، ١٥٢
المباني السلجوقية ٢٦٩
المباني النُصبيّة ٢٤٩
المبنى الجنائزي التذكاري ٢٩٥
مبنى منظمة الأمم المتحدة ٣١٢
مبنى منظمة اليونسكو ٣١٢
المتاحف ٢٤٠
محارب بنى إسرائيل ٨٤
المحارب الإيرانية ٣٠٠

مقبرة عبدى بيرون وعبدى درون ٢٨٦
 مقياس الروضة ١١٦
 ممتاز محل (= روضة التاج محل = دار التاج)
 منارة الإسكندرية ٣٢٨
 منارة إنجي ٢٧٦
 منارة قصر الخير الشرقى ١٣٩ ، ١٤٠
 منارة القطب (= مئذنة قطب الدين أبيك)
 منارة مجضة ١٤٠
 المنبر القرطبي ٩٢
 المنشآت المعمارية ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧
 المنشآت المعمارية الإسبانية القديمة ١٢٨
 المنشآت المعمارية الإسلامية ٣٥٢
 المنشآت المعمارية الإيرانية ١٢٧ ، ٣٠٥
 المنشآت المعمارية العثمانية ١١٢ ، ٣٢٤
 المنشآت المعمارية الفاطمية ٢٥٢
 المنشآت المعمارية المغولية الإسلامية ١٢٣
 المنشآت المعمارية الهندية ١٢٧
 مواجل الأغالبة ١١٦

(ه)

هرم سقارة المدرج ١٥١

(و)

واجهة الملك عبد العزيز (فى المسجد النبوى)
 ١٧٠ ، ١٧١

محاريب غمدان ٨٤
 محاريب مسجد اللؤلؤة ٢١٠
 محراب جامع قرطبة ١١٣ ، ١١٤
 محراب الدردير ٢١٠
 محراب عقبة بن نافع ١٨٥
 محراب مسجد قرطبة الجامع ٣٠٥
 محراب مسجدى جامع ٣٠٤ ، ٣٠٥
 المدن الجنائزية ٢٧٧
 المزارات الشيعية ١٠٩ ، ٣٠٧ ، ٣٢٣
 مزارات المغرب ٢٣٧
 المسافر خانة ٢٦٣
 مستشفى الرحمة ٣٤٢
 المسلة المصرية ٢٢٥ ، ٢٥١
 المشهد ٢٥٤
 معابد الأزتيك ٦٤
 معابد الإنكا ٦٤
 المعابد البوذية ٦٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٢٠
 المعابد الرومانية القديمة ١٨٧
 المعابد المصرية القديمة ٢٢٤
 معابد النار المعجوسية ٢٩٩
 المعابد الهندوكية ٢٨٩ ، ٢٩٣
 المعابد الهندية ٢٩١
 معبد جوبتر ١٨٨
 مقابر الخلفاء ٢٥٦ ، ٢٦٠
 مقاصد الاعتراف (فى الكنائس) ١٢٥



فهرس الطرز المعمارية

(أ)

الطرز الإسباني المغربي ٢٤٤، ٢١٩

طرز الأضرحة المساجدية ٢٥٩

الطرز الإغريقي ٣٤٠، ٣٤٧

الطرز الأموي ١٠٥، ١٣٢

الطرز الأندلسي ١٣٢، ٢١٤، ٢٣٤،

٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٤، ٢٦٩

طرز أيا صوفيا ١١٣، ١١٤

الطرز الإيراني ٣٤٤

الطرز الإيراني الصفوي ١٠٨، ٢١٤،

٢١٥، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٩٩، ٣٠٥

الطرز الإيراني المغولي ١٠٦

الطرز الإيرانية ١٠٦، ١٠٨، ١١١، ١٢٤،

١٥٥، ٢١٤، ٢١٥، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٣،

٢٩٩، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣٤٤

(ب)

طرز الباروك ١٢٦، ٢١٣، ٣٢١

(ت)

الطرز التركي ٨٨، ١٢٤، ١٥٥، ٢١٥،

٢٧٤، ٢٧٧، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٤٣، ٣٤٤

الطرز التركي السلجوقي ١٢٢، ٢١٤،

٢٦٤، ٢١٥

الطرز التركي العثماني ٨٨، ١١١، ١١٢،

١٦٧، ٢١٤، ٢١٥، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٦٩،

٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٩٩

(ح)

طرز الحمراء ٢٤٧

(خ)

طرز الخلافة ١٠٨، ١٢٨، ٢١٥، ٢٤٤،

٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٣٤٥

(د)

طرز الركوكو ١٢٦، ٢١٣

الطرز الروماني ١٢٦، ٢١٣، ٢٤٦

(س)

الطرز السلجوقي ٨٣، ٨٨، ١٠٦، ١١١،

١١٢، ٢١٥، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٩٩

(ش)

طرز شرفات ناش ٣٤٣

(ظ)

طرز الظلّات والأروقة ١١٧

(ع)

الطرز العباسي ١٠٦، ١٣٢، ٣٢٤

الطرز العثماني ٣٢٣، ٣٢٤

(غ)

الطرز الغرناطي ١٠٨

(ف)

الطراز الفارسي ١١٢

الطراز الفاطمي ١٠٦، ٢١٥، ٢٥٢، ٢٥٥

(ق)

الطراز القوطي ١٢٦، ١٤٧، ١٩٨، ٢١٣، ٢٤٧

(م)

طراز المآذن ١٤٣

الطراز المدجني ١٠٨، ٢١٥، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٧٠، ٢٤٧

الطراز المستعري ١٢٦، ٢١٥، ٢٤٤، ٢٧٠، ٢٤٦

الطراز المصري ١٢٧، ٢١٤، ٢٤٩، ٢٦٩، ٣١٤، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٤٤، ٣٤٧

الطراز المصري الحديث ٣١٨، ٣١٩، ٣٣٢، ٣٣٠، ٣٢١

الطراز المصري القديم ١٤٤

الطراز المغربي ١٢٣، ١٢٨، ١٣٢، ٢١٤، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٦٩، ٣٣٢

الطراز المغربي الأندلسي ١٠٧، ١٢٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٣١٥، ٣٣١

الطراز المغولي ٨٨، ١٠٩، ٢١٥، ٢٦٩، ١٢٣، ١١٢، ١٠٧، ١٢٣، ٢١٥، ٢٥٢، ٣٢٢، ٣٢٤

الطراز الموريسكي ١٠٨

(ن)

الطراز النبوي ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ٢١٣، ١٥٩، ١٢٦ (الرينسانس)

الطراز النورماني ١٢٦

(هـ)

الطراز الهندي ١٠٦، ٢١٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٧



فهرس العناصر المعمارية والزخرفية

(أ)

الآيات القرآنية (عناصر زخرفية) ١٥٧

الأبراج ١٢٧، ١٣٨، ١٤١، ١٤٢، ١٤٧،

١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٧، ٢٠٢، ٢١٧،

٢٣١، ٢٣٢، ٢٧٧، ٢٨٩، ٢٩٤، ٣٣٢،

٣٤٧

الأبواب ٣٣٢، ٣٣٤

الأبواب الصماء ١٤٣

الأجنحة ١٢٠

الأحاديث الشريفة (عناصر زخرفية) ١٥٧

الأحجار الوتدية ١٤٥، ١٤٦

أرجل العقود ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٩١

الأروقة ٩٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠،

١٧٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١،

١٩٦، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣،

٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٠، ٢٢٣،

٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٣،

٢٥٥، ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٨٩، ٢٩١، ٣٠٠،

٣٠٣، ٣٢٥، ٣٣٠

الأروقة الجانبية ١١٣، ١١٤، ١١٩

الأروقة العمودية ١٩٠

الأروقة المتعددة ١١١

الأروقة المتقاطعة ١١٩

الأروقة الواسعة ٢٢٢

الإزار الخشبي ٢٠٤

الأزُر (الإزارات) ١٥٧، ٢٧٠، ٢٧٢،

٣٠٥

الأزُر الخزفية ٢٧٢

الأزُر المتوازية ١٥٧

الأساطين ١١٧، ١٢٨

الأساكيب ٧٢، ٩٦، ١٨٦، ١٨٨، ١٩١،

١٩٣، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣،

٢٠٤، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦،

٢٣٤، ٢٥٥

الإستبرق ١٥٧، ١٦٧

الأسطوانات ١٢٨، ٢٣٢

الأسطوانة ٣٠٣

أسماء الخلفاء الراشدين (عناصر زخرفية)

١٥٧

أسماء الرسول ﷺ (عناصر زخرفية) ١٥٧

الأسوار ١٢٧

الأسوار مستطيلة الهيئة ٣٣٤

أشرطة الجداول ١٦٠

الأشرطة الزخرفية ٢٧٧

أشكال الكائنات الحية (عناصر زخرفية)

١٦٠

الإطار الزخرفي ٢١٧

الإطارات (الأطر) ٢١٧، ٢٧٠

الإطارات الخشبية ٢١٧

الأطباق النجمية ١٥٧، ١٥٨

الأعمال الزخرفية ١٦٠

الأعمدة ٩٩، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٧، ١٤٩،

١٥٠، ١٧٠، ١٧٢، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٧،

٢١٠، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٥٦، ٢٦٢،

٢٦٣، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٩٦، ٣٠٠،

٣٠١، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٤٧

الأعمدة الجرانيتية ٣٢٥

الإيوان الأوسط ٣٢٨، ٣٠٣، ٣٠٠
 إيوان القبلة ٢٩٣، ٢١٠
 إيوان القبلة والمحراب ٣٠٣
 الإيوانات ١٠٧، ١٠٨، ١١٧، ١٢٠،
 ٢٩١، ٢٧٦، ٢٦٢، ٢٤٢، ٢٤١، ٢١٠
 ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٦،
 ٣٠٨، ٣٠٧

(ب)

الباجورات ٣٢٠
 البازلت الأخضر ١٦٨
 البدخانات (البودخانات) ٣٢٠
 البدخانة (البودخانة) ٢٨٩
 البدن ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢،
 ١٤٣، ١٨٧، ٣٣١
 بدن العمود ١٤٩
 البدن المربع ١٤١، ٣٤٧
 البدن المكعب ٢٤٢
 البدنات ١١٧
 البرج (في الكنيسة) ٣٤٧
 البرجول ١٥١
 البرونز ٣٢١، ٣٢٥
 البلاطة ٩٦، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٤
 بلاطة المحراب ١٩٨، ٢١٠
 البلاطة الوسطى ١٩٨
 البلور ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٤٤
 البهو ١١٢، ١٣٢، ١٤٧، ٢٤٥، ٢٧٦،
 ٢٩٥
 البوائك (البائكات) ١١٧، ١١٨، ١١٩،
 ١٢٠، ١٦٦، ١٦٧، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٧،
 ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٥٥، ٢٧٢، ٢٩٣، ٣٠٣،
 ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٤٠، ٣٤٧

الأعمدة الخشبية ١١٧، ١٣٨، ١٦٨، ٢٣١
 الأعمدة الدقيقة المزدوجة ١٥٠
 الأعمدة الرخامية ١٠٧، ١٠٨، ١٣١،
 ١٤٣، ١٤٨، ١٥٠، ١٦٧، ١٨٤، ١٨٥،
 ١٨٦، ١٩١، ٢٠٤، ٢١٠، ٢١٨، ٢٤٣،
 ٢٤٥، ٢٥٤، ٢٦١، ٣٢٠، ٣٢٩، ٣٤٧
 الأعمدة الرخامية الضخمة ٣٤٧
 الأعمدة الرومانية ٢٤٥
 الأعمدة الصماء ٢٤٥
 الأعمدة الضخمة ٢٨٩
 الأعمدة الطويلة ١٤٤
 الأعمدة القصيرة ١٥٠، ٢٩٠
 الأعمدة المبنية ٢٥٣
 الأعمدة المستديرة ١١٧
 الأعمدة ٩٥
 أغصان النخلة (عناصر زخرفية) ١٤٩
 الأفاريز ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٧٠
 الأفاريز الخشبية ٢١٧
 الإفريز ٢٠٥
 الأفنية الصغيرة ٣٠٦
 الأفنية ١١٩، ١٥٩
 الأقراص (عناصر زخرفية) ١٥٧
 الأقواس ١٤٤، ١٨٩، ٢٥٣، ٢٥٦
 أقواس حذوة الحصان ١٠٨
 الأقواس المدببة ١٠٨، ٢٥٤
 الأقواس المزدوجة ١٠٨، ١٢٨
 الأكتاف المتعامدة ١١٧
 ألوان الباستيل ٣٢٩
 الألوان القرآنية (عناصر زخرفية) ١٥٧
 الأهرام (عناصر زخرفية) ١٩٤
 الأوتاد ١٤٥
 الأوتاد الخشبية السميكة ١٩١
 الأوراق النباتية (عناصر زخرفية) ١٥٩

(ت)

- التتويج ١٥١
تجويف القبة ٣٢١
تجويف المحراب ٣٢٥
التصاویر الدينية ٢٧١
التصوير ٢٧٦، ٢٧٢
التضليع ٢٧٢
التفافيح ١٤٣، ١٩٤
التفصيص ١٤٦
التكرار ١٥٧، ١٥٦، ١٥٥
التكوينات الزخرفية ١٥٨، ١٥٩
التوازن ١٥٧، ١٥٦، ١٥٥
التوريق ٣٢٦
التوريقات النخلية ١٩٤
تيجان الأعمدة ١٤٩، ١٥٠، ٣٢٥
التيجان الرخامية ٢٤٥

(ث)

- الثريا ٣٢٠، ٣٢١
الثريات ١٦٧، ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٤٨
الثمار (عناصر زخرفية) ١٥٩

(ج)

- الجدائل ١٥٧
الجدران المستديرة ٢٧٧
الجرانيت الوردى ٣٢٥
الجص المقرنص ١٩٤
الجوسق ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٢،
٢٠٢، ٢١٠، ٢٣٢، ٢٤٢، ٢٦١، ٢٩٣،
٢٩٤، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٢
الجوسق الحجري ١٤٣

بوائك الأروقة ١٢٠

- البوائك الدائرية ١٨٤
البوائك الزخرفية ١٤٨
البوائك الصغيرة ١٩١
البوائك المتعددة ٣٠٨
البوائك المستديرة ٢٤٣
البوائك المستعرضة ١١٩
البوابات ١٣٢، ١٨٩، ٢١٨، ٢٥٦، ٢٦٩،
٢٧٧، ٢٩٣، ٢٩٤، ٣٠٣
البوابات الضخمة ٢٧٢، ٢٩١، ٢٩٢،
٢٩٦، ٣٠٧
البوابات الفخمة ٣٠٨
البوابة ٣٠٤، ٣٠٥
بيت الصلاة ٧٩، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١١٢،
١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١،
١٣٢، ١٥٠، ١٥٣، ١٧٠، ١٧٢، ١٨٥،
١٨٦، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٣، ١٩٦،
١٩٧، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤،
٢٠٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٧، ٢٢٠،
٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣١،
٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣،
٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣،
٢٧٢، ٢٧٧، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣،
٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦،
٣٠٧، ٣٠٨، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٥،
٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٤، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢،
٣٤٤، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٢
بيت الصلاة المستقل ٣٢٥
بيوت الصلاة ١١٠، ١٢٢، ١٢٩، ١٣٤،
٢١٠، ٢٣٢، ٣٢٨
بيوت الصلاة المتعددة ١٦٦

الجوسق الطويل ٣١٤

الجوف ٩٦، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٢٥

(ح)

الحافة المربعة ١٤٧

الحافة المستديرة ١٤٦، ١٤٧

حبوب النبات (عناصر زخرفية) ١٥٧

الحبيبات (عناصر زخرفية) ١٥٧

الحجر المصقول ٢٢٥

الحجر الوتدي الأوسط ١٤٥

الحداثق ١٣٢

الحرير الأحمر ١٦٨

الحرير الأسود ١٦٨

الحشوات ١٦١

الحشوة ١٦١

الحصن ٢٠٤، ٢٣٢

الحصون ٢٨٩

الحصير الملون ١٨١

الخليات ١٥٥

الخلية ١٦١

الحنايا ١٢٧، ٢٣٢، ٢٥٥

الحنية ٨٦، ٨٧

حنية الأركان ١٤٧

حنية المحراب ٨٧، ٨٨، ١٠٨، ٢٥٥، ٣٠٥

الحواجز الخشبية ١٥٣

الحوض الرخامي ٢٧٥، ٢٧٦

حوض النافورة ٢٧٦

(خ)

الخرجات ١٤١

الخزف ٢٤٣، ٢٤٧، ٢٧١، ٢٧٨، ٣٠٠

٣٣٢، ٣٢٩، ٣٠٣

الخزف ذو البريق المعدني ٣٠٤

الخزف الزخرفي ٣٠٧

خزف الفسيفساء ٢٧١

الخزف المزين بالزخارف والكتابات ٣٠٤

الخزف الملون ٢١٧، ٣٠٨

الخشب المنجور المزخرف الملون ١٣١

خط الثلث ١٦٧

الخط العربي ١٥٨

الخط الكوفي ١٥٨، ٢٠٤

خط النسخ ١٥٨

الخطوط المتشابكة ١٥٧

الخطوط المتعرجة ١٥٧

الخطوط المتكسرة ١٥٧

الخطوط الحلزونية ٣٠٨

الخطوط المنحنية ١٥٧

الخلوات ٢٦٣، ٣٠٦

(د)

الدعائم (الدعامات) ١٤٩، ١٨٧، ٢٦٣،

٢٧٥، ٣٣٠

دعائم بيت الصلاة ١١٠

الدعائم الحجرية ١٠٧، ١١٢، ١٤٧،

١٨٤، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٢٠، ٢٢٣،

٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٦١، ٢٧٢،

٢٩٣، ٣٢٥

الدعائم الخارجية ٢٠٣

الدعائم الرخامية ١٦٧

الدعائم الضخمة ١١٢، ١٤٧، ٢٠٤،

٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٤، ٣٠٣

الدعائم القصيرة ١٠٨

الدعائم المبنية ٢٤٧، ٢٥٣

الزخارف ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٧ ، ١٥٤ ،
 ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٧ ،
 ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢٠٤ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ،
 ٢٣٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ،
 ٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧

الزخارف الإسلامية ١٦٠ ، ١٦١ ، ٣٢٥ ،
 ٣٣٤

الزخارف الإغريقية ١٦٠

الزخارف الأوربية ١٦١

الزخارف البارزة ٢١٣

الزخارف الباروكية ٣٢١

الزخارف البيزنطية ١٨٤

الزخارف الجصية ٢٠٤ ، ٢١٧ ، ٢٣٨ ، ٣٢٩

الزخارف الحديثة ٣٤٤

زخارف الحرم المكي ١٦٧

الزخارف الخزفية ٣٠٧

الزخارف الرومانية ١٦٠

الزخارف العربية ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٤٤

زخارف الغرب الإسلامي ١٦٠

الزخارف الكلاسيكية ١٥٩ ، ١٦٠

الزخارف المحفورة ٢١٣ ، ٢٧٥

زخارف المشرق الإسلامي ١٦٠

الزخارف الملونة ٢٠٥

زخارف المنابر الخشبية ١٦١

الزخارف النباتية ١٦٠ ، ١٩٤

الزخارف الهندسية ١٥٨

الزخرفة ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،

٣١٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨

الدعائم المزخرفة بخطوط حلزونية ٣٠٨

الدعائم الملبّسة بالرخام ٣٢٠ ، ٣٢٥

الدعائم الملبّسة بالمرمر ٣٢١

الدكة ١٢٩

الدوائر المتشابكة ١٥٧

(ر)

رأس العمود ١٤٩

الرحبات ٢٦٣

الرحبة ٢١٠ ، ٢٦٣ ، ٣٢١

رقاب القباب ١٥٤

رقاب القباب العالية ٢٧٢

رقبة القبة ١٨٤ ، ٢٧٧

رقبة القبة ذات الشّمسات ٢١٠

رقبة القبة ذات القمرات ٣٤٠

الرواق الأوسط ٩٦ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٤ ،

١١٩ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٦ ،

٢٠٢ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٤٢ ، ٢٦٢

الرواق الأوسط الفسيح ١١٣

الرواق الخلفي ٢٢٥

الرواق الرئيسي ٩٦

الرواق العريض ١١٨

الرواق العمودي ١١٨

رواق القبلة ٢٧٥

رواق المحراب ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠

رؤوس النخيل (عناصر زخرفية) ١٦٧

(ز)

الزجاج الملون ١٣١ ، ١٥٤ ، ١٨٤ ، ٢٤٧ ،

٢٥٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،

٣٤٤

(ش)

الشابستانات ٣٠٧

الشبابيك العالية ٣٢٢

الشبابيك القوطية ٢٤٧

الشُرَافَات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٥ ،

٢٤٧ ، ٣٣١

الشُرَافَات ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،

١٤٣ ، ١٦٧ ، ١٩٧ ، ٢٥١ ، ٢٦١ ، ٢٩٠ ،

٣٢٧

الشُرَافَات المستديرة ١٤٠

شُرَافَات ناش ٣٤٠

شُرَافَةُ الْأَذَان ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ ،

٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٤١ ،

السَّاسَات (الشمسيات) ١٥٤ ، ١٥٥ ،

١٨٤ ، ١٩٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٣٢٠ ،

السَّاسَات الجصّية ٢٤٧

السَّاسَات الخشبية ٢١٨ ، ٢٤٧ ،

السَّاسَات الرخامية ٢٤٥ ، ٢٤٧ ،

السَّاسَات الصّماء ٢٤٥

(ص)

الصحن ٧٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٨ ،

١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،

١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ،

١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،

١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،

٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ،

٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،

٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ ، ٢٩٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،

٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،

٣٥٢

الزخرفة الأوربية ٣٠٦

الزخرفة المصرية ٣٢٧

الزرايبى (سجاجيد مغربية للمساجد) ٢١٨

الزليج (مربعات الخزف) ١٤٣ ، ٢١٧ ،

٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٧٨ ، ٣٤٢ ،

زهرة الأكانتوس (عناصر زخرفية) ١٥٥

زهرة اللوتس (عناصر زخرفية) ١٤٩ ،

١٥١ ، ١٥٥

زهرة الليلق (عناصر زخرفية) ١٥١ ، ١٥٥

الزهور (عناصر زخرفية) ١٥٩

الزيتون (عناصر زخرفية) ١٥٧

(س)

الستائر الجصّية ٣٢٦ ، ٣٢٨

الستارة الخشبية ١٨٤

الستارة الرخامية ٢٧٧

الستارة المخرّمة ٣٢٦ ، ٣٢٨

السرداب ٢٧٧

سقف الباجودا ١٤٢

السقف الخشبي ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢٤٥

السقف الخشبي المزخرف ٢٢١ ، ٢٣٦

السقف المحذّب ١٥١ ، ٢٣٨

السقوف الخشبية ٢١٧

السقوف الخشبية المزخرفة ١٠٨

السقوف العالية ١١٢

السقوف المقبّبة ١٤٤ ، ١٤٦

السلام الرخامية ٢٥٦ ، ٣٢٨ ، ٣٤٧

السلم الحلزوني ١٣٩ ، ١٤١ ، ٢٥٣

سنبله القمح (عناصر زخرفية) ١٥٧

السندس (عناصر زخرفية) ١٥٧

سياج الأعمدة ١٥١

الظُّلَّاتُ الخشبية ١٣٨، ١٤١، ١٨٢
الظُّلَّاتُ الخشبية الزخرفية ١٥٥
ظُّلَّاتُ الصحن ١١٨
ظُّلَّاتُ المآذن ١٣٨
ظُلَّةُ القبلة ١١٨، ١١٩، ١٢٠

(ع)

عَبَادُ الشمس (دَوَّارُ الشمس) (عناصر
زخرفية) ١٥٧
عرائس السماء ١٥١
العروق ١٤٧
العروق الحجرية ١٩٨
العقد الخموس ١٤٥
العقد نصف البيضة ١٤٥
العقدة ٢٧٦
العقود ٩٩، ١١٤، ١١٧، ١٢٧، ١٢٨،
١٣٢، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٤، ١٤٥،
١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٧٩، ١٨٥، ١٨٦،
٢٠٤، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٣٤،
٢٣٩، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦١،
٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٧، ٣٢٨، ٣٤٢، ٣٤٤،
٣٤٨، ٣٤٧
العقود البصلية ١٤٨
العقود الثقيلة المدببة ٢٧٢
العقود الحجرية ٢٧٥
العقود الحجرية المشابكة ٢٧٥
العقود الحجرية المدببة ٣٠٨
عقود حذوة الحصان ١٣٩، ١٤٥، ١٤٦،
١٨٧، ٢٠١، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٣٤،
٢٣٨، ٢٤٧، ٣٣٠، ٣٣٢

الصحن الإضافي ٣١٤
الصحن الصغير ٢٣٨
الصحن الفسيح ١٦٦، ٢٩٠، ٢٩٣، ٣٠٣،
٣٣٤، ٣٠٧
الصحن المستطيل ٢٠١
الصحن المكشوف ١١٢
صحن النارنج ١٩٩
الصحن الواسع ٢٣٣، ٢٧٢
الصحنون ١٠٨، ١٢٢، ١٢٩، ٢٩١
الصحنون الفسيحة ٣٠٨
الصحنون المكشوفة ٩٧، ١٠٧
الصليب (في الكنائس) ٣٤٤
الصنج ١٤٦
الصنجة ١٤٥، ١٤٨، ٢٤٥
الصنوبر (عناصر زخرفية) ١٥٧
الصوامع (= المآذن)

(ض)

الضلوع ١٤٧

(ط)

الطاقات ١٢٨
الطاقات الصغيرة ١١١
طاقة المحراب ٢٠٥
الطبانات ١١٤
الطبق النجمي ١٥٧

(ظ)

الظُّلَّاتُ ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠
الظُّلَّاتُ الجانبية ١١٨

العقود الدائرية ٢٤٦

العقود الزخرفية ١٤٣، ١٨٤،

عقود شوك السمك ١٤٧، ١٩٨،

العقود الصَّماء الزخرفية ٢٥٤

العقود الضخمة ١٠٧، ١٠٨،

العقود الضخمة المدببة ٢٩٠

العقود الطويلة المدببة ٣٣٠

العقود العالية ٢٩١، ٣٢١،

العقود العالية المدببة ٢٧٢، ٣٢٥،

العقود المتعددة ١٤٩

العقود المتقاطعة ١١٢، ١٤٦، ١٤٧،

العقود المدببة ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨،

١٨٤، ١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٨،

٢٢٢، ٢٢٣، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٦١، ٢٦٢،

٢٧٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠٣،

٣٢٧

العقود المدببة المتقاطعة ٢٤٧

العقود المدببة المزدوجة ٣٠٣

العقود المدببة المعقوفة ٣٣٢

العقود المدببة المفصصة ٢٣٩

العقود المدببة المنفوخة ٢٢١، ٢٢٣، ٢٣٤،

العقود المزدوجة ١٤٨، ١٩٧، ١٩٨،

العقود المستديرة ١٨٦، ١٨٨، ٢٣٠،

٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٧٧، ٣٠٠،

العقود المستقيمة ١٤٥

العقود المفصصة ١٤٦، ٢٣٤، ٢٤٧،

٢٩٢، ٣٤٨،

العقود المنفرجة ١١٢، ١٤٥،

العقود الموحدية ٢٢٣

العقود نصف الدائرية ١٤٥، ١٤٦،

العقود الواسعة ١٤٨

العمامة (عمامة المئذنة) ٢١٠، ٢٦١، ٢٩٣،

٣٠٣، ٣٠٧، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٢،

العمق ٢٢٥

العناصر الزخرفية ١٢٩، ١٦١، ٣٢٧،

العناصر المعمارية ٢٥٢، ٣٢٧،

العناصر المعمارية الإضافية ١٣٧

عقود العنب (عناصر زخرفية) ٢٥٤

العود (المنبر) ٩٥

(ف)

فتحة العقد ١٤٨

الفَخَّار ٢٧١

فروع النخلة (عناصر زخرفية) ١٥٧

الفسيفساء ١٣١، ١٨٤، ١٨٩، ٢٧٨،

٣٢٥، ٣٤١،

فسيفساء الخزف ٢٧٢

الفسيفساء الزجاجية ٢٠٥

الفسيفساء الملونة ٣٠٦

الفصوص ١٤١، ١٤٦، ١٥٧، ١٩٨،

٢١٨، ٢٢٠، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٧٧، ٢٩٢،

الفصوص المسننة ٢٣٩

الفصيل (الخنديق) ٢٩١

الفنون الإسلامية ١٦٠

الفوسفور ١٤٥

(ق)

القاشاني (القيشاني) ١٨٤، ١٨٦، ١٩٤،

١٩٥، ٢١٨، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٨٣،

٢٨٤، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٧، ٣٣٢،

٣٤١، ٣٤٨،

القباب الصغيرة المزخرفة ٣١٤
القباب الصغيرة المقرنصة ١٩٤
القباب العالية ١١٢، ١٥٥، ٢٦٢، ٢٧٦،
٢٧٧، ٢٩١، ٣٢٥
القباب القديمة ١٤٨
القباب الكبرى ١٩١، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٢٥،
٣٢٧
القباب الكبيرة ١١١، ٢٠٥، ٢٤٢، ٢٦٠،
٢٦١، ٢٩٠
القباب المحلاة بالقاشاني ١٠٨
القباب المخروطية المقببة ٢٣٣
القباب المدببة ذات الرقاب العالية ١٢٤
القباب ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٧،
٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٤
القباب الرئيسية ١١٤
القباب السامقة الضخمة ١١٠
القباب الصغيرة ٣٣٢
القباب الضخمة ٣٠٦
قباب الضريح ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٩٥
القباب عميقة التجويف ٢٦٣
القباب المثقنة الأضلاع ١٤٧
القباب المخروطية ٢٣٢
القباب المخروطية المقببة ٢٣٢
القباب المنفرجة (نصف القبة) ١١٣، ١١٤
القباب النحاسية ٣٤٠
القباب نصف الدائرية ١٨٣
القباب الهرمية ٢٤٣
القباب الواسعة ١١٢
القباب الوسطى ١١٠، ١١٢
القباب الوسطى الرئيسية ٣٢٩

القاشاني الإيراني ٣٠٥
القاشاني المزخرف ١٩١
القاشاني الملون ٢٧٨، ٣٠٠، ٣٠٨
القاعات ٢٦٣
القاعات الفسيحة ١١٢، ٣٠٠
قاعات المحاضرات ٣٣٥
قاعات الموسيقى ٣٣٤
القاعة ٢٦٣
القاعدة ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠
قاعدة العمود ١٤٥، ١٤٩
قاعدة المئذنة ١٤١، ١٤٢
القباب ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٦، ١٠٧،
١٠٨، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤،
١٢٢، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥،
١٣٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧،
١٤٨، ١٥١، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٩، ١٨٢،
١٨٦، ٢٠٢، ٢١٠، ٢٢٢، ٢٤٢، ٢٥٠،
٢٥٦، ٢٥٩، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٧٨،
٢٩٠، ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥،
٣٠٦، ٣١١، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢،
القباب البصلية ١٢٤، ٢٩٢، ٢٩٣
القباب الحديثة ١٤٨
القباب ذات الرقاب الطويلة ١٢٣
القباب الزخرفية ١٤٠، ١٥٢، ٢٩٦،
٢٩٧، ٣٠٧، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٩
القباب الصغرى ٣٢٠
القباب الصغيرة ١١٠، ١١١، ١٤١، ١٨٨،
١٩٤، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢١٠،
٢١٧، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣،
٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٦٣، ٢٩١، ٣٠٥

الكرة البلّورية ٣٢٠
الكمّرات ١١٧
الكوابيل ١٤١
الكوّات الزخرفية ٢٥٣
الكوّات المعيّنة الشكل ٢٥٥

(ج)

اللبّاب (عناصر زخرفية) ١٥٧
اللّقم (عناصر زخرفية) ١٦١
اللّقمة (عناصر زخرفية) ١٦١
اللؤلؤ (عناصر زخرفية) ١٥٧

(م)

ماء الذهب ١٥٧، ١٨٣، ٣٠٦
المآذن ٩٨، ١٠٩، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٧،
١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤،
١٦٧، ١٧١، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٩، ٢٠٨،
٢٣٣، ٢٣٦، ٢٤٦، ٢٦٣، ٢٧٠، ٢٨٤،
٢٩٣، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٢٨،
٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٤
المآذن الأسطوانية ١٤١، ١٤٢
المآذن البرجية ١٠٨، ٢٩٠
المآذن الحلزونية ١٠٦
المآذن العالية ٢٧٢
المآذن العظيمة الارتفاع ١٠٧
المآذن القصيرة ٣٠٧
المآذن المخروطية ١٤١، ١٤٢
المآذن المرتجلة ١٣٩
المآذن المزدوجة ٢٧٧

القبلة ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٩٠، ١١٧،
١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٢،
١٤٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٦، ١٨٠، ١٨٥،
١٨٨، ١٩٠، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٤،
٢٠٩، ٢١٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٤، ٢٥٥،
٢٦٢، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٨،
٣٠٠، ٣٠٣، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٤٨

القبو ٢٨٥

القبو السفلى ١٤٧
القرميد ٢٢١، ٢٣٨، ٢٤٣
القرميد الأحمر ١٩٧، ٢١٧
القرميد الأخضر ٢١٧
القرنفل (عناصر زخرفية) ١٥٧
القمريات ١٥٤، ٢٤٧، ٢٩٠، ٣٢٠،
٣٢٧، ٣٤٠
القناديل ١٦٧
القناديل الكهربائية ٣٢٠، ٣٢١
القناطر ١٢٨
القناطر المتتالية ١١٧
القنطرة ١٩٧
القنطرة الحجرية ٢٤٦
القواعد الحجرية ٢٤٥
القوالب الجصّية الزخرفية ١٤٦

(ك)

الكتابات (عناصر زخرفية) ٢٧٠، ٣٠٦
الكتابات الكوفية ١٥٩
الكتابات المزينة بالجواهر ١٣١
الكتابة ١٥٧، ١٦٠، ٣٠٥

المحراب ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٣،
 ١٠٩، ١١٩، ١٢٦، ١٣٢، ١٦٩، ١٧١،
 ١٨١، ١٨٥، ١٨٦، ١٩١، ١٩٣، ١٩٦،
 ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٢، ٢١٠، ٢٢١، ٢٢٢،
 ٢٢٣، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٦٢،
 ٢٧٢، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٦، ٢٩٨،
 ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣٢١،
 ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٤٤، ٣٤٨،
 المحراب الأوسط ١١٨
 المحراب الحنية ٩٣
 المحراب الخشبي المتحرك ٢٠٢
 المحراب الخشبي المتنقل ٩٣
 المحراب المجوّف ٨٨، ٩٠، ١٨٠، ٢٠٤،
 ٢١٧، ٢٣٠
 المحراب المخلّق ٨٨
 المخروط المقلوب ١٤٩
 المدخل ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٤٧
 المدماك ١٤٥
 المذبح (في الكنائس) ٨٦، ١٢٥، ١٢٩،
 ١٣٢، ٣٤٤
 المرجان (عناصر زخرفية) ١٥٧
 المرجريت (عناصر زخرفية) ١٥٧
 المشبّكات ١٥٧
 المشكوات ١٣١، ٢٠٠
 المصعد الحلزوني ٢٠٥
 المصعد اللولبي ٢٠٣
 المصليّات الجانبيّة ١٢٥
 المطاهر ٩٩
 المظلات الخشبية ١٣٩

المآذن المستديرة ١٢٢، ١٢٣، ٢٧٢، ٣٠٣
 المآذن المستديرة العالية ١٢٤
 المآذن المضلّعة ١١٠، ٢٧٢
 المئذنة ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٢٩، ١٣٧، ١٤٣،
 ١٥١، ١٧١، ١٧٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧،
 ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٣، ٢٠٥،
 ٢١٠، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥،
 ٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٥٠،
 ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٧٦، ٢٨٩، ٣٢٧،
 ٣٢٨، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٧
 المئذنة الأنبوبية الطويلة ٣٤١
 المئذنة القُبّة ٢٥٤
 المئذنة المربّعة المستديرة ٣٢٥، ٣٢٦
 المئذنة المضلّعة ٢٩٠
 المئذنة الملوية ١٢٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥
 المثلثات الكروية ١٤٦، ٢٧٠، ٢٩٠
 المجاز الأعظم ١٨٨، ١٩١
 المجاز القاطع ٩٦، ١١٨
 المجنّبات ٩٦، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٣، ٢٠١،
 ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٧، ٢٢٥، ٢٢٦،
 ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٥٣، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٣،
 ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٤٢، ٣٥٢
 المحارة ٢٥٠، ٢٥٤، ٣٠٥، ٣٢٧
 المحاريب ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ١٠٨،
 ١٢٩، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٦٢، ٣٠٥
 محاريب الحنايا ٨٩
 المحاريب الخشبية ٨٩
 المحاريب المحنية ٨٧

المظلة الحجرية ٢٦١

المفتاح (= الحجر الوتدي الأوسط)

المقاصير ٩٨، ١٥٣، ١٥٤

المقاصير الصغيرة ٢٧٦

المقاصير الملكية ١٣١

المقرنصات ١٩٤، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٣٥،

٢٩٠، ٢٧٧، ٢٤٧

المقصورة ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٢٩، ١٥٣،

١٩٧، ٢٩١، ٣٠٥

المقعد ١٢٩، ١٤٥، ٢٦٠

مقعد العقد ١٤٥

الممر المعترض ١٢٥

المنابر ٩١، ٩٤، ٩٥، ٩٩، ١٠٠، ١٢٦،

١٢٩، ١٣٢، ١٥٤، ١٦٩، ١٧١، ١٩٣،

٢١٠، ٢١٨، ٢٩٦، ٣٠٨، ٣٢١، ٣٢٥،

٣٢٧

المنابر البارزة ٩٤

المنابر المتحركة ٩٢، ٩٣

المنارات ٣٣١

المنارة ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٥٢، ١٨٢،

٢٠٩، ٢١٧، ٢٣٢، ٢٨٤، ٣٢٨

المنارة العالية الطبقات ١١٠

المناور ٢٢١

المنبر ٣٣٠، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٤٨

المنبر الخشبي ٩١، ١٨٠، ١٩٤

المنبر الخشبي الكبير ٩٣

المنبر الخشبي المتنقل ٩٢

المنبر المبنى ٩١

المنصة الرئيسية ٣٢٠

المنصة العالية ٣٢٢

المنظرة ٢٦٠

الميضأة ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٥٢، ١٥٣،

١٩٩، ٢٠٨، ٢٥٣، ٢٦٣

المناء الزرقاء (عناصر زخرفية) ١٦٨

(ن)

النافورات ١٣٢

النافورة ٢٧٥، ٢٧٦

النقوش ٢٠٤، ٣٢١

النقوش البيزنطية ١٨٣، ١٨٤

النقوش الذهبية ١٩٤

نقوش سامراً ١١٦

النقوش العربية ٢١٠

النقوش الملونة ١٩٤

النوافذ ٢٢٤

النوافذ الزخرفية ١٤٣، ٢٩٤

النوافذ الصغيرة ٢١٨، ٢٢١

النوافذ الصماء ١٤٣، ٢٥٠

النوافذ الكبيرة ٢٤٣، ٣٢٢

النوافذ المعدنية ١٣١

النواقيس (في الكنائس) ١٢٩، ١٤٧،

٣٤٧

(هـ)

الهرم (شكل معماري) ٢٤٣

الهيكل (في الكنائس) ٨٦، ١٢٥، ١٢٦،

١٢٩، ١٣٢، ٣٤٤

الهيكل الحديدي ٣٤٧

الهيكل الخشبي ١٤٨، ١٥١، ١٨٣، ١٨٤،
٣٤٨، ١٩١

الهيكل المعدني ١٤٨

(و)

الواجهات ٢٧٠، ٢٩٢

الواجهة ٣٠٣، ٣٠٧، ٣٥٢

الواجهة الفسيحة ٣٢٨

الوتد الحجري ١٤٧

الوجاقات ٢٤١

الورد (عناصر زخرفية) ١٥٧

الوردة (عناصر زخرفية) ١٥٥

ورقة العنب (عناصر زخرفية) ١٥٥ ،

٢٥٤، ١٥٧

(ي)

الياقوت (عناصر زخرفية) ١٥٧



فهرس الأعلام

(i)

آدم (عليه السلام) ٣١، ٥٣

آصاف خان (وزير) ٢٩٧

الآمر بأحكام الله بن المستعلي (الخليفة

الفاطمي) ٢٥٥

أبان بن عثمان بن عفان ٦٧

إبراهيم جايغر ٨١

إبراهيم (عليه السلام) ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٢٩،

٨٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٨٣

إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (أمير) ٧٥، ٨٤،

١٠٦، ١١٦، ١٢٨، ١٨٥، ١٨٦

إبراهيم الدسوقي (ولي) (= إبراهيم بن أبي

المجدد بن قريش بن محمد) ٣٢٢

إبراهيم الفاتح ١٧٠، ٣٢٨

إبراهيم المصري (المعلم) ١٧٠

إبراهيم (ابن الإمام موسى الكاظم) ٣٠٧

إبراهيم النخعي ٩٩

ابن الأثير ٧٢، ٩١

أحمد بن إبراهيم الجزار ٤٩

أحمد بابا التمبكتي ٤٩

أحمد بن باسة (مهندس معماري) ٢٢٥

أحمد البدوي (ولي) (= أحمد بن علي بن

إبراهيم الحسيني) ٣٢٢

أحمد حسن الزيات ٢٠٨

أحمد بن حنبل (الإمام) ٣٤، ٩٩

أحمد شاه (أمير إقطاعي) ٢٧٥

أحمد شوقي (الشاعر) ١٣٣

أحمد بن طولون (أمير) ١٠، ٤٢، ٩٢، ٩٦،

١٠٦، ١١٦، ١١٨، ١٢٢، ١٤٨، ١٧٦،

٢٠٣، ٢٠٤، ٢١٤، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢،

٢٥٣

أحمد فكري (دكتور) ٥٧، ٦٠، ٧٠، ٧٤،

٩٦، ١١٦، ١٢١، ١٨٤، ٢٥٢

أحمد فؤاد (ملك) ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٤٢

أحمد القسطلاني ٢٨٠

أحمد بن محمد المقدسي البشاري ٤٧

أحمد موسى ١٠٥

أحمد (ابن الإمام موسى الكاظم) ٣٠٧

أحمد يحيى باشا ٣٢٩

أحمد يوسف حوار ٣٤٦، ٣٤٨

إخنتاتون ٨٢

إدريس الأول (أمير) (= إدريس بن عبد الله

الحسني) ١٩٢

إدريس الثاني (أمير) (ابن إدريس الأول)

١٩٢، ١٩٣، ١٩٥

إدوارد هيو ٣٤٢

الأزهري (أبو منصور) ٨٥

إسحاق بن تاشفين (ابن علي بن يوسف بن

تاشفين) ٢٢٠، ٢٢١

أسعد بن زرارة ٦٧، ٦٨

إسماعيل (عليه السلام) ٢٧، ٢٨، ٨٣،

١٦٨، ١٨٣

إسماعيل بن حيدر بن إبراهيم بن علي

(مؤسس الدولة الصفوية) ٣٠١، ٣٠٢

إسماعيل الصفوي (= إسماعيل بن حيدر بن

إبراهيم بن علي)

الأشرف قايتباي (سلطان) (= قايتباي)

الأشرف قانصوه الغوري (سلطان) (= الغوري)

الأصمعي (عبد الملك بن قُريب) ٨٥

اعتماد الدولة (سلطان) ١١٠

ابن الأعرابي ٨٥

الأفضل الجمالي ٢٥٤

أكبر (السلطان الفيلسوف) ١١٠ ، ٢٩١ ،

٢٩٢ ، ٢٩٧

ألب أرسلان (سلطان) ٢٦٦ ، ٢٦٨ ،

٢٩٩ ، ٢٧٤

ألب تكين الغزنوي ٢٧٤

ألفونسو الثامن (ملك) ٢٢٤

إلياس علي (معماري) ١١٢

إمام زادة (الشيخ) ١٠٨

أمينوفيس الرابع (= إخناتون)

أنس بن مالك ٣٦

إينو ليتمان (مستشرق) ٨٦

أورانجزيب (سلطان) ١١٠

أورخان بن عثمان (سلطان) ١١١

الأوزاعي (عبد الرحمن بن عمرو) ٩٧

أولجايتو محمد خدابنده (سلطان) ٢٧٥ ،

٣٠٠

أوليج جرابار ٢٦٩

إيرنست كونل (= كونل)

إيزابيلا (ملكة) ١٩٩

إيشانيخان مير بك ٢٨٥

إيلتوتش (سلطان) (= علاء الدين)

إيلي لامبير ٥٩

أيوب صبري ١٧٠

أبو أيوب الأنصاري (خالد) ٩ ، ٦٧ ،

أيزنهاور ٣٤٨

(ب)

باخوم ٩١

باقول ٩١

الباي صلاح ٢٤٢

بازيد (سلطان) ١١٣

البخاري (محمد بن إسماعيل) (الإمام) ٣٦ ،

٦٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ،

٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣

بدر الجمالي (أمير الجيوش) ٢٥٤

برقوق (سلطان) ١٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٦٠ ،

برنارد بيترسون ٢٦٩

برهان الدين الحلبي ٩١

برهان الدين (السيد) ٢٨٠

بُشر بن أبي أرطاة ٢٢٧

بشر بن صفوان الكلبي ٧٥ ، ١٣٩ ، ١٨٥ ،

١٨٧

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن

إبراهيم اللواتي الطنجي) ٤٧ ، ٥٣ ، ٢٨٦ ،

بكر المزني ٩٩ ، ١٥٤

أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ٦٦ ، ٦٩ ،

٧١ ، ٣٥٠

أبو بكر عبد الله بن أبي شيبة ٣٦

أبو بكر بن العربي ٤٨

البلاذري (أحمد بن يحيى) ١٣٧

بليكان ٦١

بهاء الدين النقشبندی (حضرة خواجه) ٢٨٥

بول ريکار ٥٩

بيرس (الظاهر) (سلطان) ٧٣ ، ١٠٧ ،

١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٨١ ، ٢٠٦ ، ٢٦٠ ،

بيتر فلوتنر ١٦٠

(ت)

تالوت راييس ٥٩

الترمذي (أبو عبد الله) ٢٦٥ ، ٢٨٠ ،

الترمذي (أبو عيسى) ٢٨٠

أبو تمام (الشاعر) ١٣٤

تيم الدارى ٩١، ٩٢

تيتوس (إمبراطور) ١٩٠

تيمور لنك (تيمور الأعرج) ١٠٧، ٢٧٧،

٢٨٣، ٢٨٥

تيودور نولدكه ٨٦

(ث)

ثوبان بن يحدد، أبو عبد الله (مولى رسول الله

ﷺ) ٣٦

الثورى (سفيان بن سعيد) ٩٩

(ج)

جاستون فييت ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٢٥٦

جان سوفاجيه ٥٩

جاهنجير (سلطان) ٢٩٢

الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن) ٢٠٨

جبريل (عليه السلام) ٢٣١

ابن جبير (رحالة) ٤٧، ٥٣، ٧٢، ٩٣،

١٦٥

أبو جعفر أحمد بن هود ٩٨

أبو جعفر المنصور (الخليفة العباسي) (=

المنصور)

جلال الدين الرومي ٢٨٠

جلال الدين السيوطي ٨٨، ٢٩٥

جمال الدين بن منظور (= ابن منظور)

الجنيد الشيرازي ٣٠٧

جويتر (من آلهة الرومان) ١٨٧

جوجوق بيكا ٢٧٨

جورج السادس (ملك) ٣٣٩

جورج مارسيه ٥٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣،

١٨٤، ١٩٥

جوستنيان (إمبراطور) ١١٢

جوميث مورينو ٢٠٠

جون ديريك ٢٦٩

جوهر شاه ١٠٧

جوهر الصقلي ٢٠٥، ٢٠٨

(ح)

ابن الحاجي السمرقندي ٢٨٠

حافظ الشيرازي ٣٠٦

الحاكم بأمر الله (الخليفة الفاطمي) ٩٣،

١٠٦، ١٨١، ٢٠٦، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٤

أبو حامد الغرناطي ٢٦٥

ابن حبان ٣٤

حبيب (الحاج) ٢٤١

ابن حجر العسقلاني ٢٨٠، ٢٨٢

حسن (الباشا) ٢٤٢

حسن عبد الوهاب ٦٠، ١٢١، ٢٠٨،

٣٢٤

حسن العدوي الكبير ٢٨٢

حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (سلطان)

٤٢، ١٠٧، ٢٦٢

الحسن البصري ٦٨، ٩٩، ١٥٤

الحسن الثاني (ملك) ٢١٩

الحسن بن الخطير الفارسي ٢٠٦

الحسن بن زولاق ٢٠٦

الحسن بن علي (وزير) ٢٦٨

أبو الحسن علي بن أبي سعيد المريني (سلطان)

٢٣٧، ٢٣٨

أبو الحسن بن النعمان بن محمد ٢٠٦

حسن بن النعمان الغساني ٧٥، ١٢٧،

١٨٥، ٢٢٧

حسين (مادري شاه) (سلطان) ١٠٩

حسين الصفوي (الشاه) ٣٠٤

الحسين بن علي (رضي الله عنهما) ١٣٢،

٢٥٤

الحكم الثاني (أمير) ١٩٢

الحكم المستنصر (الخليفة الأموي الأندلسي)

١٠٨، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٤٥

حليم باشا (مهندس معماري) ١٧٠

هزة أبو بكر ٣٤٣

ابن حوقل ٩٥، ١٧٧، ٣١٨

(خ)

خارجة بن زيد ٦٩

خالد الأنصاري (= أبو أيوب الأنصاري)

خالد بن عبد العزيز آل سعود (ملك) ٣٣٣

خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) ٦٥

خرم شاه الأخلاطي (مهندس معماري) ٢٧٥

الخضر (عليه السلام) ٢٨٥

ابن الخطيب (لسان الدين) ٥٣

ابن خلدون ٦٣

خارويه بن أحمد بن طولون ١٨١

خوجة قاسم (معماري) ١١٤

خير الدين (مهندس معماري) ١١٣

(د)

الدارمي ٨٩

داود باشا ٣٢٤

داود هيرشفلد ٨١

أبو داود (سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن

بشير الأزدي السجستاني) (صاحب السنن)

١٠٠، ٩٢

أبو الدرداء ٣٧

ابن دقماق ٨٨، ١٣٧

أبو دلف ١٠٦، ١١٦، ١٢٠

دوايت أيزنهاور ٣٤٨

دوسو ٥٩

دومنيكو (قديس) ١٥٩

الديار بكري ٩١

ديريك هيل ٢٦٩

(ذ)

أبو ذر الغفاري ٣٤

الذهبي (الحافظ) ٦٨

(ر)

الرازي (فخر الدين) ٢٨٠

راشد (مولى إدريس الحسني) ١٩٢

رافائيل ١٦

الرافعي ٨٩

ابن رشيد ٤٧

رمضان شحاتة ٣٢٩

أبو الريحان البيروني ٢٦٥

(ز)

زبيدة (زوجة هارون الرشيد) ١٦٧

الزجاج (أبو إسحاق) ٨٤، ٨٥

الزركشي (= محمد بن عبد الله الزركشي)

الزهري (محمد بن مسلم بن شهاب) ٦٧

زياد بن أبيه ٧٤، ٨٦، ١٣٧

زيادة الله بن الأغلب ٧٥، ١٠٦، ١٨٥

زيد بن ثابت (رضي الله عنه) ٧١

زيد النار (ابن الإمام موسى الكاظم) ٣٠٧

أبو زيد البلخي ٢٦٥

أبو زيد الفاسي ٢٨٠

زينب بنت علي (رضي الله عنها) ٢٠٣

(س)

سبكتكين الغزنوي ٢٨٧، ٢٨٩

سعاد ماهر (دكتورة) ٥٧، ٦٠، ٢٠٩، ٢٥٢

سعد بن خيثمة ٦٤

سعد زغلول ٢٠٨

سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) ٧٤

السعدي الشيرازي (= مسلم بن عبده)

سعود بن عبد العزيز آل سعود (ملك) ٧٣،

١٦٨

شاه زادة ١١٤
 شاور بن مجير بن نزار السعدى (وزير) ١٨١
 شرلكان (كارلوس الخامس) ١٩٩
 شفيق باشا ١٧٠
 شكر الله (خطاط تركى) ١٧٠
 شكسبير (وليام) ١٧٩
 شمس الدين الذهبى (الحافظ) ٦٨
 شمس الدين السمرقندى ٢٨٠
 شمس المكان ١٥٦

(ص)

صالح بن على (وال عباسى) ١٨١
 صالح بن كيسان ٧٢
 صعصعة بن سلام الشامى ٩٧
 صفى الدين (شيخ) ١٠٩
 صفى الدين الأردبيلى ٣٠٢، ٣٠١
 صلاح الدين الأيوبى (سلطان) ١٨١ ،
 ٣٢٩، ٣١٨، ٢٦٨، ٢٦٠، ٢٠٧، ٢٠٦
 صفيه (= صوفى)
 صوفى (جارية يونانية) ٣٢١

(ط)

الطبرانى ٣٧
 طغرل بك (سلطان) ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٩٩
 طلائع بن رزيك (وزير) ١٠٦، ١٢٢ ،
 ٢٥٤، ٢٥٠
 طه حسين (دكتور) ٢٠٨
 الطهطاوى (رفاعة رافع) ١٧٠، ٢٠٨

(ظ)

الظاهر (ال خليفة الفاطمى) ١١٩، ١٩٠، ١٩١

(ع)

عائشة بنت أبى بكر الصديق (رضى الله
 عنهما) ٣٥، ٦٨، ٩٩، ٢٩٥
 عباس الأكبر الصفوى (الشاه) ٣٠٢، ٣٠٤

سعيد بن عبد السلام (سحنون) ٢٢٨
 سلجوق (جد السلاجقة) ٢٧٤
 سليم الأول (سلطان) ١٦٧، ١٦٩
 سليم شيسى (ولى) ٢٩٢
 سليمان باشا ٣٢٤
 سليمان شيخ ٣٢٩
 سليمان بن عبد الملك (ال خليفة الأموى)
 ١١٥

سليمان الفخم ١٦٧
 سليمان القانونى (سلطان) ١٦٧، ١٦٨ ،
 ١٦٩، ٢٩٢
 سليمان بن قطلمش ٢٧٤
 السهمودى ٦٦، ٨٨
 سنان باشا (= سنان بن عبد المنان بن عبد الله)
 سنان بن عبد المنان بن عبد الله (سنان باشا)
 (مهندس معمارى) ١١٣، ١١٤، ١٦٧ ،
 ٣٢٥، ٣٤٣
 سهل ٦٧، ٦٨
 سهيل ٦٧، ٦٨
 السهلى ٦٧، ٦٨

سودة بنت زمعة (رضى الله عنها) ٦٨
 سيف الدولة الحمدانى (أمير) ١٣٣
 سيف الدين لاشين (لاجين) (سلطان)
 ١٦٩، ٢٠٥، ٢٠٦
 السيوطى (= جلال الدين السيوطى)

(ش)

الشاطبى (أبو القاسم الرعينى) ٢٠٦
 الشافعى (محمد بن إدريس) (الإمام) ٩٠ ،
 ٢٥٩، ٢٥٥
 شاه جاهان (إمبراطور) ١١٠، ١١١، ٢٩٢ ،
 ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٧
 شاه رخ ٢٨٥

عباس حلمى (الخدوي) ٢٠٦، ٢٠٧
 أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد
 الأغلبى (أمير) ٢٠١
 أبو العباس القرطبي (= القرطبي)
 أبو العباس المرسى (= المرسى)
 عبد الجبار (مهندس معمارى) ٢٨٤
 عبد الحميد (السلطان العثماني) ٣٤١
 عبد الحميد الأول (السلطان العثماني) ١٧٠
 عبد الحميد الثاني (السلطان العثماني) ١٨٩
 عبد الرحمن الأوسط (أمير) ١٠٨، ١٤٨،
 ١٩٦، ١٩٩
 عبد الرحمن الجبرتي ٢٠٨
 عبد الرحمن الداخل (أمير) ٩٦، ١١٩،
 ١٩٦، ٢١٥، ٢٤٤
 عبد الرحمن كتخدا (أمير) ٢٠٩، ٢١٠
 عبد الرحمن لطفى ٣٢٨
 عبد الرحمن الناصر (أمير) ٨٧، ١٠٨، ١١١،
 ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٤٥، ٢٩٢
 عبد الرحيم القناتى (ولى) ٣٢٢، ٣٢٩
 عبد الرزاق الصنعاني ٩٩
 عبد العزيز سالم ٦٠
 عبد العزيز آل سعود (ملك) ٧٣، ١٧٠،
 ٣٢٥
 عبد العزيز بن مروان (أمير) ١٨٠
 عبد الكريم معمورى (مهندس معمارى)
 ٢٩٧
 عبد الله بن إبراهيم بن أحمد الأغلبى (أمير)
 (= أبو العباس)
 عبد الله بن الزبير ١٨٣
 عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشى (أمير)
 ٣٥، ٥٠، ٥١
 عبد الله بن طاهر (والى عباسى) ١٨١،
 ١٩٠

عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) ٣٤، ٣٦
 عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) ٣٥، ٦٩
 عبد الله لطفى (مصور تركى) ١٦٧
 عبد الله النديم ٢٠٨
 عبد الله بن ياسين ٢٢٠
 أبو عبد الله بن بطة ٩٩
 أبو عبد الله القضاعى ٩٠، ٢٠٦، ٢٤٩
 أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى
 (الإمام) (= البخارى)
 عبد المجيد (السلطان العثماني) (= محمد
 السادس)
 عبد الملك بن صاحب الصلاة ٢٢٥
 عبد الملك بن مروان (الخليفة الأموى) ٦٩،
 ٧٥، ١١١، ١١٥، ١٢٦، ١٣٨، ١٨٢،
 ١٨٣، ١٨٨
 عبد المنعم العدوى ٢٨١
 عبد المؤمن بن على الكومى (الخليفة الموحدى)
 ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٣٦
 العبدري ٤٧، ٤٨
 عبدى بيرون ٢٨٦
 عبدى درون ٢٨٦
 عبيد الله أحرار (حضرة خاجاه) ٢٨٥
 أبو عبيدة ٨٥
 عتبة بن غزوان ٧٤
 عتيق على باشا ١١٢
 عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ٦٩، ٧١،
 ٧٢، ٩٥، ١١٧
 عثمان بن يغمراسن بن زيان، أبو سعيد
 (أمير) ٢٣٦
 ابن عذارى ٩٦
 ابن عربشاه ٢٧٧
 ابن عربى (= محبى الدين بن عربى)
 عروة بن الزبير ٦٧
 عروة بن مسعود ٨٤

العزیز بالله (نزار بن معد بن المنصور العبیدی)
(الخلیفة الفاطمی) ۲۰۶

عطاء الله بن أحد بن لطف الله (مهندس
معماری) ۲۹۷

عقبة بن نافع ۵۸، ۷۵، ۹۰، ۱۰۵، ۱۰۷،
۱۲۷، ۱۲۸، ۱۳۸، ۱۳۹، ۱۴۲، ۱۵۰،
۱۷۹، ۱۸۴، ۱۸۵، ۱۹۶، ۲۱۴، ۲۱۹،
۲۲۷، ۲۳۰، ۲۳۱، ۲۴۴

علاء الدين أقغا عبد الواحد (أمیر) ۲۰۹
علاء الدين إيلتوتمیش (سلطان) ۲۹۰،
۲۹۶

علاء الدين السمرقندی ۲۸۰
علاء الدين طبرس الخازندار (أمیر) ۲۰۹
على أكبری إصفاهانی (معماری) ۳۰۲
على ثابت (مهندس معماری) ۳۲۳
على بن الجهم ۱۱۳
على خیرت (مهندس معماری) ۳۲۳، ۳۲۹
على الرضا ۱۰۷، ۳۰۷
على بن سعيد ۲۰۶
على بن أبی طالب (رضی الله عنه) ۹۹،
۱۵۳، ۲۵۴

على عبد الرازق ۲۰۸
على مبارك ۱۷۰، ۲۰۸
على (ابن الإمام موسى الكاظم) ۳۰۷
على بن يوسف بن تاشفين المرابطی (أمیر)
۱۹۴، ۲۲۰

أبو على الحسن بن على (وزیر) ۲۶۸
عمر بن الخطاب (رضی الله عنه) ۳۶، ۶۷،
۷۱، ۷۲، ۹۴، ۱۵۳، ۱۷۱، ۱۸۲،
۱۹۰، ۲۶۵، ۳۵۰
عمر بن عبد العزيز (رضی الله عنه) ۷۲،
۸۸، ۹۰، ۱۷۲، ۲۲۷
عمر الحیّام ۳۰۶

عمر مکرم ۳۱۸، ۳۲۶، ۳۲۸
عمرو بن العاص ۵۸، ۷۴، ۸۹، ۹۰، ۹۴،
۱۰۵، ۱۱۶، ۱۳۷، ۱۳۸، ۱۵۰، ۱۵۳،
۱۷۵، ۱۷۷، ۱۷۸، ۱۸۰، ۲۱۴، ۲۲۷،
۲۴۹، ۲۵۲، ۳۱۸، ۳۱۹

العمری ۱۲۸
أبو عنان، فارس بن أبی الحسن على (سلطان)
۲۳۸

عيسى (عليه السلام) ۸۳، ۱۲۵، ۱۵۶،
العینی (الإمام) ۲۸۲

(غ)

غازان (ملك) ۲۷۵
الغزالی (أبو حامد) ۱۵، ۱۰۰، ۱۳۰،
۲۶۵
غمراسن (= يغمراسن بن زيان)
الغوری (الأشرف قانصوه) (سلطان) ۱۰۷،
۲۱۰، ۲۶۲، ۲۶۳
غياث الدين (سلطان) ۲۹۱
غياث الدين طغلق (أمیر) ۲۹۶

(ف)

فارس بن أبی الحسن على (سلطان) (=أبو
عنان)
فاروق الأول (ملك) ۳۲۹
فاطمة الزهراء (رضی الله عنها) ۱۷۰،
۳۰۸
فاطمة بنت علاء الدين السمرقندی ۲۸۰
فاطمة الفهرية (فاطمة بنت محمد بن عبد الله
الفهری) ۱۹۳، ۱۹۵
ابن فاطمة ۴۹
فخر الدين الرازی ۲۸۰
فخر الدين صاحب عطا (وزیر) ۲۷۶
الفرّاء ۸۵

فرانتس شوبرت ١١١
 فردريك جيارد (السَّير) (مهندس معمارى)
 ٣٤٣، ٣٤١، ٣٣٩
 الفردوسى (شاعر إيراني) ٣٠٦
 ابن الفرضى (أبو الوليد) ٩٧
 فرناندو (ملك) ١٩٩
 فرناندو الثالث (ملك) ٢٢٥
 فرنسيس (قديس) ١٥٩
 فريد شافعى (دكتور) ٥٧، ٦٠، ٨٧، ٨٨،
 ٩٤، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٣٩،
 ١٤٠، ١٥٣، ١٥٨، ١٨٢، ٢٥٢
 فسان مونتاي ٤٩، ٥٠
 فهد بن عبد العزيز آل سعود (ملك) ١٠
 فيرجيل سوليس ١٦٠
 فيصل بن عبد العزيز آل سعود (ملك) ١٦٩
 فيكتوريا (ملكة) ٢٨٧

(ق)

أبو القاسم الرعينى الشاطبى ٢٠٦
 قايتباى (الأشرف) (سلطان) ١٠٧، ١٧١،
 ١٨٩، ٢١٠، ٢٥٦، ٢٦١
 قايد بك ١٤٨
 قبلوق بن عبد الله (مهندس معمارى) ٢٧٦
 قتية بن مسلم الباهلى ٢٦٥، ٢٧٣
 القثم بن العباس (رضى الله عنه) ٢٨٣
 القرطبى (أبو العباس) ٩٩، ١٥٤
 قرّة بن شريك ٨٩، ١٨٠، ١٨١
 القسطلانى ٢٨٢
 القضاءى (أبو عبد الله) ٩٠، ٢٠٦، ٢٤٩
 قطب الدين أيك (سلطان) ٢٨٩، ٢٩٦
 قلاوون (سلطان) ١٠٧، ١٦٦، ٢٦١
 قمر الزمان ١٥٦

(ك)

كارل هاينريخ بيكر ٩٢، ٩٤
 كارلوس الخامس (إمبراطور) ١٩٩
 كافور الإخشيدي (أمير) ١٣٣
 كريستوفر كولبس ٦٤
 كريسويل ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٣، ٨٨، ٩٣،
 ١١٥، ١٨٤، ١٩٠، ٢٠٢
 كريم خان زند ٣٠٨
 كونل (إيرنست) ٥٩، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠،
 ١١١، ١١٥، ١١٦، ١٢٤

(ل)

لامانس (الأب) ٨٦
 لسان الدين بن الخطيب ٥٣
 لطف الله (شيخ) ٣٠٤
 لطف الله أحمد (مهندس معمارى) ٢٩٧
 لوى فيليب (ملك) ٣٢١
 لوى هوتكور ٢٥٣
 الليث بن المظفر ٨٥
 أبو الليث السمرقندى ٢٨٠
 ليوبولد توريس بالباس ٢٠٠
 ليون بن قسطنطين ١٧٦

(م)

ابن ماجه ٣٥، ١٠٠
 مادري شاه (حسين) (سلطان) ١٠٩
 ماريو روسى (مهندس معمارى) ٢٦٣،
 ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨،
 ٣٢٩، ٣٤٧
 مالك بن أنس (الإمام) ٣٤، ٩٧، ٢٢٨
 مالكوم إيكس ٣٤٦
 المأمون (الخليفة العباسى) ١٨١، ١٩٠
 المأمون (الخليفة الموحدى) ٢٢٢
 المتنبي (أبو الطيّب) ١٣٣
 المتوكل (الخليفة العباسى) ١١٨، ١٢٠، ٢٠٣

أبو المحاسن بن تغرى بردى ٥٨، ٢٦٠
 محمد (ع) ٩، ١٠، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧،
 ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٩، ٥١، ٥٣،
 ٥٨، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ٨٤،
 ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٤، ٩٩، ١٠٠، ١١٦،
 ١١٧، ١٢٤، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٤، ١٥٧،
 ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧١،
 ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ٢٣١،
 ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٩٥، ٢٩٨، ٣٠٨، ٣٣٠،
 ٣٥٠، ٣٤٩
 محمد بن إدريس الشافعى (= الشافعى)
 محمد بن إسماعيل البخارى (= البخارى)
 محمد أغا (مهندس معمارى) ١٦٧
 محمد الأموى (أمير) ١٥٤
 محمد بكتول ٣٤٩
 محمد بن تومرت ٢٢١، ٢٢٢
 محمد الجعفى (= البخارى)
 محمد الخامس (السلطان العثمانى) ٢١٩،
 ٣١٥، ٣٤١
 محمد رشاد (السلطان العثمانى) (= محمد
 الخامس)
 محمد رشيد رضا ٢٠٨
 محمد السادس (عبد المجيد) (السلطان
 العثمانى) ١٧٢، ٣٤١
 محمد صافى (وزير) ٣٠٠
 محمد بن طغج الإخشيد ١٨١
 محمد على (أمير) ٣٢٩
 محمد على باشا (والى مصر) ١٤٢، ١٦٨،
 ١٧٠، ١٧٢، ٢٠٦، ٢٦٣، ٣١٩، ٣٢٠،
 ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٤٨
 محمد بن عبد الرحمن الأوسط (أمير) ١٩٧
 محمد بن عبد الله الزركشى ٣٣، ٧٠، ٧٩، ٨٩،
 ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٥٤

محمد بن عبد الله الفهرى ١٩٣
 محمد عبده (الإمام) ٢٠٨
 محمد بن عبيد الله بن أحمد الحرّانى (المسبحى)،
 الأمير المختار، عزّ الملك) ٢٠٦
 محمد الفاتح (السلطان العثمانى) ١١٢
 محمد بن القاسم ٢٨٧
 محمد بن قلاوون (الناصر) (سلطان) ٢٠٩،
 ٢٥٩، ٢٦٢
 محمد كرم ٣١٨، ٣٢٧
 محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ٦٧
 محمد الناصر (ال خليفة الموحدى) ١٩٥
 محمد بن النعمان بن محمد ٢٠٦
 محمود الثانى (سلطان) ١٧٢
 محمود حسن (سفير) ٣٤٦
 محمود بن سبكتكين (سلطان) (= محمود
 الغزنوى)
 محمود عادل شاه ١١٠
 محمود العينى ٢٨٠
 محمود الغزنوى (سلطان) ١٠٦، ٢٦٥،
 ٢٧٤، ٢٨٧، ٢٨٩
 محبى الدين بن عربى ٤٨، ١٦٥، ٣٢٤
 أبو مدين (شعيب بن الحسن الأندلسى
 التلمسانى) (ولى) ٢٣٧
 مراد (سلطان) ١٧١
 مراد الأول (سلطان) ١١٢
 مراد الثالث (سلطان) ٣٢١، ٣٢٢
 مراد بك ٧٤، ١٨١، ١٨٢
 المراغى (محمد مصطفى) (الإمام) ٢٠٨
 المرجوشى ٢٥٤
 المرسى (أبو العباس) (ولى) ٣١٨، ٣٢٤،
 ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٤٧
 مرشد الشيرازى (مهندس معمارى) ٢٩٧
 مروان بن الحكم (ال خليفة الأموى) ١٥٣

المنصور ، أبو يوسف يعقوب (ال خليفة
الموحدى) ٢٢٦
أبو منصور ، إسماعيل بن ثعلب (قائد) ٢٥٥
ابن منظور (جمال الدين) ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١
المنفلوطى (مصطفى لطفى) ٢٠٨
المهدى (ال خليفة العباسى) ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ،
١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٩٠
المهدى السودانى (محمد أحمد) ٢٣٣
موسى (عليه السلام) ٨١ ، ٨٣
موسى الكاظم (الإمام) ٣٠٧
موسى بن نصير ٢٢٧
المؤيد (سلطان) ١٠٧
المؤيد شيخ (سلطان) ٢٦٢
ميخائيل (قديس) ١٥٩
مير أحمد (ابن الإمام موسى الكاظم) ٣٠٧
مير عبد الكريم (مهندس معمارى) ٢٩٧
ميرزا أولوغ بك ٢٨٤ ، ٢٨٥
ميسرة (مولى خديجة) ٦٥
ميشيليه ٦٢

(ن)

نادر شاه (شاه سلطان حسين) ٣٠٦ ، ٣٠٨
الناصر (خليفة) ٩٠
ناصرى خسرو (رحالة) ١٨١ ، ٢٩٩
الناصرى السعدى ٤٩
نافع ٣٥
نافع بن عبد القيس الفهرى ٢٢٧
نجيب الدين السمرقندى ٢٨٠
نظام الملك (= أبو على الحسن بن على)
نظامى (شاعر إيرانى) ٣٠٦
النعمان بن محمد ٢٠٦
نوح بن منصور السامانى ٢٧٤
النوى (يحيى بن شرف) (الإمام) ٧٠

مريم (عليها السلام) ١٥٦
مريم الفهرية (مريم بنت محمد بن عبد الله
الفهرى) ١٩٣ ، ١٩٥
المستنصر (ال خليفة العباسى) ٢٦٨
المستنصر (ال خليفة الفاطمى) ١٨١
المسعودى (على بن الحسين بن على) ٥٣ ،
١٧٦ ، ٦٣
مسلم بن الحجاج بن مسلم القشبرى
النيسابورى (الإمام) ١٥٤
مسلم بن عبده السعدى الشيرازى ٣٠٦
مسلمة بن مخلد الأنصارى ٧٤ ، ٨٩ ، ١٣٧ ،
١٨٠
المسيح (عليه السلام) (= عيسى)
مصطفى عبد الرازق (الإمام) ٢٠٨
معاوية بن أبى سفيان (ال خليفة الأموى) ٧٤ ،
٨٩ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٥٣ ،
١٥٤ ، ١٨٠
معاوية بن يزيد (ال خليفة الأموى) ١٣٧
المعتصم بالله (ال خليفة العباسى) ٢٠٢ ، ٢٦٧
معروف الإسكافى ٥٣ ، ٥٤
المعز بن باديس بن المنصور الصنهاجى ١٨٦
المعز لدين الله (ال خليفة الفاطمى) ٢٠٥ ،
٢٠٦ ، ٢٦٢ ، ٣٢٧
المقدام بن شريح ٩٩
المقدسى (رحالة) ٦٣ ، ٩٥ ، ١٩٠
المقرزى (تقى الدين) ٨٨ ، ٩٠ ، ١٣٧ ،
٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٣١٨
ملكشاه (سلطان) ٢٩٩ ، ٣٠٠
ممتاز محل ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨
المنصور ، أبو جعفر (ال خليفة العباسى) ١١٥ ،
١١٨ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٩٠
المنصور ، محمد بن أبى عامر (أمير) ٥٨ ،
١٥٢ ، ١٩٨ ، ١٩٩

النويرى (شهاب الدين) ٨٠

(هـ)

هارون الرشيد (ال خليفة العباسى) ٩٢ ،
٢٦٥ ، ١٦٧

هرمان ديتس ٥٩

أبو هريرة (رضى الله عنه) ٩٩

هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر (=)
هشام المؤيد

هشام الرضى (ملك) ١٩٦ ، ٢٤٤

هشام بن عبد الرحمن الداخل (= هشام
الرضى)

هشام بن عبد الملك (ال خليفة الأموى) ٧٥ ،
١١٥ ، ١٨٧

هشام المؤيد (ال خليفة الأموى الأندلسى)
١٩٨ ، ١٩٥

ابن هشام ٦٧

هلفيدو ٢٤٠

هلمان تشيمبرلين ٣٤٨

همايون (السلطان المغولى الهندى) ٢٩٧

هنرى باسيه ١٢٨

هنرى برجسون ١٣٤

هنرى تيراس ٥٩ ، ٩٣ ، ١٢٨ ، ٢٢٤

هنرى الثانى (ملك) ١٥٩

هوروفيتز (يعقوب) ٨١ ، ٨٦

هولاكو ٤٢ ، ٢٧٥

هيرتزفلد ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠

هيروود ١٩٠

(و)

الواقدى (محمد بن عمر) ٨٨

وحيد الدين (سلطان) ٣٤١

الوليد بن عبد الملك (ال خليفة الأموى) ٦٩ ،

٧٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ١١١ ، ١١٥ ،

١١٨ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٢٧ ،

٢٩٢

أبو الوليد بن الفرضى ٩٧

(ى)

يزيد بن حاتم ٧٥ ، ١٨٥

يزيد بن معاوية بن أبى سفيان (ال خليفة
الأموى) ١٣٧

يعقوب بن زيد ٣٦

يعقوب بن عبد الحق المرىنى (سلطان) ١٩٤ ،
١٩٥

يعقوب بن الليث الصفار ٣٠٦

يعقوب المنصور (ال خليفة الموحّدى) ٢٢٢ ،
٢٢٤

يعقوب هوروفيتز ٨١ ، ٨٦

أبو يعقوب يوسف (ال خليفة الموحّدى) (=)
يوسف بن عبد المؤمن

يغمراسن بن زيّان ، أبو يحيى (أمير) ٢٢٠ ،
٢٣٦

يمين الدولة محمود بن سبكتكين (= محمود
الغزنوى)

يوحنا (قديس) ١٨٧ ، ١٨٨

يوسف بن تاشفين (المرابطى) (أمير المسلمين)
٢٢٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩

يوسف بن عبد المؤمن ، أبو يعقوب (ال خليفة
الموحّدى) ١١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ،

٢٩٢

أبو يوسف يعقوب المرىنى (= يعقوب بن
عبد الحق المرىنى)

أبو يوسف المنصور (= يعقوب المنصور)

فهرس الأمم والأجناس والقبائل والآل والطوائف والجماعات

(i)

الآسيويون ١٢٧، ٣٤٦

آل إدريس ١٩٣

آل أيوب ١٢٠

آل بهلوى ٣٠٠

آل بويه (= البويهيون)

آل سعود ١٠، ٧٠، ٧٣، ١٦٨، ١٦٩،

١٧٠، ٣٢٣، ٣٢٥

آل عثمان ١٦٧، ١٦٩، ٣١٤، ٣٢٣،

٣٢٤، ٣٢٥

آل عمران ٢٨، ٢٠٤

آل مرين (= المرينيون)

الأئمة الاثنا عشر ٣٠٧، ٣٠٨

أئمة الشيعة ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨

الإباضيون ٢٢٨

الأتراك ١١١، ١١٢، ١١٤، ١٢٢، ١٢٣،

١٣٢، ١٤٢، ١٦٦، ٢٠٢، ٢٦٦، ٢٧٣،

٢٧٤، ٢٧٦، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٢٤، ٣٢٦،

٣٥٢، ٣٤٥

الأتراك السلاجقة ٢٧٣، ٢٧٤، ٣٠١

الأتراك العثمانيون ٤٣، ٨٠، ١١١، ١١٢،

١٢٣، ١٧٠، ١٧١، ١٩١، ٢٣٩، ٢٤٠،

٣١٤، ٣٠٢

الأدارسة (= آل إدريس)

الأزهريون ٢٠٨

الأساقفة ١٢٥، ١٣١

الإسبان ١٩٩، ٢٢٥، ٢٤٦، ٣٣١

أسرة زند ٣٠٨

الأسرة الصفوية (= الصفويون)

أسرة محمد علي ٢٦٣، ٣١٩، ٣٢٤

أشراف مكة ١٦٨

الأشغانيون ٢٦٦

الأعيان ٣١٩، ٣٢٤

الأغالبة ١٨٥، ٢٠١

الإغريق ٦٤، ١٦٠

الأفارقة ٢٣٣، ٣٤٠، ٣٤٥، ٣٤٦

الأقليات ٣٣٤

الأقليات الإسلامية ٣١٥، ٣٥٣

الأكراد ٢٠٧

الآلان ٢٨٨

الآلمان ٥٩، ٩٥، ٣٣٢، ٣٤٥

الأمريكيون ٣٤٦، ٣٤٩

الأمويون ٥٨، ٩٢، ١٠٠، ١١٩، ١٣٩،

١٥٠، ١٩٥، ١٩٦، ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٨٧،

٢٩٥

الأمويون الأندلسيون ٥٨، ١٥٠، ١٩٥،

١٩٦، ٢٩٥

الإنجليز ٥٩، ٦٠، ٩٥، ٢٨٧، ٣٠٢،

٣٢٢

الأندلسيون ٩٧، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٩،

٢٠١، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٤٦، ٢٧٠، ٣٢٤،

الأنصار ٦٦، ٦٧، ٦٨، ١٧١

أهل التركستان ٢٧٠

أهل الخليج العربي ٣٤٥

أهل الصُّفَّة ٩، ٦٧، ٦٨، ٧١

أهل القبلة ٨٣

أهل الكتاب ٢٥

أهل الكهف ٢٣

أوربة (قبيلة) ١٩٢

الأوربيون ٩٥ ، ١٥٩ ، ١٩٦ ، ٣٢٠ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٢
 أولاد عنان ٣٢٩
 الأولياء ٢٣٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٢٢
 الأبيريون ٢٨٧
 الإيرانيون ١٤٢ ، ٢٧٠ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ،
 ٣٣٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٤
 الإيطاليون ٣٢٣ ، ٣٢٠
 إيلخانات إيران (إيلخانات فارس) ١٢٣ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٢٧٥
 إيلخانات المغول ٣٠٤
 الأيوبيون (= آل أيوب)

(ب)

الباسك ٢٨٨
 الباكستانيون ٣٣٩ ، ٣٤٦
 البحاروة ٢٠٧
 البربر ١٢٧ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧
 البرتغاليون ٣٠٢ ، ٣٣٤
 البرنية ٢٠٧
 البروتستانت ٣٣٢ ، ٣٤٣
 البشكونس ٢٨٨
 البغداديون ٢٠٧
 بنو الأحمر ٢٣٥ ، ٢٤٧
 بنو إسرائيل ٢٣ ، ٨٤
 بنو الأغلب (= الأغالبة)
 بنو أمية (= الأمويون)
 بنو بزغتن (قبيلة) ١٩٢
 بنو جلال ٢٣١
 بنو حفص (= الحفصيون)
 بنو حماد ٢٣٧
 بنو الخير (قبيلة) ١٩٢
 بنو زياد ٢٦٦

بنو زيان ٢٣٦
 بنو زيري ٢٣٧
 بنو الساج ٢٦٦
 بنو سعادة ٢٣١
 بنو سلمة ٨٠
 بنو العبّاس (= العبّاسيون)
 بنو عبد الواد ٢٢٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧
 بنو عديّ بن النّجار ٥١ ، ٦٤
 بنو عيدي ٢٣١
 بنو مروان ٢٩٥
 بنو مرين (= المرينيون)
 بنو نصر ٢٤٧
 بنو هلال (= الهلاليون) (= عرب بنى
 هلال)

بنو واسين ٢٣٦
 البهلويون (= آل بهلوى)
 البوذيون ٤٢ ، ٢٩١
 البويهيون (آل بويه) ١٢٠ ، ١٢٢ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤
 البيت الأموى الأندلسى (= الأمويون
 الأندلسيون)
 البيزنطيون ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٨٣

(ت)

التابعون ٢٢٧ ، ٢٩٥
 التتار ٢٧٥
 التتارنيون ٣٣٦
 التيموريون ٣٠٠

(ج)

الجاليات الإسلامية ٣١١ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ،
 ٣٤٦ ، ٣٤٣
 الجاوية ٢٠٧
 الجبرتية ٢٠٧

٣٠٠، ٢٩٩، ٢٩٥، ٢٧٨، ٢٧٤، ٢٦٨

سلاجقة الروم ١٤٢، ٢٧٤،

السَّارِيَّة ٢٠٧

السويف ٢٨٧

(ش)

الشراقة ٢٠٧

الشرق العربي ١١٦

الشعب المصري ٣١٩، ٣٢٤

شعراء العرب ١٣٢

الشعوب الإفريقية ٣٣٦

الشعوب الإيرانية ٢٦٤، ٣٠٠، ٣٠٢

الشعوب التركية ٢٦٤

الشعوب القوقازية ٢٦٤

الشفوانية ٢٠٧

الشماسة ١٢٥

الشوام (الشاميون) ٩٧، ١٨٣، ٢٠٧

الشيعة ٢٦٨، ٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨،

٣٢٣

الشيعة الإيرانيون ٣٠٢

الشيوخ ١٣٠

(ص)

الصحابة ١٦٥، ١٨٠، ٢٩٥

الصعايدة ٢٠٧

الصفويون ١٠٨، ١٢٤، ٣٠٠، ٣٠١،

٣٠٣

الصلبيون ٤٢، ١٢٣

صنهاجة (قبيلة) ٢٢٧

الصنهاجيون ٢٣٧

الصفويون ٢٣٧، ٣٠١

(ط)

الطوقوز ٢٦٦

الجزائريون ٢٤١، ٣٤٢، ٣٤٥

الجماعة الصوفية ٢٣٧، ٣٠١

(ح)

الحفصيون ١٨٦، ٢٣٥

حَمِير ٨٦

الحنابلة ٢٠٧

الحواتون ٢٤١

(خ)

الخصوم ٢٠١

الخلفاء الراشدون ٤٥، ١٥٣، ١٥٧،

٢٨٧، ٣٤٩، ٣٥٠

(د)

الدعاة ٣١٦، ٣٣٥

(ر)

الروس ٢٧٩، ٢٨٣

الروم ٧٢، ١١١، ١٢١، ١٧٦، ١٨٣،

٢٧٣

الرومان ٦٤، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٩،

١٥٦، ١٦٠، ١٩٧، ٢٨٧

(ز)

زناتة (قبيلة) ١٩٢، ٢٢٧

الزناتيون ٢٣٦

زواغة (قبيلة) ١٩٢

زواوة (قبيلة) ١٩٢

(س)

الساسانيون ١٢١

السامانيون ٣٠١

سدرانة (قبيلة) ١٩٢

السدنة ١٣٢

السلاجقة ١٢٠، ١٤٢، ٢٦٦، ٢٦٧،

(ع)

العالم الإسلامي ٣٣٩
العالم الجديد ٣٤٩، ٣٤٦
العالم العربي ٣٤١
العبّاسيون ١٢٣، ١٩٢، ٢٦٧، ٢٧٥
العثمانيون (= آل عثمان)
العراقيون ٢٠٧

العرب ١٧، ٥٩، ٦٠، ١١٣، ١١٨،
١٢١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٧، ١٥٩،
١٦١، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٤٨، ٢٦٤، ٢٧٣،
٢٨٧، ٢٨٨، ٣٢٤، ٣٤١، ٣٤٦

عرب بنى هلال ١٨٦، ٢٣١، ٢٣٦

العرب المستعجمون ٢٤٤

العُرفاء (المهندسون) ١٣٤، ١٦٨، ١٧٢،
١٨٣، ٢٢٥

العناصر الإيرانية ٢٧٣

العناصر التركية ٢٧٤

عنان (انظر: أولاد عنان)

(غ)

الغرب ١٢٦، ١٤٧، ٢١٣، ٢٧١، ٣١١،
٣٤٣

الغرب الإسلامي ٩٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦،
١٥٥، ١٦٠، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٢، ٢١٩،
٢٢٢، ٢٣٦

الغرب الأمريكي ٣٣٨

الغرب الأوربي ٣٣٨

الغربيون ١٤٧، ١٦١، ٢٧١، ٣١٥، ٣٤٣

الغزّ (الغوز) ٢٦٦

الغزنويون ٢٦٦، ٢٧٤، ٢٨٩

غمارة (قبيلة) ١٩٢

الغوريون ١٢٤، ٢٩٦

غياثة (قبيلة) ١٩٢

(ف)

الفاطميون ٤٧، ١٢٠، ١٢٧، ١٨١،
١٨٦، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥

الفرس ١٢١، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧،
٢٩٦، ٣٠١

الفرنسيون ٥٩، ٩٥، ١٩٥، ٢٢٩، ٢٣٦،
٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٣١،
٣٣٢، ٣٤٢

الفيومية ٢٠٧

(ق)

القاجاريون ٣٠٠

القبائل البربرية ٢٢٧، ٢٣١

القبائل المصمودية ٢٢١

القبط ٨٨

القره خانية ٢٦٦

قريش (قبيلة) ٢٩، ٩١، ١٦٨

القسس (القساوسة) ١٢٥، ١٢٩، ٢٠٠،
٢٢٥

القوط ٢٨٧

القوّة ١٣٢

القيروانيون ١٧٧، ١٩٣

(ك)

الكاثوليك ٣٣٢، ٣٣٤

الكرادلة ١٢٥

كعب بن سليم (قبيلة) ٤٨

(ل)

لماية (قبيلة) ١٩٢

(م)

الماليزيون ٣٣٤

المبشرون ٣١٦

المجتمع العباسي العراقي ٢٧٣

المحامون ٢٠١

المدجنون ٢٤٦

المرايطون ١٢٣، ١٢٨، ٢١٩، ٢٢٠،

٢٢١، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٤٠،

المريثيون (آل مريث) (بنو مريث) ١٠٨،

٢١٩، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٩٥، ٣٣٢،

المساتير ٣١٩

المستشرقون ١٦٠

المستعربون ٢٤٦

مسرارة (مصرارة) (قبيلة) ١٩٢

المسيحيون ٤٢، ٨١، ٢٨٧،

المشرق ١٥٨، ١٦٠، ٢٢٨،

المصريون ٦٤، ٧٣، ٨٨، ١٢٢، ١٢٧،

١٤١، ١٤٤، ١٤٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٨،

٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٩، ٢٦٢،

٢٧٦، ٣١٤، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤،

المغاربة ١٤٨، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨،

٢٣٣، ٢٣٤، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٤٥،

المغاير ٢٣١

المغول ٤٢، ١٠٦، ١٢٣، ٢٦٩، ٢٧٥،

٢٧٦، ٢٧٩، ٢٩٤، ٢٩٧، ٣٠٤،

مغول فارس ٢٧٦

مغول الهند ٢٩٧

مكناسة (قبيلة) ١٩٢

الملحدون ٣٥٤

ملوك غرناطة ٢٤٧

الممالك ٤٢، ٧٤، ١٣٢، ١٤٨، ١٦٦،

١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٨١، ١٩١،

٢٠٦، ٢٠٩، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٦٠، ٢٦٢،

٣٢٤، ٢٦٣

ممالك الهند ٢٨٩

المهاجرون ٦٦، ٦٨،

الموحدون ١١١، ١٢٣، ١٢٨، ١٩٥،

٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥،

٢٣٥، ٢٣٦، ٢٩٥،

الموريسكيون ٢٤٤

المياسير ٣١٩

(ن)

نايل (انظر : وُلد نايل)

النصارى ٣٦، ٦٥، ٨٨، ٩١، ١٨٨،

٢٤٦

نصارى نجران ٨٦، ٩١،

نفزة (قبيلة) ١٩٢

النورمان ١٢٣

(هـ)

هرغة (قبيلة) ٢٢١

الهلاليون (بنو هلال) (= عرب بني هلال)

الهندوكيون ٤٢

الهندود ٢٠٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٤، ٢٩٧،

٢٩٨، ٣٤٠، ٣٤٦،

(و)

الوكلاء ٢٠١

ولاية الأتراك (ولاية العثمانيين) ٣٢٤

وُلد نايل ٢٣١

(ي)

اليمنيون ٢٠٧

اليهود ٣٦، ٦٥، ٦٦، ٨١، ٣٤٩،

اليوغسلافيون ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥،

اليونانيون ١٤٤، ١٤٩، ١٥٦، ٣٢٣،



فهرس الدول والبلاد والأماكن والمعالم الجغرافية

الإسكندرية ٤٨ ، ٩٢ ، ١١٢ ، ٢١٩ ،
 ٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٤ ، ٣٢٢ ، ٣١٩ ، ٣١٨
 ٣٢٩ ، ٣٢٨
 الإسكندرية (ميناء) ٣٢٨
 إسلام آباد (إسلام آباد) ٣٣٣
 أسوان ١٤٠
 أسيسى ١٥٩
 إشبيلية ١١١ ، ١٢٣ ، ١٤٣ ، ١٥٥ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٧٨
 أشير ٢٣٧
 أصفهان (إصفاهان) ٤٢ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ،
 ١٢٤ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٣٢
 الأطلس (جبال) ٢٢١
 إفريقية (إفريقيا) ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
 ٥٨ ، ٩٠ ، ١٢٨ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ، ٢٠٨ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،
 ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٦ ،
 ٣٥٢
 إفريقية (إفريقيا) الوسطى (جمهورية) ٥٢
 أفغانستان ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
 ٢٨٦
 الأقصر ٢٣٢
 أغادير ٢١٨ ، ٢٣٦
 ألباما (جبال) ٣٤٨
 ألبانيا ٣٤٣
 البرت (جبال) ٢٤٨
 ألمانيا ١١ ، ١٠٥ ، ١٦٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٥
 المرية ٢٤٦

(i)

أذربيجان (أذربيجان) ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢ ،
 ٢٨٠ ، ٣٠٨
 أرال (بحيرة) ٢٦٤
 الآستانة ٤٢ ، ١١٢ ، ١٣٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٢
 آسيا ١٠ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٢٣ ، ١٤٤ ،
 ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ ، ٣٠٢ ،
 ٣١١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢
 آسيا الصغرى ٩٨ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١٤٢ ،
 ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧
 آسيا الوسطى ٢٧٤ ، ٢٨٠
 الأبيوض (وادي) ٢٣٠
 الاتحاد السوفيتي ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
 أجرا ١١٠ ، ٢٩٢
 أدنة ١١٤
 الأرجنتين ٣٥٠
 أردبيل ١٠٩
 أرزروم (أرض الروم) ٢٧٣
 أرض الله الحرام ١٦٦
 أرمينية (أرمينيا) ١٠٦
 إريتريا ٥٢
 إريفان ١٠٩ ، ٣٠٥
 أوزبكستان (أوزبكستان) ٢٨٠
 الأزهر (ميدان) ٢٠٦ ، ٢٠٩
 إسبانيا ١١١ ، ١٢٦ ، ٢٢٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
 ٢٤٧
 إستانبول (إسطنبول) ١١٣
 أستراليا ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٩ ،
 ٣٥٠

٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨٦، ٢٩٩، ٣٠٠،
 ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦،
 ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٤١،
 ٣٤٨
 إيرانشهر ٢٦٤
 إيريان الغربية (جزيرة) ٣١٦، ٣١٥، ٥٢
 إيطاليا ١٥٠، ١٥٩، ٣٢٥
 إيلياء ٩٠

(ب)

باب البحر (من أبواب سوسة) ٢٠١
 بابل ١٢٢، ١٢٧، ٢٠٣
 باريس ٤٢، ٦٣، ٣١٢، ٣٤١، ٣٤٢،
 ٣٤٣، ٣٤٦
 بافيا ١٥٩
 باكستان ٧٣، ٢٦٤، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٧،
 ٢٨٨، ٣١٦، ٣٣٣، ٣٤٦
 بالس ١٠٦
 بالي (جزيرة) ٥٢، ٣٣٤
 البامير (هضبة) ٢٦٥
 بجاية ٢٣٧
 البحر الأبيض المتوسط ١٢٣، ٢٣٥، ٢٤١،
 ٢٦٧، ٢٦٩
 البحر الأحمر ٣٣٥
 بحيرة طبرية ١١٥
 بخارى ١٠٧، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٣،
 ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٥
 بخشي جاهان (ميدان) ٣٠٢، ٣٠٣
 البرازيل ٣٤٤
 برازيليا ٣٤٤
 البرج (قرية) ٢٣٢
 برسو بوليس (مدينة الفرس) ٣٠١
 بركة ٢٢٧

الإمبراطورية العثمانية ١١٢
 إمبراطورية المغول ٢٧٥
 أم درمان ٢٣٣
 أمريكا الجنوبية (اللاتينية) ١٨، ٢٥١،
 ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢
 أمريكا الوسطى ٣٤٦
 الأمريكتان (الشمالية والجنوبية) ٣٣٨، ٣١٤
 أمير الجيوش (شارع) ٢٥٥
 الأناضول ١١١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤
 إنجلترا ٦٠، ١٢٦، ٣١٢، ٣١٤، ٣٢٣،
 ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٣
 أنجولا ٣١٧
 الأندلس ١٠، ٤٨، ٥٨، ٨٤، ٩٧، ٩٨،
 ١٠٠، ١٠٧، ١٠٨، ١١٦، ١١٩، ١٢٣،
 ١٢٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٧٧، ١٨٧،
 ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢١٥، ٢١٧،
 ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧،
 ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧،
 ٢٤٨، ٢٧٠، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٢٤، ٣٤٢
 إندونيسيا ١٠، ٥٢، ١٤٢، ٣١٤، ٣١٥،
 ٣١٦، ٣١٧، ٣٣٣، ٣٣٤
 الأوراس (جبال) ٢٣١
 أوروبا ١١، ٤١، ١٢٦، ١٤٢، ١٤٧،
 ١٤٨، ١٧٦، ٢٠٠، ٢٢٦، ٢٤٠، ٢٤٦،
 ٣١٤، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢،
 ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٩
 أوزغند ٢٧٣، ٢٧٩
 أوغندا ٥٢
 أولاد جلال ٢٣٢
 إيران ٥٣، ٩٧، ١٠٦، ١٠٨، ١٢٤،
 ١٢٧، ١٥١، ٢١٥، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٦٤،
 ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣

بنارس ٢٩١
البنجاب (حوض السند) ١٠٩
بنجلاديش ٣٣٣
البندية ٤٢
البنستير ٢٢٨
البنغال ٢٩١، ١٦٥، ١٠٩
بورسعيد ٣٢٨
بورما ٥٢
بورنيو (جزيرة) ٣١٤، ٥٢
بو سعادة ٢٣١
البوسفور (مضيق) ٢٩٥
البوسنة والهرسك ٣٤٤، ٣٤٣
بو شقرون ٢٣٢
بولونيا ١٥٩
بونة ٢٤٢
بيرو ٣٥٠
بيشاور ١١٠، ١٠٩

(ت)

التابتي (نهر) ٢٩٧
تاجكستان (طاجكستان) ٢٨٠
تازا (نهر) ٢٤٠
تافلنت (إقليم) ٢٢٠
تاهرت ٢٣٩
تايلاند ٥٢
تبريز ٣٠٢، ٢٧٥، ٢٧٣، ١٢٣، ١٠٧
٣٣٢
التحرير (ميدان) ٣٢٨، ٣١٨
التركستان (إقليم) ٢٦٥، ٢١٥، ١٢٧
٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٨
٢٧٩
تركيا ٩٨، ١٤٢، ١٦٩، ٢٢٩، ٢٣٥
٢٧٣، ٢٨٦، ٣٠٢، ٣١٤، ٣٤١، ٣٤٣
٣٤٨

برلين ٣٤٥
برمنجهام ٣٣٩
البرنو ٢٠٧
برهان بور ٢٩٧
بروسنة ١١١، ١١٢، ٢٩٥
بريتشرينو ٣٤٣
بريستول (ميناء) ٣٣٩
بريطانيا (= إنجلترا)
بريوني (سلطنة) ٣٣٣، ٣١٤
بسكرة ٢٣٠
البشاشة (حارة) ٢٠٧
البصرة ٧٤، ٨٩، ١٠٥، ١١٦، ١١٨،
١٣٧، ١٧٥، ١٨٠
بغداد ١٠٦، ١٠٩، ١١٥، ١٣٢، ٢٠٢،
٢٠٧، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٤، ٢٧٥
بكين ٢٧٥
البلاد الإسلامية ١٦٠، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٧،
٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٧، ٣٥٢، ٣٥٣
البلاد الإسلامية الحديثة ٣١٣
البلاد الإسلامية الشمالية ٩٨
البلاد الإسلامية الكبرى ٣٥٤
البلاد الإفريقية ٣٣٧، ٣٥٢
البلاد الأمريكية اللاتينية ٣٥٢
بلاد الترك ٢٦٦
بلاد الجزيرة (شمال العراق) ٢٦٩
بلاد الخليج العربي ١٠، ٢٦٧، ٣١٤
بلاد الرافدين ١٢٧
بلاد الروم ١١١
البلاد العربية ٩٧، ٣١٧، ٣٣٨، ٣٤٠،
٣٤٦
بلاياوث (ميناء) ٣٣٩
بلخ ٢٦٥، ٢٧٣
البلد الحرام (= مكة المكرمة)

ترمذ ٢٨٠، ٢٧٣، ٢٦٥

تشاد ٢٠٧، ٥٢، ٥٠

تطوان ٣٣٢

تطيلة ٩٨

تلمسان ٢٢٠، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧،

٢٣٨، ٢٣٩

تماسين ٢٣٢

تنزانيا ٥٢، ٣١٦، ٣١٧، ٣٣٥، ٣٣٦،

٣٣٧

تهودة ٢٣٠

توجور ٢٣١

توقات ٢٧٣

توقرت ٢٣٢

تونس ٤٧، ٥٣، ٩٢، ٩٣، ٢٠١، ٢٠٢،

٢١٩، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٩٥، ٣٣٢،

٣٤١

تياتشان (جبال) ٢٦٥

تينملل (تينمال) ٢٢١، ٢٢٢، ٢٩٥

تيمور (جزر) ٣٣٤

(ج)

الجابون ٣١٦، ٣١٧

جاونبور (جوانبور) ١٠٩، ٢٩١

جبرت ٢٠٧

جبل طارق ٢٤٨

جلدة ٣١٦

الجزائر ١٢٣، ٢٠٢، ٢١٤، ٢٢٩، ٢٣٠،

٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٠،

٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٣٤١

جزائر بني مزغنا ٢٣٩

جزر تيمور ٣٣٤

الجزيرة (بلاد) ٢٧٢

الجزيرة العربية ١٠

الجسر ١١٤

الجمالية (حتى) ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦١

الجمنا (الجمونا) (نهر) ١١٠، ٢٩٨

الجمهوريات التجارية الإيطالية ١٢٣

الجمهوريات السوفيتية ٢٦٤، ٢٧٩،

٢٨٠

جنيف ٣٤٥

جوبى ٢٧٥

جوجارات ١٠٩

جوسيو (حتى) ٣٤٢

جولكوندا ١٠٩

جوليارجا ٢٩٠

جيحون (نهر) ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٣

الجزاوية (حارة) ٢٠٧

(ح)

الحبشة ١٠، ٨٦، ٢٠٧

الحجاز ٥٨، ١٢٣، ١٦٥، ١٦٨، ١٧١،

٢٨٠، ٣٢٤

حراء (غار) ١٦٥، ١٦٦

حضر موت ٧٣

حلب ٤٢، ١٣٩، ١٧٦

حوض البحر الأبيض المتوسط ٢٦٧

حوض السند ١٠٩

الحق اللاتيني ٣٤٢

(خ)

خاجاه صاحب (قرية) ٢٨١

خراسان ٢٦٤، ٢٨٠

الخليج العربي ١٠، ٢٦٧، ٣١٤

خوارزم (إقليم) ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦،

٢٧٩

(د)

الدامغان ٢٦٤، ٢٧٣

داهومي ٥٢

الدولة الأيسورية ١٧٦
 دولة إيلخانات فارس ١٢٣، ٢٧٥، ٣٠٠،
 ٣٠١
 الدولة الأيوبية ١٢٠، ٢٠٧
 دولة بنى زياد ٢٦٦
 دولة بنى الساج ٢٦٦
 دولة بنى عبد الواد ٢٣٦
 دولة بنى مَربن ٢١٩
 الدولة البهلوية ٣٠٠
 الدولة البويبية ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٣،
 ٢٧٤
 الدولة البيزنطية ١٧٦، ١٨٣، ٢٦٦، ٢٧٤
 الدولة التيمورية ٣٠٠
 الدولة السامانية ٢٦٦، ٣٠١
 دولة السلاجقة (الدولة السلجوقية) ٢٦٦،
 ٢٦٧، ٢٦٨، ٣٠١
 دولة سلاجقة الأتراك (الدولة السلجوقية
 التركية) ١٢٢
 دولة سلاجقة الروم ٢٧٤
 الدولة الصفارية ٢٦٦، ٣٠٦، ٣٠٧
 الدولة الصفوية ١٢٤، ٢٦٩، ٣٠٠، ٣٠١
 الدولة العباسية ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٧،
 ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٣٠٧
 الدولة العثمانية ١١١، ١١٢، ١٢٤، ٢٠٩،
 ٢٧٧، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٤١
 دولة الغزنويين ٢٦٦
 دولة الغوريين ٢٩٠، ٢٩٦
 الدولة الفاطمية ٤٧، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٧،
 ٢٥٤، ٢٦٨
 الدولة الفاجارية ٣٠٠، ٣٠٨
 دولة المرابطين ١٢٨، ٢١٩، ٢٢٩
 دولة المماليك (الدولة المملوكية) ١٢٣،
 ٢٤٩

درافنك ٣٤٣
 درعة (وادی) ٢٢٠
 دسوق ٣٢٢
 دفرجي ٢٧٣، ٢٧٤
 دكا ١٦٥، ٣٣٣
 الدكن ٢٩٢
 دلهي ٤٢، ١٠٦، ١١٠، ١٤١، ٢٨٩،
 ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣١١
 دمشق ٤٣، ٧٥، ٨٨، ٩٤، ٩٩، ١٠٥،
 ١١٣، ١١٥، ١١٨، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٨،
 ١٣٩، ١٤٦، ١٥٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨،
 ١٨٧، ١٩٥، ١٩٧، ٢٥٤، ٢٦٠، ٢٧٥،
 ٢٧٧
 الدوسن ٢٣٢
 الدول الآسيوية ٣٣٧، ٣٥٢
 الدول الإسلامية ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٨،
 ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٧، ٣٥٣
 الدول الإسلامية الحديثة ٣١٣، ٣١٥
 الدول الإسلامية الكبرى ٣٥٤
 الدول الإسلامية المغولية ١٢٣
 الدول الإفريقية ٣٣٧، ٣٥٢
 الدول الأمريكية اللاتينية ٣٥٢
 الدول الأوربية ٣٢٣
 دول إيران القديمة ٢٦٦
 دول الخليج العربي ١٠، ٣١٤
 الدول العربية ٩٧، ٣١٧، ٣٣٨، ٣٤٠
 الدول الكبرى (العظمى) ٣٣٦
 دول المغرب الكبرى ١٢٣
 الدول الإسلامية ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٧٤
 الدولة الإخشيدية ٢٠٦
 الدولة الإدريسية ١٩٣
 الدولة الأموية ٢٦٧، ٢٧٣

(س)

الساباط (عمر) ١٥٤
ساحل العاج ٥٢، ٣١٧
سامراء (سامراء - سُرمَنْ رَأَى) ١٠٩، ١٠٦،
١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٧، ١٣٢،
٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٥٣، ٣٠٦
سان فرانسيسكو ٣٤٨
سبته ٢٢٠
سبو (نهر - وادي) ١٩٢
سجستان ٢٦٦
سجلهاسه ٢٢٠
سراجيفو (سراجيفو) ٣٤٣
سرقسطه ٩٨
سكوبي ٣٤٣
سلا ١٠٨
سلطانية ٢٧٣، ٢٧٦
سلطنة بريوني ٣١٤، ٣٣٣
سلطنة صباح ٣١٤، ٣٣٣
سلوفينيا ٣٤٣
السليمانية (حارة) ٢٠٧
سمرقند ٤٢، ١٠٧، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧١،
٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠،
٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٥
سنار ٢٠٧
السند ٢٨٧
السنغال ٤٩، ٢١٩، ٢٣٤، ٣٣٦، ٣٣٧
سهرام ١١٠
سوئهايتون (ميناء) ٣٣٩
السودان ٤٩، ٥٠، ٢٠٧، ٢٥١
سوريا ٧٣
السوس ٢٢٧
السوس الأدنى ٢٢١

دولة الموحدين (الدولة الموحّدية) ١٢٨ ،
٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٦
ديار بكر ٢٧٣
ديترويت ٣٤٨

(و)

الرباط ١٠٨، ١١١، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٣٧،
٢٤٣، ٣٣١، ٣٣٢
الربض ١٠٠
الرصافة ١١٤
الرقه ١١٥، ١١٨
الرمّل (حتى) ٣١٨
الرملة ١١٥
روسيا ١٠، ٢٧٩
الروضة (حتى) ١١٦
روما ٤٢، ١١٣، ١٢٥، ١٥٩، ١٧٦،
٣٢٣
الروملي ١١١
الرتي ٢٦٧، ٢٧٥
ريجنّت (حتى) ٣٣٩، ٣٤٠

(ز)

زائر ٥٢
زالغ (جبل) ١٩٢
زامبيا ٥٢، ٣١٧، ٣٣٦، ٣٣٧
زاوية بني خالد ٢٣٢
الزرافه (حارة) ٢٠٧
زغرب ٣٤٣
الزمالك (حتى) ٣١٨، ٣٢٨
الزهارة (حارة) ٢٠٧
الزهراء (مدينة) ٢٠٢، ٢٤٥، ٢٤٦
زويلة (واحة) ٢٢٧
الزيان (إقليم) ٢٣١، ٢٣٢

(ص)

صباح (سلطنة) ٣١٤، ٣٣٣
الصحراء الإفريقية ٣٣٥
الصحراء الكبرى ٣٣٥
الصحراء الليبية ٢٢٧
الصعيد ٢٠٧
الصفاء والمروة ٢٨
صقلية (جزيرة) ١٥٠
الصين ٤١، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٣،
٢٧٧، ٣٠٢، ٣٣٧

(ط)

الطائف ٨٤
طاجكستان (= تاجكستان)
طارق (جبل) ٢٤٨
طبرستان ٢٦٦
طبرية (بحيرة) ١١٥
طرابلس ٤٨، ٢٢٧
طشقند ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٩، ٢٨٥
طليطلة ٩٨، ٢٤٥، ٣٤٥
طنطا ٣٢٢
طهران ٣٠٨، ٣٣٣
الطور ٢٩
طوس ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٣
ابن طولون (ميدان) ١١٦

(ع)

العالية ١٩٢
عامل (جبل) ٣٠٤
عاني ١٠٦
العباد ٣٣٧
عدوة الأندلسيين (فاس الأولى) ١٩٢،
١٩٣
عدوة القرويين ١٩٣

سوسة ١٠٨، ١١٥، ١١٦، ١١٩، ١٢٧،
١٧٥، ٢٠١، ٢٢٨
سُوف (قرية) ٢٣٣
سيحون (نهر) ٢٦٥
السيدة زينب (حيّ) ٢٠٣، ٢٦٠
سيدى عقبة (واحة) ٢٣٠
سيراليون ٥٢
سيكاندرا ١١٠
سيكيانج (مقاطعة) ٢٦٥
سيواس ١٠٦، ٢٧٣، ٢٧٦

(ش)

الشام ٦٥، ٦٩، ٧٢، ٨٩، ١٠٦، ١٠٧،
١١٦، ١٢٣، ١٢٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١،
١٤٢، ١٧٦، ١٨٣، ١٨٩، ٢٠٧، ٢٥٥،
٢٦٧، ٢٦٨، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٤٨
الشمال الإفريقي ٣٣٥
شمال العراق ٢٦٩
شبه الجزيرة الأيبيرية ٢٢٧، ٢٤٨، ٢٨٧
شبه الجزيرة الهندية ١٠٩، ١٦٥، ٢٨٨،
٣٣٣
شبه القارة الهندية ٩٧، ٢٨٨، ٢٩٢
شتوتجارت ١٠٥
الشرق الأقصى ٢٧٦
الشرقية (محافظة) ٢٠٧
شقوبية ١٢٨، ١٩٧
الشلال (بلدة) ١٤٠
شلف (وادي) ٢٣٥
الشنوانى (شارع) ٢٠٦
شهرى باز ٢٧٣، ٢٧٩
شيراز ٣٠٦، ٣٠٨
شيكاغو (شيكاغو) ٣٤٩
شيل ٣٥٠

العرائش ٣٣٢

العراق ٥٣، ١٠٦، ١١٦، ١٢٠، ١٢٣،
١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ٢٢٨، ٢٤٩،
٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٤، ٢٧٥،
٢٨٠، ٣٠٦، ٣١٢، ٣٢٣، ٣٢٤

عسقلان ٢٥٤

العقفي (حارة) ٢٠٧

العقبة ١٧١

عنابة ٢٤٢

العواصم الغربية ٣١١

(غ)

غانة (غانا) ٤٩، ٥٢، ٣١٧، ٣٣٧

غرب آسيا ١٢٣

غرداية ٢٣١، ٢٣٢

غرناطة ٥٣، ١٠٨، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨،

٢٤٦، ٢٤٧، ٣٢٩، ٣٤٥

غزنة ٢٧٢، ٢٧٣

غمدان ٨٤

الغورية (شارع) ٢٦٢

غينيا ٥٢، ٢٣٤، ٣٣٦

غينيا البرتغالية ٣٣٦

غينيا الجديدة (جزيرة) ٣١٥

(ف)

فاتح بور سيكري ٢٩١، ٢٩٣

فارس (إقليم) ١٢٣، ١٣٩، ٢٦٧، ٢٧٥،

٢٧٦، ٣٠٠، ٣٠١

فاس ١٤٣، ١٧٥، ١٧٧، ١٩٢، ١٩٣،

١٩٤، ١٩٥، ٢١٩، ٢٣٧، ٣٣١، ٣٣٢،

٣٤٢

فاس (وادي) ١٩٢

فرنسا ١١، ٥٩، ٦٣، ١٢٦، ١٥٩، ٢٤٧،

٣١٢، ٣٢١، ٣٣٢، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢،

٣٤٣

فزان (واحة) ٥٠، ٢٢٧، ٢٤٣

الفسطاط ٧٤، ٨٩، ٩٣، ٩٤، ١٠٥، ١١٦،

١١٨، ١٢٢، ١٣٧، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧،

١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٤٩،

٢٦٠، ٢٩٥، ٣١٨

الفلين ١٨، ٥٢، ٢٠٨، ٣١٧، ٣٣٥،

٣٣٧

الفولتا ٥٠، ٥٢

فيتنام ٥٢

فيسوكو ٣٤٤

الفيوم (محافظة) ٢٠٧

(ق)

القارة الإفريقية ٣٣٦

القارتان الأمريكيتان ٣٣٨

قازاقستان (كازاخستان) ٢٨٠

قاسيون (جبل) ٣٢٤

القاهرة ١٠، ١٥، ٤٢، ٥٧، ٦٠، ٦١، ٦٣،

٧٠، ٨٠، ٨٧، ٩٦، ١٠٥، ١١٦، ١٢٢،

١٤٢، ١٤٨، ١٥٠، ١٦٥، ١٦٨، ٢٠٣،

٢١٩، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦١،

٢٦٢، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٣،

٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٤٨

قباء ٩، ٥١، ٦٤، ٦٥، ٨٩، ١٧١

القدس ٨٨، ١٧٦، ١٩٠

قرطبة ٤٢، ٤٣، ٥٨، ٨٤، ٨٧، ٩٠، ٩٢،

٩٦، ٩٧، ١٠٠، ١٠٧، ١١٣، ١١٥، ١١٩،

١٢٨، ١٣٢، ١٣٤، ١٤٣، ١٤٧، ١٤٨،

١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩،

١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩،

٢٠٠، ٢٠١، ٢١٥، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣٦،

٢٣٨، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨،

٢٩٥، ٣٠٥

قزوين (مدينة - بحر) ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٧٣
القسططينية ١١١
قسطنطينة ٢٤٣
قشتالة ٢٢٤، ٢٢٥
القصبة ٢٤٠
القطائع ١١٨، ٢٠٣
القلعة (حتى) ٢٦٠، ٣٢٠
القلعة (ميدان) ٣٢١
قلعة الجبل ٣٢٠
قنا ٣٢٢، ٣٢٩
قونية ١٠٦، ٢٧٣، ٢٧٦
القوقاز (إقليم) ٢٦٤
قيرغيزيا (قرغيزيا) ٢٨٠
القيروان ٤٣، ٤٩، ٥٨، ٧٥، ٩٠، ١٠٥،
١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٥، ١١٦، ١١٨،
١١٩، ١٢٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٨،
١٥٠، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٦،
١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ٢١٤، ٢١٨، ٢١٩،
٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٤٤
(ك)
كابل (كابول) ٢٧٣
كازاخستان (= قازاقستان)
كاشغر ٢٦٥، ٢٧٧
الكامبيرون ٥٢، ٣١٦، ٣١٧، ٣٣٧
كانو ٢٣٤
كتانة (حارة) ٢١٠
كراتشي ٢٧٩، ٣٣٣
كربلاء ١٠٩، ٣٠٦، ٣٢٣
كرمان ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٨
كرواتيا ٣٤٣
كشمير ١٠٩
الكفرة (واحة) ٥٠

كمبوديا ٣٣٧
الكنج (نهر) ٢٩١
كندا ٣٤٦
كنشاة (حتى) ٢٤٢
كوار (واحة) ٢٢٧
كوالالمبور ٣٣٣
كوبري الجامعة ٣٢٩
الكوثر (نهر) ٢٩٨
الكوفة ٧٤، ٨٩، ٩٠، ١٠٥، ١١٦،
١١٨، ١٧٥، ١٨٠
كولونيا ٤٢
الكونغو برازافيل ٥٢
الكويت ٣١٢، ٣٣٦
كينيا ٥٢، ٣١٦، ٣١٧
(ل)
لاردة ٩٨
لاهور ١١٠، ٢٩٢، ٣٣٣
لاوس ٥٢
لبنان ٣٠٤
لندن ٤٢، ٦١، ٢٥٥، ٢٦٩، ٣٣٨، ٣٣٩،
٣٤٠، ٣٤٦
لنلوكن ٣٣٩
لوس آنجيلوس ٣٤٨
ليبيا ٢٢٧، ٣٣٢، ٣٣٦
ليبيريا ٥٢
ليفربول (ميناء) ٣٣٩
ليون ٣٤٢
(م)
ماردة ٢٤٦
ماردين ٢٧٣
ماساتشوستس (شارع) ٣٤٧
مالي ٢٣٤

ماليزيا ١٠، ١٤٢، ٣١٤، ٣١٦، ٣٣٣،
 ٣٣٥، ٣٣٤
 مانشستر ٣٣٩
 ما وراء النهر ٩٨، ١٠٦، ٢٦٤، ٢٦٦،
 ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٨، ٢٧٩
 ما وراء النهرين ٢٨٣
 المحجة العظمى (شارع) ١٩٧
 محرم بك (حتى) ٣٢٩
 محطة الرمل (حتى) ٣٢٥، ٣٢٦
 محطة مصر (ميدان) ٣٢٩
 محمد علي (شارع) ٣٢١
 المحيط الأطلسي ١٠٨، ١٢٣، ٢٠٨،
 ٢١٩، ٢٢٧، ٢٣٠، ٣١٤، ٣٣٢
 المحيط الهادي ٣١٤
 المحيط الهندي ٣٣٥
 مدريد ٥٩، ٣٤٥
 مدغشقر ٥٢
 المدن الأوربية ٣١٤
 المدينة (في الجزائر) ٢٤٠
 المدينة المنورة ٩، ١٠، ٣٣، ٣٤، ٤٤، ٥١،
 ٥٨، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧١، ٧٢، ٧٩،
 ٨٠، ٨٩، ٩٤، ٩٥، ١٠٠، ١٠٥، ١١٥،
 ١١٧، ١٢٤، ١٢٩، ١٣٠، ١٦٩، ١٧١،
 ١٧٥، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ٢١٣، ٢٢٨،
 ٢٩٨، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٤٧
 المراغة ٢٧٣، ٢٧٥، ٣٠٨
 مراكش ٤٢، ٩٣، ١٠٨، ١٢٣، ٢١٩،
 ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٣٥، ٢٤٠،
 ٢٤٣، ٢٩٥، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٤٢
 مرجوش (شارع) ٢٥٤
 مرسية ٣٢٤
 مرعش ١٧٦
 المرغاب (نهر) ٢٦٤، ٢٧٣

مرو ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٥
 مزاب (إقليم) ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤٣
 مشهد ١٠٧، ٢٧١، ٢٧٣، ٣٠٢، ٣٠٧،
 ٣٠٨
 مشيخة ٣٣٢
 المصارة ١٠٠
 مصر ١٠، ٥٠، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٧٣، ٧٤،
 ٨٨، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ١٠٦، ١٠٧،
 ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣،
 ١٢٧، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٨، ١٦٨، ١٦٩،
 ١٧٠، ١٧٢، ١٧٧، ١٨٠، ٢٠٥، ٢٠٦،
 ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٥، ٢٢٨،
 ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢،
 ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣،
 ٢٦٨، ٢٩٥، ٣١١، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٩،
 ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥،
 ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٤١، ٣٤٦،
 ٣٤٨
 مصر القديمة (حتى) ٣١٨
 المعز (شارع) ٣٢٧
 المغرب ١٠، ٤٩، ٥٨، ٥٩، ٧٥، ٨٤،
 ٩٣، ١٠٧، ١٠٨، ١١١، ١١٦، ١٢٣،
 ١٢٧، ١٥٨، ١٦٠، ١٧٧، ١٨٧، ١٩٢،
 ١٩٣، ١٩٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠،
 ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٧،
 ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧،
 ٢٣٨، ٢٤٣، ٢٥٣، ٢٩٥، ٣١٥، ٣٣٠،
 ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٦، ٣٤١
 المغرب الأقصى ١٢٣، ١٤٣، ٢١٩، ٢٢٠،
 ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٠، ٣٣٢
 المغرب الأوسط ١٤٣، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٣٦،
 ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠
 مقدونيا ١١١

المقطم (جبل) ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٩٥،
مكة المكرمة ١٠، ٢٧، ٢٨، ٦٢، ٨٠،
٩٢، ١٦٦، ١٦٨، ١٧١، ١٨٣، ١٨٨،
٢٩٨، ٣٢٤، ٣٣٠
مكناس ٣٣٢، ٣٤٢
ملاوى ٣٣٧
ملديف (جزيرة) ٥٣
ملوا ١٠٩

ملطية ٢٧٣
المملكة العربية السعودية ١٠، ١٦٧، ٣٣٠،
٣٣٦، ٣٤٨

منى ٣٤
المناصرة (حارة) ٢٠٧
المنشية (حتى) ٣٢٩
المنطقة المدارية الإفريقية ١٠٨
النيا ٣٢٨

النيل (حتى) ٣١٨، ٣٢٩
موريا (جبل) ١٨٢

موريتانيا ٢١٩، ٢٣٤

موزمبيق ٣١٧، ٣٣٦

موستار ٣٤٣

الموصل ١٠٦

المولدية (وادي) ٢٣٥

ميونيخ ٣٤٥

(ن)

نجران ٨٦، ٩١

النجف ١٠٩، ٣٠٦، ٣٢٣

نهج الوادي ٢٤٠

نهر النيل ١٨٠، ٢٥١، ٢٦١، ٣١٨،

٣٢٨، ٣٢٩

النوبة ٥٠، ٥١

نورنبرج ١٦٠

النيجر ٥٠، ٥٢

النيجر الأعلى (وادي) ٥٠

نيجيريا ٥٢، ٢٣٤، ٣٣٦

نيسابور ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٣، ٢٧٥

النيل (وادي) ٣٣٥

نيوزيلاندا (نيوزيلندا) ٣٥٠

نيويورك ٣١٢، ٣٤٩

(هـ)

هرات ٢٧٣، ٢٧٤

هرمز (مضيق) ٣٠٢

همدان ٢٧٣

الهند ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٩، ٩٧، ١٠٦،

١٠٩، ١٢٤، ١٢٧، ١٤١، ١٦٩، ٢٠٧،

٢٢٩، ٢٣٥، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٨٨، ٢٨٩

٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤،

٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣١٦، ٣٣٣،

٣٣٥، ٣٤٦

الهند الصينية ٣٢٠

(و)

الواحات الليبية ٢٢٧

الوادي (مدينة) ٢٣١

وادي الأبيض ٢٣٠

وادي درعة ٢٢٠

وادي سبو ١٩٢

وادي شلف ٢٣٥

وادي فاس ١٩٢

وادي النيجر الأعلى ٥٠

وادي النيل ٣٣٥

الوادي الكبير (نهر) ١٠٠، ١٩٧

وادي المولدية ٢٣٥

واسط ١٠٦

واشنطن (واشنطن) ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨،

٣٤٩

(ى)

يزد ٢٧٣

اليمن ١٠، ٧٣، ٨٤، ٨٦، ٩١، ٢٠٧

يوغوسلافيا (يوغسلافيا) ٣٤٣

٢٦ يوليو (شارع) ٣١٨

اليونان ١١١، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٦

وان ١٠٦، ٢٧٣

وڊان (واحة) ٢٢٧

الوردان (حتى) ٣٢٩

وستمنستر ٦٠

وسط آسيا ١٠، ١٢٣

وشقة ٩٨

الولايات المتحدة الأمريكية ١١، ٦٤، ٣١٤،

٣٣٨، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩

وليلي ١٩٢

فهرس المصطلحات

- الأسس المعمارية الإسلامية ٣٣٠
الأسس المعمارية العربية ١٢٤
الأشغال ٣٢٣
الأشكال المعمارية الجديدة ٣٥٤
الأشكال الهندسية ٣٣٤
الأصول المعمارية المساجدية التقليدية ٣٤٠
الاعتراف ١٢٥
الإمامة ٣٣٥
الأناشيد ١٢٥
الأوقاف ٣٥١، ٣٣٨، ٣٢٩، ٣٢٥، ٣١٨
الإيالة ٢٤١، ٢٤٠، ٢٣٩
الإيلخان ٢٧٦، ٢٧٥
- (ب)
البابوية ١٢٥، ١٧٦
بحور الشعر العربي ١٣٢
البلاط ١٣٣
البناء الرصين ١٢٢
البورصة ٣٢٣
بيت المال ١٧٨
- (ت)
التابوت ٨١
تاريخ العمارة الإسلامية ٣٢٣
التبشير (انظر : حركة التبشير)
التجديد الرزين ٣٣٣
تجديد العمارة المساجدية ٣٣٣
التخطيط ذو الإيوانات ١١٧، ١٢٠
التخطيط ذو الصحن والظلات ١١٧
التخطيط الشنّي ١٢٠
التراث العلمي ٣٢٣
- (أ)
الآثار ٢٢٣، ٣٠١، ٣٠٤
الآثار الإسلامية ٣٠١
الآثار المعمارية الصفوية ٣٠٤
الآثار المعمارية الموحّدية ٢٢٣
الابتكار الفكري ١٣٣
الابتكار الفني ١٣٣
الابتكار المعماري ٢٢٣
الابتكارات الزخرفية ١٥٩
الإبداع الشعري ١٣٢
الإبداع الفني ٢٥٢
الإبداع الفني الإسلامي ١٢٣
الإبداع المعماري ٢٦٩
الإبداع المعماري الإسلامي ١٣٢
الأثر المعماري الأندلسي ٢٣٦
الأثر المعماري التركي ٢٣٣، ٢٤١
الأثر المعماري الفارسي ١١٥
الأثر المعماري المغولي ٢٧٦
الإدارة الكنسية ١٢٥، ١٢٦
الأدب العربي ١٣٢، ١٣٣
الأذان المصري ٢٥١
الأرابيسك (الأرابيسك) ١٥٨، ١٥٩ ،
١٦٠، ١٦١، ٣٢٦
الأرستقراطية ١٣٣
أرض المساجد ١٦٥
الأركيولوجيا ٥٨
الاستشراق الفرنسي المغربي ٣٣١
الاستعمار ٣٣١، ٣٣٦
الاستعمار الجديد ٣٣٦
الاستقلال ٣٣١

التراث المعماري ٣١٩، ٣٢٣

التصوير ١٥٨، ١٦٧

التقاليد الإيرانية المساجدية ٣٣٢

التقاليد الحضارية ٣١١، ٣٢٣

التقاليد الزخرفية ١٦١

التقاليد الفنية ٢٧٦

التقاليد الفنية الإيرانية ٣٠٨، ٣٣٢

التقاليد الفنية المغربية ٣٣١

التقاليد المعمارية ١٢١، ١٢٧، ٢٧٤، ٣٣٢

التقاليد المعمارية الإيرانية ١٢٤، ٣٣٢

التقاليد المعمارية البيزنطية ١٢٦

التقاليد المعمارية الصينية ٣٣٣

التقاليد المعمارية القديمة ١٢٧

التقاليد المعمارية المحلية ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦، ٣١٨

التقاليد المعمارية المصرية ١٢٢، ٣٢٣

التقاليد المعمارية المغربية الأندلسية ٣٣١

التقاليد المعمارية الهندية ١١٠، ٣٣٣

التقدم المعماري المساجدي ٣٣٧

التقليد التاريخي ٣١٩

التقليدية ١٣٢

التيارات الثقافية البيزنطية ٢١٨

التيارات الثقافية التركية ٢١٨

التيارات الثقافية الصليبية ٢١٨

التيارات الثقافية المغولية ٢١٨

(ج)

الجزية ٢٧٤

الجو المعماري العام ١٢٧

الجواهر المعمارية المصرية ٣٢١

(ح)

حركة التبشير ٣٣٤

حركة التجديد المعماري المساجدي ٣٣٤

حساب الجُمَّل ٢٨٣

الحضارة ٣٣٩

الحضارة الآسيوية ٢٧٤، ٢٧٥

الحضارة الإسلامية ١٢٣، ١٣٠، ١٩٢،

٢١٠، ٢١٦، ٢٢٦، ٢٦٥، ٢٧٣، ٢٧٤،

٢٧٥، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٧، ٢٩٦، ٣٠١،

٣٠٨، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٣٦

الحضارة الإفريقية ٣٣٦

الحضارة الإيرانية الإسلامية ٢٩٦

الحضارة الحديثة ٣٠٢

حضارة الروم ١٨٣

الحضارة المصرية ٣٢٣

الحضارة المغربية ٢٥٣، ٣٣١

(خ)

الخازندار ٢٠٩

الخاقان ٢٧٥

الخانقاه ١٢٠، ٢٦٠

الخديوية ٢٠٧

الخصائص الفنية ٣٣١

الخطوط المعمارية ٣٣٧

الخطوط المعمارية المملوكية ٣٣٠

الخطوط المغربية التقليدية ٣٣١

الخلافة الأموية الأندلسية ١٢٢

الخلافة العباسية ١٢٢، ٢٧٤، ٢٧٥، ٣٠٧،

٣٤١، ٣١٤، ٣٤١

الخلافة الفاطمية ١٢٢

الخلوة ٣٥٤

(د)

الدعوة الإسلامية ٣٣٤

(ذ)

الذوق العربي الإسلامي ١٢١

(د)

الراعى ١٣١

الثناء ١٣٢

الروح الدينى ٣٥٣

روح الفن ٣٣٣

الروح المغربية ١٩٢

(ز)

الزخارف ١٩٤

الزخرفة الإسلامية ٣٠٣، ٣٠٥

(س)

الساميات ٨٧

السامية ٨٦

سحر الشرق ١٦١

السياسة الإسلامية ٢٧٤، ٢٧٨، ٣٤١

السياسة العربية ٣٤١

السيمفونية ١١١، ٢٢٤

(ش)

الشخصية الفنية ٣٠١، ٣٣٣

الشعر الشعبى ١٣٤

الشعر القومى ١٣٣

الشهور الحرام ٢٦، ٢٨

(ص)

الصراع المذهبى ٣٠٢

(ط)

الطابع الإسلامى العام ١٢٢

الطابع الإقليمى ٢١٣

الطابع الأندلسى ١٩٢

الطابع الإيرانى ٣٠٠

الطابع البربرى ١٩٢

الطابع البيزنطى ١٨٤

الطابع الزخرفى ١٥٨

الطابع الشرقى ١٦٠

الطابع العربى ١٩٢

الطابع العربى الإسلامى ١٥٩، ٣٤١

الطابع المحلى ٢١٣

الطابع المعمارى الإسلامى ٣٣١

الطابع المعمارى التركى ٣٢٩

الطابع المعمارى الهندى ٢٩١

الطابع الهندى المحلى ٢٩٣

الطالع السعيد ٣٢٠

الطبقة الوسطى ٣١٩، ٣٢٤

طرز الفنون الإنسانية ١٤٤

الطرز المعمارية ١٢٦، ١٢٧، ٢١٣

الطرز المعمارية الإسلامية ١١٥، ١٢١،

١٢٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٥٤

الطرز المعمارية الإقليمية ٢١٣

الطرز المعمارية المحلية ١٢٦، ١٤١، ٢١٥،

٣٢٣

الطرق الصوفية ٤٩

الطقوس المسيحية ١٢٩

(ع)

العاطفة الدينية ١٣١

العرف الإسلامى العام ٢٧٣

العروبة ١٣٣، ١٧٩، ٢٨٨، ٣١٧

علم الفلك ٩٠

العناصر الدينية ١١٧

العمارة الإسبانية ٢٤٧

العمارة الإسلامية ١١٠، ١١١، ١٢١،

١٢٤، ١٢٦، ١٣٣، ١٣٧، ١٤٦، ١٥٤،

١٥٥، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٨، ١٩٥، ١٩٨،

٢٠٢، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢٣٤،

٢٣٩، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٦٣، ٢٦٩،
 ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨٨، ٢٩٣، ٢٩٦،
 ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦،
 العمارة الإسلامية الصوفية ١٢٤
 العمارة الإسلامية المغربية ١٤٦
 العمارة الإسلامية المغربية ٢٢٢
 العمارة الإسلامية الهندية ١٢٤
 العمارة الأندلسية ١٢٨، ٢١٥، ٢١٩،
 العمارة الإيرانية ٢٧١، ٣٠٤،
 العمارة البيزنطية القديمة ١٤٨، ١٨٣، ١٨٨،
 العمارة التركية ٢٧٦
 العمارة الجزائرية ٢٤١
 العمارة السلجوقية ١٢٧
 العمارة العباسية ١٢٦
 العمارة العثمانية ١١٣، ١١٤،
 عمارة عصر النهضة ١٤٨
 العمارة الفاطمية ١٢٢، ٢٥٤،
 العمارة الفرنسية ٣٣٢
 العمارة الكنائسية (عمارة الكنائس) ١٢٥،
 ١٢٦، ٢١٣
 عمارة المآذن ٣٢٨
 العمارة المحلّية ٢٤١
 العمارة المساجدية (عمارة المساجد) ١٢٩،
 ١٣٠، ١٤٤، ١٤٦، ١٥٢، ١٦١، ٢٠١،
 ٢٢٦، ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٩١، ٣١٢، ٣١٨،
 ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٣٣،
 ٣٤٨، ٣٣٨
 العمارة المساجدية المصرية ٢١٤
 العمارة المساجدية المغربية ١٢٧
 العمارة المصرية ٢٥٢، ٢٦٠، ٣٢٤،
 العمارة المصرية القديمة ١٢٧
 عمارة المعبد المصرى القديم ١٢٧
 العمارة المغربية ١٢٨، ٢٤٣، ٣٣١،
 العمارة المغربية الإسلامية ١٩٥

العمارة الموحّدية ١٢٨
 العمارة الهندية ٣٢٨
 العمران ٣٣٦
 عناصر الفن المعماري ١٣٢
 العناصر المعمارية ٣٢٩
 (ف)

الفخر ١٣٢
 الفلك (علم) ٩٠
 فن الزخرفة الإسلامية ٣٠٣، ٣٠٥،
 الفن السوير مودرن ٣٣٣
 الفن السوريالى (السريالى) ٢٣٣
 الفن الشعبى ١٣٣
 الفن العربى ١٣٢
 فن العمارة الإسلامية الحديث ٣٣٤
 فن العمارة الإغريقية ٣٤٧
 فن العمارة الأمريكية ٣٤٧
 فن العمارة الكنسية ٣٤٣، ٣٤٤،
 فن العمارة المساجدية ٣٣٧
 الفن المعماري (فن المعمار) (فن العمارة)
 ١١٣، ١٣٤، ١٤٤، ٢٧٦، ٣١١، ٣١٢،
 ٣٢٣، ٣٣١، ٣٥٤
 الفن المعماري الإنسانى ١١١
 الفن المعماري الإسلامى ٨٧، ١١٦، ١٢١،
 ١٢٢، ١٢٤، ١٣٩، ١٥٨، ١٦٠، ١٦١،
 ١٧٩، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٠٨،
 ٢٠٩، ٢١٣، ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٨٨، ٢٩٥،
 ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٥، ٣٢٣،
 ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٤١
 الفن المعماري الأندلسى ٢٢٢، ٢٣٦، ٢٤٨،
 الفن المعماري الإيراني ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣،
 ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٣٢
 الفن المعماري الإيراني الصفوى ٣٠٥

الفن المعماري الإيطالي ٣٢٢
 الفن المعماري البيزنطي ١٦٠
 الفن المعماري التركي ٢٤١، ٣٢٦
 الفن المعماري التقليدي ٢٧٨
 الفن المعماري الحديث ٣٣٣
 الفن المعماري الصيني ٣٢٠
 الفن المعماري العالمي ١١٠، ١٩٦، ٢٩٣، ٣٠٨
 الفن المعماري الفاطمي ٨٧
 الفن المعماري الفرنسي ٣٣١
 الفن المعماري القوطي ٢٧٧
 الفن المعماري المساجدي الحديث ٣١٥، ٣٣٢
 الفن المعماري المساجدي المصري ٣٢٨
 الفن المعماري المساجدي المغربي الحديث ٣٣٢
 الفن المعماري المسيحي الشرقي ١٦٠
 الفن المعماري المصري ٢٤٩، ٢٥٢، ٣٢٧
 الفن المعماري المصري القديم ١٤٤
 الفن المعماري المغربي ٢٢٢، ٢٣٥، ٣٣١، ٣٤٢
 الفن المعماري المغربي الأندلسي ١٩٤، ٣٤٢
 الفن المعماري المغربي الحديث ٣٣٢
 الفن المعماري المغولي الآسيوي ٢٧٥
 الفن المعماري النصري ٢٤٧
 الفن المعماري الهندي ٢٩٧
 فن النهضة الأوربية ١٥٩
 فن الهندسة والمعمار ١٩٩
 الفناء الصحنى ١١٧
 الفنون الساسانية ١٦٠
 الفنون الشرقية ١٦١
 فنون الشعر ١٣٢
 فنون العمارة الإسلامية ٣٣٣

فنون العمارة الفرنسية ٣٣٢
 الفنون الكلاسيكية ١٦٠
 الفنون المعمارية ٢٩٦
 الفنون المعمارية المغربية ٢١٩، ٣٣١
 الفنون المعمارية المغربية الإسلامية ٣٣١
 الفنون الهلنستية ١٦٠

(ق)

القصيدة ١٣٢
 القمطر ٢٠١
 القياس المصري ١٦٧

(ك)

الكتاب ٢٦٠
 الكليات ٣٥٢

(ل)

اللايقونية ١٧٦
 اللغات السامية ٨٦

(م)

المجموعات المساجدية ٣٥٢، ٣٥٤
 المحور المعماري ٣٢٨
 المذبح النبوية ١٣٣، ١٣٤
 مدارس العمارة الإسلامية ١١٥
 مدارس العمارة المساجدية الحديثة ٣٣٤
 مدارس العمارة والآثار الفرنسية ٣٣١
 المدارس الفنية ١٥٨
 مدارس المعمار والآثار ٣٣١
 المدح ١٣٢
 مدرسة أصفهان المعمارية ٣٣٢
 مدرسة تبريز المعمارية ٣٣٢
 مدرسة جنوب شرق آسيا المعمارية ٣٣٣، ٣٣٤
 مدرسة المعمار الإيراني الحديث ٣٣٢
 المدرسة المعمارية العثمانية ١٦٧

النظم الشيعية ١٢٠، ١٢٢
 نقيب الجيوش ٢٠٩
 النهضة الإسلامية ٣٢٠، ٣٢٣
 النهضة الأوربية ٣٢١
 النهضة الصفوية ٢٨٦
 النهضة العربية ٣١٩، ٣٢٣
 النهضة المعمارية ٣٢٣
 النهضة المعمارية المساجدية ٣٢٩، ٣٣٠،
 ٣٥٤

(هـ)

الهجاء ١٣٢
 الهجرة ١٧١، ١٧٧، ٢٢٨
 الهندسة المعمارية ٣٣٣

(و)

الوحدات الزخرفية ١٨٦
 الوحدات الهندسية ١٥٨، ١٥٩
 الوحدة الفنية ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٥
 الولاية (الإيالة) ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١
 الولاية (مرتبة دينية) ٢٥٩
 الولاية الشرعية ١٢٥

المدرسة المعمارية المصرية ٣٢٢، ٣٢٤،
 ٣٣٠، ٣٢٩
 المدرسة المعمارية المصرية الحديثة ٣٣٢
 المدرسة المعمارية المغربية الحديثة ٣٣٠، ٣٣٢
 مدرسة المعماريين المغاربة الشبان ٣٣١
 مدينة الألف مثدنة ١٦٥
 المركع ١٦٦
 المسجد ١٦٦
 المسجد الحصن ٢٠٤
 المصلّى ٢٥٥
 المطبوعات ٣٣٥
 المعارض الفنية الحديثة ٣٣٤
 المعبد ١٦٦
 المعمار المصرى القديم ١٢٢
 المنشآت الدينية ٣٣٩
 المؤثرات الفنية الآسيوية ١٠٦
 مورسك ١٦٠

(ن)

النطاق الحضارى الإسلامى ١٢١
 النطاق الحضارى البيزنطى ١٢١، ١٨٣
 النطاق الحضارى الرومى ١٨٣
 النطاق الحضارى الساسانى ١٢١



فهرس الديانات والعقائد والمذاهب

(ت)

التثليث ٢٩١

التقليدية ١٣٢

التوحيد ١٢٥

(ث)

الثالوث البوذي ٢٩١

(ح)

الحنبلية ٢٠٧

الحنفية ٦٨، ٢٠٧، ٢٤١، ٢٨٠

(د)

الديانات السايوية ١٥٦

(س)

السامانية ٢٧٦

السرالية ٢٣٣

السنة (انظر: مذاهب السنة)

السوسية ٥٠

(ش)

الشيعة (انظر: مذاهب الشيعة)

الشيوعية ١٠، ٢٨٠

(ص)

الصوفية ٢٦٠

(ط)

الطرق الصوفية ٤٩، ١٠١، ٢٢٨، ٢٢٩

الطريقة التيجانية ٢٢٨

الطريقة السنوسية ٢٢٨

الطريقة الشاذلية ٢٢٨

الطريقة القادرية ٢٢٨

الطريقة النقشبندية ٢٨٥

(أ)

الإباضية ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٤٣

الاثنا عشرية ٣٠٧، ٣٠٨

الإسلام ٩، ١٠، ١١، ١٦، ٤٢، ٤٣، ٤٦

٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧٠

٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٧، ١٠٩، ١١١، ١١٣

١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٠

١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨

١٦٥، ١٧١، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩

١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ٢١٠، ٢١٣

٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩

٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٨

٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٧٥

٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧

٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٠١، ٣٠٢

٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٣

٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦

٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨

٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٤

الإسماعيلية (مذهب شيعي) ١٠٨، ٢٠٦

٢٠٧، ٢٢٨، ٢٦٨، ٣٠٢

أقانيم الثالوث البوذي ٢٩١

الإلحاد ٣٥٤

(ب)

البروتستانتية ٣٣٢، ٣٤٧

البلشفية ٢٨٠

البوذية ٤٢، ٦٤، ٨١، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٣

٣٢٠، ٣٣٤

(ع)

عبادة الصور والتماثيل ١٥٥، ١٥٦، ١٧٦،

عبادة قرص الشمس ٨٢

العقيدة الإسلامية ٦٢، ١٢٥، ١٥٦، ٢٨٩، ٣٤١

عقيدة التوحيد ١٢٥

العقيدة المسيحية ١٢٥، ١٧٦، ٣٤٥،

العلمانية ٣١٤، ٣٤١

(ك)

الكاثوليكية ١٢٦، ٣٣٢، ٣٣٤

(م)

الماركسية ٢٧٩

المالكية ٩٧، ١٩٩

المجوسية ٢٩٩

المذاهب الأربعة ١٢٠، ٢٦٣،

المذاهب الخارجية المعتدلة ٢٣٣

مذاهب الشَّنة ١٢٠، ١٢٢، ٢٠٧، ٢٢٨،

٢٣٣، ٢٥٩، ٢٦٦، ٢٦٨، ٣٠٢،

مذاهب الشيعة ٢٢٨، ٣٠٢،

المذهب الإباضي (= الإباضية)

المذهب الاثنا عشري (= الاثنا عشرية)

المذهب الإسماعيلي (= الإسماعيلية)

المذهب البروتستانتي (= البروتستانتية)

المذهب الحنبلي (= الحنبلية)

المذهب الحنفي (= الحنفية)

المذهب الكاثوليكي (= الكاثوليكية)

المذهب المالكي (= المالكية)

المسيحية ٤٢، ٥٠، ٦٤، ٨٢، ١٢٥، ١٢٦،

١٣٤، ١٥٣، ١٥٦، ١٧٦، ١٨٧، ٢٤٠،

(ن)

النصرانية ٨١، ٨٦، ١٨٧، ٢٤٦، ٢٩١

(هـ)

الهندوكية ٤٢، ٨١، ٢٨٩، ٢٩٣

(و)

الواقعية ٢٣٣

الوثنية ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٧٦،

(ي)

اليهودية ٦٤، ٨١، ٨٢، ٢٩١

فهرس العصور

عصر الفتوح الإسلامية الأولى ٢٧٣	العصر الإسلامي ١٦٠
العصر المرباطى (عصر المرباطين) ١٢٣ ،	العصر الأموى ٨٩ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ٢٧٠
١٩٤ ، ٢٢٠ ، ٢٣٤	العصر الأيوبى ١٨٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩
العصر المغولى ٢٧٨	العصر البوبى ٢٧٣
العصر المملوكى ٧٣ ، ٨٨ ، ١٥٥ ، ١٨٩ ،	العصر التركى ٢٠٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ،
٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ،	٢٤٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٢
٢٦٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٢	العصر التيمورى ٢٧٨
العصر الموحدى (عصر الموحدين) ١٠٨ ،	العصر الحديث ٣٠١ ، ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ،
١٢٣ ، ١٩٥ ، ٢٢٤ ، ٣٣٢	٣٣٣
عصر النهضة الأوربية ١١٣ ، ١٣٤ ، ١٤٨ ،	عصر الخلافة الأندلسية ١٢٨ ، ٢٤٦
١٥٩ ، ١٦١ ، ٣٢١	العصر السلجوقى ١٣٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢
عصر الولاة ٢١٤	العصر الصفوى ٣١١
العصور الإسلامية الأولى ٣٥١	عصر الطوائف ٢٤٤
العصور الحديثة ٣١٤ ، ٣٥١	العصر العباسى ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
العصور الرومانية ١٩٧	العصر العثمانى ٧٣ ، ١٧١ ، ١٨٩ ، ٣٢٣ ،
العصور الوسطى ٢٢٨ ، ٢٦١ ، ٣٥٠	العصر الفاطمى ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٩ ، ١٤٠ ،
	٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،
	٢٥٩

فهرس الفتوحات والغزوات والأحلاف والمعارك والحروب والحملات والاستعمار والثورات والانقلابات

(غ)
الغزو النصرانى الإسبانى ١٢٣
الغزوة الهلالية ١٨٦

(ف)
الفتح الإسلامى للسند ٢٨٧
الفتح الإسلامى للهند ٢٨٧، ٢٨٨
فتح الأندلس ٢٢٧
الفتح العربى لآسيا ٢٦٤
الفتح العربى للمغرب ٢٢٧
فتح مكة ١٧١
الفتوح الإسلامية ٢٢٧
فتوح العثمانيين ٣٠٢
فتوح المغرب الكبرى ٢٢٧

(م)
ملاذكرد (معركة) ٢٦٦، ٢٧٤

(ا)
الأرك (معركة) ٢٢٤، ٢٢٦
الاستعمار الروسى ٢٧٩
الاستعمار الفرنسى ٢٢٩، ٣٣٩
الانقلاب الماركسى ٢٧٩

(ب)
بدر (غزوة) ٦٧
البقط (حلف) ٥٠

(ث)
الثورة المهديّة ٢٣٣

(ح)
الحرب العالمية الأولى ٧٠، ٣٤٢
الحروب الصليبية ١٩٠
الحملة الفرنسية ٥٩

(د)
دنقلة (معركة) ٥٠

فهرس المدارس والمعاهد والجامعات ومراكز الدراسات والمكتبات

مدرسة السلطان حسين ١٠٩
مدرسة السلطان مراد الأول ١١٢
مدرسة السليمانية ١٦٧
مدرسة شهرباق ٣٠٤
مدرسة شيردار ٢٨٤
المدرسة الطيرسية القديمة ٢٠٩
المدرسة المستنصرية ٢٦٨
مدرسة المهندسين ٣٢٢
المدرسة النظامية ٢٦٨
مدرسة وستمنستر ٦٠
مراكز الدراسات الإسلامية ٢٨٨
المعاهد الدينية الأزهرية ٢٠٨
معهد الآثار الإسلامية ٦٠
معهد الدراسات الإسلامية ٣٤٢
مكتبة الأزهر ٢٠٩
المكتبة الأهلية بمدير ٥٩

(ج)

جامعة الأزهر ٣٥١
جامعة القرويين ١٩٥

(د)

دار الكتب الظاهرية ٢٦٠

(م)

مدارس الأزهر ٢٠٨
المدارس السنية ١٢٠، ٢٦٨
مدارس محمود باشا ١١٢
مدارس مراد باشا ١١٢
المدرسة الأقباقوية ٢٠٩
مدرسة إنجي ٢٧٣
مدرسة أولوغ بك ٢٨٤
مدرسة بي بي خانم ٢٨٤
مدرسة جوك ٢٧٦، ٢٧٧
المدرسة الجوهريية ٢١٠

فهرس الحكومات والوزارات

والمصالح الحكومية والبلديات واللجان والمجالس والهيئات والمتاحف
والجمعيات العلمية والفنية والمؤسسات والشركات والمؤتمرات والمراكز
الثقافية والاجتماعية والمنظمات الدولية

(أ)

الأمم المتحدة (منظمة) ٣١٢

(ب)

بلدية باريس ٣٤٢

(ج)

الجمعية الجغرافية الأمريكية ٣٤٨

(ح)

الحكومة السعودية ١٦٧

(ش)

شركة أرامكو البترولية ٣٤٨

(ل)

لجنة أوصياء المسجد ٣٤٠

لجنة المساجد ٣٣٨

اللجنة الملكية للفنون الجميلة ٣٤٠

(م)

متحف الفن الإسلامي ٢٥٥

متحف فيكتوريا وألبرت ٢٥٥

مجلس الشيوخ الفرنسي ٣٤٢

المجلس اليوغسلافي الإسلامي ٢٧٩

المراكز الإسلامية الاجتماعية ٣٥٢

المراكز الإسلامية الثقافية ٣٣٥ ، ٣٤٤ ،

٣٥٢ ، ٣٤٨

المركز الإسلامي الثقافي بلندن ٣٤٠

المركز الإسلامي الثقافي بواشنطن ٣٣٩ ،

٣٤٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩

مصلحة المناثر والفنارات ٣٢٨

مؤتمر المساجد ٣١٦

المؤسسة الإسلامية ٢٤٢

(هـ)

الهيئات التبشيرية ٣١٦

الهيئات الكنسية ١٣١

(و)

وزارات الأوقاف ٣٣٨ ، ٣٥١

وزارة الأشغال المصرية ٣٢٣

وزارة الأوقاف المصرية ٣١٨ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩

(ي)

اليونسكو (منظمة) ٣١٢

فهرس الكتب والمطبوعات والوثائق واللوحات الضنية

تموده (مجلة) ٣٣١

تنبيه الغافلين لأبى الليث السمرقندى ٢٨٠
التنبيه والإشراف للمسعودى ١٧٦
تهذيب اللغة للأزهري ٨٤
التوراة ٨٣

(ج)

الجامع الصحيح للبخارى (= صحيح
البخارى)
جلستان (حديقة الورد) (ديوان) للسعدى
الشيرازى ٣٠٦
جواز اتخاذ السقاية فى رحبة المسجد لأبى
عبد الله بن بطة ٩٩

(ح)

حديقة الورد (= جلستان)

(خ)

ختم الولاية لأبى عبد الله الترمذى ٢٨٠
المخطط التوفيقية لعلى مبارك ١٧٠
خطط المقرئى (= المواعظ والاعتبار فى ذكر
الخطوط والآثار)
الخميس فى سيرة أنفيس نفيس للديار بكرى ٩١

(د)

دائرة المعارف الإسلامية ١٥٨

(ر)

رحلات ابن بطوطة (= تحفة النظر فى
غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)
الروض الأنف للسهلى (فى شرح السيرة
النبوية لابن هشام) ٦٧

(آ)

آداب السمرقندى (رسالة) ٢٨٠
الأسباب والعلامات فى الطب لنجيب الدين
السمرقندى ٢٨٠
الاستذكار للدارمى ٨٩
الاستشراق الفرنسى المغربى (مجلة) ٣٣١
أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٩١
أطلس العمارة والزخارف الإسلامية لما ريو
روسى ٣٢٤، ٣٢٥
إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشى
٣٣، ٥٩، ٧٠، ٧٩، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ٩٧،
٩٩، ١٠٠، ١٥٤
ألف ليلة وليلة ٥٣، ٥٤، ١٥٦
الإنجيل ٨٣

(ب)

بستان (ديوان) للسعدى الشيرازى ٣٠٦
بلبل الروض للحافظ شمس الدين الذهبى
٦٨
البيان فى أحكام البنيان (مخطوط) ٥٩

(ت)

تاريخ الأندلس لأبى الوليد بن الفرضى ٩٧
تاريخ السودان للناصرى السعدى ٤٩
التاريخ الكبير فى تراجم رجال السند
للبخارى ٢٨٠
تحفة النظر فى غرائب الأمصار وعجائب
الأسفار لابن بطوطة ٥٣

(س)

السيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي ٩١
سيرة الرسول لابن هشام ٦٧
سُنن أبي داود ٩٢

(ش)

شرح مسلم لأبي العباس القرطبي ١٥٤، ٩٩

(ص)

الصحيح لأبي عيسى الترمذي ٢٨٠
صحيح البخاري ٣٦، ٦٩، ٩١، ٩٢، ٢٨٠،
٢٨١، ٢٨٢

الصحيفة (وثيقة) ٦٦

الصعود (لوحة فنية) ١٦

صورة الأرض لابن حوقل ٣١٨

(ط)

الظهور لأبي عبيد ٩٩

(ع)

عجائب المقدور في وقائع تيمور لابن عربشاه
٢٧٧

العرب (مجلة) ٢٨١

العمارة الإسلامية وزخرفتها لديريك هيل
وأوليج جرابار ٢٦٩

العمارة العربية في مصر الإسلامية للدكتور فريد
شافعي ٥٧، ٨٧، ٨٨، ٩٤، ١١٧، ١١٨،
١٣٩، ١٤٠، ١٥٣، ١٥٨، ١٨٢، ٢٥٢

(ف)

الفتاوى الكافورية لابن الحاجي السمرقندي
٢٨٠

فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر
العسقلاني ٢٨٢

الفتوحات المكية لابن عربي ٤٨، ١٦٥

فنون الإسلام لإيرنست كونل ١٠٨

(ق)

قسطاس الميزان في المنطق لشمس الدين
السمرقندي ٢٨٠

قلاع ومعابد مُوحَّديَّة لهنري باسيه وهنري
تيراس ١٢٨

(ك)

الكامل لابن الأثير ٧٢

(ل)

لسان العرب لابن منظور ٨٢، ٨٤، ٩١

(م)

مجلة الاستشراق الفرنسي المغربي ٣٣١

مجلة تموده ٣٣١

مجلة العرب ٢٨١

مجلة هسبريس ٣٣١

مجلة اليقين ٢٧٩، ٢٨٦

مذكرات شفيق باشا ١٧٠

المساجد المصرية لحسن عبد الوهاب ٢٠٨،
٢٠٩، ٣٢٤

مساجد مصر وأولياؤها الصالحون للدكتورة
سعاد ماهر ٥٧، ٢٠٩، ٢٥٢

مساجد مصر ومدارسها للدكتور أحمد فكري
٥٧، ٧٠، ٧٤، ٩٦، ١١٦، ١٨٤، ٢٥٢

مسالك الأبصار للعمري ١٢٨

مسرقيات شكسبير ١٧٩

مصدر الأخلاق والدين لهنري برجسون ١٣٤
المصنَّف لأبي بكر عبد الله بن أبي شيبه ٣٦

(هـ)

هسبريس (مجلة) ٣٣١

(و)

الوجيز في الفن الإسلامى لجورج مارسيه

١٩٥، ١٢١

وصف مصر ٥٩

(ى)

اليقين (مجلة) ٢٧٩، ٢٨٦

معانى القرآن الكريم لمحمد بكتول ٣٤٩
المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار
لتقى الدين المقرئى ٣١٨

(ن)

النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى
بردى ٥٨

نهاية الأرب للنويرى ٨٠

نواذر الأصول لأبى عبد الله الترمذى ٢٨٠

النور السارى فى شرح صحيح البخارى
٢٨٢

فهرس الأشجار والنخيل

النارنج (أشجار) ٩٧، ١٩٩

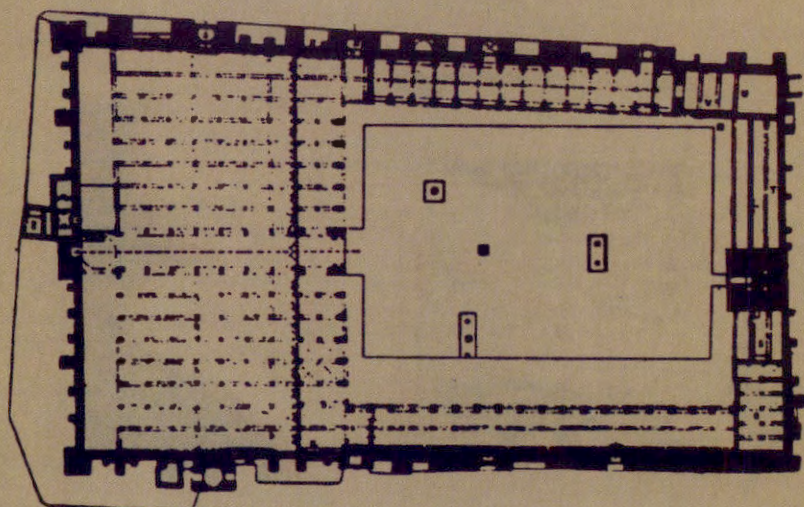
النخيل ٣٢٧

الرضوان (شجرة) ١٧١

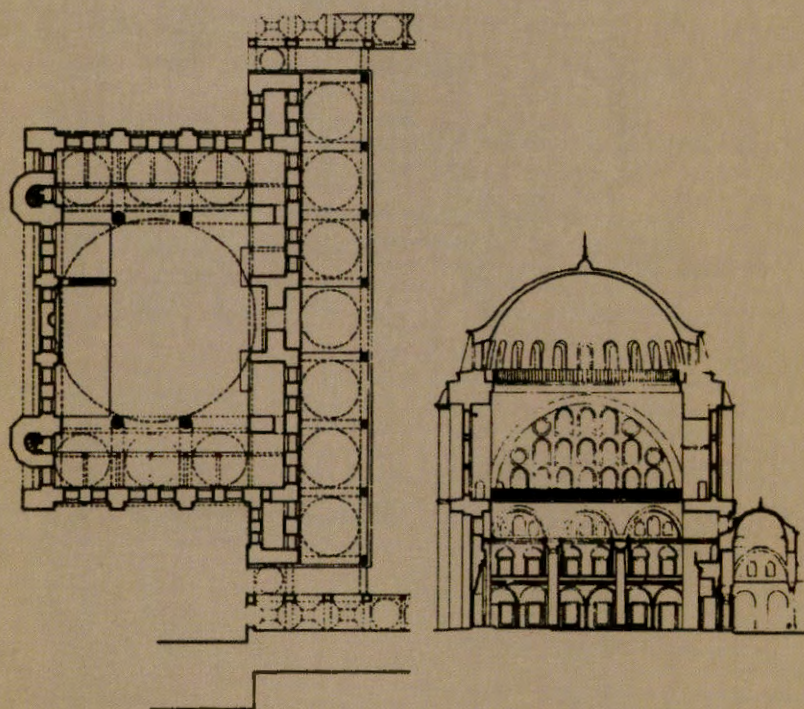
الغرقد (شجر) ٦٨



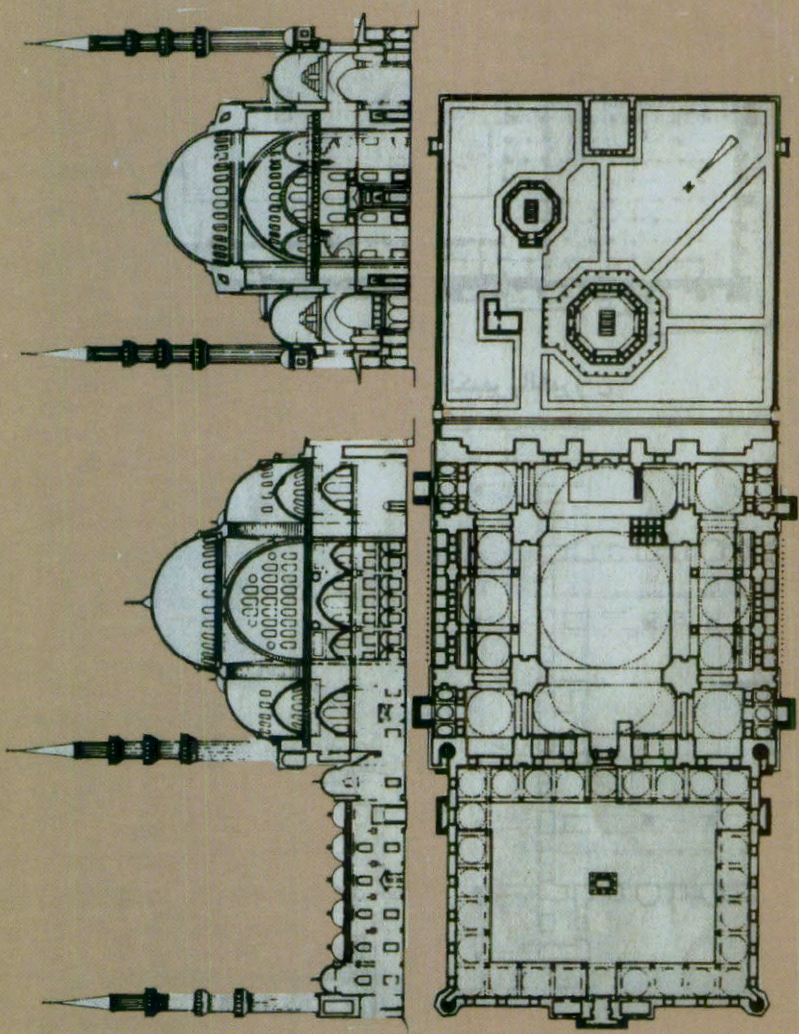
ملحق الصور والمخططات



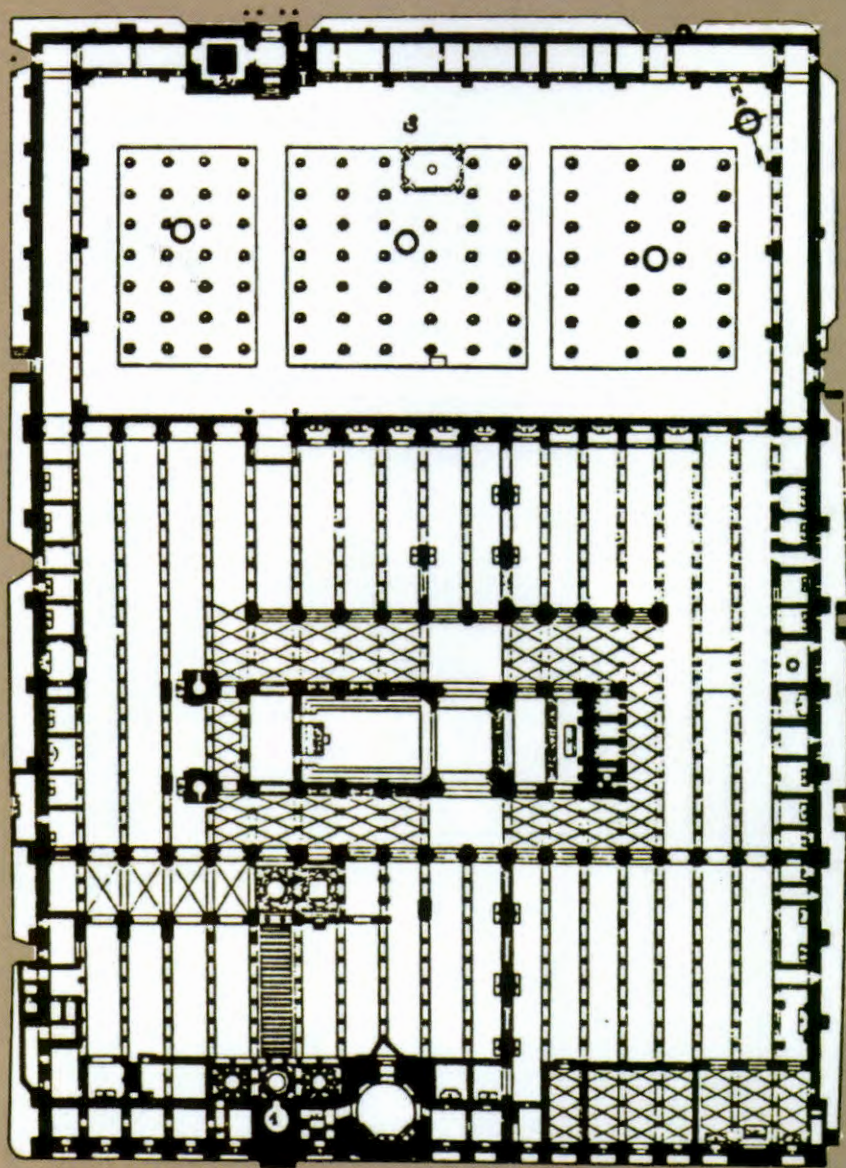
مخطط المسجد الكبير بالقيروان



مخطط مسجد مهران في استانبول وقطاع منه



مخطط لمسجد السلطان سليمان والقطاع الرئيسي منه



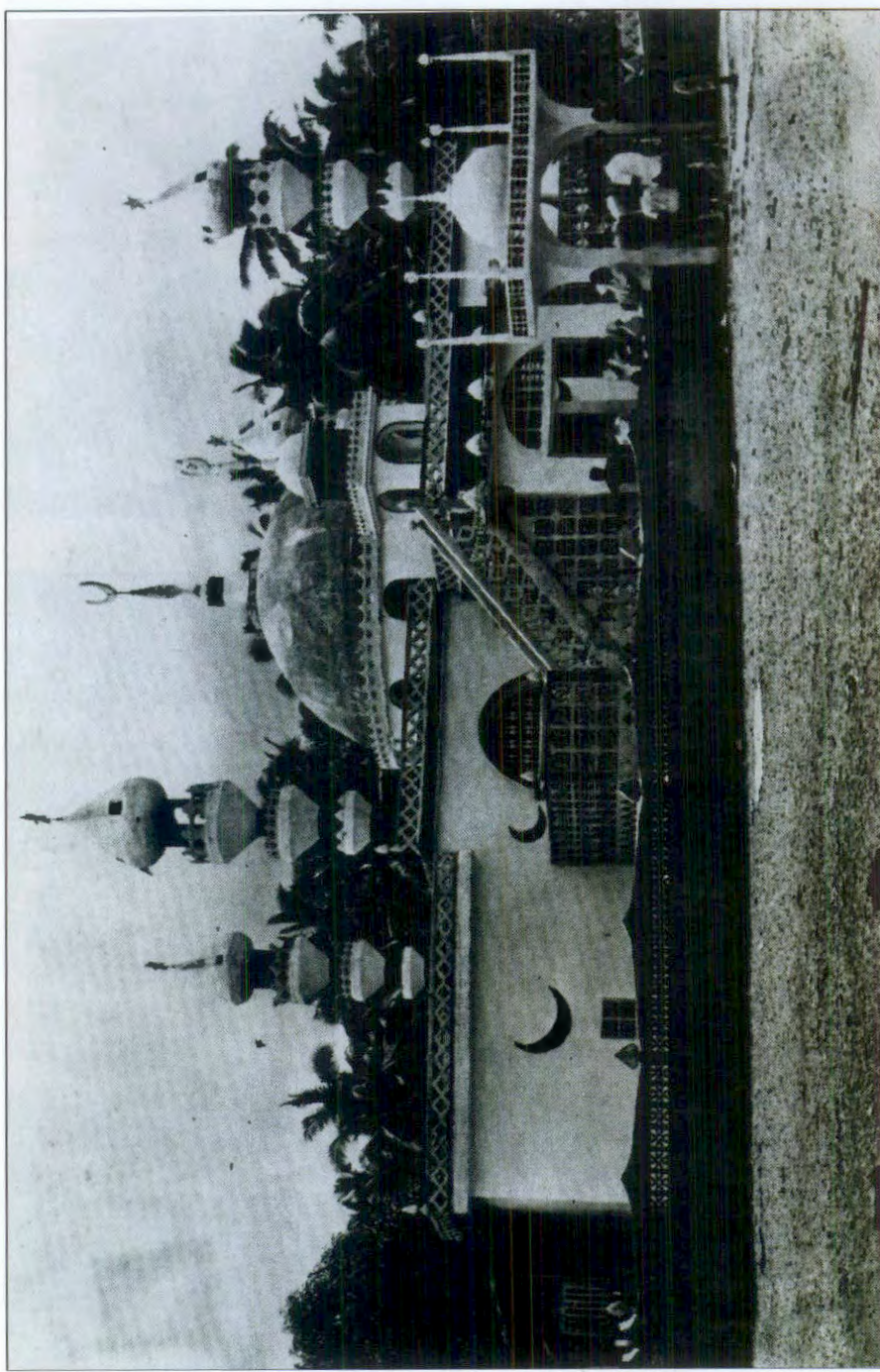
مخطط المسجد الكبير في قرطبة



مسجد عبوديا في كوالالمبور - ماليزيا

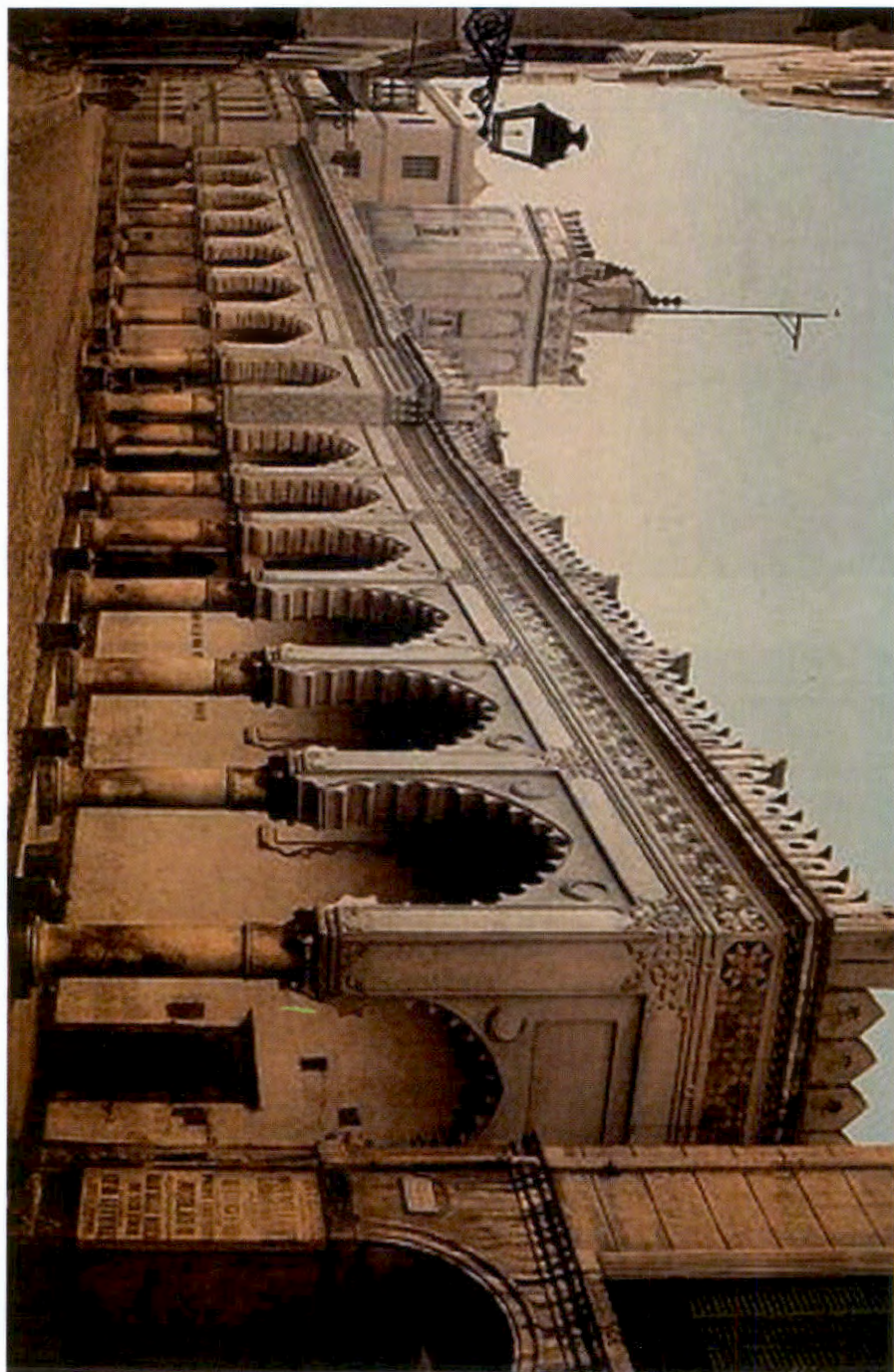
مسجد الحضار في تريم - محافظة حضرموت - اليمن





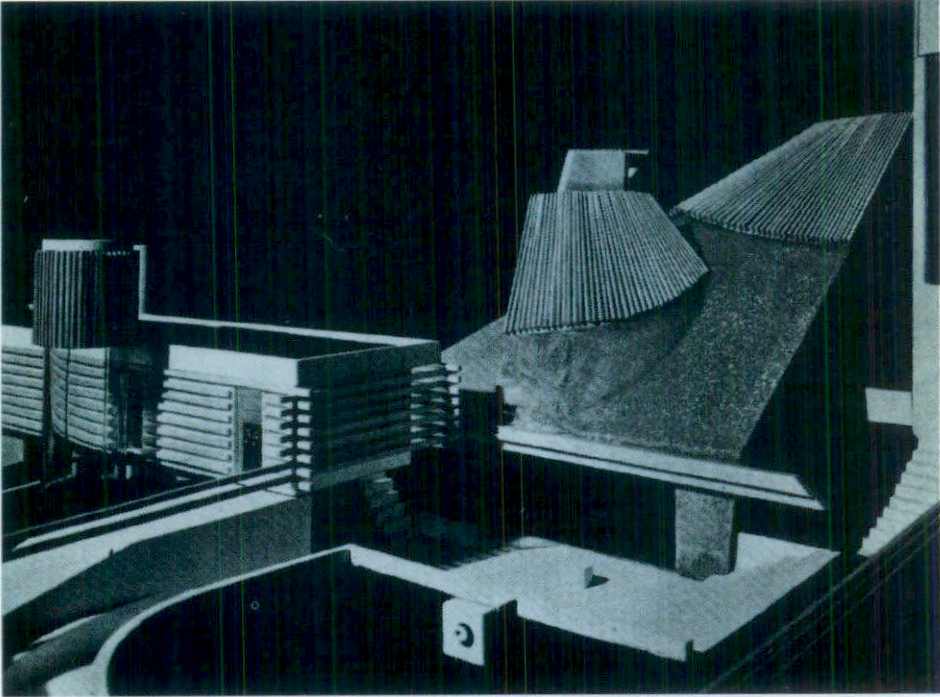
مسجد ماينونج في إحدى جزر أرخبيل خولو اوسولو في جنوب الفلبين

المسجد الجامع الكبير في مدينة الجزائر - طراز مغربي أندلسي





مسجد ساتجوناباد في بنجلاديش - طراز مغولي هندي



المركز الاسلامي الجديد ومسجده في مدينة فيسوكو-يوغوسلافيا



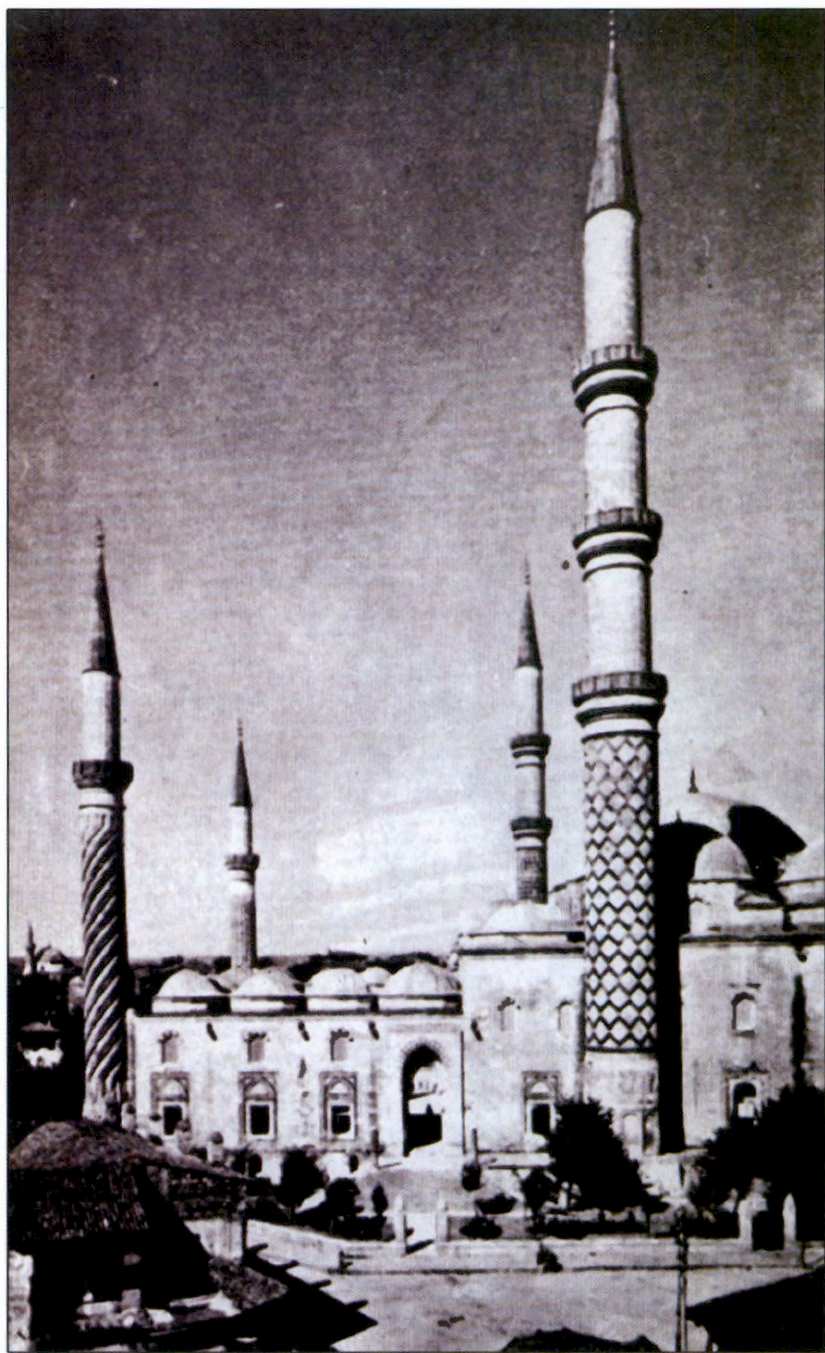
مسجد بروناي الكبير - في اتحاد ماليزيا



المسجد القومي (نجارا مسجد) في كوالالمبور



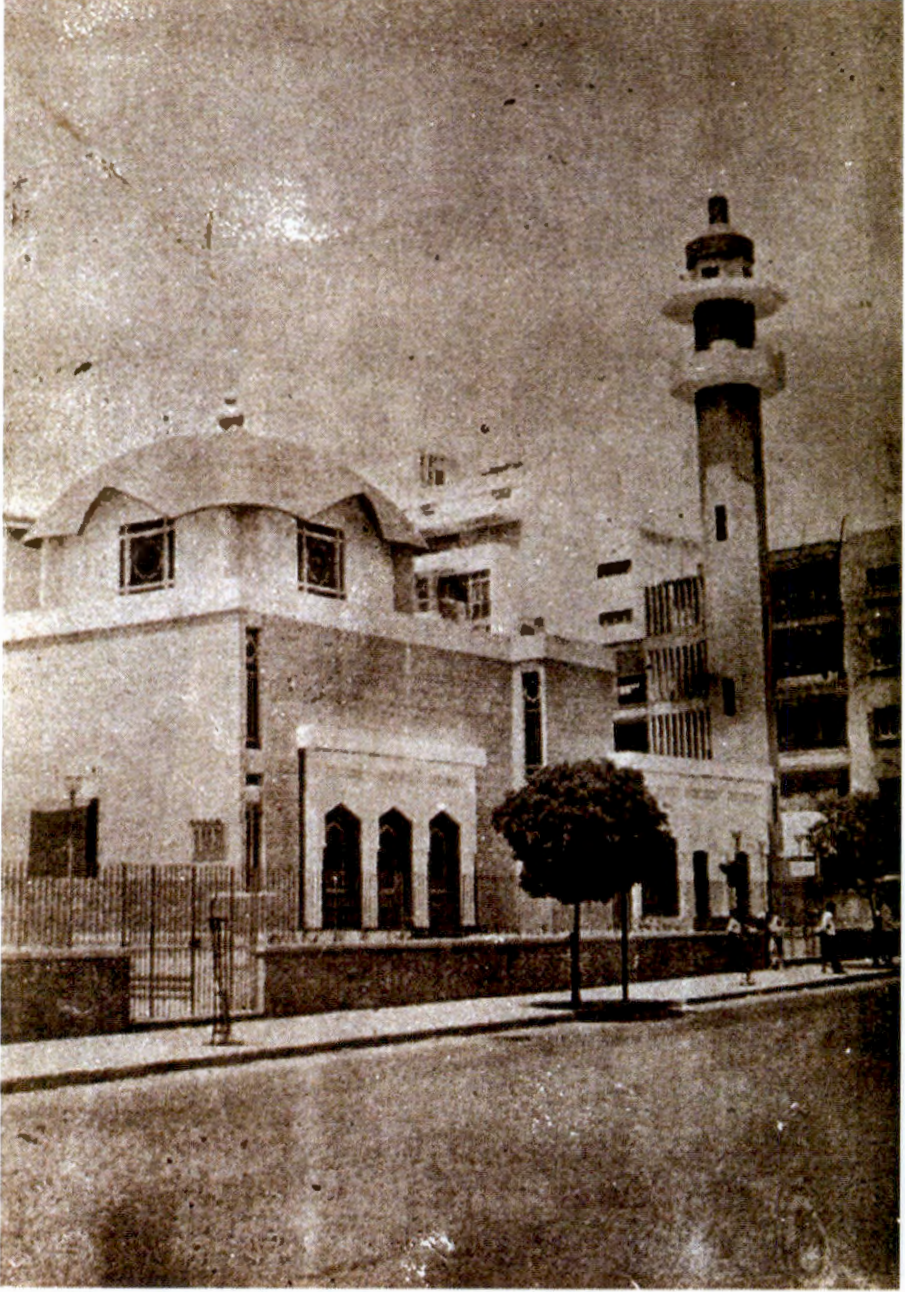
الجامع الأزهر - بالقاهرة - مصر



مسجد أوج شرخلي - منظر عام - طراز سلجوقي



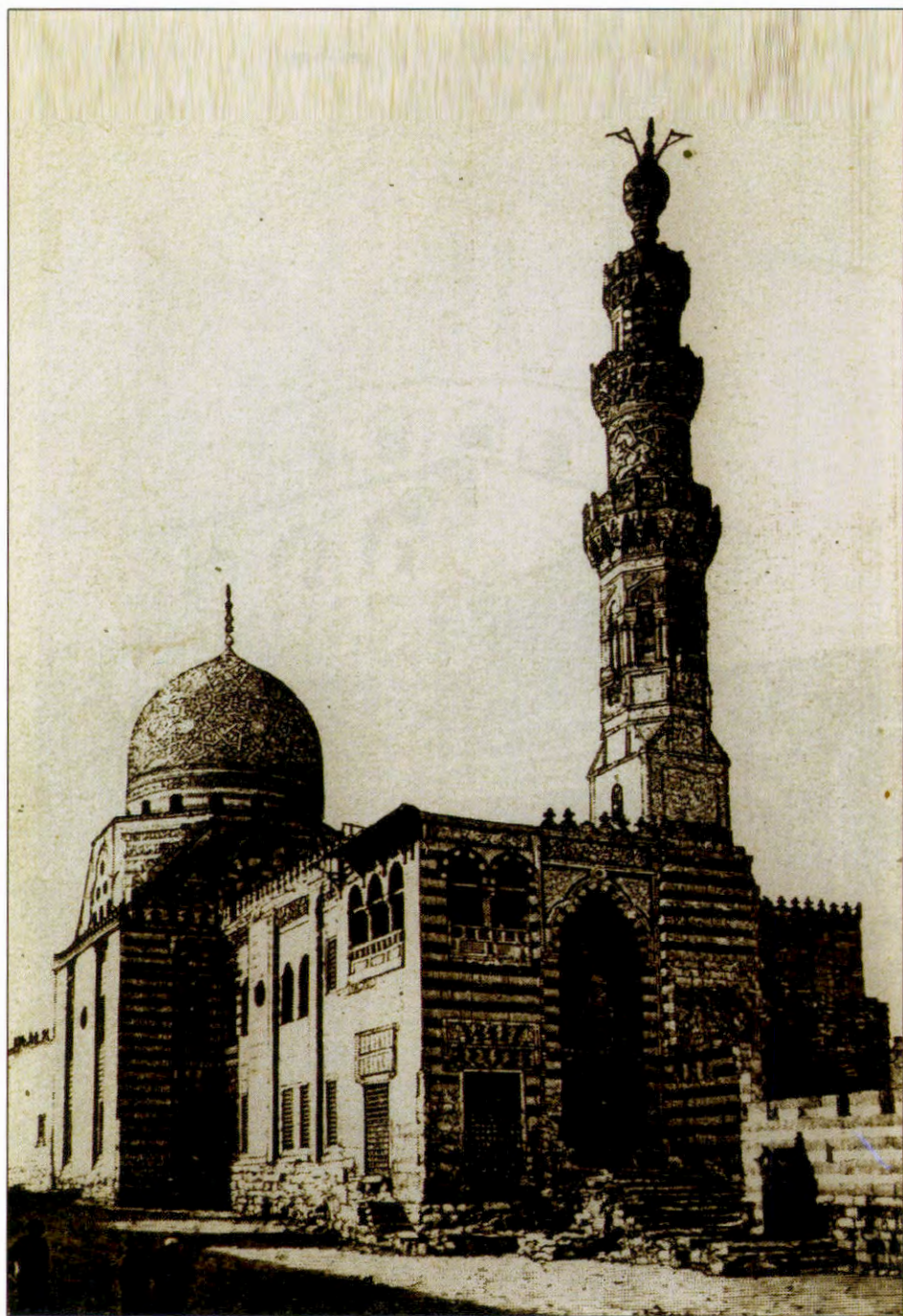
الجامع الأزرق في مزار شريف في بلخ - بأفغانستان



جامع الصفا - من مساجد الطائفة الإسلامية الشيعية في بيروت - لبنان



صومعة (منذنة) مسجد إشبيلية الجامع ، حُوِّلَت إلى برج النواقيس
للكتادرانية وتُسمَّى بالدَّوَّارَة أو (الخير الدا)



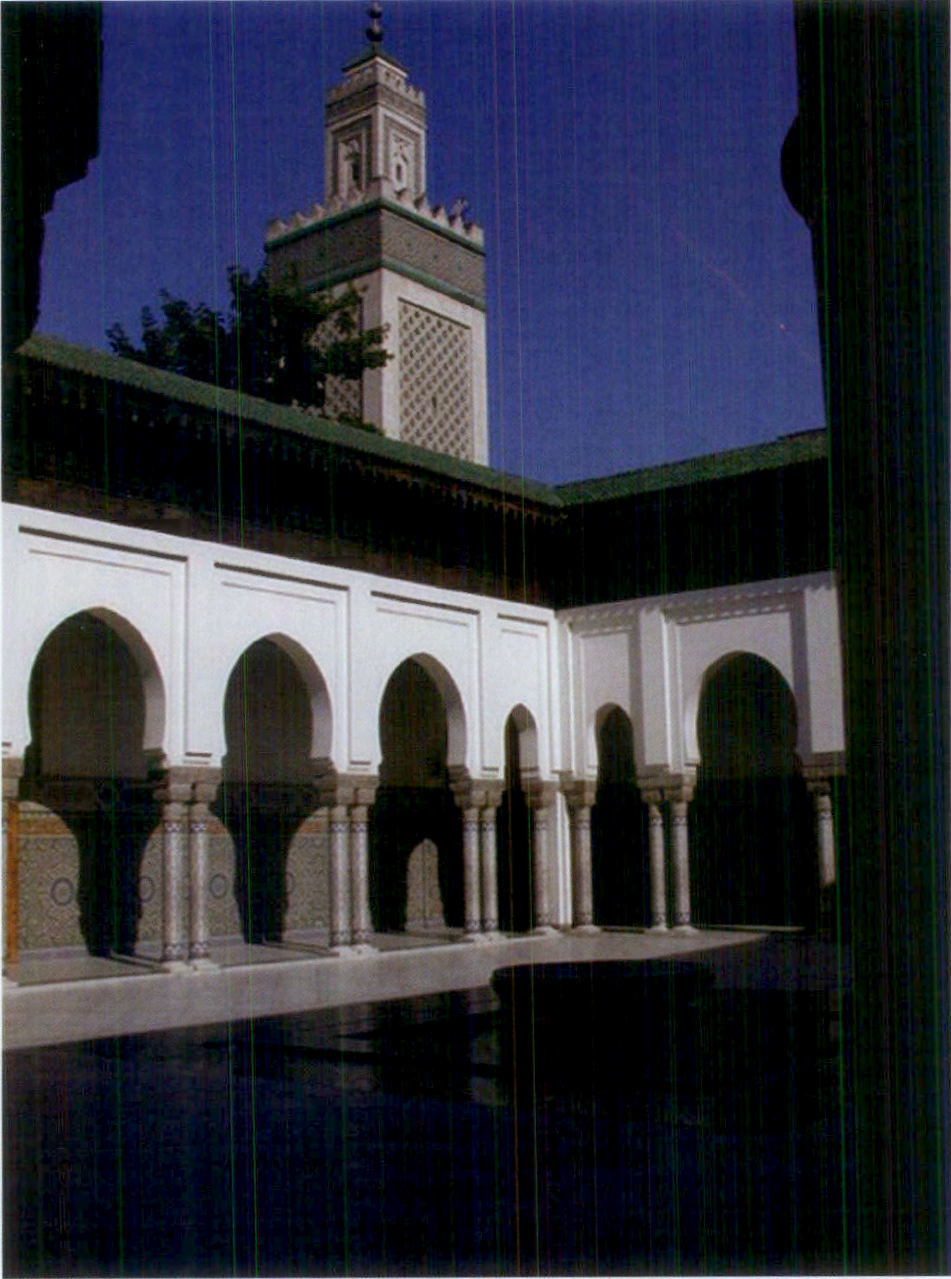
مسجد قايتباي - بالقاهرة - طراز مملوكي



مسجد سيدي عقبة في القيروان ،الواجهة وتبدو إحدي قبتي المسجد فوقها .

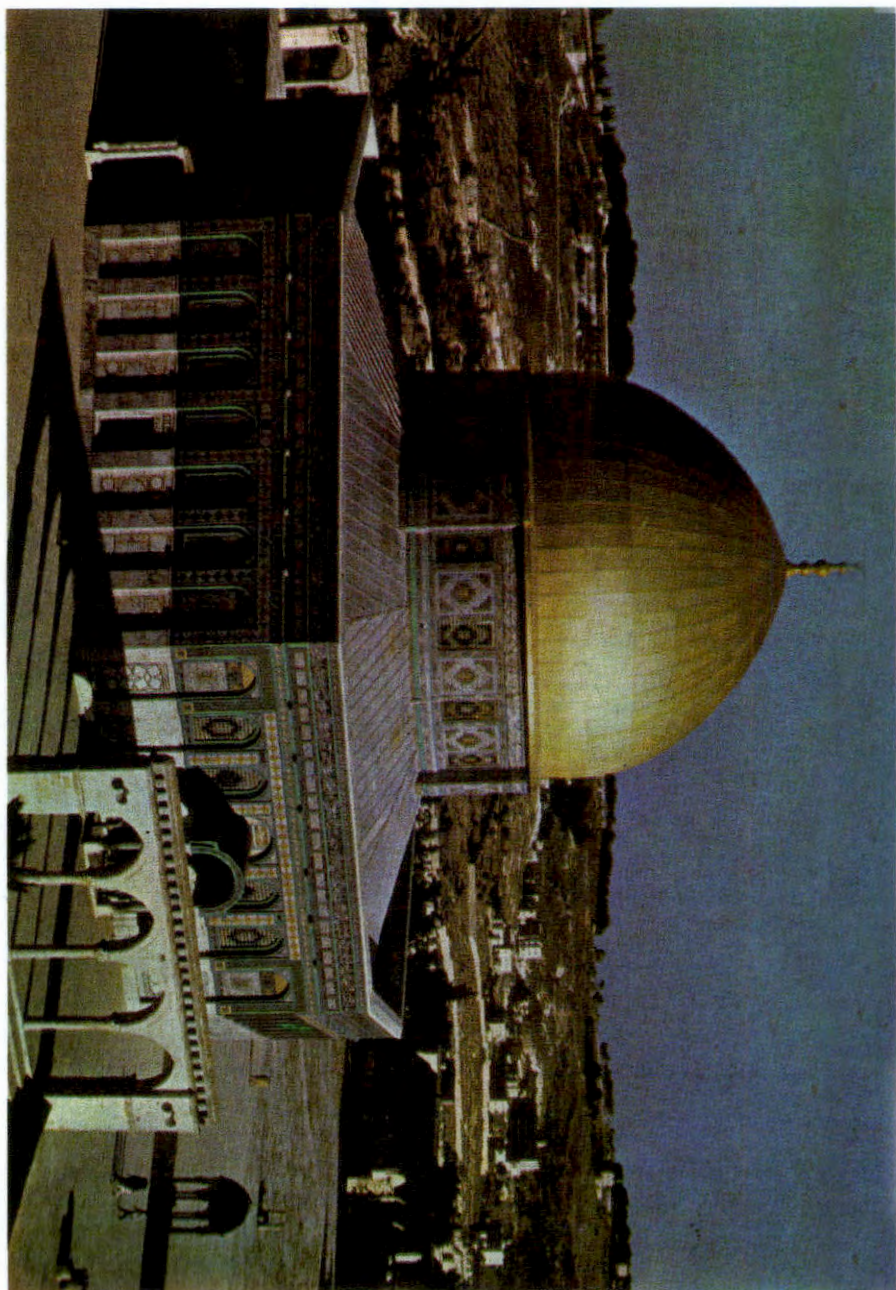


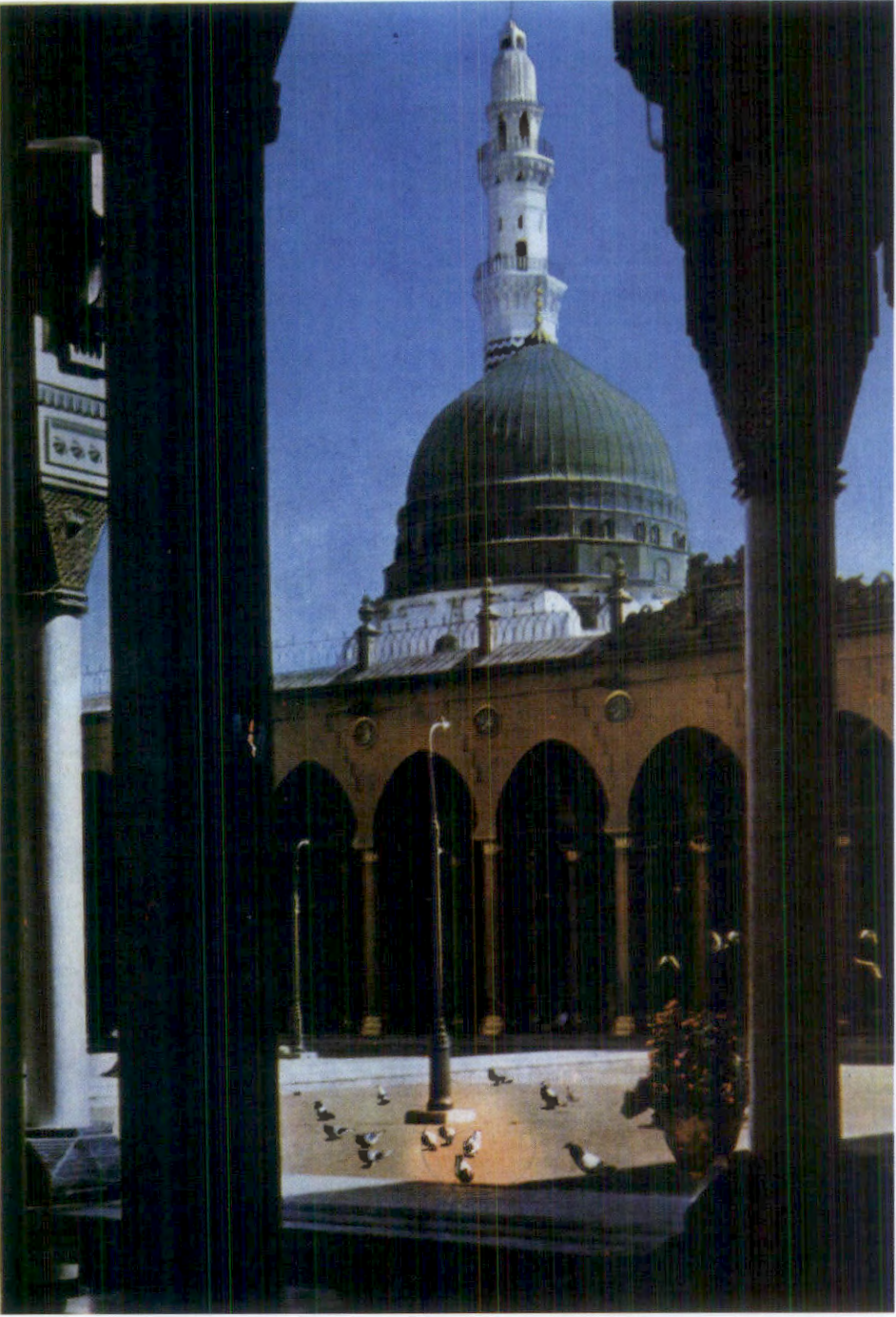
المحراب والمنبر في جامع المؤيد شيخ السلطان المملوكي



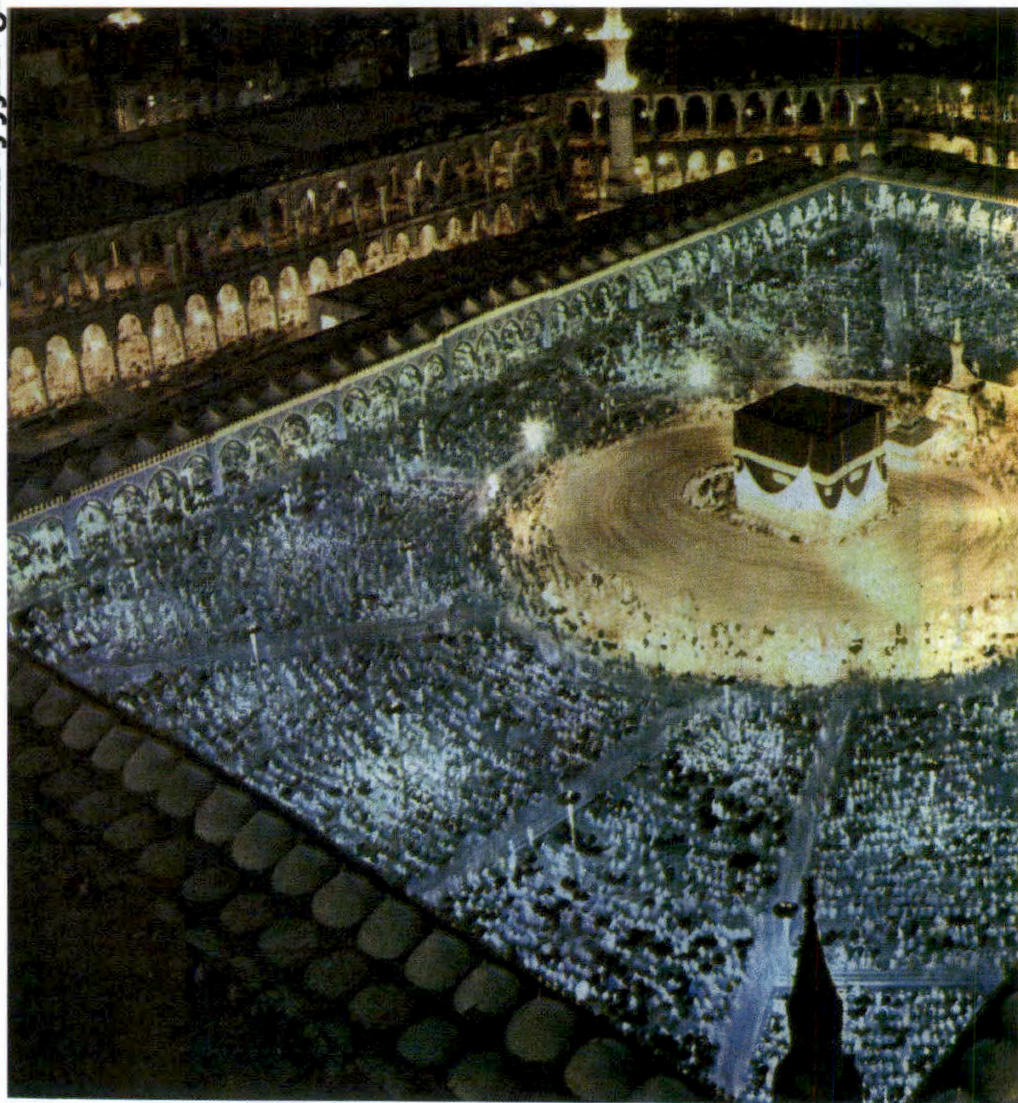
مسجد باريس - فرنسا

قبة الصخرة بالقدس الشريف - في فلسطين





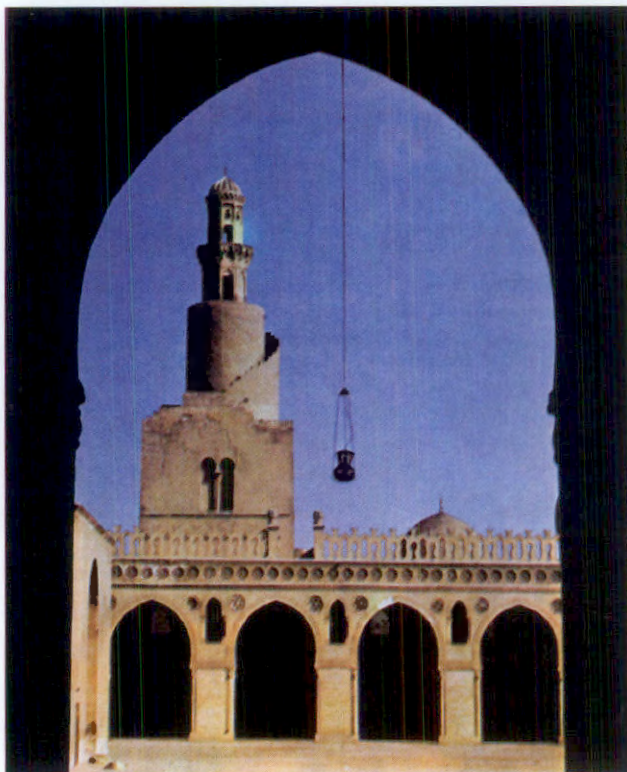
القبة الخضراء - بالمسجد النبوي الشريف - في المدينة المنورة



الكعبة المشرفة - بالمسجد الحرام - في مكة المكرمة



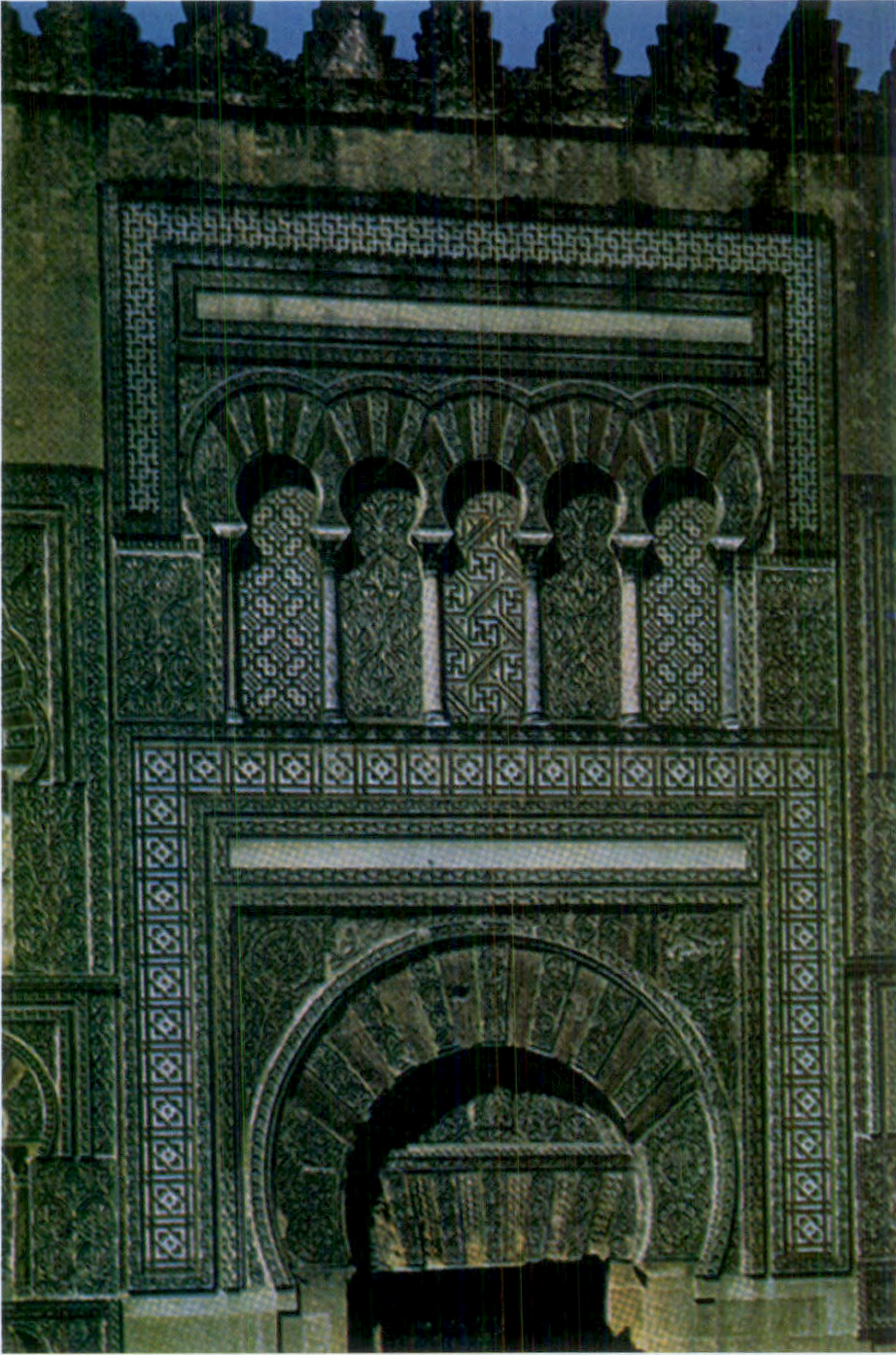
الجامع الأموي بدمشق - صورة لصحن المسجد وبيت الصلاة والمنذنة



جامع أحمد بن طولون في القسطنطينية (بالقاهرة / مصر) جانب من المجنبة الخلفية
وعقودها ورواقها مع المنذنة الحلزونية



المدخل الرئيسي لمسجد قرطبة الجامع - المؤدي الى الصحن المزين بأشجار النارج.



مسجد قرطبة الجامع : باب المغفرة - البوابة نفسها من طراز الخلافة .
أما زينة بقية الواجهة فمن الطراز المدجني .



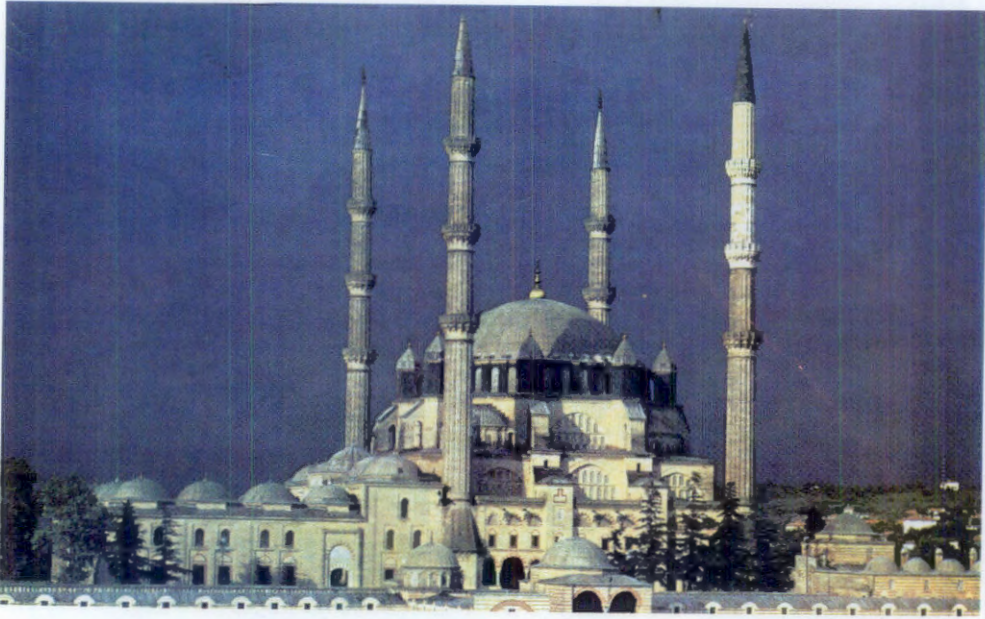
مسجد قرطبة الجامع :
أحد الأروقة - لاحظ العقود المزدوجة. وعشرة منها فريدة من نوعها في العالم



مسجد قرطبة الجامع: منظر آخر من بيت الصلاة - يظهر فيه جمال الأعمدة والعقود



مسجد قرطبة الجامع - المحراب وبلاطة المحراب



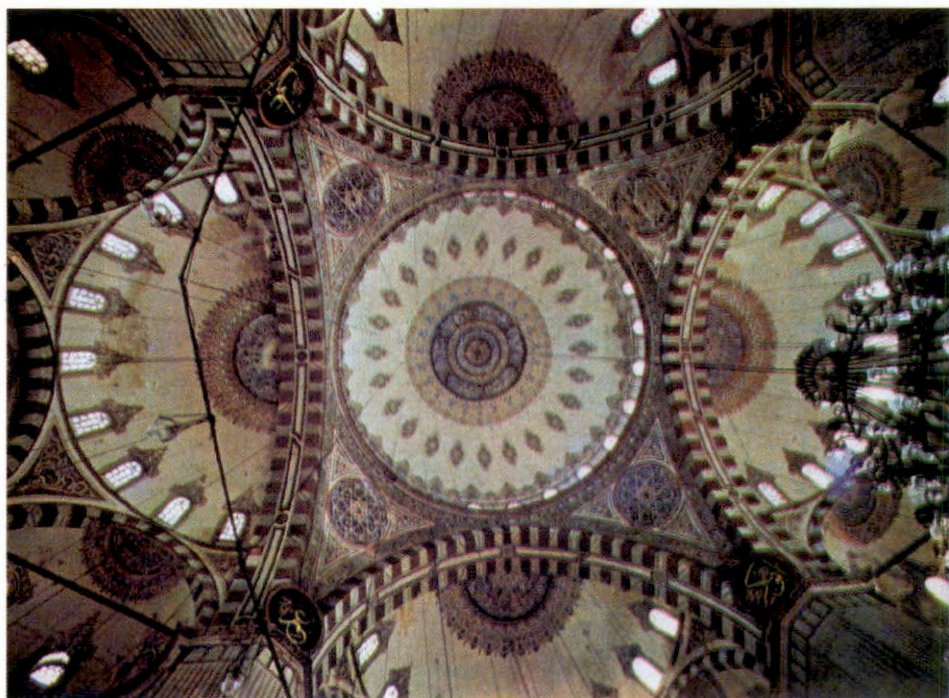
منظر خارجي لمسجد السلطان سليم في أردنة - تركيا



منظر عام لمسجد السلطان سليمان في استانبول - تركيا



منظر عام لمسجد شاه زاده في استانبول.. لاحظ القبة الوسطى وأنصاف القباب حولها



سقف بيت الصلاة في مسجد شاه زاده في استانبول



مسجدان متجاوران في القاهرة
مسجد السلطان حسن (على اليسار)
ومسجد الرفاعي (على اليمين)



مسجد صالح باي في الجزائر



مسجد الإمام موسى الكاظم - بالعراق



مسجد فاطمة - بالكويت



مسجد نور الإسلام في جمهورية سورينام شمال البرازيل



مسجد السيدة فاطمة الزهراء في مدينة قم الإيرانية



مسجد جيم في شترال - باكستان



واجهه مسجد الشاه
في أصفهان - إيران



منذنة مسجد الجامع في القيروان - تونس



منذنة مسجد أحمد بن طولون بالقاهرة

منذنتان فريدتان في هيتيهما :



منذنة مسجد جام في أفغانستان
بنيت في القرن الثاني عشر



منذنة مسجد السلطان سليمان في استانبول



منذنة مسجد السلطان حسن بالقاهرة



منذنة مسجد الكتبية في مدينة مراكش
بنيت في القرن الثاني عشر على يد الموحدين



منذنة مسجد صرفلي في أدرنه / تركيا



منذنة صرغمش - القاهرة



منبر جامع السلطان برقوق في القاهرة



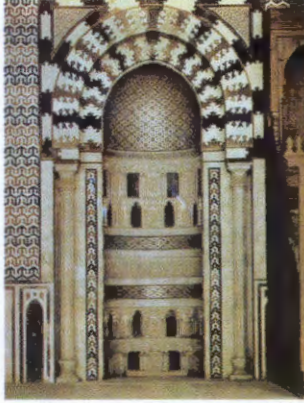
محراب مسجد جامع الأحمديّة حلب - سوريا



محراب مسجد خاتقاه في ناتنز - إيران



منبر جامع السلطان سليمان في استانبول



محراب مسجد الناصر محمد بن قلاوون
في القاهرة من الرخام المعشق ذي الألوان المختلفة



محراب مسجد مدرسة ابن يوسف
ويمتاز بزخارفه الجصية



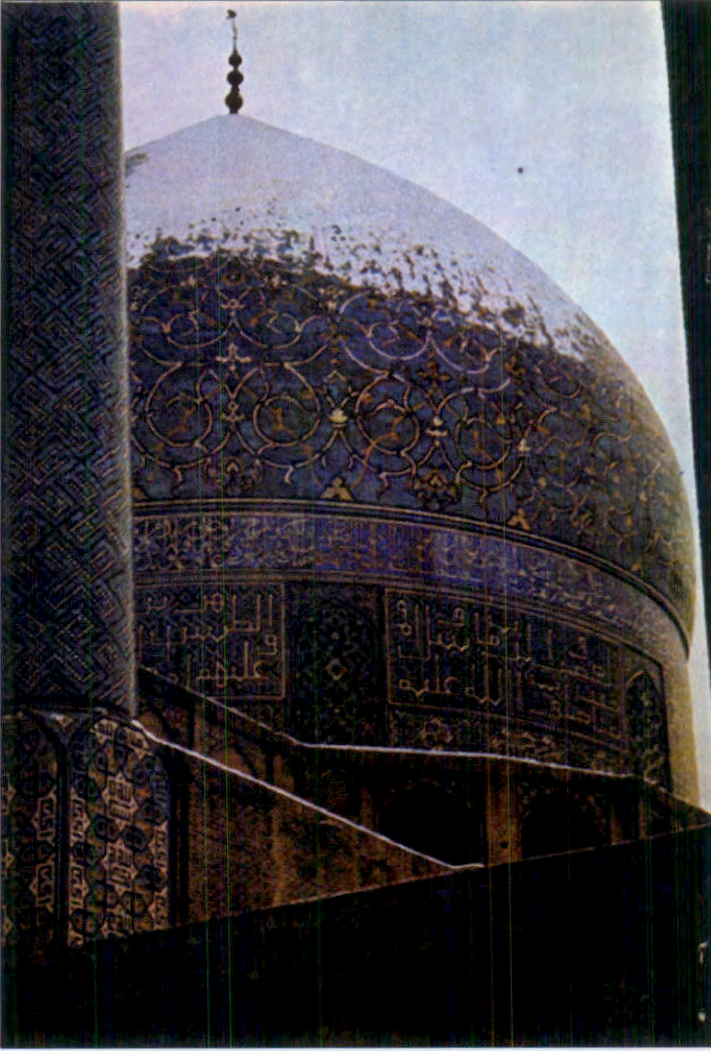
منبر خشبي بديع موجود في
متحف بستان في طهران



زخرفة المنبر الخشبي لمسجد القبروان الكبير
- تونس -



منذنة مسجد ترمكي في قونية



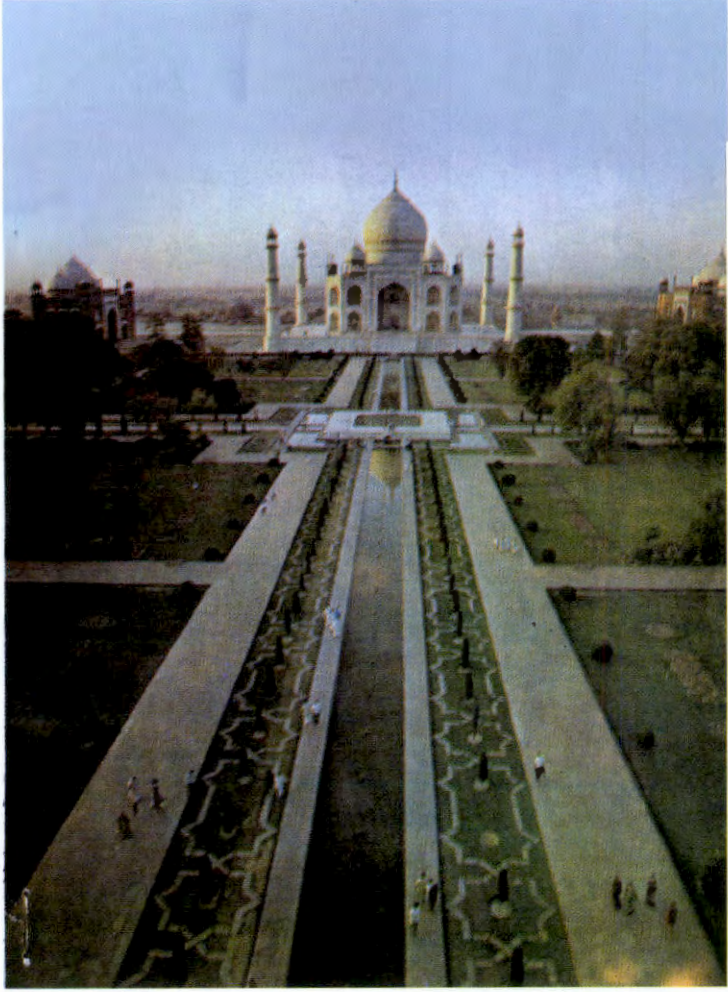
القبة الخارجية مع المنزن-مسجد الشاه في أصفهان بإيران



نقش بالقاشاني علي مئذنة مسجد جام .
أفغانستان - القرن الثاني عشر



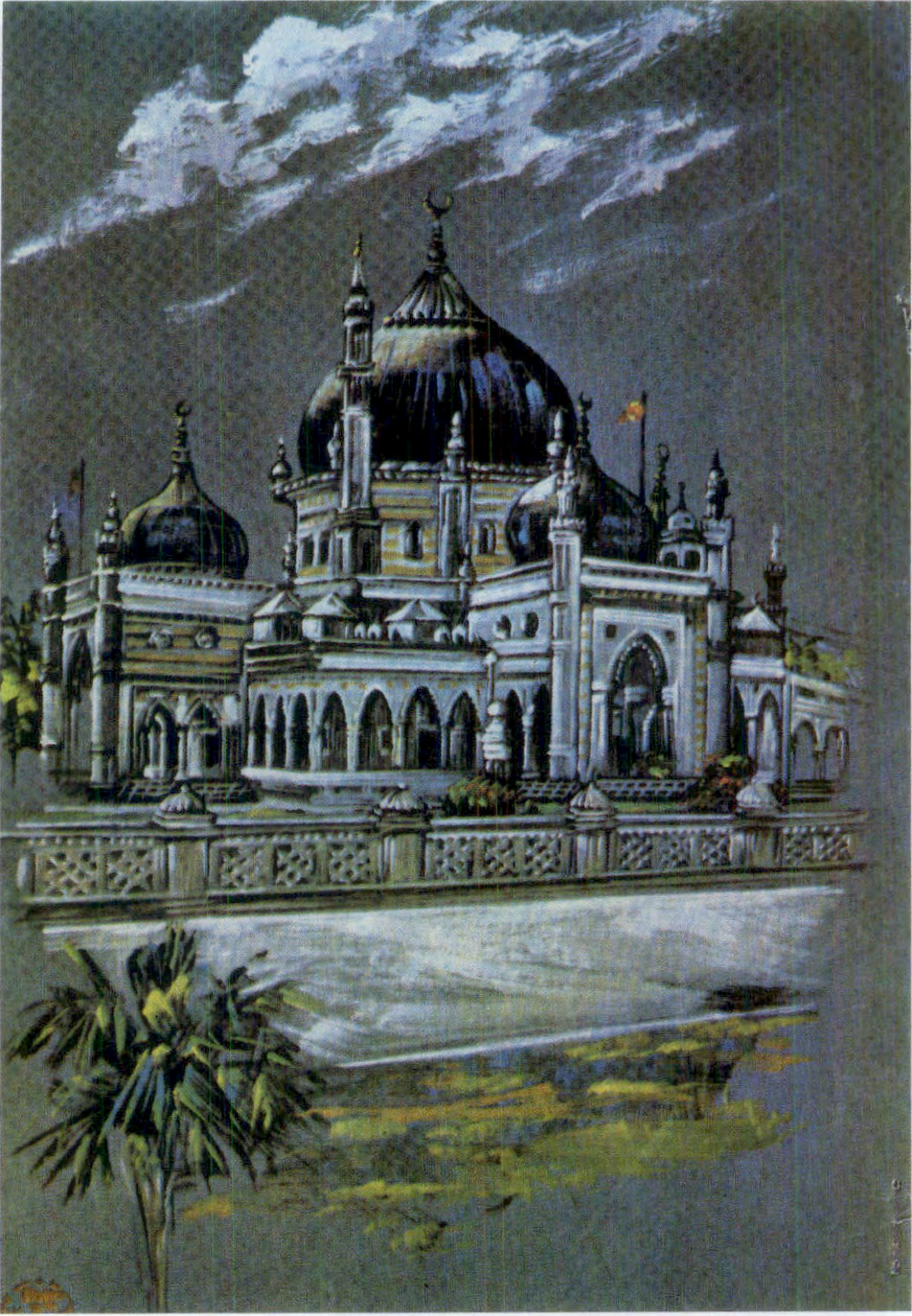
القبة البديعة التي تزين روضة
خواجه أبو نصر بارسي في أفغانستان



روضة التاج محل وحدائقها - أجرا - الهند



مسجد لندن الجديد



بطاقة من ماليزيا تحمل رسم مسجد تصوّره الرسّام وجمع فيه كل ما يمكن من جمال الفن الاسلامي



محتويات الكتاب



.....	مدخل	
٧	المساجد والتطور المعماري والفكري في الدين	
.....	مقدمة	
١٣	رحلة في عالم الإيمان والجمال	
.....	الفصل الأول	
٢١	* المسجد في القرآن الكريم:	
٢٣	- المساجد عامة	
٢٣	- مسجد قبل الإسلام	
٢٣	- من الذين لا يجوز لهم بناء المسجد ومن الذين يجوز لهم ؟	
٢٤	- أعداء المساجد	
٢٤	- مسجد الضرار ومسجد التقوى	
٢٤	- بعض أحكام المساجد	
٢٥	- من حكمة القرآن	
٢٥	- المسجد الحرام	
٢٧	- أسماء المسجد الحرام الواردة في القرآن	

..... الفصل الثاني

..... * المسجد في الحديث الشريف ٣١

..... الفصل الثالث

..... * دور المساجد في بناء الجماعة الإسلامية: ٣٩

..... - المساجد ركائز الجماعات الإسلامية ٤١

..... - المساجد ملك للجماعات الإسلامية ٤٤

..... - المساجد مراكز للعلم ومعاهد للدراسة ٤٦

..... - حقائق مهمة ٥١

..... - لابد من الإكثار من المساجد في بلاد الأطراف ٥٢

..... - المساجد ومظهر المسلمين ٥٣

..... الفصل الرابع

..... * ميلاد المساجد: ٥٥

..... - أصالة المسجد ٦٣

..... - مسجد الرسول في المدينة (أبو المساجد) ٦٤

..... - المساجد الجامعة الأولى ٧٤

..... • مسجد البصرة ٧٤

..... • مسجد الكوفة ٧٤

• مسجد الفسطاط ٧٤

• مسجد عقبة بن نافع في القيروان ٧٥

..... الفصل الخامس

* العناصر الرئيسية في عمارة المساجد: ٧٧

- بيت الصلاة ٧٩

- الصحن ٧٩

- القبلة ٨٠

- المحراب ٨٤

- المنبر ٩١

- بيت الصلاة والصحن ٩٥

- عن الميضاة ٩٩

- عن المقصورة ٩٩

..... الفصل السادس

* طُرُز المساجد (نظرة عامة): ١٠٣

- تصنيف كونل ١٠٥

- دور نشأة العمارة الإسلامية المساجدية ١٠٥

- الطراز الأموي ١٠٥

- ١٠٦ الطراز العباسي
- ١٠٦ الطراز الفاطمي في مصر
- ١٠٦ الطراز السلجوقي
- ١٠٦ الطراز الإيراني المغولي
- ١٠٧ الطراز المملوكي في مصر والشام
- ١٠٧ الطراز المغربي الأندلسي
- ١٠٨ الطراز الصفوي في إيران
- ١٠٩ الطراز المغولي في الهند
- ١١١ الطراز التركي العثماني
- ١٢٤ • هل يُمكن كتابة تاريخ العمارة الإسلامية ؟
- ١٢٩ • إلى أي حد وُفّق المعمارون المسلمون ؟
- ١٣٣ • العمارة الإسلامية ظلت دائماً فنّاً شعبياً ولهذا احتفظت بحيويتها

..... الفصل السابع

- ١٣٥ * المآذن والعقود والقباب (وعناصر مساجدية أُخرى) :
- ١٣٧ - المئذنة
- ١٤٤ - العقود
- ١٤٦ - القباب
- ١٤٩ - الأعمدة

- ١٥١ - الشَّرَافَات (أو عرائس السماء)
- ١٥٢ • عناصر معمارية مساجدية أُخرى :
- ١٥٣ - المقصورة
- ١٥٤ - الشمسيات والقمريات
- ١٥٥ - الشَّمَّاسَات
- ١٥٥ - الزخارف والحليات

..... الفصل الثامن

- ١٦٣ * أرض المساجد :
- ١٦٥ - كل بلاد الإسلام أرض مساجد
- ١٦٥ - غار حراء مسجد قبل الإسلام
- ١٦٦ - المسجد الحرام أول بيت وُضع للناس
- ١٦٦ - هيئة الحرم الحالية ترجع إلى أيام المماليك ثم الأتراك
- ١٦٩ - الحرم النبوي في المدينة
- ١٧١ - مسجد قباء ومساجد أخرى

..... الفصل التاسع

- ١٧٣ * المساجد العتيقة الألفية :
- ١٧٥ - لماذا تُسميها عتيقة وألفية ؟

- ١٨٠ مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط
- ١٨٢ مسجد قبة الصخرة
- ١٨٤ المسجد الجامع في القيروان
- ١٨٧ المسجد الأموي في دمشق
- ١٩٠ المسجد الأقصى
- ١٩٢ جامع القرويين في فاس
- ١٩٦ مسجد قرطبة الجامع

..... الفصل العاشر

- * الطرز المعمارية المساجدية الكبرى : ٢١١
- ١- الطراز المغربي : ٢١٧
- الجامع المرابطي في تلمسان ٢٢٠
- جامع تينملل ٢٢١
- جامع الكتبية في مراكش ٢٢٣
- مسجد حسان في رباط الفتح (سيمفونية لم تتم) ٢٢٤
- مسجد القصبه الجامع في إشبيلية ٢٢٥
- المساجد المغربية الأصيلة ٢٢٦
- المساجد المغربية والإيمان العميق ٢٢٩
- مسجد سيدي عُقبة ٢٣٠

- ٢٣١ - المساجد المغربية الأصيلة في منطقتي الزيبان ومزاب
- ٢٣٤ - مسجد المرابطين في مدينة الجزائر
- ٢٣٥ - مساجد بني عبد الواد في تلمسان
- ٢٣٧ - مسجد أبي مدين وروضته في بلدة العباد
- ٢٣٩ - مساجد مدينة الجزائر
- ٢٤١ - الفن المعماري التركي في الجزائر
- ٢٤١ - جامع علي بنشين في مدينة الجزائر
- ٢٤١ - جامع الحواتين
- ٢٤٢ - مسجد كمشاوة
- ٢٤٢ - مسجد صلاح باي في عتابة
- ٢٤٣ - مسجد سوق الغزال في قسنطينة
- ٢٤٤ ٢- الطراز الأندلسي :
- ٢٤٤ (أ) طراز الخلافة
- ٢٤٦ (ب) الطراز المستعربي
- ٢٤٦ (ج) الطراز المدجني
- ٢٤٩ ٣- الطراز المصري :
- ٢٤٩ - رصانة البناء ومتانة تأسيسه
- ٢٥٠ - المحافظة على وحدة فنية في البناء

- ٢٥٠ - الحرص على توازن الهيئة العامة للمبنى
- ٢٥٣ - مسجد ابن طولون
- ٢٥٣ - مسجد الحاكم بأمر الله
- ٢٥٤ - مسجد الصالح طلائع بن رزيك
- ٢٥٤ - جامع الجيوشي
- ٢٥٥ - الجامع الأحمر
- ٢٥٥ - روضة أبي منصور إسماعيل بن ثعلب
- ٢٥٦ - مسجد وروضة السلطان قايتباي بالقاهرة
- ٢٥٧ - مثالان من المجموعات المساجدية المصرية في العصر المملوكي
- ٢٥٩ - جامع قلاوون ، وجامع السلطان حسن
- ٢٦٤ ٤- الطراز التركي السلجوقي :
- ٢٦٨ - النهضة العمرانية في عصر السلاجقة
- ٢٦٨ - المدارس والروضات والمساجد
- ٢٦٩ - حُسن استخدام الأحجار
- ٢٧٠ - جودة الأجر الذي استخدمه المعماري هناك لا تقل عن جودة الحجارة..
- ٢٧٠ - التميز في طريقة استخدام الجص
- ٢٧١ - البراعة في استخدام الفخار والخزف ، وابتكار خزف الفسيفساء
- - استخدام التصوير على الخشب أو المعدن والزجاج والرخام والمرمر ورسم
- ٢٧٢ أشكال نباتية رائعة (في نطاق ضيق)

- ٢٧٢ - مُنشآت هذا الطراز تمتاز بالبوابات الضخمة ذات العقود العالية المُدببة ...
- ٢٧٣ - جامع ومدرسة إنجي في دفريجي بالأناضول.....
- ٢٧٥ - قبة ضريح أولجايتو خدابنده في سلطانية.....
- ٢٧٦ - جامع ومنارة إنجي في قونية.....
- ٢٧٦ - جامع جوك ومدرسته في سيواس.....
- ٢٧٧ - ضريح تيمور (المسمّى جور أمير) في سمرقند.....
- ٢٧٨ - ضريح جوجوق بيكا في سمرقند.....
- ٢٧٨ - أرض تموت فيها المساجد.....
- ٢٧٩ - علماء بُخارى وسمرقند على قبر الإمام البُخاري.....
- ٢٨١ - قبر الإمام البُخاري.....
- ٢٨٣ - على قبر تيمور لك في سمرقند.....
- ٢٨٥ - مسجد الخضر (عليه السلام).....
- ٢٨٧ - ٥- الطراز الهندي :
- ٢٩٥ - الروضات
- ٢٩٩ - ٦- الطراز الإيراني الصفوي :
- ٢٩٩ - المسجد الجامع (أو مسجد الجمعة) في إصفاهان (أصفهان)
- ٣٠١ - النهضة الإيرانية في عصر الصفويين.....
- ٣٠٢ - مسجد شاه في إصفاهان.....

- ٣٠٤ مسجد الشيخ لطف الله -
- ٣٠٤ محراب مسجد جامع في كرمان -
- ٣٠٥ الدور الأخير للفن الإيراني الصفوي -
- ٣٠٦ المسجد الجامع العتيق في شیراز -
- ٣٠٧ روضة شاهي سراج -
- ٣٠٨ مسجد الوكيل في شیراز -

..... الفصل الحادي عشر

- ٣٠٩ * مساجد اليوم والغد :
- ٣١٤ - الحاجة إلى وضع خطة إنشائية مساجدية عامة -
- ٣١٨ - الاتجاهات الحديثة في عمارة المساجد -
- ٣٢٤ - المدرسة المصرية - المعماري ماريو روسي -
- ٣٣٠ - الحرم المكي الجديد والمسجد النبوي في المدينة -
- ٣٣٠ - المدرسة المغربية الحديثة -
- ٣٣٣ - مدرسة جنوب شرق آسيا (ماليزيا وإندونيسيا) -
- ٣٣٥ - الحاجة إلى إنشاء المساجد في الفلين -
- ٣٣٥ - مساجد إفريقيا المدارية والاستوائية -
- ٣٣٧ - نشاط واسع في بناء المساجد -
- ٣٣٨ - المساجد مسؤولية الجماعات المحلية -

- ٣٣٨ - حركة إنشاء المساجد في الغرب الأوروبي والأمريكي وفي أستراليا.....
- ٣٣٩ - مسجد لندن الجديد ومسجدها القديم.....
- ٣٤١ - مسجد باريس.....
- ٣٤٣ - مساجد يوغوسلافيا.....
- ٣٤٤ - المساجد في ألمانيا.....
- ٣٤٥ - بقية المساجد الأوروبية.....
- ٣٤٦ - مسجد واشنطن (واشنطن).....
- ٣٥١ - واجبنا حيال المساجد (آراء ومُقترحات).....
- ٣٥٣ * خاتمة.....
- ٣٥٥ * مراجع الكتاب.....

٣٦١ فهرس الكتاب.....

- ٣٦٣ ١- فهرس الآيات القرآنية.....
- ٣٦٥ ٢- فهرس الأحاديث الشريفة.....
- ٣٦٨ ٣- فهرس المأثورات والأقوال.....
- ٣٧٠ ٤- فهرس المساجد.....
- ٣٧٧ ٥- فهرس المنشآت المعمارية.....
- ٣٨٣ ٦- فهرس الطُّرُز المعمارية.....
- ٣٨٥ ٧- فهرس العناصر المعمارية والزخرفية.....

- ٣٩٨ ٨- فهرس الأعلام
- ٤٠٩ ٩- فهرس الأمم والأجناس والقبائل والآل والطوائف والجماعات
- ٤١٤ ١٠- فهرس الدول والبلاد والأماكن والمعالم الجغرافية
- ٤٢٦ ١١- فهرس المصطلحات
- ٤٣٢ ١٢- فهرس الديانات والعقائد والمذاهب
- ٤٣٤ ١٣- فهرس العصور
- ١٤- فهرس الفتوحات والغزوات والأحلاف والمعارك والحروب والحملات
- ٤٣٥ والاستعمار والثورات والانقلابات
- ٤٣٦ ١٥- فهرس المدارس والمعاهد والجامعات ومراكز الدراسات والمكتبات
- ١٦- فهرس الحكومات والوزارات والمصالح الحكومية والبلديات واللجان
- والمجالس والهيئات والمتاحف والجمعيات العلمية والفنية والمؤسسات
- ٤٣٧ والشركات والمؤتمرات والمراكز الثقافية والاجتماعية والمنظمات الدولية
- ٤٣٨ ١٧- فهرس الكتب والمطبوعات والوثائق واللوحات الفنية
- ٤٤٠ ١٨- فهرس الأشجار والنخيل
- ٤٤١ * ملحق الصور والمخططات
- ٤٨١ * محتويات الكتاب

كتب للمؤلف ملك للدار

- ١- معالم تاريخ المغرب والأندلس.
- ٢- تاريخ موجز للفكر العربى.
- ٣- المساجد.
- ٤- الإمبراطورية البيزنطية.
- ٥- أحاديث عن الإسلام.
- ٦- الشعر الأندلسى.
- ٧- تنقية أصول التاريخ الإسلامى.
- ٨- كتب وكتّاب.
- ٩- طريق النبوة والرسالة.
- ١٠- دراسات فى ثورة ١٩١٩.
- ١١- النزاع والتخاصم بين بنى أمية
وبنى هاشم.
- ١٢- ابن بطوطة ورحلاته.
- ١٣- الحلة السراء.
- ١٤- رحلة الأندلس.
- ١٥- فجر الأندلس.
- ١٦- تاريخ قريش.
- ١٧- تاريخ الدولة العربية.
- ١٨- موسوعة تاريخ المغرب العربى.
- ١٩- ظلمات بعضها فوق بعض.
- ٢٠- شيوخ العصر فى الأندلس.
- ٢١- كيف نفهم اليهود؟
- ٢٢- التاريخ والمؤرخون.
- ٢٣- صور من البطولات العربية والأجنبية.
- ٢٤- أحاديث منتصف الليل.
- ٢٥- دستور أمة الإسلام.
- ٢٦- الإسلام فى عشرين آية.
- ٢٧- الزفاف الدامى (مسرحة)
- ٢٨- مهر العروسة (رواية)
- ٢٩- دموع باريس (رواية)
- ٣٠- أهلاً... وسهلاً (رواية)
- ٣١- غداً تولد شمس أخرى (رواية)
- ٣٢- عصر الفتوات (رواية)
- ٣٣- الجارية والشاعر (رواية)
- ٣٤- سلسلة حكايات أندلسية (أطفال)

